العقل وفهم القرآن

الحارث بن أسد المحاسبي

قدّم له وحقّق نصوصه

د. حسين القوتلي



العقل وفهم القرآن

الحارث بن أسد المحاسبي
(١٦٥ - ٢٤٣هـ)

قدّم له، وحقّق نصوصه
حسين القوّتلي

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٣٩١ هـ — ١٩٧١ م

الإهداء

الى صاحب السماحة مفتي الجمهورية اللبنانية الشيخ

حسن خالد حفظه الله ورعاه ، تحقيقاً لوعد ، وسيراً

على درب ، واسهاماً متواضعاً مني في تعزيز

رسالة الاسلام التي يحمل سماحته لواءها في لبنان ، بكل

ما أوتي من اخلاص لله ، وتجرد عن الهوى ومحبة لبني البشر .

حسين القوتلي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لم يكن يخطر يوماً ببالي أن أعـد دراسة عن الحارث بن أسد المحاسبي لأسباب كثيرة – أولها انعدام صلتي بآثاره أو بما كتب عنه. وثانيها – انقطاعي لفترة طويلة عن البحث الفلسفي بعد تخرجي في جامعة القاهرة عام ١٩٥٥ على الرغم من أنني قضيت هذه الفترة بتدريس الفلسفة في الجامعة اللبنانية – وما زلت – وفي بعض الثانويات في بيروت . فإلى مهنة تدريس الفلسفة في الأساس ، والتي لم يبق لي منها بحكم عملي الحالي، إلا بضع ساعات في الأسبوع أدرّسها في الجامعة اللبنانية ، يعود الفضل في إعداد مثل هذه الدراسة .

ولقد كان الاتجاه عندي منصباً على الفلسفة الحديثة في الغرب ، فكنت أعتقد بأنني سأكتب فيها بحثاً عندما تتيح لي زحمة المسؤوليات الإداريـة والمشاغل الاجتماعية فرصة لنيل درجة علمية أعلى ، غير أن هـذه الساعات القليلة التي ما زلت ملتزماً خلالها بتدريس الفلسفة في الجامعة اللبنانيـة ، أتاحت لي فرصة ، سوف تبقى في نفسي حاملة أطيب الأثر ، وأجمل التقدير ، نتيجة لاتصالي المباشر بهذا الجو العلمي البحت ، واتصـالي اليومي ببعض الأساتذة الذين أكن لهم كل احترام وتقدير ، وأولهم الأستاذ الدكتور أحمد

مكي عميد كلية الآداب الأسبق، واستاذ تطور الفكر فيها، الذي كان له الفضل في عودتي إلى هذا الجو العلمي الصافي عندما اقترح اسمي لأكون من بين أفراد هيئة التدريس في كلية الآداب، في الجامعة اللبنانية، منذ سبع سنوات. وثانيهم حضرة الأب الدكتور فريد جبر الذي سررت بزمالته الفلسفية بالقدر الذي سررت بتفضيله لي البحث « في الفكر العربي » –على حد تعبيره– على البحث في الفلسفة الحديثة كما كنت أرى لنفسي . ولقد سرني أكثر أن إشراف الدكتور جبر على هذه الرسالة كان يتسم بالروح العلمي الحق ، بما يتميز به من موضوعية ، ودقة ، وطول أناة . وثالثهم الأستاذ الدكتور كمال الحاج عميد كلية الآداب السابق، ورئيس قسم الفلسفة فيها الذي كان يشجعني على الاستزادة ومتابعة التحصيل .

وهكذا فلقد اقترح عليَّ الدكتور فريد جبر أن أحقق مخطوطاً للحارث بن أسد المحاسبي هو مخطوط « العقل » الذي ذكره صديقه – وصديقي فيما بعد – الأستاذ الدكتور جوزف فان إس أستاذ اللغة والتاريخ العربي في جامعة توبنغن في المانيا في كتابه الخاص عن «المحاسبي» وهو باللغة الألمانية واسمه « العالم الفكري للحارث المحاسبي – بون – ١٩٦١ » . ولقد علم الدكتور جبر أن الأستاذ فان إس كان قد صور مخطوطات كثيرة للحارث فكتب إليه عن طريق معهد الاستشراق الألماني في بيروت يتمنى عليه إرسال صورة عن المخطوط ، فأرسل إليه بمخطوط العقل كما أرسل إليه مخطوطات أخرى للحارث ، بعضها نشر وبعضها لم ينشر ، ومن بينها كان المخطوط القيم « فهم القرآن » .

وأرى لزاماً عليَّ هنا أن أنوه بالمساعدة المشكورة التي كنت ألقاها في زياراتي المتكررة لمعهد الاستشراق الألماني في بيروت ، حيث كنت أجد الاندفاع العلمي الخالص لوجه العلم من جميع العاملين في هذا المركز الناشط وعلى رأسهم الدكتور اسطفان فيلد؛ ولقد تسنى لي خلال بعض هذه الزيارات أن

أقابل الأستاذ فان إس فأفيد منه في كثير من وجوه البحث الذي كنت بصدد إعداده .

وكان الرأي أن اكتفي بتحقيق كتاب العقل [١] إلا انني بعد مطالعتي لمخطوط « فهم القرآن » وجدت ارتباطاً وثيقاً بين المخطوطين مما جعلني أفضل تحقيقها ونشرهما معاً .

أما مخطوط العقل فهو من موجودات مكتبة جار الله في اسطنبول ضمن مجموعة تحت رقم ١١٠١ ويقع المخطوط في عشرين صفحة مع صفحتي البداية والنهايه بقياسي ٥و١٣×٥و٩ سم، وفي الصفحة عشرون سطراً وهي مكتوبة بالخط النسخي العادي . وأعتقد بأن هذه النسخة هي النسخة الوحيدة .

وأما مخطوط « منهم القرآن » فهو من موجودات المكتبة السليمية في أدرنة بتركيا وتحمل الرقم ٩٥١ ويقع في زهاء مئة صفحة بقياس ١٣×٨ وفي الصفحة ثلاثة وعشرون سطراً وهي أيضاً مكتوبة بالخط النسخي العادي . وهذه النسخة أيضاً هي النسخة الوحيدة الباقية كما ذكر لي الأستاذ فان إس .

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة الموجزة إلا أن أنوه بالمساعدة القيمة التي لقيتها من المجموعة الخيرة من العلماء الشباب الذين وجدت نفسي عاملاً في وسطهم في المديرية العامة لشؤون الإفتاء،فما كنت أطلب مرجعاً إلا وجدته، ولا رأياً فقهياً إلا حظيت به ، ولا بد لي من أن أخص بالذكر منهم الأستاذ رضوان السيد سكرتير تحرير مجلة الفكر الإسلامي الصادرة عن دار الفتوى الذي أضاف إلى جهوده التي ذكرتُ ، جهده أيضاً في دفع هذه الدراسة إلى المطبعة وفي تصحيحها وإخراجها ووضع فهارسها بالشكل الذي هي عليه .

بيروت في ١٩ صفر ١٣٩١ هـ-١٥/٤/١٩٧١ م حسين القوتلي

---

(١) خلال الفترة التي كنت منكباً فيها على إعداد هذه الدراسة نشر الأستاذ أحمد عطا في القاهرة كتاب العقل للحارث ولكنه تضمن كثيراً من السهو والخطأ والاجتهادات الشخصية في تغيير النص مما لم أوافقه عليها،ويستطيع القارىء اكتشاف ذلك كله بالمقارنة بين هذه الدراسة وبين تحقيقه الذي جاء بعنوان « المسائل في أعمال القلوب والجوارح والعقل » .

الفصل الأول

الحارث المحاسبي

حياته ومذهبه العقلي

العصر والتيارات الفكرية :

في عام ١٣٢ للهجرة سقطت الخلافة الأموية على نهر الزاب تحت ضربات الشعوبية الزاحفة من خراسان . وكانت هذه الشعوبية مدفوعة بعوامل عدة ، أهمها :

عصبية الأمويين للعرب ، واحتقارهم للموالي ، وذهاب الفرس مذهب التشيع وقولهم بالحق الالهي لآل البيت في الخلافة .

غير أن الانتفاضة الحضارية الفارسية كانت من أهم الأسباب التي عمقت شقة العصبية ، وزادت من حدة الصراع ، فقد حاولت هذه الانتفاضة الحضارية الوقوف في وجه الحضارة الجديدة التي حملها الفاتحون ، فجاءت تحمل مما لدى الفرس من عقائد دينية وتقاليد سياسية ، وعادت اجتماعية ، فكان ذلك كله ثوباً جديداً خلعته حضارة الفرس على حضارة العرب ، مع حرص كلي على الا يكون في هذا الثوب الجديد خروج سافر على المضامين

العقيدية والسياسية والاجتماعية التي عرفها هؤلاء .

ولقد كان من الطبيعي أن تساعد على ذلك حركات فكرية ومذهبية نشأت لدى هؤلاء المتذمرين، وكان من بينها حركة تمكنت، مما لم تتمكن منه حركات عنيفة من قبل فأسقطت الدولة الأموية ، بعد أن عجز عن إسقاطها الشيعة العرب ، بزعامة الحسين أيام يزيد بن معاوية (٦١ – ٦٥ هـ) ، ثم بزعامة زيد بن علي بن الحسين وابنه يحيى أيام هشام بن عبد الملك (١٠٥ – ١٢٥ هـ) .

واذا كانت ثورة الشيعة قد انطفأت على هذا الشكل أيام الأمويين هؤلاء، فان ثورة القراء أيام عبد الملك بن مروان (٨٠ هـ) وثورات الخوارج المتتالية أيام عبد الملك وابنه الوليد ، ومروان بن محمد ، قد لقيت على أيدي الأمويين أيضاً ذلك المصير نفسه .

من هنا يتضح لنا أن الحكم الأموي كان يخوض صراعات مذهبية وفكرية على جبهات عدة ، ففي الوقت الذي بدأ فيه الشيعة يركزون دعائم مذهبهم في العقيدة والتشريع ، كان معبد الجهني وابن يسار ، تلميذا الحسن البصري، يدعوان الى حرية الارادة ، ويقولان باختيار الانسان لافعاله ، ثم يثوران مع من ثار من القرّاء على الأمويين الذين دعوا الى مذهب الجبر . ويحتدم الصراع بين المذهبين ، مذهب حرية الارادة ، ومذهب الجبر فيتطرف أصحاب هذا وذاك غاية التطرف ، فيقول أصحاب المذهب الأول بأنه « لا قدر والأمر أنف » [1] .

ويقول أصحاب المذهب الثاني بالجبر في كل شيء . ونحن نرى على رأس هؤلاء الجهم بن صفوان يذهب هذا المذهب ، بل هو تجاوز ذلك الى التأويل

---

(١) أي ان الله لا يقدر حدوث الأفعال ، وهو لا يعلمها إلا بعد حدوثها .

العقلي المتطرف لآي القرآن وظاهر السنة ، كما فعل استاذه الجعد بن درهم في سبيل تدعيم مذهب الجبر وتثبيت أركانه .

وفي خضم هذا الصراع بين الفرق المتعاركة وقف فريقان : فريق سلبي آثر السلامة فانسحب تاركاً الأمر في الفصل بين المتخاصمين الى الله في يوم الدين ، وهو فريق المرجئة .

وفريق آخر آثر تحديد موقف ايجابي معتدل من هذا الصراع ، وهو فريق أهل السنة والجماعة ، فحمل لواء الدعوة بزعامة الحسن البصري الى طريق وسط بين الفريقين .

وجاء القرن الثاني الهجري كان الصراع العقيدي والاجتماعي والاقتصادي وقد تمخض عن ولادة فرقة جديدة انطلقت من مدرسة الحسن البصري عُرفت فيما بعد بفرقة المعتزلة التي تزعمها واصل بن عطاء (— ١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (—١٤٤ هـ) ولقد حاولت هذه الفرقة أن تذهب مذهباً وسطاً بالفعل، لكن على أسس غير تلك التي اتخذتها لنفسها جماعات أهل السنة. فقد أخذت فرقة المعتزلة عن الجهمية مبدأ التأويل العقلي ، كما أخذت عن القدرية الأوائل القول بالاختيار ، فمثلت روح الحضارة الجديدة التي قامت على أساسها الدولة العباسية ، وسيطرت على القرن الأول من حكمها .

وبينما كانت دعائم الاعتزال تتركز ، كان الاتجاه السني ، بعيداً عن هؤلاء ، يستمر في حفر قناته ، ويعمقها ، في العقيدة والتشريع ، كما ظهر ذلك في مذاهب الفقهاء الثلاثة :أبي حنيفة (—١٥٠ هـ) ومالك (— ١٧٩ هـ) والشافعي (—٢٠٤ هـ) ومذاهب رجال الحديث المعتدلين ثم طوائف الزهاد والعباد الذين انطلقوا من مدرسة الحسن البصري وساروا على خطاه .

واذا كانت مدرسة الحسن البصري في الزهد والعبادة تقوم على عنصر

التوجه الى الله خوفاً من ناره وطمعاً في جنته ، واذا كانت رابعة قد توجهت الى الله محبة له وعشقاً لذاته ، فان اتجاهات الزهد والعبادة تطورت فيما بعد، مع نمو حركة التصوف ، الى طرائق في السلوك والاتجاهات ، التي جاءت متأثرة –من غير شك– ،بدرجة متفاوتة الشدة عند أصحاب هذا المذهب، ببعض الديانات والحضارات الأخرى كالنصرانية والمجوسية والهندوكية والافلوطينية .

المحاسبي نشأته ودراسته :

في هذا الجو من الصراع العنيف في الآراء الثلاث ولد الحارث بن أسد المحاسبي ونشأ وتلقى العلم . ورغم الصراع المذهبي العنيف الذي كانت تشهده مدن الامصار بين الصوفية والمعتزلة ورجال الفقه والحديث فقد خيم على القرن الأول من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ – ٢٤٧ هـ) عهد من الهدوء والاستقرار والازدهار لم يقطعه إلا فتنة الخلافة بين الأمين والمأمون (١٩٥ – ١٩٨ هـ) ثم استمر مرة أخرى حتى مقتل المتوكل على يد الأتراك (٢٤٧ هـ) .

وكان مولد الحارث في جو المنازعات الفكرية الأول،في البصرة ،حوالي (١٦٥ هـ) ، فمن البصرة خرجت المعتزلة ، وفي البصرة كانت بيئات كثيرة من المحدثين والفقهاء تشكل حلقات للدراسة ورواية الأحاديث .

ومما يدل على ذلك أن المؤرخين للحارث يروون ان أباه أسداً العنزي [١]، كان قدرياً [٢] بينما كانت أمه عدوة للقدرية .

(١) ربما كان عربياً أصيلاً من قبيلة عنزة .
(٢) الرسالة جـ ١ / ٧٢ .

يدل على ذلك ما رواه الخطيب البغدادي عن بعضهم قال: رأيت أبا عبد الله الحارث بن أسد بباب الطاق في وسط الطريق متعلقاً بأبيه والناس قد اجتمعوا عليه وهو يقول له طلق امي ، فانك على دين وهي على غيره [1] .. ويدل ذلك على ان أباه كان على شيء من الثقافة ، إذ كان القدرية في مجموعهم من المثقفين ، ولا شك أنه يقصد بالقدرية هنا جماعة المعتزلة ، ومع أنهم نفاة للقدر، فقد أطلق عليهم هذا الاسم لشبههم في هذه الناحية بمعبد ومدرسته الأولى ، ولفقر المعجم العقيدي عند المسلمين في تلك الآونة المبكرة، كما أوضح نللينو [2].

ونشأ الحارث في بحبوحة من العيش ، في تلك البيئة المثقفة ، ويظهر انه كان يميل إلى أمه أكثر من أبيه ، إذ انه من المعروف ان المعتزلة كانوا يكرهون المحدثين ، فلم يكن منتظراً والحالة هذه ، أن ينصرف الحارث إلى حلقاتهم . ومع ذلك فان هناك إشارات في مخطوطة « فهم القرآن » تدل على انه أقبل في وقت مبكر من حياته ، ينهل العلم عن رجال الإسناد هؤلاء .

فهو يروي عن هشيم بن بشير [3] ، وبلفظ « حدثنا » وهي تفيد الرواية المباشرة، وتدلنا روايته هذه على أنه قد قصد بغداد في وقت مبكر من حياته،

---

(١) الخطيب : تاريخ بغداد ج ٨ / ٢١٤ .

(٢) بحوث في المعتزلة ١٧٣ - ٢١٠ .

(٣) هشيم (١٠٤ - ١٨٣ هـ): هو ابو معاوية هشيم بن بشير بن القاسم الواسطي، الحافظ، أحد الأعلام ، سمع ابن عمر والزهري أيام الحج ، كما أخذ عن حصين بن عبدالرحمن، والحكم بن عيينة، ومنصور بن زاذان، والعوام بن حوشب ، وعمرو بن دينار ، وأيوب السختياني ، والأعمش . وروى عنه مالك بن أنس ، والثوري ، وشعبة ، وابن المبارك ، والقطان ، وابن مهدي ، وغندر، ووكيع ، ويزيد بن هارون، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وعلي ابن المديني ، وأبو خثيمة زهير بن حرب ، وأبو عبيد القاسم بن سلام ، ويعقوب الدورقي ، وكان ثقة ، كثير الحديث ، ثبتاً ، الا أنه اتهم بالتدليس . ترجمته في : طبقات ابن سعد ج ٧ / ٦١ ، تاريخ واسط ١٥٢ - ١٥٤ ، الفهرست ٢٢٨ ، مشاهير علماء الأمصار ١٧٧ ، تاريخ بغداد ج ١٤ / ٨٥ - ٩٤ ، ميزان الاعتدال ج ٣/ ٣٠٦ - ٣٠٨ ، تهذيب التهذيب ج ١١ / ٥٩ - ٦٤ ، البلقيني على الأم ج ١ / ١١٧ .

فنشأ وتعلم بها ، إذ أن هشيماً « كان قد انتقل عن واسط قديماً إلى بغداد، فسكنها ، إلى أن مات فيها »[١] .

ويروي عن مروان بن شجاع[٢] .

وعن وكيع بن الجراح[٣]. وربما زار المحاسبي الكوفة ، لأن وكيعاً كان بالكوفة ، ولم يخرج منها إلا الى الحج ، فمات في حجته تلك .

ويروي المحاسبي ، رواية واحدة عن كل من عبّاد بن العوّام[٤] وعلي بن عاصم[٥]

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٤ / ٨٥ .

(٢) مروان بن شجـاع (ـ ١٨٤ هـ) أبو عمرو الجزري ، ويعرف بالخصيفي ، لملازمته لخصيف بن عبدالرحمن ، روى عنه سعيد بن سليمان الواسطي ، وأحمد بن حنبل ، ويحيى بن معين ، وشريح بن يونس . وهو من حران ، نزل بغداد ، فدرس أولاد المهـدي . رضيه الأكثرون . وقال ابن حبان : يروي المقلوبات عن الثقات ، لا يعجبني الاحتجاج بخبره اذا انفرد . ترجمته طبقات ابن سعد جـ٧ / ٧٢ ، تاريخ بغداد جـ ١٣ / ١٤٧ ـ ١٤٩ ، ميزان الاعتدال جـ ٤/ ٩١.

(٣) وكيع بن الجراح (١٣٠ ـ ١٩٧هـ) بن مليح الرؤاسي؛ روى عن أبيه وعن الأعمش وابن جريج، ومالك ، والأوزاعي ، والثـوري ، وشعبة ، وابن أبي ذئب ، وابن أبي ليلى ؛ وهشام الدستوائي ، وحماد بن سلمة . وروى عنه شيخه الثوري ، وأولاده ، وابن مهدي ، وأحمد واسحاق ، وأبناء أبي شيبة ، ومسدد . وكان ثقة ، مأموناً ، عالماً ، رفيعاً ، كثير الحديث ، حجة . ترجمته في :طبقات ابن سعد جـ ٦/٧٥ ، ميزان الاعتدال جـ ٤/٣٣٥ ، تهذيب التهذيب جـ ١١/١٢٣ ـ ١٣١ ، والبداية والنهاية جـ ١٠ / ٢٣٩ ، تاريخ الخميس جـ ٢ / ٢٣٣ .

(٤) عباد بن العوام (ـ ١٨٥ هـ) الواسطي ، أبو سهل ، من متقني الواسطيين ، وكان يتشيع ، أقام ببغداد ، وسمع منه البغداديون ، وكان ثقة ، وكان ينزل بالكرخ على نهر البزازين. ترجمته في : طبقات ابن سعد جـ٧/٧٣ ،تاريخ واسط ١٧٧ ، مشاهير علماء الأمصار ١٥٥.

(٥) علي بن عاصم (١٠٧ ـ ٢٠١ هـ) ابو الحسن ، الواسطي ، روى عنه علي بن عطاء ، وحصين بن عبد الرحمن ، والعوام بن حوشب ، وغيرهم ، ضعفه الفلاس، ويزيد بن هارون ، والنسائي ، والبخاري . ترجمته في : طبقات ابن سعد جـ ٧ / ٦١ تاريخ واسط ١٦١ ، ميزان الاعتدال جـ ١/١٢٥ ، البداية والنهاية جـ ١٠ / ٢٤٨ .

وسليمان بن داود الطيالسي [١] ، وأبي نعيم الفضل بن دُكين [٢] وأبي بكر ابن أبي شيبة [٣] .

ثم تزداد رواياته فيروي روايتين فأكثر عن كثيرين ، أشهرهم : يحيى بن بُكير [٤] ، وعبدالله بن بكر [٥] ، وحجين بن المثنى [٦] .

---

(١) سليمان بن داود (١١١ – ٢٠٣ هـ) الطيالسي ، روى عن شعبة والثوري ، وأبي عوانة .. وروى عنه جرير بن عبد الحميد ، وأحمد ، وابن المديني ، وابناء أبي شيبة ،ومحمد ابن سعد ، وجماعـة سواهم .. كان ثقـة ، لكنه يخطىء في الحديث ، ترجمته في : طبقات ابن سعد جـ ٥١/٧ ، تاريخ بغداد جـ ٢٥/٩ ، ميزان الاعتدال جـ ٢ / ٢٠٣ ، البداية والنهاية جـ ٢٥٥/١٠ ، تاريخ الخميس جـ٣٣٥/٢ .

(٢) أبو نعيم الفضل بن دكين (١٣٠ - ٢١٩ هـ) الكوفي ، درس على الاعمش ، ومسعر بن كدام ، والثوري ، وشعبة ، وشريك ، وأبي عوانة ، والحمادين ، وابن عيينة ، وروى عنه ابن المبارك ، وأحمد ، وأبنـاء أبي شيبة ، وابن راهويه ، وأبو خيثمة ، ومحمد بن سعد ، والبخاري ، وأبو زرعة ، وهو كوفي ، أتى بغداد مراراً ، وكان ثقة مأمونا ، جليل القدر ، لم يجب الى القول بخلق القرآن . ترجمته في : طبقات ابن سعد جـ ٦ / ٢٧٩ ، مشاهير علماء الامصار ١٧٤ ، الفهرست ٢٢٧ ، تاريخ بغداد جـ ٣٤٦/١٢ ، ميزان الاعتدال جـ ٣٥٠/٣ ، البداية والنهاية جـ ٢٨٢/١٠ .

(٣) ابن أبي شيبة (– ٢٣٥ هـ) هو أبو بكر عبد الرحمن بن عبدالملك المدني ، روى عن هشيم ، والوليـد بن مسلم ، وخلق ... ، وروى عنه البخاري ، وعبدالله بن شبيب ، وأبو زرعة : ترجمته في : ميزان الاعتدال جـ٥٧٨/٢ ، البداية والنهاية جـ ١٠ / ٣١٥ ، تهذيب التهذيب جـ ٢/٦ : يقول ان اسمه عبدالله بن محمد أبي رشيبة .

(٤) يحيى بن بكير (– ٢٠٩ هـ) كوفي الأصل ، سكن بغداد ، وولي قضاء كرمان . وحدث عن شعبة وابن طهمان ، والحسن بن صالح ، وشريك بن عبدالله ، وعنه حفيده عبدالله وجماعة ، منهم البخاري . ترجمته في : تاريخ بغداد جـ ١٥٥/١٤ ، تهذيب التهذيب جـ١٩٠/١٢

(٥) عبـد الله بن بكر (– ٢٠٨ هـ) بصري ، من باهلة ، نزل بغداد ، فسمع منه البغداديون ، وكان ثقة صدوقاً ، ترجمته في : طبقـات ابن سعد جـ ٧٦/٧ ، مشاهير علمـاء الأمصار ١٦٢ ، البداية والنهاية جـ ٢٦٢/١٠ ، تاريخ الخميس جـ٣٣٦/٢ .

(٦) حجين بن المثنى (....) أصله من اليمامـة ، نزل بغداد ، وحدث بها عن مـالك بن أنس، وابن الماجشون ، والليث بن سعد ، وعنه : أحمد بن حنبل ، وجماعة ، منهم المحاسبي وابن معين . وأخطأ محققو طبقـات ابن سعد ، فكتبوا اسمه « حجير » . توفي ببغداد . ترجمته في طبقات ابن سعد جـ ٧٨/٧ ، تاريخ بغداد جـ ٢٨٢/٨ .

بيد أن أكثر رواياته [١] في « فهم القرآن » عن أبي عبيد القاسم بن سلام [٢] والحجاج بن حمّاد بن سلمة، [٣] وأبي الفضل [٤]، وسنيد بن داود [٥]، وشريح بن يونس [٦]، ويزيد بن هارون [٧]، ويقول من ترجموا له، إنه أكبر أساتذته.

---

(١) روى أيضاً عن عمر بن طلحة ، واسحاق بن عيسى ، والحسن بن محمد ، وعثمان بن محمد ، ومحمد بن جعفر ، والقثم بن القثم ، وجرير بن خزيمة بن حازم ، ويوسف (كذا) وعبدالغفار بن داود ، و (معاذ ؟) وابن أبي مريم (نوح ؟) ويونس بن محمد ، ومبشر ، وأبو سفيان ؟ وخلف بن هشام .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام (١٥٧ - ٢٢٤ ﻫ) ولد بهراه ، طلب الحديث واللغة ، فأخذ الحديث عن هشيم ، وابن عيينة ، ويزيد بن هارون ، واسماعيل بن علية ، والقطان ، وابن مهدي ، وأخذ اللغة عن أبي زيد ، وأبي عبيدة ، والأصمعي ، واليزيدي ،وابن الأعرابي، وابي عمرو الشيباني ، والكسائي ، سكن بغداد ، ثم ولي قضاء طرسوس ، وجاور في سنوات عمره الأخيرة بمكة. أشهر كتبه غريب الحديث ، والأموال ، وثقة الجميع ، ولم يتكلم فيه أحد. ترجمته في:طبقات ابن سعد ج ٩٣/٧،تاريخ بغداد ج ٤٠٣/١٢،ميزان الاعتدال ج ٣٧١/٣، وفيات الأعيان ج٣ / ٢٢٥ ، البداية والنهاية ج ١٠ / ٢٩١ .

(٣) ابن المحدث المشهور حماد بن سلمة ، قرين حماد بن زيد في مشيخة الحديث بالبصرة .

(٤) ربما كان المحدث المدني المعروف سالم بن أبي أمية ، وهو مولى لعمر بن عبدالله بن معمر التيمي القرشي ، ومن متقني أهل المدينة وعقلائهم : مشاهير علماء الأمصار ١٣٣ . لكننا لا نعلم أن المحاسبي زار المدينة ، فأخذ عن علمائها ، فالأقرب الى الصواب ، أن يكون المروي عنه « أبو نصيرة » الواسطي ، واسمه مسلم بن عبيد ، روى عنه هشيم بن بشير ، ويزيد بن هارون استاذا المحاسبي فربما روى عنه المحاسبي بطريقهما؟ الميزان ج٤/١٠٤، ولسان الميزان ج٧/٤٨١.

(٥) سنيد بن داود (- ٢٢٦ ﻫ) المصيصي المحتسب ، واسمه الحسين ، روى عن حماد بن زيد ، وهشيم ، حافظ ؛ له تفسير ؛ وله ما ينكر ، روى عنه أبو زرعة ؛ والأثرم ؛ وجماعة. وثقة أبو حاتم ؛ وضعفة أبو داود والنسائي . ترجمته في : ميزان الاعتدال ج ٢٣٦/٢ ؛ البداية والنهاية ج ٢٩٤/١٠ .

(٦) شريح بن يونس (- ٢٣٥ ﻫ) هو شريح ـ وضبطه الخطيب وابن النديم : سريج ـ ابن يونس ؛ أبو الحارث المروروزي ، سكن بغداد ؛ وحدث بها عن سفيان بن عيينة ؛ وهشيم ؛ ومروان بن شجاع ؛ وعنه : مسلم ؛ وأبو زرعة ؛ والبغوي ؛ وأبو حاتم . وثقه أبو حاتم ؛ وأثنى عليه أحمد. ترجمته في : طبقات ابن سعد ج ٩٤/٧ ؛ تاريخ بغداد ج٩/٢١٩ ؛ البداية والنهاية ج ٣١٥/١٠ ؛ الفهرست ٢٣١ .

(٧) يزيد بن هارون (١١٨ - ٢٠٦ ﻫ)بن زاذي بن ثابت الواسطي ؛ حدث ببغداد؛ ثم=

ويقول عنه المسعودي في مروج الذهب «عمدة أهل الحديث في علمهم، وعظيم من عظمائهم»

أما في كتاب «العقل» فهو يروي عن عفان البصري [(١)] .

ويدلنا هذا على ان أساتذته البارزين في الحديث هم هشيم، وشريح بن يونس، ويزيد بن هارون، وأبو النضر، وحجاج، وسنيد بن داود .

ونستنتج من نوعية رواياته الأولى في الحديث انه كان يهتم بالمسائل الفقهية فرواياته الثلاث عن «هشيم»، تبحث في العدة، وتوبة الزاني، ومعادير الزكاة، والصدقات .

ثم انه تتلمذ على «الشافعي» (١٥٠ — ٢٠٤ هـ) في رحلته الثانية الى بغداد (١٩٥ هـ) [(٢)] .

وأخذ علوم اللغة والقرآن عن علمها الأول في ذلك العصر، أبي عبيد القاسم بن سلام، صاحب الكتابين المشهورين (غريب الحديث) و (الأموال) .

ومما له دلالته ان رواياته عن أبي عبيد تدور كلها حول مسائل قرآنية لها صلة باللغة، كمفهوم العام والخاص، والناسخ والمنسوخ [(٣)]، وكأن الحارث قد

= عاد الى موطنه ؛ سمع من مشايخ واسط، وبغداد والشام؛ وهو أكبر تلامذة حماد بن سلمة ؛ روى عنه أحمد ؛ وابن المديني ؛ وأبو خيثمة ؛ وابن أبي شيبة ؛ وخلق . كان ثقة ؛ حافظاً ؛ متقناً ؛ إماماً . ترجمته في : تاريخ واسط ١٥٨ ؛ طبقات ابن سعد ج ٦٢/٧ ؛ مشاهير علماء الأمصار ١٨٧ ؛ تاريخ بغداد ج٤ ١/٣٣٧ ؛ البداية والنهاية ج١٠ /٢٥٩ تهذيب التهذيب ج١١/ ٣٦٦ ؛ تاريخ الخميس ج ٣٣٥/٢ .

(١) عفان بن مسلم (١٣٤ - ٢٢٠ هـ) الصفار ؛ البصري ؛ وكان ثقة ؛ ثبتاً ؛ كثير الحديث؛ حجة ؛ أبى أن يقول بخلق القرآن ؛ وثبت على معتقده رغم قطع أعطياته . وثقة ابن معين وأحمد وغيرهما. له ترجمة في : طبقات ابن سعد ج ٥١/٧ ؛ ٧٨ ؛ البداية ج١٠/٢٨٣. ميزان الاعتدال ج ٨١/٣ .

(٢) البغدادي : أصول الدين ٣٠٨ . وقد شكك ابن الصلاح في صحبة المحاسبي للشافعي : تهذيب التهذيب ج١٣٦/٢ .

(٣) الخاص : كل لفظ موضوع لمعنى معلوم على الانفراد ؛ وكل اسم لمسمى معلوم على الانفراد. والعام : كل لفظ ينتظم جمعاً من الأسماء ؛ لفظاً أو معنى .. أصول السرخسي ج١٢٠/٢ النسخ : ورود دليل شرعي متراخياً عن دليل مقتضياً خلاف حكمه: التلويح على التوضيح ج٣٢/٢

أدرك منذ وقت مبكر ان مدار النزاع حول القرآن مركز على المسائل اللغوية ، وكيفية فهم كلام العرب ، وحول هذا الموضوع تدور روايته الوحيدة عن الطيالسي ، وأكثر مروياته عن يزيد بن هارون ، وكل مروياته عن شريح بن يونس .

ونحن لا نعرف الشيء الكثير عن وقائع حياته الأولى إلا خروجه من البصرة الى بغداد في صغره .. وربما كانت تلك ، رحلته الأولى ، وقد خرج فيها مع أهله جميعاً لأننا نفهم من واقعته مع والده انها كانت في (باب الطاق) وهي محلة بغدادية . كما اننا نستطيع أن نخمن من رواياته عن هذه الكثرة من المحدثين انه قضى شبابه في بيئات المحدثين والفقهاء ، مما سيكون له أثره العميق في اتجاهه بعد ذلك . وقد تجاوز هذا الأثر الاتجاه العام الى طريقته في التأليف ، وهي تشبه من بعض الوجوه طريقة أبي عبيد القاسم بن سلام في كتابيه في (غريب الحديث) و (الأموال) .

وربما كان الرجل قد تزوج في هذه الفترة الهادئة نسبياً من فترات حياته ، لأننا نعلم ان كل من ترجموا له يقولون انه (ابو عبدالله) وإن كنا لا نعرف شيئاً عن أولاده .

أما من الناحية المالية ، فتفيد الروايات ان أباه ترك له مبلغاً كبيراً يبلغ سبعين ألف درهم كما يقول القشيري [1] أو ثلاثين الف دينار كما يقول الكلاباذي [2] لكنه لم يأخذ شيئاً من هذا المبلغ الكبير .

قال تلميذه محمد بن مسروق « وخلّف أبوه ضياعا وعقارا فلم يأخذ منها شيئا [3] . أما الكلاباذي فيعلل ذلك بأن أباه كان يقول بالقدر [4] .

---

(١) الرسالة جـ١/٧٢ .
(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ١١٣ .
(٣) الرسالة جـ١/٧٢ . (٤) التعرف ١١٣ .

ويقول تلميذه إبن مسروق انه فعل ذلك بدوافع ورع وخشية لأن الرواية صحت عن النبي ﷺ إنه قال (لا يتوارث أهل ملتين شيئاً)[١] . لكنّ السبكي يقول انه زهد في مال أبيه لأن أباه كان رافضياً لا قدرياً[٢].

وأياً كان مذهب والده فإن في مسلكه هذا ، بالاضافة إلى موقفه من والده في باب الطاق، وطلبه إليه أن يطلق أمه فيه، أقول: ان في مسلكه هذا من التطرف ما لا يستساغ . وربما لم تكن هذه الرواية صحيحة عنـــه لا في حقيقتها بل في دوافعها ، فقـد يعرض عن مال والده، بدافع الورع لا بدافع التكفير ، إذ ان الحـارث لا يكفـّر المعتزلة (الراجح هنا أن معنى أنه كان قدرياً أي معتزلياً) . كما أنه لا يكفر الرافضة ، بل يكتفي بتبديعهم فقط ، فيقول في كتابه « فهم القرآن »:« ادعى علينا بعض أهل البدع من المعتزلة » . ويقول: « وقد أدعى بعض أهل الضلال فزعموا أن الله عز وجل في كل مكان بنفسه».وهو يتحدث بالنغمة نفسها عن الرافضة في باب « الناسخ والمنسوخ » ، لكنـه لا يصرّح بتكفيرهم .

وعلى أي حال فإن الروايات التي رواها المؤرخون لحياة الحارث تفيد أنه كان فقيراً جداً ، بل كان محتاجاً إلى دانق كما يقول تلميذه ابن مسروق[٣] . وفي رواية أخرى أنه كان جائعاً وأنه أثر الجوع بدا عليه حتى لاحظ تلميذه الجنيد ذلك في وجهه[٤]. هذا،ولما كان الحارث وحيد أبويه فإنه عندما رفض أن يأخذ من مال أبيه شيئاً آل كله إلى بيت المال. كما ينص على ذلك مذهب الشافعي[٥] .

وقد اعتدلت آراؤه بعد ذلك فيما يتصل بهذا الأمر، إذ نراه في كتبه المتأخرة يروي وبشكل محايد، آراء العلماء في أخذ المال الذي خالطه الحرام، فيستهجن رأي

---

(١) الرسالة جـ١/٧٢ . (٢) الطبقات جـ٢/٣٧ .
(٣) الرسالة جـ١/٧٢ . (٤) الرسالة جـ ١/٧٣ .
(٥) العطار : تذكرة الأولياء ٢٢٥ – ٢٢٩ .

من قال أنه يحل له أن يأخذه كله إن كان إرثاً ، والإثم على من كسبه، ويصف المحاسبي هؤلاء العلماء بأنهم (متفقهة) ، كما يرى في رأي الذين يقولون باجتناب هذا الإرث كله بداعي الورع غلواً لا مبرراً له. والحق أن النظرة المتأنية عند المحاسبي تقضي بأن يؤدي الوارث إلى من ظلمه مورثه ما ظلمه فيه ، ويبقى له هو الحلال الزكي[1].

أما تلقيبُ الحارث « بالمحاسبي » فقد يكون عائداً إلى هـذه الفترة من حياته لما اشتهر عنه بعد هذه الحادثة ، من قسوة على نفسه ، وتورع عن أكل مال الشبهات .

يقول المناوي : « سمي المحاسبي لكثرة محاسبته نفسه أو لأنه كان له حصى يعدها ويحسبها وقت الذكر »[2] .

ويروي القشيري عنه أنه كان لا يأكل من طعام فيه شبهـة ، فكان إذا مد يده إلى طعام فيه شبهة ضرب على رأس أصبعه عرق فيعلم أنه غير حلال[3].

وفي ذلك يقول الحارث: «إن بيني وبين الله سبحانه علامة أن لا يسوّغني طعاماً فيه شبهة ، فلم يمكني ابتلاعه »[4].

وسواء كانت العلامة بينه وبين ربه عرقا في يده، أو امتناعاً في بلعومه ، فإن هذا – إذا صح – يدل على مبلغ ورعه، وشدة محاسبته لنفسه . وسنرى فيما بعد أنّ هذه المحاسبة كانت ركناً من أركانِ مذهَبهِ الصوفيّ .

منعطف الطريق :

قال المحاسبي: « مضت عليّ ثلاثون سنة لم أسمع فيها شيئاً إلا من رأسي، ثم دارت علي ثلاثون أخرى لم أسمع فيها شيئاً إلا من الله »[5] .

---

(١) المسائل في أعمال القلوب والجوارح ٢١٢ .
(٢) الكواكب الدرية جـ١/ ٢١٨ .
(٣) الرسالة جـ١/٧٣ .
(٤) الرسالة جـ١/٧٣ .
(٥) تذكرة الأولياء ٢٢٥-٢٢٩ .

وهذه الكلمة هامة جداً في تحديد الفترة التي بدأ فيها تحول الحارث عن علوم الفقهاء والمحدثين ورجال علم الكلام ، إلى مذهبه المتميز عن مذاهب هؤلاء جميعاً . فإذا تذكرنا أنه وُلد حوالي (١٦٥ هـ) ، فإننا نستطيع أن نقول إنّ تحوّله بدأ قبيل العقد الأول من القرن الثالث الهجري .

ومما يدعم هذا الرأي إنعام النظر في نوعية الأحاديث التي كان يرويها عن شيوخه ويُعنى بها عناية خاصة أبان تلك الفترة ، فهو يروي عن كل من الطيالسي (–٢٠٣ هـ) ويزيد بن هارون (– ٢٠٦ هـ) . ونحن نرى أن هذه الأحاديث تدور كلها حول كيفية فهم القرآن . كما نلاحظ أنه إلى تلك الفترة تقريباً ، يعود اهتمامه بأقوال من يسميهم ، الحكماء وبعض رجال السلف كوهب بن منبه اليهودي الذي أسلم ، ومجاهد صاحب الأقوال الغريبة في التفسير ، والحسن البصري ، الذي أخذ الحارث بكثير من أقواله في كتابه « الرعاية » .

وإذا كان هذا هو الجو الشخصي الذي عاشه الحارث بن أسد والذي كان يتسم بكثير من التقى والورع، فإن الجو الإجتماعي كان على نقيض ذلك تماماً. ذلك أننا إذا رجعنا قليلاً إلى الوراء نجد أن التحفظ الذي انتهجه السفاح (١٣٢–١٣٦ هـ) والمنصور (١٣٦–١٥٨ هـ) قد تلاشى أيام المهدي (١٥٨–١٦٩ هـ) ليتعاظم الترف وتكثر الأموال المبذولة في شراء الجواري والمغنين ، ولتنتشر في أجواء مختلف الطبقات عادات الحضارة الجديدة ، فيطرحون وراءهم الكثير من دعوات الورع والصيانة ، وتزداد الأموال تدفقاً على خزائن الدولة بسبب الاستقرار الذي عم أقطارها، فيسرف هارون الرشيد (١٧٠–١٩٣هـ) في الإنفاق. ويجهر الخليفة وعلية خاصته بشرب الخمر، وسماع القيان ، ويكثر البذل والعطاء للشعراء الذين يتبارون في امتداح الخليفة ووزرائه البرامكة ، (١٨٧ هـ) الذين يسرفون في العطاء ، حتى لتُروى في شأن عطائهم الأساطير . ويبدو أن الترف قد بلغ في ذلك الزمن منتهاه ، ومع ذلك يجيءُ الأمين ابن الرشيد(١٩٣–١٩٧هـ) ليتجاوز هذا الحد إلى ضروب جديدة

من الترف لم تكن معهودة قبله فتصبح مدينة المنصور مدينة للملاهي، ومكاناً لطرح التحفظ ، والجري وراء اللذة السانحة .

• ويختل التوازن الذي أقامه المنصور في طبقات السلطة ، ويتفشى سلطان الفرس في إدارات الدولة ، فيفتك بهم الرشيد فتكته المشهورة ، فينتقمون منه في شخص خليفته وولده الأمين . وتنشب معارك طاحنة بين الأمين الخليفة ، وشقيقه المأمون ولي عهده ، الذي يريد الاحتفاظ بمنصبه أمام إصرار الأمين على نزعه عنه ، وفي مدة لا تتجاوز الشهور ، ينقلب كل شيء رأساً على عقب ، فتقفر مرابع بغداد ومغانيها ، وينشر الخراب والموت شبحها المرعب فوق العاصمة ، التي حوصر فيها الأمين من قبل طاهر بن الحسين ، القائد الفارسي لجيوش المأمون، وينتهي الأمر بقتل الأمين، ودخول طاهر بن الحسين بغداد .

عندما كانت الأحداث تتسارع على مسرح المدينة ، كان المعتزلة يوطدون مراكزهم ويكسبون الكثير من الأنصار ..

وكان خصومهم من المحدثين يردون عليهم ويقذفونهم بتهم البدعة والفسق والكفر ..

وكان الصوفية من جهة أخرى يزدادون بعداً عن الحياة العامة ، وانطواءً على أنفسهم ، واستغراقاً في ذواتهم ، وهياماً في أرجاء الصحراء العراقية المترامية الأطراف ، بعيداً عن صخب الحياة الاجتماعية والسياسية .

وما أن دخل المأمون بغداد حتى سارع المعتزلة إلى الانضواء تحت لوائه وحضور مجالسه ، وكانت لهم دالة عليه ، لأن استاذه اليزيدي كان منهم .

ثم كانوا هم وحدهم الذين يستطيعون أن يُرضوا الترف العقلي الذي كان الخليفة من عشاقه .

ولم يمض إلا القليل حتى كان ابن أبي دؤاد (– ٢٣٩ هـ) يتصدر مجالس المأمون مع بشر المريسي (– ٢١٩ هـ) عدو المحدثين الأول ، وثمامة ابن أشرس ،

الذي أفضى به تطرفه في مذهبه العقلي إلى ألوان من المجون أثارت عليه سخط الكثيرين ، ثم أبو الهذيل العلاّف (—٢٢٧ ه) . وكانت تلك المجالس ندوات سياسية وعلمية ، تقام للجدل في مختلف المواضيع .

وهكذا وقع المأمون تحت تأثير جماعتين : الفرس وميولهم شيعية ،وبوحي منهم أقام ولياً للعهد من سلالة علي ، هو علي بن موسى الرضا . والمعتزلة : وبتأثير منهم بدأ يقرّب إلى مواقع السلطة رجال التأوين ، وعلم الكلام ، ومترجمي اليونانية والسريانية .

وبدأ أتجاه المأمون إلى الإعتزال بداية معتدلة. ففي «المروج» أن المأمون هجا ابراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة عمه ، وكان يظهر التسنن ، كما كان المأمون يظهر التشيع[1]. ثم ازداد ضغط ابن أبي دؤاد عليه فتقدم خطوة أخرى في طريق فرض مذهب المعتزلة .

ففي سنة (٢١٢ ه) نادى منادي المأمون : برئت الذمة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدمه على أحد من أصحاب رسول الله وتكلم في أشياء من التلاوة وقال انها مخلوقة[2]. بل أراد ايضاً أن يلعن معاوية على المنابر فأضطربت لذلك العامة فتراجع[3] .

ثم كانت خطوته الثالثة أن حاول فرض المذهب على العلماء والعامة (٢١٧ و٢١٨ ه) ابان خروجه لغزو الروم ، فأمر صاحب شرطته اسحق بن ابراهيم باستدعاء محدثي بغداد ، وفقائها ، ودعاهم إلى القول بخلق القرآن فأجاب إلى ذلك أكثرهم بعد لأيٍ ، ما عدا ابن حنبل وابن نوح فحُملا إلى المأمون بالرقة ، فبلغهم نعيه في الطريق ، فقفلا عائدين ، فمات ابن نوح ، وأُطلق سراح ابن حنبل مؤقتاً .

---

(١) مروج الذهب ج ٣١٧/٢ .

(٢) مروج الذهب ج٣٤١/٢ . وتتمة المختصر لابن الوردي ٢١٨ .

(٣) مروج الذهب ج٣٤٢/٢ .

وخلف المعتصمُ المأمونَ (٢١٨ – ٢٢٧ هـ) ولم يكن على علم بمذاهب المعتزلة ، لكنه كان عظيم الإكبار لأخيه المأمون ، فنفذ وصيته في اتخاذ ابن أبي دؤاد مشيراً عنده ، وحمل الناس على القول بخلق القرآن . وفي سنة (٢١٩ هـ) ضرب المعتصم احمد بن محمد بن حنبل زهاء بضع وثلاثين سوطاً ليقول بخلق القرآن فأبى . وانتشرت الفتنة ، وعمت المحنة كل الأوساط ولهجت بها ألسن العامة . ولم تنقض المحنة بموت المعتصم (٢٢٧ هـ) .

ذلك أن الواثق سلك مسلك أبيه وعمه في القول بالعدل ، فقتل في سنة (٢٣١ هـ) أحمد بن نصر الخزاعي المحدث ، في محنة القرآن [١] .

وفي سنة (٢٣١ هـ) أيضاً ، ورد كتاب الواثق على أمير البصرة بامتحان الأئمة بخلق القرآن ، وكان قد تبع أباه في امتحان الناس [٢] .

وفي الوقت نفسه ، أُمر أحمد بن حنبل أن يتوارى في منزله ومُنع من الخروج والتحديث [٣] .

واستمر الحال على هذا المنوال حتى وفاة الواثق (٢٣٢ هـ) .

في تلك الفترة الواقعة بين (١٩٥ و٢١٢ هـ) كان الحارث المحاسبي يمر بمرحلة تحول في أفكاره وسلوكه ، فقد رأى الترف يشيع في الأوساط فيفسد عليها حياءها ، كما رأى العقل يطغى لدى المعتزلة حتى ليحاولون ، وهم دعاة الحرية ، أن يفرضوها على الناس بالسيف والسوط .

ورأى مقدار هوان النفس المحرمة المصونة عند الله ، في الفتنة الضارية بين الأمين والمأمون ، وأدرك أن حملة المحدثين الحاقدة على العقل ورجاله عزلتهم هم ايضاً عن مراكز التأثير مما لم يعد يفيد الموقف في شيء . فأخذ يعيد النظر

---

(١) المروج للمسعودي ج ٢ / ٣٥٦ – ٣٦٣ .
(٢) الذهبي : العبر في خبر من غبر ج ١ / ٤٠٨ .
(٣) المروج / الصفحات نفسها .

في كل ما كان قد تعلمه، وحرص عليه، واتخذه لنفسه سيرة حياة. ولا شك أنه اطلع على أقوال المعتزلة وفهمها ، بدليل أنه ردّ عليها بقوّة وفهم في « فهم القرآن » . كما اطلع على مذاهب المحدثين أثناء دراساته الطويلة عليهم . وعرف فقه الرأي من الأحناف الذين كانوا قضاة بغداد والأقاليم فهو يروي في « الرعاية » عن أبي يوسف أكبر تلامذة الأمام الأعظم أبي حنيفة . كما درس على الشافعي مذهبه ومذهب أستاذه الإمام مالك . ولم يقصّر في الاطلاع على مذاهب الصوفة من أمثـــال الحسن البصري (١١٠ هـ) وإبراهيم بن أدهم (١٦٢ هـ) وداود الطائي (١٦٦ هـ) والفضيل بن عياض (١٨٧ هـ) .

وعلى آراء معاصريه أمثال شقيق البلخي (١٩٥ هـ) ومعروف الكرخي (٢٠٠هـ) وبشر الحافي (٢٢٧ هـ) وذي النون المصري (٢٤٥ هـ) والسري السقطي (٢٥١ هـ) ويدل على اطّلاعه على أقوالهم تأثره بهم، ومشابهة أقواله لأقوالهم، في كثير من النواحي ، ثم عرضه المفصل والدقيق لآراء هؤلاء جميعاً في كل المسائـــل الدينية التي بحثها خصوصاً في « المكاسب » و« المسائـــل » و«الرعاية » .

هذا الاطلاع الواسع على آراء كبار رجال عصره جعل الحارث يقف من هذه الآراء موقف الناقد الذي يأبى أن يقبل شيئاً إلا إذا ظهرت حجته، بعد أن أدرك أن المحدثين الذين عاش في بيئاتهم كل شبابه لا يستطيعون أن يرضوا فيه نزعته المتطلعة إلى المزيد من الحقيقة ، والمزيد من النور .

وربما كانت كتبه : الخلوة ، والوصايا ، وآداب النفوس ، من نتاج هذه الفترة .

وقد كان في تركه لبيئات المحدثين والمتكلمين والفقهاء متطرفاً بعض الشيء، حتى كاد يقف في الجبهة المقابلة لهؤلاء جميعاً . ثم بـدأت حواسه النقدية تتنبه من جديد بعد أن اجتاز أزمته الروحية التي يرجح أنهـا بدأت بـــعد خلافه مع والده حول رأيه في القدر .

ولتحديد موقف الحارث من هذه الفرق والاتجاهات جميعاً ، لا بد لنا

من الرجوع إلى ما يذكره الحارث نفسه في مقدمة «الوصايا» من أنه نظر إلى العصر بمنظار حديثي الرسول : « ستفترق أمتي اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة » . و « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بـــدأ ، فطوبى للغرباء » . وهكذا بدأ يبحث عن الفرقة الناجية الغريبة بين الفرق المتكاثرة المتطاحنة ، « فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة ، والتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد ، وأطلب من العلم والعمل ، واستدلّ على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء ، وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قـُدّر لي ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً غرق فيه ناس كثير ، وسلم فيـــه عصابة قليلة »[1] .

هذا الاطلاع الواسع لم يضعف ملكته النقدية ، وبعد الغربلة لم ير في غرباله إلا أقل القليل .

انه لا ينسى أن يطلعنا في هذا المجال على حقيقة هامة هي أنه كان مـا يزال في أوساط الفقهاء والمحدثين يقدم رجلاً ويؤخر أخرى .

أما رأيه في عصره فيبدو في فقرته التالية « إني تدبرت أحوالنا في دهرنا هذا ، فأطلت فيه التفكر ، فرأيت زمانا مستصعباً ، قد تبدلت فيه شرائع الإيمان ، وانتقضت فيه عرى الإسلام ، وتغيرت فيه معالم الدين ، واندرست فيه الحدود ، وذهب الحق وباد أهله ، وعلا الباطل وكثر أتباعـه ، ورأيت فتناً متراكمة يحار فيها اللبيب ، ورأيت هوى غالباً ، وعـدوا مستكلباً ، وأنفساً والهة عن التفكير ، محجوبة قد جللها الرياء ، فعميت عن الآخرة ، فالضمائر والأحوال في دهرنا بخلاف أحوال السلف وضمائرهم)[2] .

---

(١) النصائح ، أو الوصايا : ٢٧ ط : عطا .

(٢) النصائح أو الوصايا : ٣٣ ط : عطا .

وباختصار فقد رأى الحارث أن زمنه هـــذا هو الذي قصده الرسول بقوله إن « الإسلام سيعود غريباً » .

والراجح أنه يشير في المقطع الأخير من كلامه إلى الفتنة بـــين الأمين والمأمون،ثم اتجاه المأمون إلى الاعتزال،ويطلعنا في هذا الصدر على مثله الأعلى الذي اخذه عن المحدثين وهو (أحوال السلف وضمائرهم) .

والفقرة التي تأتي بعد ذلك تجعلنا نكاد نجزم بأنهـــا تدور حول سيطرة المعتزلة منذ بدء خلافة المأمون على الجو الفكري تماماً ، ولنقرأ فكره :

« وبلغنا عن رسول الله ﷺ انه قال: يأتي على الناس زمان، المستمسك يومئذ بدينه كالقابض على الجمر ، وقوله الحق ﷺ : المستمسك بسنتي عنـــد فساد الناس له أجر مئة شهيد .. وإنه بلغنا – والله أعلم – أن الرجل ليُسلب إيمانه وهو لا يشعر ، وأن الرجل ليخرج من بيته ومعه دينه فيرجع ومـــا معه من دينه شيء ..

على أن الله لم يخل دنياه من غرباء على عصرهم ينتمون إلى فرقـة الرسول الناجية ... فقيض لي الرؤوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم دلائل التقوى ، وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا » .

ثم يصف أولئك القوم وصفاً مفصلاً ، نفهمُ منـــه بيقين أنهم الصوفية ، وبطريقة تذكرنا بطريقة الغزالي المشهورة في مقدمـــة منقذه : « فهم أئمة الهدى .. يرضون بالصبر على البأساء والضراء ، والرضى بالقضاء والصبر على النعماء ، فقهاء في دين الله ، ورعين عن البدع والأهواء ، . تاركين للتعمق والإغلاء .. ، مبغضين للجدال والمراء .. ، متورعين عن الاغتياب والظلم ، مخالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات، مجتزئين بالبلغة من الأقوات، متقللين من المباح، وجلين من المعاد ، .. علماء بأمر الاخرة وأقاويل القيامة، .. وذلك أورثهم الحزن الدائم والهم المقيم ، فشُغلوا عن سرور الدنيا ونعيمها » .

إن قراءة هذه الفقرة ترينا أن المحاسبي في حياته الواقعة ، حاول تحقيق

المثل الاعلى الذي تحدث عنه في مقدمة وصاياه،فهو يذكر أن من سمات هؤلاء الورعين « المحاسبة لانفسهم، والورع في مطاعمهم، والبعد عن مواطن الشبهة، وارتداء خشن الملبس » .

وكلها أمور عُرفت عن المحاسبي واشتهر بها .

ويتابع المحاسبي– استاذ الغزالي – الحديث عن أحواله النفسية فيخبرنا أنه عندما اطلع منهم على كل هذا :

« أصبح راغباً في مذاهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قـابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا يعدل بهم سبباً ولا يؤثر عليهم أحداً ... ففتح الله عليّ ، علماً اتضح لي برهانه ، وأنار لي فضله ، ورجوت النجاة لمن اقتربه ، أو انتحله وألفيتُ الفوز لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه .. فاعتقدته في سريرتي ، وانطويت عليه بضميري ، وجعلته أساس ديني ، وبنيت عليه أعمالي ، .. وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به عليّ[1] » .

سلوك للطريق ، فمجاهدة ، فوصول ، هـذه هي الحياة لدى الصوفية ، وهو ما كان من المحاسبي ، فقد التزم ورعهم وتقواهم ، ففتح الله عليه ، وكشف عن بصيرته. وبغير تأثير من أحد، إلا ملكته الناقدة ونفسه الكبيرة، صار الحارث صوفياً .

الصوفي المتميز :

لا شك أن طبيعة الحارث الرقيقة ذات الاتجاه الفريد ، بالإضافة إلى تأثير المحدثين والفقهاء، جعلاه، يبتعد عن المعتزلة، وإن أعجبته أساليبهم في الحِجاج ومقارعة الخصوم أول الأمر ، ونحن لا نستطيع أن نقول عن الحارث كما نقول عن الكثيرين من المثقفين انه أدرك ، وبعمق ، حدة المشاكل التي تعترض المفكر ، فهرب منها واندفع في تصوفه .

(١) الوصايا أو النصائح ٣١ – ٣٢ .

ذلك أن الحارث بتركه لأوساط المحدثين والفقهاء ، كان يعلن وبصراحة ، أن جمود هؤلاء عند النصوص ، وشدتهم في الأخذ بظواهرها ، إنما يحجب عن أعينهم آفاقاً رحبة من الفهم ، كان من الممكن الوصول إليها لو اطّرحوا تحفظهم الذي لا مبرر له . ومخالفة الحارث لهؤلاء في اسلوبه الذي في كتبه ، تدل على أنه حاول أن يوفق بين أمرين : أساليب رجال الإسناد ، وحجاج رجال علم الكلام ، لأنه رأى في أسلوب رجال علم الكلام مجالاً أوسع للاقناع وإن كانت حججهم في مضمونها باطلة ، كما اعتقد .

وإذا لم يستسغ الحارث تطرف تلك الحجج العقلية ، فهل انتهت مشاكله بالانضمام إلى الصوفية ؟ !

لا . لم تنته .

لأنّ أجواء الصوفية في ذلك العصر كانت متطرفة في تجاهل كل من المحدثين والمتكلمين على حد سواء ، فلم يكن للعقل في أوساطهم مجال . ويكاد المرء يظن أنه لم يكن للنقل ايضاً لديهم كبير مجال ، لأنهم كانوا يبدأون من النقل لكنهم كانوا ينتهون نهايات ليست نقلية ولا عقلية .

وشهد ذلك العصر ظهور طائفة فكرية جديدة عاداها رجال العصر جميعاً بمختلف نزعاتهم . درست تلك الطائفة على رجال الإسناد ، كما درس الحارث ، وعرفت مذاهب المعتزلة معرفة عميقة كما عرفت مذاهب الصوفية ، وحاولت أن تخرج بشيء جديد من هذا كله . رأت أن السيطرة المعتزلية قد استشرت ، وستظل كذلك لا لحقٍ فيها بل لضعف في مناهج خصومها وأساليبهم في مقاومتها ...

كما رأت أن الصوفية يصيبون في أسلوبهم الحياتي ، لكنهم يخطئون في تجاهل المعتزلة والمحدثين وهم رجال العصر ، إذ يعتصمون وراء هالة من الأسرار والهواجس التي تثير عليهم كل هؤلاء . على انها لم تُغفل حقيقة هامة هي : أنه وإن تطرف المعتزلة في اعتبار العقل ، فإن من يريد أن يقف في

وجههم لا يجوز له أن يتجاهل العقل ، لا لشيء إلا لأن خصومه يحترمونه .

الحق إذن عند هذه الطائفة الفكرية الجديدة هو في « نقـل » المحدثين المفهوم في ضوء العقل ، وهو في سلوك الصوفية الذي يغص بأعلام سَمَوا عن الدنيا وشهواتها ولاذوا بجناب الله ورتعوا في رحاب رضاه .

ولقد كان العصر يفرض على هذه الطائفة أن تظهر ، وتعلن عن مذهبها ، قبل فوات الأوان ، وقبل تضاؤل الأمـــل في إمكان الصراع مع الفلاسفة والمعتزلة . وقد كان كل ذلك .

وقُدّر لهذه الطائفة الفكرية الجديدة أن تأخذ مكانها على مسرح الصراع ، فظهرت المدرسة الكلابية بزعامة عبدالله بن سعيد ابن كُـلاّب ، وزميليه الحارث بن أسد المحاسبي ، وأبي العباس القلانسي .

أما فيما خص الحارث فيقول الخطيب : «ان الحارث كان ينظر في الكلام ويصنف فيه»[1]. ويقول ابن حجر نقلاً عن الخطيب البغدادي « إلى الحارث يُنسَبُ أكثرُ متكلـّمي الصفاتية »[2] . ويقول المناوي نقلاً عن ابن الأثـير انه « أول من أثبت الصفات »[3] .

لقد كان للحارث إذن مذهب كلامي بل كان يتزعم طائفة من المتكلمين هي طائفة الصفاتية . وسنعود إلى هذا فيما بعد .

والمهم الآن أن نعرف أن معاصريه ، صوفية كانوا أو رافضة أو معتزلة أو فقهاء أو حنابلة كانوا ينظرون إليه بتوجس وعداوة .

وقد هاجم في مواطن من وصاياه الجهمية ، والمرجئة ، والحرورية ، كما فعل

---

(١) تاريخ بغداد ج ٨/٢١٤ .

(٢) تهذيب التهذيب ج ٢/١٣٦ .

(٣) الكواكب الدرية ج ١/٢١٨ .

ذلك في الرعاية والمسائل[1]. ولا شك أن مصنفه (فهم القرآن) يعود إلى هذه الآونة .

مع المعتزلة :

أما معاداة المعتزلة له فمفهومة ، فهو يتحدث عن شيء من ذلك في كتابه « فهم القرآن » عندما يتهم المعتزلة بأنهم من أهل البدع أو أهل الضلال . بل يتجاوز هذا الاتهام المجرد ، إلى استعمال النصوص النقلية المطعّمة بالفهم العقلي ، في ضرب المعتزلة المسيطرين على الجو الثقافي حتى ذلك الوقت .

ونحن نرى المحاسبي لا يكتفي بالردّ عليهم من ناحية موضوعاتهم بل هو يتجاوز ذلك إلى تخطئتهم في مناهجهم ، مع ان في منهجه شبهاً بها فيقول عن المعتزلة : « إنها فرقة ضالّة لا تفطن لضلالتها لاتساعها في الحجج ، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام وحسن العبارة ، بالرد على من خالفها ، فهم عند أنفسهم من القائلين بالحق والرادين لكل ضلالة ، لا أحد أعلم منهم بالله ..ولا أولى به منهم ، وكل الأمم ضالّة سواهم ، وأن الله عز وجل لا يعذب مثلهم ، بل لا ينجو أحد في زمانهم غيرهم . وغيرهم من المغترين يدّعي ذلك وينتحله ويشهد عليهم بالإكفار فهم فرقٌ كثيرةٌ يكفّر بعضُهم بعضاً ، وكل فرقة منها مغترة لا ترى أن أحداً يقول الحق غيرها[2] » . وهو في هذه الفقرة يتهم المعتزلة بتجاهل كتاب الله ، والاغترار بدقائق الكلام ، ثم يشير إلى الحديث الذي وضعه المعتزلة لتأييد مذهبهم « تفترق أمتي بضعاً وسبعين فرقة كلها في النار إلا الفرقة المعتزلة » . ثم يشير إلى تطرف المعتزلة في الأخذ بالحرية واحترام الرأي الفردي حتى لقد أسس كل شخص منهم مذهباً رأى أنه الحق ، وكفّر زملاءه في الفرقة ، كما كان من أمر النظام مع العلاّف ، وعبّاد

---

(١) الوصايا ، أو النصائح : ٧٤ - ٧٥ . والمسائل ٣٢ ، والرعاية ٨١ .

(٢) الرعاية ٣٩٩ . ط : القاهرة .

بن سليمان مع بقية المعتزلة ، وجعفر بن حرب وجعفر بن مبشر ، مع كثير من زملائهما .

مع الشيعة :

وموقف الشيعة المعادي له مفهوم أيضاً فقد كانوا يتهمون كل من يرد عليهم بالنصب ، أي كراهية الإمام علي كرم الله وجهه . وهو وإن لم يهتم بالرد عليهم اهتمامه بالرد على المعتزلة ، إلا أنه يبدو شديد الكراهية لهم بل يكاد يتهمهم بالكفر وهو ما لم يتهم بـه المعتزلة ، فيقول في معرض رده عليهم في مسألة النسخ في القرآن : « وقد جوّز فريقٌ من الروافض في أخبار الله جل شأنه التناسخ ، وهذا الكفر . لا يجوز أن ينسخ الله خبره »[١] وربما يشير في هذه الفقرة إلى غلاة الشيعة كالسبئية والكيسانية وغيرهما .

مع الفقهاء :

والمعروف أنه تتلمذ عليهم قبـل أن يصبح صوفياً متكلماً . فنحن نعلم بيقين أنه أخذ عن أبي عبيد القاسم بن سلام كما أخذ عن الشافعي وأبي يوسف. ويدل على سعة علمه بمذاهبهم روايته لها بالتفصيل في كتبه في المرحلة الأخيرة من تطوره الفكري[٢] .

لذا فإن نقده للفقهاء لا ينبع من اتهامه لهم بضعف الإيمـان أو الضراوة الجدلية بل ينبعث من وجهة نظر صوفية تشتد على أهل الرسوم لإغفالهم علوم القلب ، وقصر حياتهم على الجدل والبحث في المعاملات ، وهي حجب ترين على القلب وتبعده عن الله .

وكل من أرّخ للمحاسبي يذكر أنه كان فقيهاً في علوم الظاهر كما كان إماماً

---

(١) أنظر مخطوطة « فهم القرآن » .
(٢) المكاسب والمسائل من ٢٠١ - ٢٣١ . والرعاية ٧٦ وما بعدها .

في علم المعاملة . يقول التميمي : « هو إمامُ المسلمين في الفقه والتصوف والحديث وعلم الكلام » لذا فإنّ النقد الذي تحدثنا عنه كان أقرب إلى التحذير من الكبر والرياء ، وبعض المعاني القلبية التي يتذوقها الصوفية كما قدمنا . قال « يغترّ أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام ، وبالبصر بالفُتيا والقضاء ، حتى لا يرى أن أحداً أعلمُ بالله عز وجل منه لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء ، فهو القائم للأمة بدينها ومفزعها إليه ، ولولا مثله لضاع الدين وما عرف حلالاً من حرام ، واستصغر أهل الرواية والحفظ إذ لم يفقهوا الحلال والحرام ، ويعلموا الحكم والقضاء فيغتر بذلك فيقل حذره من الله عز وجل ورهبته إليه » .

أما كيف ينجو من هذه الغرة فإن المحاسبي يرشده إلى ذلك فيقول : « بمعرفته أن الفقه عن الله عز وجل فيما عَظَّم من نفسه ، وأخبر من جلاله ، وهيبته ونفاذ قدرته ، وما وعد من ثوابه وتوّعد به من عقابه ، أعظم الفقه وأشرفه ، وإنه لن ينفع الفقه في الحرام والحلال إلا بالفقه في ذلك »[1].

وهذا الذي يقصه الحارث عن الفقهاء من الاغترار بعلمهم واحتقار أهل العلوم الأخرى كان معروفاً في عصره .

وينبغي الإشارةُ هنا إلى صدق حدس الحارث في إشارته إلى النزاع بين الفقهاء والمحدثين ، لكنه لم ينصف في قوله أن الفقهاء هم البادئون إذ المعروف عن المحدثين ضيق صدورهم بكل من يخرج ، ولو قليلاً ، على أسانيدهم ، وقد أدى سوء الفهم هذا إلى وقائع وخطوب بين الحنابلة المحدثين ، والشافعية في بغداد فيما بعد .

مع الصوفية :

قد يبدو غريباً أن يكون للحارث تحفظات على الصوفية وهو منهم . كما

---

(١) الرعاية ٣٨٨ .

يبدو غريباً لأول وهلة أن يتحفظ الصوفية المعاصرون في تأييد الحارث ، وقد نصرهم نصراً بيّناً حين ترك بيئات المحدّثين والفقهاء والمتكلمين المسيطرين وأوى إليهم . لكن إعادة النظر في نصوص الصوفية ترينا سبب هذا التحفظ .

يقول الغزالي : « والصوفية يذمون العقل والمعقول ويقصدون بذلك المناظرة والمجادلة باعتبارها من أمور الكلام »[1] .

قال السري للجنيد في معرض نقده للحارث : « عليك بأدبه ودع عنك تشقيقه للكلام » . فإذا تحفظ الصوفية تجاه الحارث فلأنه تعاطى شيئاً من علم الكلام[2] . بل تزعم فرقة من المتكلمين استطاعت فيما بعد أن تقف في وجه المعتزلة بكل قوة ، أيام أبي الحسن الأشعري (٢٦٠ — ٣٢٤ هـ) . ولا يعني ذلك أن الصوفية قاطعوا الحارث ، لكنهم كانوا يودون لو (لم يدنس نفسه) بشيء من الكلام[3] .

وقد استطاع الحارث رغم تحفظات الصوفية أن ينشىء مدرسة كلامية في أوساطهم اندمجت مع الأشاعرة فيما بعد كما سنوضح في موضعه .

أما موقف الحارث من زملائه المتصوفين فقد كان يحكمه عاملان : أولهما انه لم ينس النص ، وثانيهما انه لم ينس العقل. وهما أمران تجاهلهما الصوفية في تطورهم ، واعتماد الحارث على النص المعقول حماه من الارتماء في أحضان الحلول والاتحاد وغيرهما من الدعاوى الغريبة . ولعلنا نستطيع أن ندرك صعوبة إقامة توازن بين الحياة الصوفية والحياة النصية المعقولة ، إذا عرفنا أن مدرسته الصوفية عجزت عن متابعة طريقه تماماً ، فوقعت في بعض الشطحات والدعاوى ، وقد بدا ذلك أول ما بدا في بعض عبارات الجنيد والشبلي وإن

---

(١) الأحياء جـ١ / ٧٧ .

(٢) أبو طالب المكي : قوت القلوب جـ١ / ١٥٨ ، ط : سميث .

(٣) يشبه موقف الصوفية من علم الكلام موقف الحنابلة . راجع : الذهبي : العلو للعلي الغفار ١١ ، ١٨٦ ، ٢١٥ . في مواقف الفضيل والحافي ومحمد بن مصعب ، من المتكلمين .

احتفظا بالكثير من توجيهات زعيم المدرسة . يقول السراج: « بلغني عن حمزة أنه دخل دار حارث المحاسبي وكان للحارث دار حسن وثياب نظاف وفي داره شاه مرغ فصاح الشاه مرغياً فشهق أبو حمزة شهقة وقال : لبَّيك يا سيدي قال : فغضب الحارث وعمد إلى سكين فقال : إن لم تتب عن هذا الذي أنت فيه أذبحك »[1] .

ومن هذه الحادثة يتضح لنا أن أبا حمزة كان حلولياً . أما الحارث فقد رفض الحلول ، كما رفض كل الدعاوى التي تصادم النص والعقل . لهذا السبب كره غلو عبدالله بن يزيد وعبدك الصوفيين وقال « إنهما أفسدا وحرما الكسب وأبت الأمة إلاَّ خلافَ مقالِهما[2] » .

أما من الناحية المنهجية فقد حذّر الحارث الصوفية كما حذر الفقهاء من الاغترار بحالهم في صدق المعاملة وحسن الإخلاص ، فقال : « ومنهم فرقة علمت العلم ، وعملت بمعانيه في حقوق الله عز وجل التي تحق لله عز وجل على عباده ، من حقه وحبه وخوفه ورجائه ، وحسن التوكل ، والرضاء بقدَرِهِ ومعاني ما ذَمَّ الله ونهى عنه من الأخلاق المذمومة عنده ، كالرياء والعجب والكبر والحسد وسوء الظن ، وأشباهِ ذلك من أعمال القلوب ، ومن الكذب والغيبة . فحسنت عبارتهم بذلك .. وكذلك الحياء من الله عز وجل وجميع الأخلاق الكريمة .. وكذلك ما يصف من تضييع حقوق الله عز وجل . على أن هذا الرجل قد يقول بما لا يعمل ويأخذ قوله هذا عن عمل ، دون أن يحس في فؤاده حرارة الإخلاص ودون أن يعمل بما علمه ... فقد يصف الحب لله عز وجل وهو عامة ليله ونهاره ناسٍ له عند اعتراض محبته ، وإن أراد نفسه على الخلوة والأنس استوحش ذلك وثقل عليه ؛ فإن خلا لم يجد للخلوة بمناجاة ربه عز وجل نوراً في قلبه ولا حلاوة لذكره ، وإن عرض بالأنس للمخلوقين استراح إلى ذلك وملء قلبه حلاوته .. ويصف التوكل عليه إن

---

(١) اللمع ٤٩٥ .

(٢) المسائل ٢١٢ .

واتته الدنيا وأعطته ما يحب ، فإن خولف هواه بضيق العيش ، أو عرض له خوف مخلوق ، أو طمع لما في يديه اضطرب قلبه فخاف غير الله وطمع بما في أيدي العباد .. وكذلك يصف الإخلاص ، فإذا عرض العمل هاج الرياء وافتقد الإخلاص . وإنما أطلت الوصف في هذه الفرقة لأنها عظيمة غرتها ، قد غلب ذلك على كثير ممن يتعبد ويرى أنه من النساك العاملين لله عز وجل» ويضرب الحارث مثلاً لغرة هؤلاء في مناهجهم بجملته ثانيةً على أهل الحلول فهو ينعى عليهم نظرتهم إلى النساء والغلمان المرد بحجة ذكر الجمال الإلهي أو حور الجنان[1] . ونستطيع أن ندرك من هذه العبارة الأخيرة كبر عقل الحارث إذ فرّق بين المبدأ ورجاله ، فأقبل على اعتناق المبدأ مع علمه بأن أهله عظيمة غرتهم كثير رياؤهم . وربما لم يكن الفساد في الصوفية قد استشرى إلى هذا الحد في ذلك الوقت المبكر ، وإنما قسا الحارث عليهم بعض الشيء لأنه محب لهم يريد الكمال والكمال فقط .

فقسا ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

مع محدّثي الحنابلة :

قد يبدو غريباً أن يظل الحارث في بغداد بين (٢٠٧–٢٣٢ هـ) تلك الفترة التي سيطر المعتزلة فيها على بغداد ، وكان الحارث أكبر أعدائهم لبصره بمواطن الضعف فيهم كما رأينا سابقاً ، ولانتهاجه أساليبهم نفسها في الرد عليهم . مع ذلك ظل في بغداد حتى إذا كانت بدايات خلافة المتوكل (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) اضطر إلى مغادرة بغداد إلى الكوفة لفترة يبدو أنه كان مرغماً عليها ، إذ سرعان ما عاد إلى بغداد عندما سنحت الظروف فتوفي فيها . ولفهم هذا كله ينبغي النظر في التطورات السياسية والاجتماعية التي طرأت على الموقف بعد وفاة الواثق .

---

(١) المسائل ١٦٣ ، والرعاية ٣٩٣–٣٩٦ .

لا شك ان محنة خلق القرآن قد أحرجت الكثير من الصدور ، خصوصاً صدور العامة التي كانت تجل المحدثين، وتكره حذلقة المعتزلة، وتقعرهم العقلي، وقد أحس الخليفة الواثق في أواخر عهده قوة هـذا التيار الشعبي الجارف الذي يتهدد المعتزلة ، ومؤيديهم من رجال الدولة وعلى رأسهم الخليفة، فحاول أن يقضي على السخط في مهده ، بتلك القتله الشنيعة لأحمد بن نصر الخزاعي المحـدث (٢٣١ هـ) وقتـلة أبي يعقوب ابن يوسف بن يحيى البويطي صاحب الشافعي في الوقت نفسه [١] . وكان هذان قد شجعهما ما رأياه من ثورة الرأي العام ، فكادا يعلنان التمرد على الواثق ، الذي سارع إلى القضاء عليهما . ولم يكن سخط العامة على الخلفاء المعتزلة نابعاً من اعتزالهم فقط ، بـل لتشيعهم أيضاً ، في حين قامت الخلافة العباسية كلهـا منذ أيام المنصور على معاداة التشيـع .

فإذا أضفنا إلى ذلك عاملاً ثالثاً هو الجند الأتراك الذين سيطروا على الدولة منذ أيام المعتصم وهم مسلمون جدد ، متحمسون للسلف وآثارهم ، وقد عُرف عنهم ذلك في كل العصور ، وقد كانت لهم قرابة بأحمد بن حنبل من جهة أمه التركية. إذا عرفنا ذلك كله أدركنا سبب تحول المتوكل عن المذهب المعتزلي إلى مذهب المحدثين من أهل السنة ، مدفوعاً بالعوامل السابقة وبميل في طبعه إلى السهولة واللهو وكل ما لا يكلف مشقة أو تبعة .

ولعـل الجـدول الزمني الذي ذكره المسعودي والذهـبي وابن الوردي للأحداث منذ بدء خلافة المتوكل يلقي ضوءاً أكثر على الأمر :

١ — **٢٣٢ هـ** : أفضت الخلافة إلى المتوكل فأمر بترك النظر والمباحثة في الجدال والترك لما كان عليه الناس في أيام المعتصم والواثق وأمر الناس بالتسليم والتقليـد ، وأمر الشيوخ والمحدثين بالتحديث وإظهار السنة والجمـاعة [٢] .

---

(١) ابن الوردي ٢٢٣ ، البداية والنهاية جـ ١٠ / ٣٠٦ — ٣٠٨ .
(٢) المروج جـ ٢ / ٣٦٩ .

ولما كان منه أنه أظهر السنة ورفع المحنة ، وأمر بنشر أحاديث الرؤية والصفات [1] .

٢ — ٢٣٥ هـ : مات أبو الهذيل العلاّف [2] . ويرى المسعودي وابن الوردي أنه مات ٢٢٧ هـ [3] . قال الجاحظ : ذُكرت لأمير المؤمنين المتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم وصرفني[4]. ولا شك أن الأمر يتجاوز قبح المنظر إلى شهرته بالاعتزال .

٣ — ٢٣٦ هـ : منع المتوكل القول بخلق القرآن بتاتاً وراح يجالس من اشتهر ببغض علي [5] . ومنع الشيعة من زيارة قبر الحسين والغري من أرض الكوفة ، وكذلك منع غيرهم من شيعتهم حضور هذه المشاهد وكان الأمر بذلك من المتوكل [6] .

٤ — ٢٣٩ هـ : غضب المتوكل على ابن أبي دؤاد وابنه ، فعزل الأخير عن القضاء ، وقرّب إليه ولد يحيى بن أكتم .

٥ — قرب المتوكل اليه علياً بن الجهم الشاعر وكان منحرفاً عن علي بن أبي طالب مظهراً التسنن [7] كما التفّ حوله رجال من مبغضي الشيعة والمعتزلة، أمثال سعيد بن حميد الذي ولي ديوان الرسائل أيام المستعين فيما بعد (٢٤٨ هـ) وكان يتنصب ويظهر التسنن [8] .

٦ — سيطر ابن حنبل على البيئات العلمية في بغداد وعاد زملاؤه من المحدثين أمثال خُشيش بن أصرم وعبد العزيز المكي ومسدد بن مسرهد وابن راهويه إلى التحديث .

---

(١) العبر للذهبي ج ١ / ٤١٣ .
(٢) العبر ج ١ / ٤١٣ .
(٣) تتمة المختصر ٢٢٢ .
(٤) المروج ج ٢ / ٣٧٨ .
(٥) تتمة المختصر ٢٢٥ .
(٦) المروج ج ٢ / ٤٠١ .
(٧) المسعودي ج ٢ / ٣٨٦ .
(٨) المسعودي ج ٢ / ٤٠٨ .

ولكي نعلم ما وصل إليه الحنابلة والمحدثون من سطوة ، لا بد من إلقاء بعض الضوء على سيرة الإمام أحمد (١٦٤ – ٢٤١ هـ) فقد أخذ الإمام أحمد الحديث عن كثيرين من الأعلام ودرس الفقه على الشافعي وكان بطبيعته نصياً يكره الجدل والحجاج ، ويسلك طرق السلف في زهدهم وحبهم للعزلة . وزاده تصلباً في موقفه ما لقيه من غطرسة المعتزلة أيام المأمون المعتصم والواثق الذين ساقوه مقيداً ومنعوه من الخروج والتحديث أيام الواثق ، بل تجاوزوا ذلك إلى ضربه بالسياط .

وقد أحس كثيرون من العلماء بمثل ما أحس به أحمد بن حنبل من سخط على المعتزلة ، ومؤيديهم من رجال الخليفة ،لكنهم لم يكونوا يملكون من الشجاعة الأدبية ما كان يملك ، فبدا وحيداً في موقفه من المأمون والمعتصم والواثق ، وكان ذلك سبباً لإكبار جميع العلماء له، حتى خصومه من المعتزلة ، كما اكتسب ، نتيجة لذلك ، تأييداً شعبياً جارفاً ظل يقدس ذكراه في بغداد حتى بعد وفاته بمئات السنين ، كما ظل هذا التأييد ممتداً إلى أتباعه ، متوسماً فيهم الخير حتى بعد سقوطهم في مهاوي الحشو والتجسيم .

وكان ابن حنبل أميناً لمذهبه فلم يتطرف في الجهة المقابلة بل اقتصر على تحريم علم الكلام ، وذم أهله وتبديعهم ورفض أن يمضي مع المتطرفين في الجهة المقابلة لأن السلف لم يقولوا بشيء من ذلك بل اقتصر على القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق . ولأن أمه تركية ، ولأن الأتراك المسيطرين سنيون ، ولأن الشعب كله كان يحبه ويحترمه ، فما كاد المتوكل يعلن رفع الفتنة حتى أقبل على دروسه ودروس زملائه من علماء الحديث وحفاظه عشرات الألوف بعد أن انتظروا طويلاً ، فلما توفي أحمد سنة (٢٤١ هـ) خرجت بغداد بل خرج العراق كله لتشييعه وقرنوا موقفه بموقف رسول الله في الهجرة وموقف أبي بكر في الردة .

يقول المسعودي : – وهو المؤرخ الشيعي – في وصف جنازة الإمام أحمد : وصلى عليه ابن طاهر وحضر جنازته خلق من الناس لم يُرَ مثل

ذلك اليوم، والاجتماع في جنازة من سلف قبله : وكان للعامة فيه كلام كثير.. وكان عظيمٌ من عظمائهم ومقدّم فيهم يقف موقفاً بعد موقف أمـــام الجنازة ويُنادي بأعلى صوته :

وأظلَمَتِ الدُّنيــا لِفَقْدِ محمّــدٍ
وأَظلَمَتِ الدُّنيا لِفَقْدِ ابنِ حَنْبَلِ

يريد بذلك أن الدنيا أظلمت عند وفاة محمد ﷺ وأنها أظلمت عند موت أحمد بن حنبل كظلمتها عند موت رسول الله [1] .

ولم يكن الإمــام أحمد وحيداً في موقفه من عـــلم الكلام كما أسلفنا بل شايعـــه كل المحدثين فان هشيما ، أستاذ الحارث ، كان يرى ضرب عنق من يقول بخلق القرآن [2] .

ونوح ابن أبي مريم أستاذ الحارث أيضاً كان يقول ان الله في السماء ومن لم يقل بذلك فليس مؤمناً [3] .

وعباد بن العوام أستاذه أيضاً كان يقول: « كلمت بشرا المريسي وأصحابه فرأيت آخر كلامهم ينتهي أن يقولوا ليس في السماء شيء. أرى أن لا يناكحوا ولا يوارثوا [4] » .

وعلي بن عاصم الواسطي رأيناه يرفض الاجتماع ببشر المريسي وهو أستاذ للحارث أيضاً [5] .

ويزيد بن هارون الواسطي وهو أكبر أساتذة الحارث في الحديث وعلوم القرآن يرى أن المعتزلة جهمية لأنهم ينفون الاستواء [6] .

---

(١) مروج الذهب جـ ٢ / ٣٨٠ .
(٢) العلو للعلي الغفار ١٨٦ .
(٣) العلو ١٨٧ .
(٤) العلو ١٨٧ .
(٥) العلو ١٩٦ .
(٦) العلو ١٩٨ .

ووكيع بن الجراح وهو أستاذ للحارث أيضاً يثبت الاستواء إثباتاً يوشك أن يصل إلى التجسيم [1] .

وعفان البصري الذي يروي عنه الحارث في كتاب « العقل » نراه قد استعاذ بالله عندما طلب اليه اسحق بن ابراهيم صاحب شرطة المأمون أن يقول بخلق القرآن حتى لا يقطع رزقه [2] .

وسنيد بن داود وهو من أكبر أساتذة الحارث يقول إنه تعالى على عرشه بائن عن خلقه [3] .

وأبو عبيد أستاذ الحارث يشدد في رواية أحاديث الرؤية والعرشية [4] .

أما الإمام أحمد نفسه : فقد تواتر عنه تكفير من قال بخلق القرآن العظيم جل منزله ، كما تواتر عنه إثبات الرؤية والصفات والعلو والقدر ، وتقديم الشيخين وأن الإيمان يزيد وينقص [5] .

لعلنا نلاحظ أن المحدثين كثيراً ما يسيئون فهم مواقف المعتزلة فلم يكن منتظراً أن يفرقوا بين من مارس علم الكلام للرد على المعتزلة ، ومن مارسه كواحد منهم ، ما داموا يصرون على أن علم الكلام والجدل محرم بتاتا لأن الرسول ﷺ وأصحابه لم يمارسوا شيئاً منه ، بل أُثر عن الرسول التشديد في النهي عن الحديث في القدر .

أما موقف الحنابلة من الصوفية فقد كان معروفاً مشهوراً فهم يهاجمونهم في مناهجهم كما يهاجمونهم في موضوعات كلامهم . ويكاد (تلبيس إبليس) لابن الجوزي ان يكون مؤلفاً مفرداً في الهجوم على المتصوفة ، وابن الجوزي من أكبر أعلام الحنابلة . وفي الموضوع نفسه ألف ابن تيمية رسائل عدة ، كما فعل في الرسائل والمسائل ، ورسالة في الخرقة . ثم فعل الشيء نفسه محمد بن عبد الوهاب في العصر الحديث .

---

(١) العلو ١٩٦ .

(٢) العلو للعلي الغفار ٢٠٦ .

(٣) العلو للعلي الغفار ٢١٤ .

(٤) العلو ٢١٧ .

(٥) العلو ٢٣١ .

ومما يدل على اختلاف مناهج المحدثين الحنابلة عن مناهج الصوفية ذلك الحذر والتوجس الذي كان يسود العلاقة بين أحمد بن حنبل وتلاميذه من جهة والصوفية من جهة أخرى . فإنّ الإمامَ أحمد، على حذره منهم ، لم يستطع إلا أن يحمد لكل من المحاسبي وبشر الحافي ورعهما وحرصهما على البعد عن الشبهات[1]، كما قال أحمد عندما ذكر عنده الصوفي المعروف السرى السقطي ذلك الشيخ المشهور بطيب المطعم[2].وقد أخذ أحمد عن أبي تراب النخشبي الصوفي المعروف (٢٤٥ هـ) كما كان من تلاميذ أحمد الصوفي المعروف أيضاً إسماعيل بن نجيد (٢٦٦ هـ) . إلا أن مدح أحمد كان مقصوراً على الأشخاص ولم يتجاوز ذلك إلى المبادىء الصوفية التي كان يذمها وينكرها .

أما الصوفية فقد تراوح موقفهم من أحمد ؛ بين تقدير كبير لموقفه في محنة خلق القرآن وتصويره وكأنه واحد منهم ، وبين الغمز منه في بعض المواطن.

فنحن نراهم يصوّرونه وهو يعرّف الزهد تعريفاً صوفياً بأنه « قصر الأمل » [3] وأنه على ثلاثة أوجه : ترك الحرام وهو زهد العوام . وترك الفضول من الحلال وهو زهد الخواص . وترك ما يشغل العبد عن الله وهو زهد العارفين [4] . ثم يحدثوننا عن فلسفة الخوف عند أحمد وهي فلسفة صوفية محضة : « يحكى عن أحمد رحمه الله تعالى أنه قال : سألت ربي عز وجل أن يفتح علي باباً من الخوف .. ففتح على عقلي .. فقلت يا رب أعطني على قدر ما أطيق فسكن ذلك عني [5] » . فنرى تصوير الصوفية لأحمد يبدأ من القول بأنه من الصديقين [6] ثم ينعطف شيئاً فشيئاً إلى القول بأنه لا يستطيع أن يحتمل الخوف كما يحتمله الصوفيون . ثم إذا بهم

---

(١) الرسالة ج ١ / ٢٨٦ . (٢) تلبيس ابليس ١٨٠ .
(٣) الرسالة القشيرية ج ١ / ٢٩٤ — ٢٩٧ ،
(٤) الرسالة القشيرية ج ١ / ٢٩٤ — ٢٩٧ .
(٥) الرسالة القشيرية ج ١ / ٢٩٧ . (٦) المصدر السابق ج ١ / ٢٢٩ .

مرة واحدة ينسون أنفسهم فيتهمون أحمد بأنه لا يفهم الصوفية مع الغمز من تمسكه بالظاهر ، ولا شك أن في هـــذا الاتهـام الكثير من الصحة . فهذا « أحمد بن حنبل كان عند الشافعي رضي الله عنهما ، فجاء شيبان الراعي فقال أحمد: أريد يا أبا عبدالله أن أنبه هذا على نقصان عمله ليشتغل بتحصيل بعض العلوم فقال الشافعي : لا تفعل . فلم يقنع أحمد فقال لشيبان : مـــا تقول فيمن نسيَ صلاةً من خمس صلوات في اليوم والليلة ولا يدري أي صلاة نسيها ؟ ما الواجب عليه يا شيبان ؟ فقال شيبان : يا أحمد هذا قلبٌ غَفَلَ عن الله تعالى ، فالواجب أن يؤدَّبَ حتى لا يغفل عن مولاه بعد !! فغُشي على أحمد ... فلما أفاق قال له الإمام الشافعي رحمه الله : ألم أقل لـك لا تحرك هذا ؟! وشيبان الراعي كان أميـاً منهم (من الصوفية) فإذا كان حال الأمي منهم هكذا ، فما الظن بأئمتهم [1] » .

على ضوء هـــذا كله نستطيع أن نفهم موقف الإمـام أحمد وتلامذتـه وزملائه من الحارث المحاسبي .

يقول ابن حجر : « إن الإمام أحمد هجر الحارث المحاسبي مع أنـه كان صديقاً له [2] » . وفي رواية أخرى لابن حجر أنـه نهى أصحابه عن صحبة الحارث مع أنه قال : ما سمعتُ في الحقائق مثل كلام هذا الرجل .

ويقول ابن الأثير : ان الإمام احمد هجر الحارث بن أسد المحاسبي [3] .

ويقول الذهبي في الميزان : ان احمد بن حنبل هجره فاختفى [4] .

ويقول الخطيب : ان الإمام احمد كان يصد الناس عنه [5] .

ويفصّل الذهبي في الميزان القول عن اسماعيل بن اسحق السراج يقول : « قال لي احمد بن حنبل يبلغني أن الحارث هـــذا يكثر الكون عندك فلو

---

(١) المصدر السابق ج ٢ / ٧٣٣ .
(٢) تهذيب التهذيب ج ٢ / ١٣٥ .
(٣) الكامل في التاريخ ج ٧ / ٣٣ .
(٤) ميزان الاعتدال ج ١ / ١٩٩ — ٢٠٠ .
(٥) تاريخ بغداد ج ٨ / ٢١٤ .

أحضرته منزلك وأجلستني في مكان أسمع كلامه . ففعلت ، وحضر الحارث وأصحابة فأكلوا وصلوا العتمة ، ثم قعدوا بين يدي الحارث وهم سكوت إلى قريب نصف الليل ثم ابتدأ رجل منهم ، وأصعد الحارث ، فأخذ في الكلام وكأن على رؤوسهم الطير فمنهم من يبكي؛ ومنهم من يخر ، ومنهم من يزعق ، وهو في كلام ، فصعدت الغرفة فوجدت احمد قد بكى حتى غشي عليه إلى أن قال : فلما تفرقوا قال احمد ما أعلم أني رأيت مثل هؤلاء ولا سمعت في علم الحقائق مثل كلام هذا وعلى هذا ، فلا أرى لك صحبتهم [1] » . وهذه الروايات كلها تجمع على أن احمد هجر الحارث وأمر تلامذته بتركه .

أما مؤرخو الصوفية فصوروا الأمر بصورة أخرى ، نعني أنهم راحوا يفسرون أمر ابن حنبل تلاميذه بترك الحارث ، بأن هؤلاء لا يستطيعون فهم ما يقوله المحاسبي ، كأنما أرادوا بذلك أن يرضوا عواطف العامة المشايعة لأحمد ، وفي الوقت نفسه يدافعون عن اتجاه الحارث فلا تنصرف القلوب عنه ، وهو زعيم مدرسة صوفية كبيرة . ولا شك أن ذلك التغير يسيء إلى التصوف وأهله .

من ذلك أننا نجد مثلاً في الطبقات الكبرى للشعراني ؛ ان احمد راقب الحارث وأصحابه حتى الصباح فرآهم لم يخرجوا عن السنة في أقوالهم وأفعالهم فاعترف بفضله وقال : « كنت أسمع عن الصوفية خلاف هذا استغفر الله العظيم [2] » .

وواضح ان هذه الرواية للشعراني الصوفي لا تصور الحقيقة تماماً ، كما اننا لا نستطيع أن نقول مع ابن الجوزي إنّ الإمام أحمد أوشك أن يكفّر الحارث أو فسّقه . والأقرب إلى الحقيقة القول ان الامام أحمد اجتنبه وهو ما تقول به أكثر الروايات . أما سبب هجره له واجتنابه إياه فاختلف فيه

---

(١) ميزان الاعتدال ج ١ / ١٩٩ .

(٢) طبقات الصوفية الكبرى ج ١ / ٦٠ .

الرواة ومن مقارنة الروايات بعضها ببعض نستطيع أن نرجع ذلك إلى الأسباب التالية :

(١) لأنه تكلم في شيء من الكلام وصنف فيه وهو رأي أبي زرعة الرازي الذي سئل عن الحارث المحاسبي وكتبه فقال للسائل : « إياك وهذه الكتب هذه كتب بدع وضلالات ، عليك بالأثر فانك تجد فيه ما يغنيك فقيل له : في هذه الكتب عبرة . فقال : من لم يكن له في كتاب الله عبرة فليس له في هذه الكتب عبرة ، بلغكم ان سفيان ومالكاً والاوزاعي صنفوا هذه الكتب » . وعلى هذا قول الذهبي [١] وابن الأثير [٢] والخطيب [٣] وابن الجوزي [٤] الذي روى عن ابن حنبل اتهام الحارث بأنه جهمي .

(٢) لانه صوفي والإمام أحمد موقف عام من مناهج الصوفية وآرائهم . يقول صاحب الرسالة :
«ثم يجب على المريد أن يتأدب بشيخ فان لم يكن له استاذ لا يفلح أبداً».

قال أبو يزيد : من لم يكن له استاذ فإمامه « الشيطان » [٥] . وهو رأي لابن خلدون في سبب هجر الامام أحمد للحارث يقول : « أصل قصة المحاسبي مع ابن حنبل هو اعتقاد ابن حنبل بأنه لا يجوز أن يكون لدارس الشريعة شيخ يسلمه أمره : الأخذ ينبغي أن يكون من الكتاب والسنة » [٦] . فهو يرفض التصوف باعتباره طرقاً وشيوخاً .

(٣) لكلامه في الوساوس والخطرات ، وربما أيدته قصة ابن حنبل مع

---

(١) ميزان الاعتدال جـ ١٩٩/١ .
(٢) الكامل في التاريخ جـ ٣٢/٧ « وكان قد هجره الإمام أحمد لأجل الكلام » .
(٣) تاريخ بغداد جـ ٢١٤/٢ . (٤) تلبيس إبليس ١٩٨ .
(٥) الرسالة جـ ٢٣٥/٢ .
(٦) ابن خلدون : شفاء السائل ٦٤ . تحقيق اغناطيوس اليسوعي .

الحارث حينما حضر مجلسه فقد تأثر لكلامه ، لكنه لم يغير موقفه القائل بعدم تجاوز النص ، وآثار السلف . وليس في آثار السلف هذا الحديث عن المحاسبة والمراقبة والرياء والخطرات والوساوس والإسراف في ذلك مما نقرؤه في الوصايا وآداب النفوس والرعاية . ويقرب من هذا موقف السبكي الذي حاول التوفيق بين الحارث وابن حنبل في كتابته عنهما لانهما من تلاميذ الشافعي ، فقال [1] : « إنه إنما نهى تلاميذه عن الاستماع للحارث لانه ليس كل أحد يستطيع أن يصل إلى رتبته أو يفهم كلامه » . وربما لم يفهم الإمام أحمد نفسه كلام الحارث .

وفي الرسالة :

« اجتاز أبو العباس ابن سريح الفقيه بمجلس الجنيد رحمهما الله فسمع كلامه فقيل له : ما تقول في هذا الكلام؟ فقال : لا أدري ما يقول ... ولكني أرى لهذا الكلام صولة ليست بصولة مبطل » [2] ثم حاول السبكي تضييق شقة الخلاف بين أحمد والمحاسبي ، بالقول ان ما كان بينهما هو ما يكون عادة بين المتعاصرين ، وعلماء الجرح والتعديل يقولون « المعاصرةُ حجاب » وبذلك صار الخلافُ شخصياً لا عقيدياً . وما ارتآهُ السبكيُّ ، صار هو المعتمد عند المتأخرين ، فيقول اللكنوي « الجَرْحُ إذا صدر من تعصُّبٍ أوعداوةٍ أو مُنافرةٍ أو نحو ذلك ، فهو جَرحٌ مردودٌ .. ولهذا لم يُقبلْ قولُ الإمام مالك في محمد بن إسحاق ، صاحب المغازي ، انه دجّالٌ من الدجاجلة .. ولم يُقبَلْ قدحُ النسائي في أحمد بن صالح المصري ، وقدحُ الثوري في أبي حنيفة ، وقدحُ ابن معين في الشافعي ، وقدحُ أحمد في الحارث المحاسبي...وإياكَ ثم إياك أن تُصغي إلى ما اتفق بين أبي حنيفة وسفيان... أو بين أحمد والحارث المحاسبي » [3] .

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢/٣٩-٤٠ .

(٢) الرسالة القشيريةجـ ١/٢٣٢ .

(٣) عبد الحي اللكنوي : الرفع والتكميل ٢٥٩/٢٦١/٢٦٣/٢٧١/٢٧٢/ .

أما صدى هجمات الإمام أحمد وأتباعه عليه فلا تبدو في كتبه بوضوح ، وربما خاف إنْ عَرَضَ لهم بشيءٍ ان تشتدّ ثورتُهُمْ عليه. أو يُساء فهم موقفه وآرائه في هذا الشأن . وقد نعى في بعض كتبه على أولئك الذين يغترون بكثرة الرواية وحسن الحفظ ، مع تضييع حق الله وتخيّلُ أحدُهُم نفسَهُ انه لا يعذّبُ لأنه من العلماء وائمة العُبّاد والحُفّاظ الحافظين على المسلمين دينهم ، كما هاجم أولئك الذين يتخذون آراء سفيان الثوري ديناً [1] .

وتابع دفاعه عن موقفه في كتبه ففرّق بين الجدل الذي يراد به وجه الله ، وذلك الذي يراد به الشهرة في الدنيا وقهر الخصوم ، فمدح النوع الأول وذم الثاني [2] . وكأنما أشار إلى أن جدله كان لله ورسوله وهو على هذا ممدوح مأجور .

رأى الحارث أن الجو العام في بغداد لم يعد ملائماً له فقد استتر بتصوفه أيام سطوة المعتزلة فلم يهتم المعتزلة لأمره لإستخفافهم بالمتصوفة ، فلما سيطر الحنابلة على بغداد وراحوا يهاجمون المتصوفة وعلماء الكلام جميعاً، غير مفرقين بين من ينتصر بكلامه للسنة ومن ينصر البدعة ، ضاق صدره ، بل ربما ناله شيء من الأذى. ثم بلغه غضب ابن حنبل عليه فاكتفى بالقول بصدر رحب : «أنا أتوبُ مما أغضَبَ أبا عبدالله !!» ثم رأى أن يخرج من بغداد حتى تهدأ الثائرة ، فلما فرغ الحنابلة من تحطيم المعتزلة ببغداد ، وهدأت ملاحقتهم لمتكلميهم عاد الحارث إليها .

ولا نستطيع هنا أن نجزم كما جزم ماسينيون بأن خُروجَهُ من بغداد كان سنة (٢٣٢ هـ.) إذ ان إجراءات المتوكل ضد المتكلمين بدأت سنة (٢٣٦ هـ) بداية جادة ، وكان الأولى بالحارث أن يصر على إظهار السنة ، والعودة إلى

---

(١) المسائل : ٢١٢ – والرعاية ١٨٥/٣٨٤ .

(٢) المسائل : ١٤٠-١٤١ .

حلقات المحدثين لأنه منهم تقريباً ، وهو على ما نعهده فيه من الحب لبغداد والحرص على البقاء فيها ، لذا نستطيع أن نقول انه لم يخرج منها إلاّ بعد أن لم يسعه المقام . وربما لم يعد إلا بعد وفاة الإمام أحمد (٢٤١ هـ) .

على ان تلامذة الإمام أحمد كانوا أشد تعصباً وأقل علماً ، فاستمر الحارث في الاختفاء حتى إذا توفي لم يُصلّ عليه إلا أربعةُ نفر (٢٤٣ هـ)[١] . وفي تاريخ بغداد « وكان أحمد بن حنبل يكره لحارث نظره في الكلام وتصنيفه فيه الكتب ويصد الناس عنه ، فلما تكلم في شيء منه هجره أحمد فاختفى في داره ببغداد ومات فيها ولم يصلّ عليه إلاّ أربعةُ نفر[٢] .

ولم تمض على موت الحارث سنون ، حتى كانت فتنة غلام الخليل المحدّث الفقيه الحنبلي ، وهو أحمد بن محمد بن غالب (٢٦٢ هـ) . وكان مشهوراً بالورع والتقوى ، ولكنه كان ينكر على الصوفية كلامهم في الحب الإلهي والاتصال بالله وما إلى ذلك من المقالات التي انتشرت في القرن الثالث الهجري ، اتهم غلامُ الخليل هذا – وكان قريباً من الخليفة – زهاء سبعين من الصوفية بالزندقة من بينهم شيخ الطائفة ببغداد الجنيد وحُكم عليهم بالإعدام ثم أُفرج عنهم[٣] .

لقد كان ابن حنبل يمقت الصوفية لكن أتباعه كانوا أشد مقتاً لهم وتنكيلاً بهم . وقد اتسمت ملاحقاتهم لمخالفيهم في الرأي من العلماء بالتطرف والقسوة ، فتجاوزوا الصوفية إلى كل من لا يذهب مذهب أحمد ابن حنبل ، فكادوا يقتلون الإمامَ الطبريّ (٢٢٥–٣١٠ هـ) . لأنه قال في كتابه في « اختلاف الفقهاء » إنّ أحمد محدّث وليس فقيهاً ، ودفنت جثة الطبري سراً خوفاً من أن يثور الحنابلة على الجثة نفسها ، مع ان السبكيّ الشافعي الدقيق كان يقول عنه : « إنه فقيه العالم[٤] » .

---

(١) تاريخ بغداد جـ ٨/٢١٤ .　　(٢) تاريخ بغداد جـ ٨ / ٢١٤ .

(٣) د. أبو العلا عفيفي: التصوف : الثورة الروحية في الإسلام ١١٣ – ١١٤ .

(٤) راجع ما كتبه عنه الخطيب في تاريخ بغداد جـ٢/١٦٢ ، رغم تعصبه للمحدثين .

مكانته :

١ – قال القشيري : عديم النظير في زمانـــه علماً وورعاً ومعاملة وحالا ...[١]

٢ – قال التميمي : هو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحـــديث والكلام[٢] .

٣ – قال الغزالي : المحاسبي حبر الأمة في المعاملة وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس وآفات الأعمال[٣] .

٤ – قال ابن خفيف : إقتدوا بخمسة من شيوخنـــا والباقون سلموا لهم حالهم : الحارث بن أسد المحاسبي ، والجنيد بن محمد، وأبو أحمد رويم ، وأبو العباس بن عطاء ، وعمرو بن عثمان المكي لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق[٤] .

٥ – قال الخطيب البغدادي : المحاسبي أحد من اجتمعله الزهد والمعرفة بعلم الظاهر والباطن[٥] .

٦ – قال أبو عبد الرحمن السلمي : من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر، وعلوم المعاملات ، والاشارات ، وهو استاذ أكثر البغداديين[٦] .

٧ – قال السبكي : عَلَمُ العارفين في زمانه،واستاذ السائرين ، الجامع بين علمي الظاهر والباطن[٧] .

٨ – قال ابن النديم : المحاسبي البغدادي من الزهاد المتكلمين على العبادة والزهد في الدنيا، والمواعظ كان فقيهاً، متكلماً،مقدماً، كتب الحديث،وعرف

---

(١) الرسالة القشيرية ج١/٧٢ .
(٢) المصدر السابق ج ٧٢/١ وتعليق المحقق كما ورد ذكر ذلك ايضاً في الكواكب للمناوي.
(٣) الرسالة القشيرية ج ٧٣/١ .
(٤) المصدر نفسه ، نفس الصفحة .
(٥) تاريخ بغداد ج٨/٢١٤ .
(٦) طبقات الصوفية ٥٦ – ٦٠ .
(٧) طبقات الشافعية الكبرى ج ٧٣/٢ .

مذاهب النساك [١] .

٩ – قال الشعراني : هو من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر ، وعلوم الأصول ، وعلوم المعاملات ، عديم النظير في زمانه [٢] .

١٠ – قال أبو نعيم : كان في علم الأصول راسخاً وراجحاً [٣] .

١١ – وصفه ابن العماد بأنه الزاهد الناطق بالحكمة [٤] .

١٢ – قال ابن خلدون : جمع فقه الباطن وفقه الظاهر وفقه الورع وعلم الآخرة [٥] .

١٣ – قال الكلاباذي : هو ممن صنف في المعاملات ، ممن جمع الفقه والكلام ، واللغة ، وعلم القرآن [٦] .

١٤ – قال عبدالله اليافعي : إمامَ الطريقة البصريُّ الأصل ؛ اجتمع له عِلمُ الظاهر والباطن ، له تصانيف في السلوك والمواعظ والأصول وهو أَحدُ شيوخ الجنيد . وهو من الخمسة الشيوخ الجامعين بين علم الظاهر والباطن في عصر واحد وهم هو ... والجنيد ورويم وابن عطاء وعمرو بن عثمان [٧] .

١٥ – قال فريد الدين العطار : كان المحاسبي من علماء المشايخ ، مرجع أولياء زمانه في المعاملات والاشارات ، وكان العلماء في عصره يرجعون إليه في كل فن . اشتهر بفراسة حاذقة بلا نظير ، وبأنه شيخ مشايخ بغداد ، مختص بالتجريد ، والتوحيد ، والمجاهدة ، والمشاهدة [٨] .

١٦ – المناوي : هو علم، استاذ ، صوفي ، برع في عدة فنون ، واعظ ،

---

(١) الفهرست ٢٦١ .
(٢) طبقات الصوفية الكبرى ج ٦٠/١ .
(٣) حلية الأولياء ج ٧٤/١٠ .
(٤) شذرات الذهب ج ١٠٣/٢ .
(٥) ابن خلدون – شفاء السائل ٢٧ .
(٦) التعرف – نشرة آربري – ١٢ .
(٧) مرآة الجنان ج ٤٢/٢ .
(٨) التذكرة – للعطار – نشرة نيكلسون ٢٢٥ – ٢٢٩ .

مؤثر له تصانيف كثيرة في علم الأصول (أصول الدين) . وهو كما قال عنه التميمي : إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام [١] .

وقد أشار القشيري ، والتميمي ، وابن خفيف ، والسلمي ، والخطيب ، والسبكي ، والشعراني ، واليافعي ، والكلاباذي ، والمناوي ، إلى أنه جمع بين التصوف والفقه والحديث والتفسير .

أما في التفسير فقد وُجدت له قطعة لم تشتهر ، وربما تجاهلها من خوفاً من الحنابلة والصوفية بسبب نزعته الكلامية فيها ، ويظن بعض الباحثين أنه بسبب هذه القطعة التفسيرية كان خلافه مع ابن حنبل .

ومما يدل على تقدمه في الفقه ما رواه الخطيب عن ابن شاذان : ان الحارث ألّف كتاباً في الدماء التي جرت بين الصحابة وعليه عَوّلَ أصحابنا، ولقد أثار كتابه هذا رضى الكثيرين وسخط الكثيرين فماسينيون يقول ان الحافظ العراقي (٨٠٦ هـ) [٢] ردّ على كتاب الحارث في الدماء ، بكتاب اسمه : (البعث على الخلاص من حوادث القصاص) .

وهو يورد في تضاعيف مؤلفاته آراء رجال السلف ، والفقهاء المعاصرين في مختلف المسائل الفقهية ، مما يدل على سعة علمه . هذا إلى أنه أخذ عن الشافعي الذي درس على الإمام مالك ، والإمام محمد بن الحسن . ثم خرج بمذهبه الخاص .

أما كونه محدّثاً فأمر لا شك فيه . فقد قضى صدر شبابه يسمع المحدثين وأخذ عن حوالي الثلاثين منهم ، بينهم كبار محدثي العصر كأبي عبيد الذي قال فيه أحمد « انه يزداد عندنا كل يوم خيراً » . وقال فيه الداراني : « انه جبل نُفخ فيه الروح » . وقال فيه بعض المحدثين « انه أعلم من ابن راهويه

---

(١) الكواكب للمناوي ج ٢ / ٢١٨ .

(٢) Massignon - Essai p. 241 - 251 .

وابن حنبل [١] » . ومن هؤلاء الكثيرين الذين أخذ الحارث الحديث عنهم :

وكيع بن الجراح رجل الحديث الأول في الكوفة ، واستاذ احمد ابن حنبل .

وهشيم بن بشير أحد من روى عنهم البخاري ومسلم .

وابن أبي شيبة : وكان من علية أصحاب الحديث .

يزيد بن هارون عمدة أهل الحديث في علمهم ، وعظيم من عظمائهم [٢] .

وسنيد بن داود الحافظ السلفي ، والمفسر بالأثر [٣] .

وشُريح بن يونس أحد كبار المحدثين .

وقد قيّم الذهبي الحارث كمحدث فقال عنه : — مع ما عُرف من تحامله على الصوفية —: «صدوق » . وهذا حكم عادل صحيح ، وإنما لم يصفه بالثقة أو الضبط أو غير ذلك من صفات الحفاظ المدققين ، لأن الحارث كان يروي عن الضعفاء أحياناً كعثمان بن محمد،والحسن بن محمد،وابن أبي مريم وغيرهم من الذين ذكرناهم في ثبت شيوخه . ثم لأن المحاسبي عندما ترك بيئات المحدثين والفقهاء ، وانغمس في بيئات الصوفية لم يعد يهتم كثيراً لاسناد الحديث ، ويلاحظ ذلك في كتابه (الرعاية) الذي يمثل قمة تطوره الفكري ، بينما نراه في كتابه (فهم القرآن) يحرص دائماً على ايراد الحديث بسنده. وتسامحه هذا في روايه الحديث في مرحلته الأخيرة أدى به إلى رواية كثير من الأحاديث الضعيفة ، فقد ورد عنه الاحتجاج بحديث : « القدرية مجوس هذه

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٣ / ٢٢٥ — ٢٢٧ .
(٢) المروج للمسعودي ج ٢ / ٣٣٦ .
(٣) العلو للذهبي ٢١٤ .

الأمة » وهو حديث شديد الضعف. واعتمد في كتابه « التوهم » على حديث طويل منسوب للرسول في وصف الجنة وأهلها وهو من موضوعات بعض القُصّاص . ويضيف الذهبيُ إلى قوله عن الحارث أنه صدوق ، كلمة قد تعلل سبب ضعف الحارث في الحديث على كثرة حفظه : « وقد نقموا عليه بعض تصوفه وتصانيفه » . كما قال أبو زرعة تلميذ الامام أحمد عن كتبه « انها كتب بدع وضلالات » .

إن الطريق الذي اختاره الحارث لنفسه – اعني طريق التصوف – ثم الناحية التي كاد يختص بها منه، وهي حديثه في الوساوس والخطرات، اقتضاه أن يؤيد هذا الاتجاه وهذا الاختصاص بآثارٍ عن الرسول، ورجال السلف. وكان المجال أمامه ضيقاً فكان أن أكثر من الاستشهاد بضعاف الأحاديث وأقوال ابن منبه والحسن ومجاهد . وقد أفادته نزعته الكلامية العقلية في هذا المجال بعض الشيء ، فلم يقع في رواية أحاديث التشبيه والتجسيم التي وقع غيره من الصوفية قليلي العلم فيها . لكنه لم ينج من آثار الغنوص ، ولم يكن ضعف الحارث في الحديث أو رتبته الوسطى فيه ، بدعاً بين الصوفية ، إذ اشتهر عنهم عدم الاهتمام بالحديث ، حتى قال خصومهم إنهم يجيزون وضع الحديث لنصرة مذاهبهم في علم الباطن . ويبدو ذلك واضحاً في « حلية الأولياء » ، وواضحاً أيضاً في « طبقات السلمي » الذي يتهمه خصومه بوضع كثير من الأحاديث . ثم يستشري هذا الداء في كتاب « الإحياء » للامام الغزالي الذي نجد فيه كثيراً من الأحاديث الموضوعة بغير ما تعمد ، والإحياء هو المنهل الذي ما زال الصوفية إلى اليوم ينهلون منه . وقد بلغ هجوم الحنابلة على الغزالي لروايته الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، مبلغاً عظيماً ، حتى وضع الحافظ العراقي أحد أنصار الإمام الغزالي جزءاً صغيراً في نقد أحاديث الإحياء على طريقةِ المحدّثين ليبرأ منها كتابُ الغزاليّ العظيم .

مدرسته :

يقول « السلمي »: هو استاذ أكثر البغداديين [١] . ويقول عنه «العطّار» في « التذكرة » : هو شيخ مشايخ بغداد ومرجع أولياء زمانه كان العلماء في عصره يرجعون إليه في كل فن [٢] . ويدل على تقدم رتبته في التصوف انه خامس الأربعة الذين يقول الصوفية انهم جمعوا بين علم الظاهر والباطن في عصر واحد ، بل كان استاذاً لهم . إذ أخذ عنه أو صحبه كل من معروف الكرخي (— ٢٠٠ هـ) وابن عطاء (— ٢٠٩ هـ) والسري السقطي (— ٢٥١ هـ)وعمرو بن عثمان المكي (— ٢٩١ هـ) والجنيد (— ٢٩٧ هـ) .

وابتداء من النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ازدهر التصوف،وكثر مشايخ الصوفية،وانتشرت حلقاتهم في مختلف بقاع العالم الإسلامي . وبالرغم من أن أصولهم وغاياتهم كانت متشابهة لكن كانت للبيئات التي نشأوا فيها آثارها الواضحة على تصوفهم ، فبالاضافة إلى الثقافة السلفية في علوم القرآن والحديث ، والتي تختلف من قطر إلى قطر في العمق والنظرة ، فقد كانت هناك التقاليد الثقافية القديمة في الأقطار ذات الحضارة العريقة قبل فتح المسلمين لها . ثم المزاج الشخصي لشيخ الحلقة . وقد كان طلابه ومريدوه شديدي الارتباط بشخصة وبآرائه لأنَّ «من لا إمامَ له فإمامُهُ الشَيْطانُ». حتى لقد طلب الكرخي إلى تلاميذه « ان يُقْسِموا على الله به » . كما طلب إليهم أبو زيد البسطامي في عبارة غريبة « ان يدعوه هو ولا يدعوا الله » .

لهذه العوامل كلها بدأ التميز بين الصوفية في مختلف الأقطار . فقد تميزت هذه الحلقة فينيسابور عن تلك التي في البصرة، أو بغداد، أو الشام،أو مصر.

ولقرب الكوفة من مراكز الثقافة القديمة فقد نشأت مدارس التصوف

---

(١) طبقات الصوفية ٥٦ . (٢) تذكرة الأولياء ٢٢٥ .

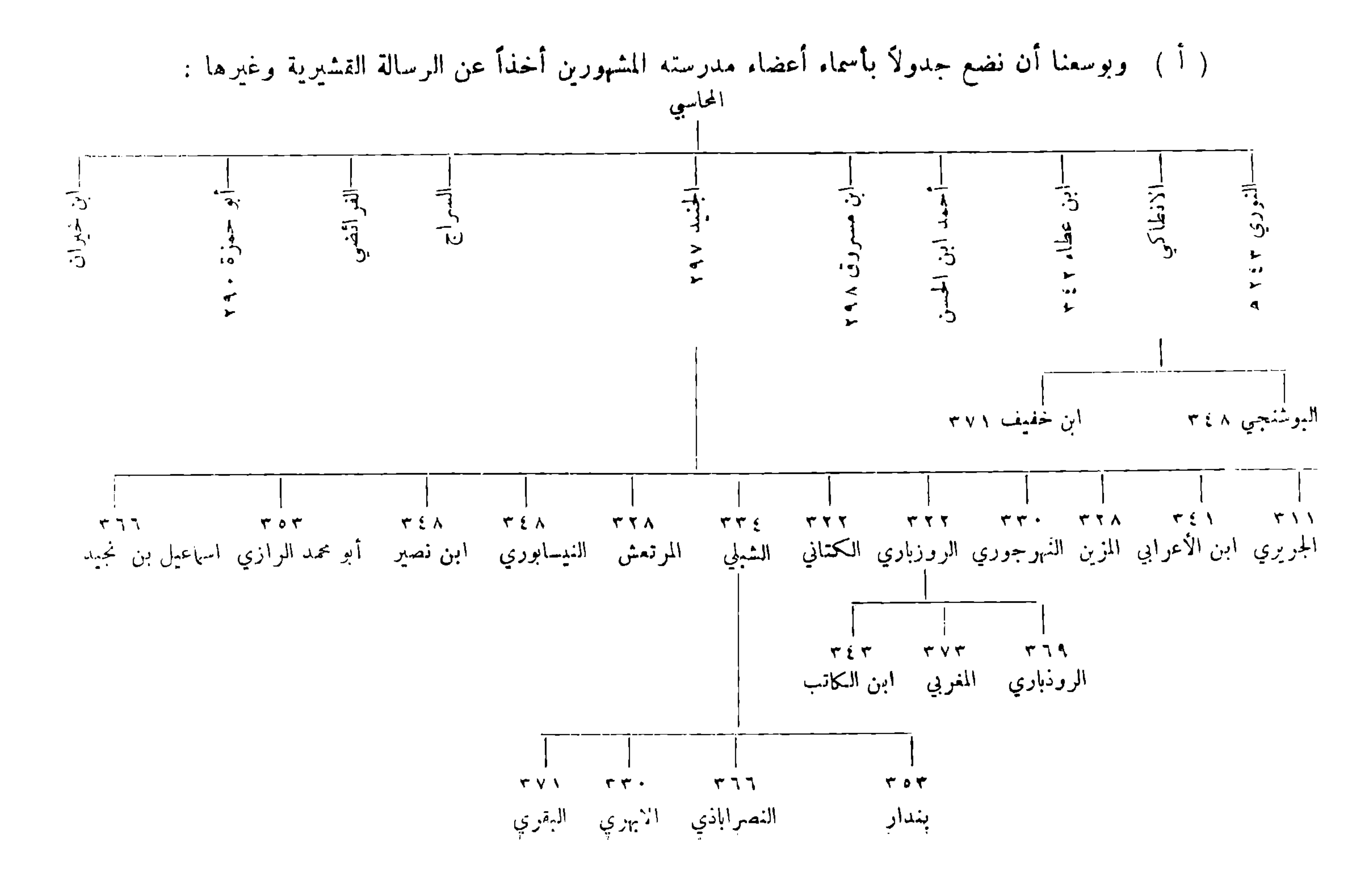
فيها وفي غيرها من أقطار فارس متأثرة بتلك الثقافة آراميها ومزدكيها ومانويها وهندوكيها .

ولما أصبحت بغداد مركز الإسلام السياسي والإقتصادي وضعف شأن التصوف في البصرة ، ذلك التصوف – الذي كان سلفياً بتأثير مدرسة الحسن البصري وذا نزعة كلامية – ورثت بغدادُ التصوّفَ البصري والمدني معاً ، فوضعت له أساساً وقواعد . ولذلك وجدنا في مدرسة بغداد الصوفية زهد أهل البصرة الذي كان متأثراً بنظريات المعتزلة الكلامية ، وزهد أهل المدينة الذي كان متأثراً بالحديث . ومن أبرز من ظهر فيهم الأثر الأول الحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣ هـ.)[١]

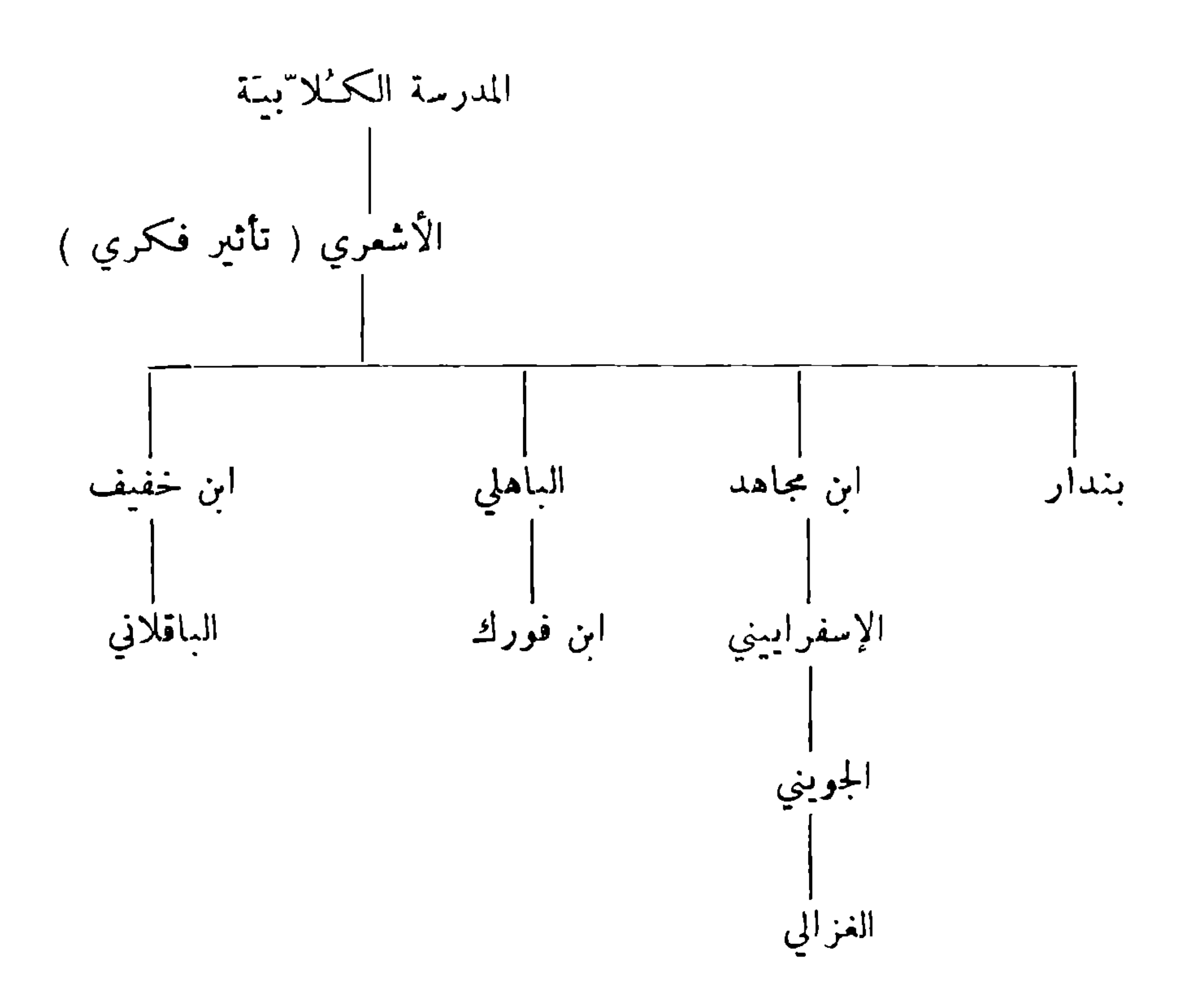
وقد نقلنا سابقاً عن المؤرخين للحارث أنه كان شيخاً لمدرسة بغداد وقد أخذ عنه أو عمن أخذ عنه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة كل من ينتمي إلى هذه المدرسة ، وبرزت فيهم ميزات فلسفة الحارث وخطوطها الرئيسية في التصوف وعلم الكلام ، وقد ذكر له المؤرخون عدداً من تلامذته كأبي العباس ابن مسروق الطوسي ، وأحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي ، والجنيد بن عبد الرحمن ، وأحمد بن نصر الفرائضي ، واسماعيل بن إسحق الثقفي السراج ، وأبو علي ابن خيران الفقيه .

(١) التصوف : الثورة الروحية في الإسلام : ٨٧

(أ) وبوسعنا أن نضع جدولاً بأسماء أعضاء مدرسته المشهورين أخذاً عن الرسالة القشيرية وغيرها :



(ب) جدول أثره في الأشاعرة



والجنيد: تلميذ الحارث « سيد هذه الطائفة وإمامهم » كما يقول القشيري: كان فقيهاً على مذهب أبي ثور، وكان يفتي في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة. صحب خاله السري، والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب[1] . وكان النوري كبير الشأن حسن المعاملة واللسان وصحب السري والمحاسبي[2] . أما ابن عطاء فهو من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم[3]. أما أبو حمزة فكان عالما بالقرآت وفقيها[4]. أما الشبلي فكان شيخ وقته حالاً وظرفا وعلما[5].

والمرتعش كان كبير الشأن[6] . أما الروذباري فكان أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة[7]. وابن الكاتب كان كبيراً في حاله[8]. أما ابن خفيف فهو شيخ الشيوخ وواحد وقته[9] . أما بندار بن الحسين[10] فكان عالما « بالأصول » كبيراً في الحال . والمقصود بالأصول هنا علم الكلام .

طابع المدرسة :

١ – السلفية :

ولقد حافظت المدرسة على طابع الورع الذي ورثته عن شيخها الأول « المحاسبي » وكان أعضاؤها علماء في القرآن والفقه والحديث فلم تنتشر فيها الدعاوى، ولا افضت بها الهواجس إلى الحلول أو الإتحاد أو غير ذلك من المذاهب الغريبة التي بدأت تسيطر على الأوساط الصوفية منذ أواخر القرن الثاني الهجري. من الشريعة بدأوا وإلى الشريعة انتهوا فلم يضيعوها في أقوالهم ولا في أعمالهم . روى الروذباري عن الجنيد أنه أجاب رجلا سأله قائلا : « أهل المعرفة يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب الى الله عز

---

(١) الرسالة جـ ١/١٠٥ .
(٢) الرسالة جـ ١/١١٣ .
(٣) الرسالة جـ ١/١٣٥ .
(٤) الرسالة جـ ١/١٣٩ .
(٥) الرسالة جـ ١/١٤٨ .
(٦) الرسالة جـ ١/١٤٠ .
(٧) الرسالة جـ ١/١٥١ .
(٨) الرسالة جـ ١/١٥٨ .
(٩) الرسالة جـ ١/١٧٣ .
(١٠) الرسالة جـ١/١٧٥ .

وجل ؟ فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندي عظيم ، والذي يسرق ويزني أحسن حالاً من الذي يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيتُ ألفَ عامٍ لم أنقص من أعمال البرّ ذرّة ، إلا أن يُحالَ بي دونها »[1] .

وقال : « كلُّ الطرق مسدودةٌ على الخلقِ إلا مَن اقتفى أثرَ رسول الله » .

وقال : « من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديثَ لا يُقتدى به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنّة[2] » .

وقال النوري : « من رأيته يدعي مع الله حالة تخرجه عن حدِّ العلم الشرعي فلا تقربن منه »[3] .

وقال ابن مسروق : « من راقب الله في خطرات قلبه عصمه الله في حركات جوارحه »[4] .

وقال الجريري : « رؤية الأصول باستعمال الفروع ، وتصحيح الفروع بمعارضة الأصول. ولا سبيل إلى مقام مشاهدة الأحوال إلا بتعظيم ما عظم الله من الوسائط والفروع[5] » .

وقال إبن عطاء : « من ألزَم نفسَهُ آدابَ الشريعةِ نوّرَ اللهُ قلبه بنور المعرفة. ولا مقام أشرف من مقام متابعةٍ لحديث الرسول ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه[6] » . وقد اشتهر الجنيد بأنه صاحب «مذهب الصحو» في التصوف خلافاً لكثير من المتصوفة ذوي الشطحات من معاصريه .

---

(١) الرسالة جـ ١/١٠٦   (٢) الرسالة جـ/١ ١٠٧ .
(٣) الرسالة جـ ١/١١٢   (٤) الرسالة جـ ١/١٣١ .
(٥) الرسالة جـ ١/١٣٤   (٦) الرسالة جـ ١/١٣٥ .

٢ – النزعة الكلامية :

هذه النزعة التي تختلط أشد الاختلاط بالتصوف في مدرسة المحاسبي خصوصاً عند الجنيد والنوري والشبلي فيما يتصل بمسائل المعرفة بالله والمحبة الإلهية والفناء في الله والبقاء به . ولا شك أن هذه النزعة هي سبب لقائهم مع الأشاعرة وهي ايضاً ميزة من ميزات تصوف المحاسبي المولود في البصرة ، بيئة المتكلمين الاولى(١) .

٣ – البحث في أحوال النفس :

والبحث في آفاتها من الأحوال والمقامات الصوفية : كالوجد والشوق والقرب والانس والغيبة والحضور والايثار والذكر والتوبة ورؤية الله(٢) . وقد اشتهرت كتب المحاسبي عند خصومه بأنها كتب وساوس وخطرات . ولا يخلو كتاب منها من كلام طويل عن الرياء والكبر والعجب وتفقد السرائر وغير ذلك من دقائق النفس .

كتبه :

يقول « السبكي » في ترجمته « للمحاسبي » عن كتبه : روى عن بعضهم أنها تبلغ مئتي مصنف في الزهد والسلوك والتصوف وأصول الدين والرد على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم من المخالفين وبعضها في الفقه والأحكام(٣) .

ويقول ابن النديم : له من الكتب كتاب التفكر والاعتبار(٤) .

ويقول الخطيب : للحارث كتب كثيرة في الزهد وفي أصول الديانات

---

(١) التصوف : الثورة الروحية في الاسلام ٩٤ .
(٢) التصوف : الثورة الروحية في الاسلام ٩٥ .
(٣) مقدمة رسالة المسترشدين : ابو غدة ١١ .
(٤) الفهرست ٢٦١ .

والرد على المخالفين من المعتزلة والرافضة وغيرهما . وكتبه كثيرة الفوائد جمة المنافع[1] .

ذكر أبو علي ابن شاذان يوماً كتاب الحارث في الدماء فقال : « على هذا الكتاب عوّلَ أصحابنا في أمر الدماء التي جرت بين الصحابة » .

ويتحدث الخطيب عن كتاب له في المعرفة وكذا الشعراني[2].

ويقول ابن العماد : له مصنفات نفيسه في الأصول والسلوك[3] .

ويتحدث ابن حجر عن كتب الحارث التي رأى فيها الحافظ أبو زرعة كتب بدعة وضلالة[4] .

ويذكر ابن خلدون ان كتاب الطريقة الأولى بين معاصريه كان كتاب الرعاية للامام المحاسبي[5].

ويذكر صاحب « مرآة الجنان » أن للحارث تصانيف في السلوك والمواعظ والأصول ومن كتبه النفيسة المشهورة كتاب الرعاية[6].

ويقول د. عفيفي : انه أعظم مؤلف صوفي في القرن الثالث الهجري[7].

من أقوال هؤلاء جميعاً نخرج بفكرة على شيء من الوضوح عن فكر الحارث. فهذه الكثرة من الكتب التي يبلغ بها الخطيب المئتين عداً — وهو ثقة في هذا لأنه بغدادي ، والحارث بغدادي ولأنه ليس متأخراً عنه كثيراً ، ولأنه واسع الاطلاع على الكتب — لا تثير استغرابنا ، إذ ان أكثرها رسائل صغيرة ، كالرسائل التي وصلتنا في الزهد والمكاسب والعقل وآداب النفوس .

---

(١) تاريخ بغداد ج٢/٢١١ .
(٢) الطبقات الكبرى ج١/٦٠ .
(٣) شذرات الذهب ج٢/١٠٣ .
(٤) تهذيب التهذيب ج٢/١٣٤ .
(٥) شفاء السائل ٢٧ .
(٦) مرآة الجنان : ج٢/١٤٢ .
(٧) التصوف : الثورة الروحية ٢١٢.

ونفهم بالنظر في حجم هذه الرسائل ومنهجها أنها كانت فعلاً تؤلف كما رُوي عنه جواباً على أسئلة كانت تُوَجَّهُ إليه حـــول المواضيـع الملحة التي تشغل الأذهان وقت السؤال والجواب في بيئات المحدثين والصوفية والمتكلمـين ، وإن كُتبت جميعها ، في ما عـــدا العقل ، بروح صوفية واضحة. والكتب التي وصلتنا من تلك الكثرة السالفة الذكر تتناول مختلف الموضوعات التي كانت مثاراً للجدل وموطناً للحجاج بين العلماء. فهي وان انصبّت في أكثرها على الموضوعات الصوفية تتعرض لأمور في علم الكلام والحديث والفقه والتفسير.

في الحلية وتاريخ بغداد: قال الجنيد: « كان الحارث المحاسبي يجيءُ إلى منزلنا ويقول أخرج معي نصحر ، فأقول له تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات. فيقول: أخرج معـي ولا خوف عليك فأخرُجُ معه ، فكأنّ الطريقَ فارغٌ من كل شيء لا نرى شيئاً نكرهه ، فإذا حصلت في المكان الذي يجلس فيه ، قال لي: سلني ، فأقول له مـــا عندي سؤال أسألك ، فيقول لي سلني عمـــا يقع في نفسك ، فتنثال عليّ السؤالات ، فأسأله ، فيجيبُني عنهـــا للوقت ثم يَمضي إلى منزله فيعملهـــا كتبا[1].

ومنهج الحارث هذا منهج فريد في التأليف فهو لا يكتب إلا ما كان في النفس حاجة إليه ، ولا يلتمس مناسبات القول التماساً ، وإنمـا كان يتفحص النفوس ليعلم ما تتطلب وما ينقصها من المعارف وما يشكل عليهـا فهمه من الحق فيدوِّنه كتباً. ونهجه هذا نهج تجريبي كبير الجدوى على المجتمع ، جم الفائدة ، يعفي من الثرثرة بكثير لا حاجة لنا به من فنون الكلام ، واللغو بالقول[2].

---

(١) الحلية جـ١٠/٢١٨. وتاريخ بغداد جـ٨/٢١١.

(٢) مقدمة المسائل للحارث: ـ تحقيق عبدالقادر عطا ـ ١٤.

ولأمانة الحارث في نقل أفكار عصره نستطيع أن نقول وبغير تردد أن الموضوعات التي كتب فيها الحارث هي الموضوعات التي كانت شغل العلماء الشاغل في النصف الأول من القرن الثالث . ونهج الحارث هذا في التأليف يعلل لنا أمراً آخر بدا في مؤلفاته هو قِصرُها وإيجازُها في الغالب .

فلأن المحاسبي يكره اللغو والفضول والتشدق بالكلام ، ولأن الجواب ينبغي أن يكون على قدر السؤال ، كانت أكثر مؤلفاته مختصرة يقع الواحد منها في بضع عشرة ورقة تفي بالمراد وتُفهم المريد ما يريد له أن يفهم .

ولا يعني ذلك أن المحاسبي ترك مؤلفاته في صورة حوار مرتجل بل نظمها بشكل متسق ومنطقي بعض الشيء تبعاً لنمو نزعته العقلية ونضج تفكيره . وسنحاول أن نقسم مؤلفات الحارث تقسيماً زمنياً . ونرى أن تقسيم د. عبد الحليم محمود لها إلى ثلاث فترات تأليفية له ما يبرره ، لكن بما أنه لم تصل إلينا من مرحلة تفكيره الأولى أشياء يمكن الاعتماد عليها تماماً فإننا نؤثر أن نقسمها إلى فترتين زمنيتين تحدد نهاية أولاهما وبداية الثانية أزمته الروحية التي انتهت بانضمامه إلى جماعات الصوفية في بغداد وهذا التقسيم يعتمد على أمرين :

أولهما الإشارات التاريخية في مؤلفات الحارث ، ومؤلفات من كتبوا عنه .

وثانيهما روح النص المكتوب ، والنقد الداخلي له .

مؤلفات فترة التحول : (١٩٥-٢٠٧ هـ)

وهذا التاريخ الأخير هو الوقت الذي استقر الأمر فيه تقريباً للمأمون .

النصائح أو الوصايا

يتحدث في أوله عن أزمته الروحية ، وحيرته بين الفرق الكثيرة التي شغلت

مسرح العصر، ويشكو إلى الله شيوع الترف والتحلل ويتحدث عن هوان النفس على رجال الشهوات حديثاً نفهم منه أن تأليفه لهذا الكتاب كان في غمار الفتنة التي قامت بين الأمين والمأمون على الخلافة .

ويتفق هذا التاريخ مع ما رواه صاحب « التذكرة » عنه من أنه أخذ عن نفسه ثلاثين سنة، وعن الله ثلاثين سنة أخرى. فإذا كان مولده (١٦٥ هـ) تكون أزمته الروحية قد بدأت (١٩٥هـ–٢٠٠هـ) وهي الفترة التي تعاظمت فيها قلاقل السلطة بين الأمين والمأمون حتى إذا قتل الأمين (١٩٨ هـ) وانصرف قائد المأمون طاهر بن الحسين عن بغداد، ظهر إبراهيم بن المهدي ودعا إلى نفسه ونشبت ثورة شيعية في العراق بزعامة ابن طباطبا العلوي وأبي السرايا.

ويبدو أسى الحارث في ذروته عندما يتحدث بيأس عن ندرة العلماء الكابحين لهواهم، المعتزلين للفتن، ويرى أن سبب الفساد المستشري هو المال وحب الدنيا [1] . فيعقد فصلاً طويلاً يتحدث فيه عن موقف الرسول والتابعين من المال وزخارف الدنيا ويكاد يدعو إلى ترك الحلال كله فيقول : « ان ترك جمع المال الحلال لإنفاقه في وجوه البر أولى من جمعه، وان من يقول بأولوية جمع المال لإنفاقه قصداً إلى البر يتهم الله تعالى لعدم معرفة الحق إذ حذر الله من المال ومن جمعه » .

ثم ينهى عن النظر في خلاف سلف الأمة ويبدو خائفاً أن يقارن الناس بين أحوال الخلف والسلف مشيراً في ذلك إلى ما وقع بين علي ومعاوية وما كان يقع يومها بين الأمين والمأمون .

وتظهر نزعة الحارث العقلية دونما تطرف حينما يعقد فصلاً يتحدث فيه عن فضل العقل في طاعة الله جل وعلا . وتدور باقي أبواب الكتاب تحت عنوان كبير يمكن وضعه لها هو : المحاسبة، أو اجتناب الرياء وهو موضوع محبب

---

(١) الوصايا أو النصائح للحارث : تحقيق عبدالقادر عطا – القاهرة ص ٣٤ .

إلى الحارث المحاسبي ويدين له بلقبه ، بل هو أحد أركان مذهبه الصوفي كما سنرى في الحديث عن هذا المذهب .

كتاب الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين

موضوعاته هي موضوعات « الوصايا » وإن لم يذكر في مقدمته شيئاً عن أزمته الروحية التي مر بها ، أما الروح المتسلط على هذا الكتاب فهو اليأس مما في أيدي الخلائق واللواذ بجناب الخالق مع تركيز ملحوظ على الدعوة إلى العزلة عن الفتن وشدة التفتيش على الأهواء ووأدها قبل أن تسيطر على صاحبها .

ومما يدعو إلى العجب أن المحاسبي – وقد كان لسنوات خلت تلميذاً للمحدثين – يبتعد عن نزعته التحديثية التي كان ينبغي أن تظهر في كتبه هذه ويعتمد على أحاديث للرسول تختلف درجاتها في الصحة مع إغفال الإسناد الذي يغرم به المحدثون عادة . وربما أمكن تعليل ذلك بأن الشك الذي داخله حول سلامة طريقته في الحياة ربما شمل أسانيده ، عن المحدثين ، باعتبارها مظهراً من مظاهر الرياء والتفاخر بإظهار العلم وكثرة الحفظ وقد أنحى هو على المحدثين باللائمة في هذه النقطة في بعض كتبه المتأخرة .

آداب النفوس

ويسيطر عليه الروح الذي سيطر على الكتابين السابقين فيتحدث فيه عن كيفية إخلاص القلب لله ،وظهور ذلك على الجوارح مع التركيز على أمرين أساسيين : العلم والعقل . فهو يرى أن العلم باعث لأداء فرائض الله. والعقل ، داعية لمحاربة أهواء النفس ، ومن عرف الشر حق المعرفة وقع في الخير ،

وتجنب بفطنته دقائق الأهواء وآفات الباطن وعرف نفسه وعدوه فانصرف إلى طاعة الله بعلمه[1].

رسالة المسترشدين :

ويسيطر عليه الروح الذي سيطر على آداب النفوس ويبدو فيه احترام العقل مختلطاً بل متلازماً مع مزيد من الاتجاه نحو التوكل الصوفي . « حاسب نفسك في كل خطرة، وراقب الله في كل نفس واستعمل لله عقلك بترك التدبير واستعن بالله على صرف المقادير »[2] .

وتظهر في الكتاب لأول مرة ميزة اسلوبية هامة استمرت في كل كتب المحاسبي المتأخرة هي عبارته (العقل عن الله) وقد بدأت في «آداب النفوس» في كلام عن العقل أصله في «الوصايا»، ثم اتضحت تماماً في «رسالة المسترشدين»، هذه التي تكاد تكون نهاية مرحلة أزمته الروحية مما يدل على أن الذي استقر عليه بعد التفكير ومحاسبة النفس مظهره الصوفي الكلامي الذي بدا في « فهم القرآن » و « العقل » .

التوهم :

تظهر فيه النزعة العقلية التي ظهرت في الكتابين السابقين ويبدو من اسمه دعوته إلى سياحة عقلية محايدة أو كما يقول هو : « توهم ذلك بعقل فارغ »[3]. ويردد هذه العبارة مراراً ، بل يدعو أيضاً إلى التوبة وإقالة العثرات بطريق التأمل العقلي[4] .

ويدور الكتاب حول فكرة جريئة ، انها رحلة إلى الآخرة بالوهم ، أو

---

(١) آداب النفوس (مخطوط) ٦٥ .

(٢) رسالة المسترشدين ٣٥ — ٣٩ .

(٣) التوهم : ٢٣ نشرة . آربري .

(٤) التوهم : ٢٣ .

هي رحلة وهمية إلى الآخرة ، دار الثواب والعقاب ، يرينا فيهـــا المحاسبي وبصورة حسية ما أعد الله فيهـا للمحسنين من ثواب والمذنبين من أهوال العقاب ، ويصف ألوان نعيم أهل الجنة بخيال حسي حار[1] . وكان قد عرض لهذا الموضوع سابقاً في إلمامـة قصيرة وبشكل عام في كتـــاب « آداب النفوس » بدأها بقوله : « توهم نفسك وقت الحشر » ثم تابع الحديث عما يحصل في الآخرة من سؤال عن الأعمال وكيفية قضاء العمر ... من أين اكتسبه صاحبه وأين وضعه . وقال أخـــيراً ، « فإنك يا أخي إن شغلت قلبك بذلك وأسكنته إياه وكان فيك مع ذلك شيء من صحة تركيب العقل ، فإنه سيكل منك لسانك ، ولا يعدمك الخوف اللازم مـع الحزن الدائم والشغل المحيط بقلبك » .[2]

وكنا نريد أن نجعل كتاب التوهم بعد آداب النفوس مباشرة لولا ملاحظة نمو نزعته العقلية التي استحالت مذهباً على شكل مثلث قمته كتاب الله وسنة رسوله، وجانبا قاعدته العقل والعلم . وقد بدت هذه النزعة في كتابه «التوهم» أوضح منها في « رسالة المسترشدين » لكن حال دون ذلك الطابع الخاص لهذه الرسالة الذي يجعلها تبدو كأنما هي مقدمة لفترة التدريس ، إذ الواضح انها محاولة تعليمية .

ومع أن الحارث يحاول أن يفهمنا أنـــه لا يفعل شيئاً سوى أن يفسر النصوص القرآنية التي تدور حول نعيم أهل الجنة، فتصويره إذن تفسير للتصوير القرآني لليوم الآخر . إلا أن الواضح أنه يتجاوز القرآن والحديث بتفاصيله الطريفة والمثيرة التي لا نرى فائدة من التوقف عندها . وقـــد يكون سبب وضع كتابه هذا محاولة لاجتذاب مريد مبتدىء في الطريقـة ، ويصعب أن نرجعه إلى ترف عقلي أو شيء من هذا القبيل ، لمـا عُرف عن المحاسبي من ورع وشدة رقابة للنفس وإبعاد لها عن الفضول .

---

(١) التوهم : ٤٣ .
(٢) آداب النفوس (مخطوط) ٦٣ .

وكتبه السابقة ، ما عدا الوصايا ، تبدو بشكل أسئلة وإجابات عنها وبصيغة المفرد ، وربما كان السائل هو أحمد بن عاصم الإنطاكي الذي صحب الحارث في تلك الفترة زمناً طويلاً .

٢ – مولفات فترة التدريس : (٢٠٧–٢٣٦ هـ)

تغلب في أوائلها النزعة الكلامية المختلطة بالتصوف مع ميل إلى التحديث المدعم بالأسانيد. وكأنما شعر المحاسبي وهو السني السلفي أن كثيرين سيعيبون عليه كلامه في أصول الدين فعوّل على الحديث حتى لا يجدوا حجة للإنكار عليه ، وإن كنا نعرف أن تحفظه هذا لم يجده شيئاً لأنه فيما بعد لقي ملامة وتفنيداً من الصوفية والحنابلة على السواء .

وهناك سبب آخر جعله يعتمد على الحديث المسند في كتبه هذه إذ انه كان متكلماً سنياً يواجه المعتزلة وهم نفاة للسنة في الغالب فكان لا بد أن يقف إلى جانبها راوياً ومؤيِّداً ومصحِّحاً .

هذا إلى أنه كان يجد في الحديث تأييداً كبيراً لآرائه ، لأن القرآن عام وموجز في الأصول ، والسنة شارحة ومفصلة وفيها إلزامات كثيرة للمعتزلة والرافضة والمرجئة ، والخوارج ، ثم الثنوية ، والدهرية ، وغيرها من الفرق التي رد عليها المحاسبي .

وتبدأ نزعته الكلامية تخفت في كتبه المتأخرة شيئاً فشيئاً حتى لتكاد تختفي في كتابيه « المكاسب » و« الرعاية » وهو أمر فطن له د. عبد الحليم محمود فعمد إلى تقسيم كتبه إلى ثلاثة أقسام – ومع أن هذا التقسيم لهما يبرره كما قلنا – إلا أننا نلاحظ أنه وإن خفتت النزعة الكلامية في الكتب المتأخرة فقد ظل الأسلوب الجدلي واضحاً لدى الحارث وكذا الدقة المنطقية والتركيز على المسائل الفقهية الممزوجة بالتفسير الصوفي .

وتتضح في مؤلفات الحارث لهذه الفترة خصائصه الأسلوبية تماماً ، وتبدو كتبه أكثر منطقية في ترتيب فصولها وأكثر اتساقاً في مضمون عباراتها ، بل

يسمو اسلوبه أحياناً إلى مستوى رفيع ونحن نلحظ أن وراء ذلك كله ثقة بالنفس واعتداداً كبيراً بالعقل المؤمن . ولا شك أن ما وصلنا للحارث في علم الكلام قليل بالنسبة إلى ما حدثنا المترجمون له عنه وربما كان سبب ضياع مؤلفاته في علم الكلام إتلاف الحنابلة لها إبان سيطرتهم على بغداد .

مائية العقل ومعناه :

وإنما وضعناه على رأس مؤلفات هذه الفترة لسببين :

١ — النمو المنطقي للنزعة العقلية التي بدأت منذ الوصايا حتى بلغت فيه قمتها .

٢ — انه يبدو كمنهج وضعه الحارث ليسير عليه في كتبه المقبلة بعد أن استقرت آراؤه ، وعول على التصدي لخصوم مذهبه . والحق يقال إنه ظل أميناً لمنهجه هذا حتى بعد غلبة ميوله الصوفية عليه في أواخر عهده بالتدريس . وسنعرض لفكر الحارث في هذا الكتاب عندما نشرح مخطوطته وندرسها .

وألف بعده « فهم القرآن » الذي سنعرض له عند الكلام على مخطوطته التي ننشرها أيضاً مع الشرح والدراسة .

كتاب العظمة وكتاب احكام التوبة :

وربما عاد المحاسبي فيهما إلى الفترة التي ألف فيها كتابه في فهم القرآن . لأنهما يشبهانه من حيث الموضوعات والمشاكل المطروحة والحلول المعروضة لها، مع ظهور النزعة الكلامية ، وإن كان عنوان الكتاب الثاني يشعر لأول وهلة بأن الحارث كتبه في فترة كتابته للوصايا . وهو في كتاب العظمة يرد على الثنوية الذين كانوا قد بدأوا يفدون على بغداد وينشرون في أوساطها جواً من الزندقة والتشكيك .

في الدماء :

وواضح أن الكتاب يتصل بما وقع من الدماء بين الصحابة ، وقد عول عليه الصوفية كما ذكر أبو علي ابن شاذان .

والراجح ان تأليفه له يعود إلى هذه الفترة تقريباً عندما بدأت نزعته الفقهية الصوفية تظهر . وقد تحدث الحارث عن موضوع النزاع بين الصحابة أول ما تحدث في الوصايا . وكان حديثه ورعاً لم يتعرض فيه لشيء من الحجج لتأييد كلامه ، بل كان في صيغة تحذير للاخوان المريدين من الوقوع في مزالق الحكم على هذا أو ذاك بالمسؤولية . ولم تكن حالته النفسية ولا نهجه التأليفي في تلك الفترة يسمحان له بتأليف كتاب فقهي متزن يستحق الرد عليه من معارضيه ، بعد ما يزيد على الخمسة قرون إذ رد عليه الحافظ العراقي في كتابه (البعث على الخلاص من حوادث القصاص) كما ذكرنا سابقاً .

وقد عاد إلى الموضوع نفسه وبشكل موجز في كتاب المكاسب .

أما الحقبة التي ألف الحارث فيها هذا الكتاب ، فهي الحقبة الوسطى من حياته الفكرية ، ذلك أنه كانت للمعتزلة والرافضة آنذاك آراء معروفة في مسائل الخلاف بين الصحابة فكان لا بد للمحاسبي في تلك الحقبة من اشتغاله بعلم الكلام من الرد على هاتين الفرقتين ، أضف إلى ذلك أن المأمون كما قدمنا كان قد أظهر نزعة شيعية في مسألة الخلافة بين الصحابة ابان ذلك الوقت .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ما يدعونا إلى ترجيح إعادة كتاب « الدماء » إلى الحقبة الفكرية الوسطى عند الحارث هو أن كتاب «المكاسب» يمثل مرحلة متأخرة من تطوره الفكري بعض الشيء حيث تبدو فيها نزعته الفقهية مختلطة بالتصوف ومتوجهة بالدرجة الأولى إلى المتصوفة الذين لم يكونوا عميقي الثقافة في العلوم الإسلامية ، فوقعوا في الكثير من الأخطاء.

ومع ان الكتاب لم يصل إلينا فإننا نستطيع أن نعرف رأيَ المحاسبي في هذه المسألة التاريخية الهامة، وإن كان في كلا الكتابين،الوصايا والمكاسب، قد أورد آراءه عرضاً ودونما تفصيل وفي صيغة تحذير، ونهي عن الخوض في هذا الموضوع الشائك .

يبدأ المحاسبي في الوصايا بتحذير (إخوانه) من الخوض في الاختلاف بين متقدمي الأمة ، ويقول ان سبب الإختلاف بين من جاء بعد عصر الصحابة هو نظرهم وتعمقهم في الخلاف بين الصحابة ، ثم الأخذ والاحتجاج بمتشابه القرآن دون محكمه . ويورد أمثلة توضح من يقصد بالفرق الضالة فيشمل بتضليله : القدرية ، ويقصد أتباع معبد وغيلان ، ثم أتباع واصل بن عطاء ، والمرجئة والرافضة والجهمية والحرورية . أما سبب ضلالهم فهو أنهم حاربوا بعضهم بعضاً وتعادوا وتضاربوا وشهد بعضهم على بعض : بالكفر والضلال واستحلوا دماء المخالفين لأهوائهم ..

وقد كانوا من قبل ذلك إخواناً فلما بُلُوا بالبحث والتعمق صاروا أصنافاً واحتج كل قوم بمتشابه القرآن وبالآثار التي توافق هواهم فضلوا وأضلوا في ذلك كثيراً [١] .

والأسلم ترك التعمق في مثل هذه المسائل العقدية والتاريخية إذ اننا لن نصل إلى حل يرضي جميع الأطراف[٢].

وطريق النجاة .. التمسك بكل مجمع عليه لم تختلف الأمة فيه من الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه وحدوده وفرائضه وشرائع دينه وجميع ما أجمع عليه السلف ففيه الرشد والحق[٣] .

أما رأيه هو في مسائل الخلاف فإنه يذكر ، رغم حذره مذهباً هو

---

(١) الوصايا ٧٤ .
(٢) الوصايا ٧٥ – ٧٦ .
(٣) الوصايا ٧٥ .

مذهب أهل السنة من القول بأن عثمان قتل مظلوماً ، وأن علياً قتل مظلوماً ايضاً وأن الحق في جانبه وأما عائشة وطلحة والزبير ومن معهما ومعاوية ومن معه فمجتهدون مخطئون .

يقول المحاسبي : « وقد تقدم في صدر هذه الأمة من الفتن والاختلاف والتفرق وفتنة الجمل وصفين وابن الزبير والعراق والجماجم في البصرة والكوفة ونواحي الأطراف وقد قُتل أمير المؤمنين عثمان ظلماً وعدواناً »[1].

المكاسب :

ويرجع تأليفه إلى النصف الثاني من العقد الثاني للقرن الثالث الهجري (٢١٥–٢٢٠ هـ) لأنه يتحدث عن فتنة الأمين والمأمون وما تبعها من حروب يذكر أنها استمرت ثمانية عشر سنة على فترات متقطعة وفي مختلف بقاع الدولة ، منها أربع سنوات متوالية في العراق ، وهذا صحيح من الناحية التاريخية . فإذا علمنا أن الفتنة بدأت سنة (١٩٥ هـ) تكون قد انتهت حوالي (٢١٣ هـ) .

وفي هذا الكتاب تبدأ نزعتاه في علم الكلام والحديث بالاختفاء ، لتبرز نزعته الفقهية التي يستخدمها لتأييد مذاهب التصوف . وتبدو سعة علمه في الفقه من إيراده آراء العلماء في كل المواضيع التي يعرض لها بالبحث بشكل واضح وجلي .

ان كتابه هذا وُضع خصيصاً للصوفية حيث نبههم فيه إلى أغاليطهم ومخالفاتهم للسلف.ومع ان النزعتين الكلامية والحديثية كانتا قد اختفتا أو كادتا في كتابه هذا فقد بقي الأسلوب الجدلي والتشقيق المنطقي مستمرين ، بل ان الدقة في تلمس أهواء النفس وخطراتها تتعاظم وتستشري إلى جانب النزعة الفقهية .

---

(١) المكاسب ٢١٢ .

وكان الحارث في تلك الفترة قد بدأ عهد شيخوخة ، وفيه تسكن الهمة المتحفزة ، وتتجه النفس إلى المزيد من الذهاب نحو الله خصوصاً إذا كانت حساسة كنفس الحارث .

وربما كان من أسباب خفوت النزعة الكلامية ما لقيه من عنت وارهاق من زملائه المحدثين الحنابلة ، ورفاقه في الطريق من الصوفية ثم ما عمد اليه كل من المعتصم والواثق من حمل الناس على مذاهب الاعتزال واضطهادهم من قاومه .

وقد عادت أفكار الحارث الصوفية التي عرضها لأول مرة إلى الظهور ، لكن بصورة أدنى الى الاعتدال ، فبعد أن كان قد فضل في الوصايا ترك الحلال ، عاد فعدل عن رأيه المتشدد إلى رأي أخف فقال : « ان الله لم ينفل في الزهد في حلاله ، وإنما نفل في حبسه عن وجوهه » ثم قال : « فإذا كان العبد عقدُهُ الإمْضاءُ في الحقوق وليس يمنعه من الإمضاء ان نفسه بالإمضاء لا تصدق ، فهذا خازن من خزان الله عز وجل ، ليس حبسه للاموال ضنا بها وحرصا عليها فهذا زاهد وان كثر عنده المتاع » .

وقد نقلوا عن الحارث في هذه المرحلة من حياته انه كانت له دار حسنة وفيها شياه وذلك في قصته مع أبي حمزة حول رأي الأخير في الحلول .

والواقع ان الحارث كان قد أُصيب بأزمة روحية في أول عهده بالسلوك، وقد فصّل بنفسه ما كان يعانيه في مقدمة كتابه « الوصايا » إذ كان يائساً من وجود مرشد صادق يستهديه الطريق ولم يجد هذا المرشد في حلقات العلماء ولا عند الفقهاء ، وإنما وجده في النهاية عند الاتقياء الزاهدين العابدين المعنيين بتهذيب أنفسهم ، والمرابطين في ميادين الحق والعدل .

ويبدو لنا انه كتب وصاياه وهو في بداية تصوفه متأثراً بالتشدد الذي

يلازم الصادقين في بدء حياتهم السلوكية إلى الحق ، ثم كتب ما كتبه في المكاسب والمسائل بعد ان هدأت نفسه واستبان لها الطريق بوضوح ونصاعة[1].

المسائل في الزهد وغيره : والمسائل في أعمال القلوب والجوارح :

وهما يرجعان إلى الفترة نفسها التي يرجع اليها تأليف المكاسب لما يبدو من تشابه الموضوعات وتشابه حلول المشاكل مع النزعة الفقهية المزوجة بدقائق التصوف والحديث حول آفات النفس، وآراء السلف من الصحابة والتابعين في ذلك.

وربما كان الدليل الأقوى على هذه الدعوى ، هو الأسلوب الواحد الذي يسود الكتب الثلاثة ففي هذه الكتب حديث يكاد يكون واحداً عن وساوس الشيطان، وعن الهوى والاعجاب بالرأي، وعن التوكل والتفويض، وعن الحركة في الكسب ويعني هذا أن الكتب الثلاثة ترجع إلى مرحلة زمنية واحدة ، وربما كانت جواباً عن أسئلة وجهت إليه .

الرعاية لحقوق الله :

يمثل هذا الكتاب قمة تطور المحاسبي الفكري ، ففيه ترك علم الكلام وراءه ، بل ترك الفقه أيضاً ، وقلما استشهد بالحديث ، فركز تماماً على الموضوعات الصوفية التي كانت تشغل جميع البيئات وفي مختلف بقاع العالم الإسلامي في ذلك الوقت . وبدا أكثر دقة وأعمق خوضاً في دقائق التصوف وإشاراته مع التركيز على موضوعه المحبب إليه دائماً ، وهو آداب النفس وأهواؤها وآفاتها وعلاجها ومحاسبتها ، أليس هو المحاسبي ؟

وكما كان كتابه هذا قمة صوفية فكرية، فقد كان كذلك قمة أسلوبية . وليس ذلك بدعاً بعد هذا العهد الطويل في الكتابة ، ثم هذا الموضوع المحبب إليه دائماً ، ثم هذا الإخلاص الذي تضطرم به جوانحه .

---

(١) مقدمة المسائل : عبد القادر عطا ١٥ - ١٦ .

ولأنه عودنا دائماً الاتيان بجديد فقد عرض في هذا الكتاب لبيان زغل العلم والطلب ، فقد نقد مناهج علماء مختلف العلوم لدى المتكلمين والفقهاء والمحدثين والمتصوفين ، ورأى ان أكبر عيوب علماء زمانه إنما ترجع إلى أسباب نفسية تتصل بروح العصر التي تحب الظهور والبهرجة والزينة .

وثابت ان هذا الكتاب ينتمي إلى مرحلة تأليفية متأخرة ، إذ انه يذكر فيه القضاء على ثورة بابك الخرمي الذي هزمه الافشين - حيدر بن كاوس قائد المعتصم (٢٢٣ هـ) ثم أتى به إلى بغداد حيث قُتل وصُلب .

لقد جود المحاسبي في هذا الكتاب ما شاء لنفسه التجويد . حتى ليذكر ابن « خلدون » ان علماء الصوفية في زمنه كان على كتاب الرعاية اعتمادهم .

كما نوه به خاصة عدد ممن ترجم له فذكره من بين مؤلفاته النفيسة .

ورغم روحه الصوفية الغالبة فإن النزعة العقلية لم تختف فيه كلياً ، وظلت عبارة (عقل عن الله) تتردد فيه كما ترددت في مؤلفاته السابقة . وربما عاد إلى هذه الفترة نفسها كتابه المعروف : « بدء من أناب إلى الله » وهو يشبه في كثير من النواحي كتاب الرعاية ، وإلى هذه الفترة نفسها أيضاً يمكن إرجاع كتاب (الصبر والرضا) .

* * *

وخليق بنا هنا أن ندقق في روايات تلاميذ الحارث عنه ، لنستطيع الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بكتبه . فرواة كتبه الأخيرة تلاميذه : الجنيد (— ٢٩٧ هـ) وابن مسروق (— ٢٩٨ هـ) وابن ميمون الخوّاص .

وقد جمع روايات الجنيد وابن مسروق المؤرخ الصوفي الكبير جعفر الخلدي (— ٣٢٨ هـ) الذي يروي عن المحاسبي بطريق أبي عثمان البلدي أيضاً [1] . وربما وضعها الخلدي في صورة ترجمة لحياة الصوفية ، وعنه أخذها أبو نعيم صاحب الحلية (— ٤٣٠ هـ) على أن أبا نعيم نقل في الحلية أيضاً شيئاً عن

---

(١) الرسالة جـ ٧٣/١ .

المحاسبي بطريق رجل اسمه أبو بكر محمد بن أحمد البغدادي (— ٣٧٨ هـ) عن الخواص عن المحاسبي. وكان هذا الرجل قد جمع روايات لمتصوفة آخرين. وإلى هذا الأخير ترجع الرعاية والتوهم والمسائل في الزهد والقطعة من كتاب الحب الذي ضاع [١] .

أما الجنيد فينقل عن المحاسبي في الحب ، في حين ينقل ابن مسروق أجزاء من كتاب المحاسبي « المسائل في أعمال القلوب والجوارح » . ويشك بعض الباحثين فيما ورد في « الحلية » لأبي نعيم عن المحاسبي في الحب بطريق الجنيد ، إذ تروى أيضاً لأبي علي أحمد بن عاصم الانطاكي صاحب الجنيد القديم وربما كانت للانطاكي فعلاً لسببين :

١ — انه اشتهر كالمحاسبي ، وهو من أقرانه ، بالبحث في أمور القلب حتى لقد كان الداراني يسميه جاسوس القلوب لحدة فراسته[٢] .

٢ — ان هذه الشذرات الواردة في الحب مصبوغة بصبغة فلسفية وتوشك أن تخالف في روحها مذهب المحاسبي البعيد عن الشطح والدعاوى .

وربما كان من الغرابة بمكان أن يكون صاحب كتاب العقل هو صاحب هذه الرسالة الضائعة التي نقل الجنيد مقاطع منها. إلا أن المؤيدين لكون هذه الرسالة من تأليف المحاسبي يقولون : إن مثلها في ذلك مثل كتاب الحارث « التوهم » فلو لم يوضع اسم الحارث عليه ، ولو لم يتواتر أنه له ، لما ذهب أحد إلى ذلك لغرابته بعض الشيء على روح مذهب المحاسبي العام .

٧ — اسلوبه :

اسلوب المحاسبي هو اسلوب العصر الذي بدأه عبد الحميد ثم جاء ابن

---

(١) التصوف : الثورة الروحية ٢١٢ . (٢) الرسالة جـ١/١٠٠ .

المقفع فتابع الطريق ثم سهل بن هارون فالجاحظ الذي تسنم عرش البيان في القرن الثالث الهجري .

ولم يكن المحاسبي غريباً على العصر فقد درس اللغة على أبي عبيد وغيره ، وهو يروي في كتاب العقل وغيره من كتبه كالمسائل والرعاية أبياتاً شعرية ويستشهد بأقوال كثير من بلغاء العرب وخطبائهم كخالد بن صفوان وشبيب ابن شيبه وغيرهما .

ومن مقارنة أساليب كتاب العصر المشهورين منذ عبد الحميد حتى الجاحظ نلاحظ أن عبد الحميد اهتم بالترادف الصوتي[1]. في حين امتاز اسلوب ابن المقفع بأنه أسلوب فكري متأثر بالصيغ الفارسية مع الترصيع بالأمثال[2] .

اما أسلوب سهل بن هارون فتميز بالتقطيع اللفظي والتكرار الصوتي والتشقيق الجدلي. مع ميل شديد عند الجاحظ إلى الاستطراد وتخير الألفاظ والعبارات ونشر الفكاهات وسريان روح السخرية والتشديد على المعاني الحسية ذات النزعة الواقعية[3] .

ويبدو المحاسبي شديد التأثر بسهل بن هارون والجاحظ في نزعته الحسية في كتاب «التوهم» الذي ينتمي إلى مرحلة فكرية مبكرة نوعاً ما، كما يبدو متأثراً به أيضاً وبمتكلمي المعتزلة الآخرين، وبابن المقفع في أسلوبه الفكري في مرحلته الوسطى التي ألف فيها كتابي العقل ، وفهم القرآن . وتبدو كتبه الأولى « كالوصايا » و« آداب النفوس » مهملة في تأليفها وترتيب فصولها وتخير ألفاظها ، وكأنما اطّرح المحاسبي ذلك كله في أزمته الروحية التي اضطرمت بها جوانب نفسه ابان ذلك الحين .

---

(١) د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في النثر العربي ٤٠ - ٤١ ط: أولى : دار النهضة المصرية .

(٢) المصدر السابق ٥١ - ٥٢ . ورئيف خوري : التعريف في الأدب العربي ٢٥٧ .

(٣) الفن ومذاهبه ٥٥ - ٦٢ ، التعريف ٣٠٤ - ٣٠٥ .

وتظهر شخصيته ضئيلة شاحبة تحذر من الدنيا ومن الآخرة ومن كل شيء دونما أمل ورجاء. وأسلوبه المهمل هذا عادي سهل وليس من البلاغة في شيء.. « إخواني وبعد فيما أتاكم عن الله عز وجل والرسول عليه السلام من رخص فخذوه، فإنه بلغنا أن الله عز وجل يحب أن تؤخذ رخصه، كما يحب أن يؤخذ بعزائمه، فارغبوا فيما أُبيح لكم من كل سهل يسير، فقد بلغنا أن رسول الله كان يرغب كثيراً في السهل اليسير من الأمور، فلا تعدلوا عن العافية في الأمور كلها، ولا تتعرضوا للبلوى، فلسنا من أهلها.

وبعد، فإن ابتُليتم بشيء من المكاره والمصائب فعند ذلك يجب أن تجاهدوا أنفسكم على الصبر في الضراء، فإن ذلك من نظر الله لعبده، فاتقوا الشكوى في الضراء، فإن ذلك نظر من الله لعبده[1] » .

على أن هذا الإهمال الإسلوبي يبدأ منذ « رسالة المسترشدين » بالاختفاء مع عودة شخصية المحاسبي إلى الظهور بشكل أوضح وتركيز على الجوانب الحسية والعقلية دون القلبية .

وهو يصف عذاب أهل النار فيقول : « ثم يدفعون إلى جهنم فتحرق البدن ويتساقط اللحم وتبقى العظام ويأكل الإنسان النار وينتقل بين الحميم والنار لعل الواحد يكون أبرد من الآخر ولكن عبثاً »[2] .

ويصف الجنة ونعيمها : « وثارت أراييح الجنة العبقة الطيبة، وهاج ريح مسكها الأذفر وزعفرانها المونع وكافورها الأصفر وعنبرها الأشهب وأرياح طيب ثمارها، ونظرت بعينيك إلى حسن قصورها وتأسيس بنيانها من طرائق الجندل الأخضر، من الزمرد والياقوت الأحمر والدر الأبيض قد سطع منه نوره وبهاؤه وصفاؤه »[3]

---

(١) الوصايا ٦٦ .
(٢) التوهم ٢٧ .
(٣) التوهم ٣٧ .

ثم يمعن بعد ذلك في وصف الحور العين وإقبالهم على الصالحين من ساكني الجنان كما بالغ قبلاً في وصف هول عذاب النار وشدته وذلك كله من باب الترغيب والترهيب .

وتستمر النزعة العقلية والمنطقية في النمو في أسلوب المحاسبي وفكره حتى تظهر تماماً في « مائية العقل » و« فهم القرآن » مع تركيز أشد على الألفاظ وتقسيم منطقي للعبارات ، وجري على أسلوب المتكلمين الذي تصحبه نزعة فقهية ظاهرة ، واحتجاج لكل ما يؤيده أو يرده بحديث بل بأحاديث مسندة أخذنا منها أسماء شيوخه الأوائل في الحديث .

ولأول مرة تظهر شخصية المحاسبي بوضوح وثقة بالنفس تكاد تذكرنا بنعيه على المتكبرين وذوي الثقة الشديدة بأنفسهم .

« وآخرون لهم عقول الغرائز، لا يعقلون البيان ولا المبين عنه بالفهم له، إلا أنهم يسمعون بلغة يفهمونها كلاماً لا يعقلون معانيه بالفهم له ، كمشركي العرب فقال « إنهم كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلاً » ، فلم يعقلوا : ما قال عز وجل لإعجابهم برأيهم ولتقليدهم آباءهم وكبراءهم ، وقد كانت لهم عقول غرائز يعقلون بها أمر دنياهم ، ولو تركوا الإعجاب بالرأي وتقليد الكبراء ثم تدبروا ، لعقلوا ما قال الله ، ولكن أُعجبوا بآرائهم وقلدوا كبراءهم فقال عز وجل : « ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً » . وقال « أفمن زُين له سوء عمله فرآه حسناً » .

وقال الحارث : « حدثني عفان قال حدثنا صقر بن جويرية (١) ... أما أولئك الذين عقلوا عن ربهم أوامره ونواهيه ، فإنهم ابتغوا منه الشفاء والهدى والرحمة ، فداووا به قسوة قلوبهم ، وغسلوا به درن ذنوبهم ، ووضعوا دواءه على أدواء قلوبهم، ونفوا به سوء النيات عن ضمائرهم،

---

(١) مائية العقل – المخطوط – .

وأزالوا به وحر صدورهم ، فاهتدوا بهدي القرآن وجعلوه لهم إماماً[1] ...

« .. فأماتوا عنده كل شهوة وانبعثوا بتأمله إلى كل رغبة ، وحنوا بتشويقه إلى جوار المولى الكريم ، وصبروا لأحكامه في كل عسر ويسر ، وتأدبوا بأدبه في كل أقوالهم ، وتزينوا بأخلاقه في كل أمورهم فصار للقيام به وللمتعبدين أعلاماً »[2].

ونحن إذا تجاوزنا المرحلة العقلية في فكر الحارث إلى «المكاسب والمسائل» نجد النزعة الفقهية وأساليب الفقهاء مع دقة في التقسيم والتنظيم والتفريع معروفة عنه قد سيطرت عليه .. « جميع ما تطوع به العباد من النوافل التي لم تفرض عليهم ست خصال ..

إحداها ... تكفير الذنوب وتكميل الفرائض وكذا جاء عن النبي ﷺ رواه عنه أبو هريرة وتميم الداري ...

وأما الخصلة الثانية : فشكر النعم ليرضى بذلك المنعم ولا يزيلها عنك ...

أما الخصلة الثالثة ... فتجريد القلوب وحياتها وعمارتها ليرجع ذلك إلى قلوبهم ، قال الله تعالى « والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم »

الخصلة الرابعة : يزعم من خسران العمر أن تمضي منه ساعة بغير طاعة وكذلك يروى في تفسير قوله عز وجل « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ...

الخصله الخامسة : وهي أعظم الخصال وهي التي تهيج من قلوب أهل الاشتغال بالله المحبة له ...

وأما الخصلة السادسة : فلخفة الحساب ، وقلة الحبس ، ولقربه من الله

---

(١) فهم القرآن (مخطوط) .
(٢) فهم القرآن (مخطوط) .

تعالى في الارتفاع في الدرجات لأنهم إنما يدخلون الجنة بعد الرحمة بالتقوى [1] » .

إن النزعة الكلامية التي صبغت كلامه في المرحلة السابقة قد حلت محلها النزعة الفقهية المختلطة بالصوفية كما رأينا . وفي النص السابق أتى بأربعة خصال للنوافل من الشريعة ، ثم أتى من مقام الحقيقة الصوفية بخصلتين اثنتين .

وفي الكواكب الدرية عن المحاسبي أنه قال : « عملت كتاباً في المعرفة وأُعجبت به فبينا أنا أنظره مستحسناً إذ دخل شاب وسلّم وقال : يا أبا عبدالله هل المعرفة حق للحق على الخلق ؟ قلت حق للحق على الخلق . قال: هو أولى أن يكشفها لمستحقيها. قلت: بل حق للخلق على الحق ، قال هو أعدلُ من أن يظلمهم . ثم سلم وخرج . فغسلته وقلت : لا اتكلم بالمعرفة بعدها أبداً »[2] . فواضح في هذا النص النزعة الكلامية المختلطة بالتصوف الذي يرى علم الكلام عبثاً لا يؤدي في النهاية للوصول إلى الحقيقة . وهو يعالج هنا موضوعاً هاماً يتصل بمسائل الجدل الذي كان قائماً حول التحسين والتقبيح وهل يستطيع الإنسان معرفة الله قبل التكليف ونزول الشرائع أم لا ؟ وهل هذه المعرفة واجبة بالشرع أم بالعقل ؟

والمحاسبي ، لأنه سني ، يميل إلى رأي أهل السنة في هذه المسألة مع التحدث عن ذلك كله بروح صوفية . فيمكن القول بأن المحاسبي تحدث بلسان الشريعة في حين تحدث الفتى بلسان الحقيقة وقد سلم المحاسبي حججه لميوله الصوفية .

هذه النزعة الكلامية الممزوجة بالتصوف تختفي تقريباً من كتاب

---

(١) المسائل في أعمال القلوب والجوارح ١٢٢ – ١٢٤ .
(٢) الكواكب الدرية ج ٢١٩/١ .

« المكاسب » وكتاب « المسائل » لتحل محلها نزعة فقهية فتسيطر على اسلوبه أساليب الفقهاء في البحث والتفريع كما تسيطر على اسلوبه اصطلاحاتهم .

في « المكاسب » يقول الحارث : « سألت أبا جعفر عن الورع فقال فيه ثلاثة أقوال :

أحدها : ترك ماحاك في الصدور من جميع الحكايات والأقوال.

الثاني : الوقوف عند كل شبهة إذا لم يتبين فيها الحلال من الحرام .

القول الثالث : ما رواه عطية السعدي عن النبي ﷺ قوله : لا تكونوا حقيقة من المتقين حتى تدع ما لا بأس به مخافة ما به البأس . وهذه الثلاثة الأقاويل قد قصد إليها وإلى معانيها أصناف من العلماء وأهل الحديث والقراء والمتصوفة .

يقول الحارث « فأما ترك ما حاك في الصدور فهو مذهب أبي عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري وإبراهيم بن أدهم ووهيب بن الورد ومحمد بن يوسف ... والقول الثاني يذهب إليه جماعة من أهل الحديث وناس صلحاء ممن سكن الثغر، منهم مخلد بن الحسين، وعلي بن بكار وقد رواه عن الأوزاعي. والقول الثالث قد ذُكر عن طاووس ومحمد بن سيرين وأيوب بن عون ويونس ابن عبيد وواصل مولى ابن عيينة وهو مذهب عمرو بن مره ... واختارت طائفة من القراء والمتصوفة التقلل من كد اليد وعرق الجبين والسعي في طلب الأسباب واجتهدوا في طلب ذلك مع أهل الثغور »[1]...

وقد نستطيع تعليل هذه النزعة الفقهية التي ظهرت في كتب المحاسبي الأخيرة كلها بفهمنا لتصوفه السلفي السني الذي وقف به في وجه أمثال « عبدك » و« أبي حمزة » . والفقه هو علم الحلال والحرام .

---

(١) المكاسب ٢٠٥–٢٠٦ .

وغلبة التصوف على المحاسبي تماماً في مرحلة حياته الأخيرة جعلته يتمسك بالفقه لأنه ملاذ من يريد أن يسلم له دينه ، مع تطعيم هذا الفقه بأذواق الصوفية حتى لا يجمد على شكليته البحتة ، كما اتضح لنا من النصين السابقين. وفكره في هذه المرحلة هو الذي يحدد لنا أسلوبه . فقد اختار المحاسبي نهائياً التنظيم المحكم والتقسيم المنطقي الدقيق مع زيادة عنايه باختيار الألفاظ ، وإن بقيت للفكرة عنده المنزلة الأولى . أما في كتابيه « الرعاية » و« بدء من أناب إلى الله » ، فتبلغ هذه الخصائص الذروة وتتضح دقته وسيطرته على موضوعه من خلال تلك الدقائق التي يتحدث عنها ، والتي يوشك أن يكون رائـداً في ميدانها ، ويلاحظ القارىء المدقق أنه يعاني بعض العسر في تطويع اللغة لما يريد التعبير عنه من أذواق الصوفية لتفريقهم الدقيق بين أهواء النفس وميولها، فهو يفرق بين الكبر والعجب والافتخار ، وهو يفرق بين الرياء والخطرات، ثم يقسم الرياء ويقسم الخطرات ، ويعتمد في ذلك على ما للألفاظ من جرس صوتي وأصل لغوي ، ويمكننا أن نجمل خصائص كتاباته الأسلوبية فيما يلي :

١ — الحرص على إشعار القارىء دائماً بأن الكتاب نـدوة علمية حول موضوع أو مواضيع معينة يتداولها أستاذ وتلميذ يسأل الثاني فيجيب الأول، لكنه قد ينسى نفسه فيستطرد أحياناً دونما انتباه إلى إيهامنا بأن السائل ما زال يستمع إلى الجواب . وربما كان هذا الإيهام حقيقة وكانت كتبه كلها خلاصات للدروس التي كان يلقيها على طلابه ومريديه في فترة تدريسه لهم تلك التي استمرت طويلاً حتى حال بينه وبين متابعتها تعصب الحنابلة .

٢ — ترديد الخصيصة الأسلوبية اللفظية : (العقل عن الله) و(الفهم عن الله) و(عقل عن ربه) و(فهم عن ربه) ولا يشك أن ذلك أثر من آثار نزعته الكلامية التي بدت بوضوح في كتابيه « العقل » و« فهم القرآن » وهما أوضح موطنين لهذه الظاهرة ، وإن وُجدت ، بشكل أقل في مؤلفاته قبـل

وبعد ذلك[1]. وهو يحرص دائماً على ترصيع كلامه بالاقتباس من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين وخصوصاً الحسن ومجاهد وابن منبه والثوري وغيرهم .

٣ ــ ضرب الأمثال لمزيد من الوضوح وتقريب المعنى إلى الأفهام : « وسأضرب لكم مثلاً للمتراخي بالمدحة فإنما مثله كمثل رجل يهزأ به »[2] .. ومثل ضرب المثل للسهو والساهي[3] وضرب المثل بقصة آدم[4] وللوساوس والخطرات[5] والاستعداد للموت[6] والحذر من العدو إبليس[7] والغلط في ذلك[8] وما يهيج على معرفة كراهية[9] الموت ، ومثل أبي بكر في ذكر الموت[10] .

٤ ــ التركيز على الفروق اللغوية بين الالفاظ : وانعكاسها على المعاني النفسية الدقيقة [11] وقد لاقى المحاسبي عسراً في تطويع الألفاظ للمعاني كما ذكرنا سابقاً وكان من أوائل من استعاروا لغة العشاق للتعبير عن هواجسهم النفسية ، وقلقهم في الوصول إلى الكمال .

٥ ــ الميل إلى المنطق والتحليل والتحسين والتقسيم والتوليد . يقول : « أساس العبادة الورع ، وأساس الورع التقوى ، وأساس التقوى محاسبة النفس ، وأساس محاسبة النفس الخوف والرجاء ، وهما يرجعان إلى العلم بالوعد والوعيد ، وفهم الوعد يرجع إلى تذكر الجزاء ، وتذكر الجزاء يرجع

---

(١) الفهم (مخطوط) رسالة المسترشدين ٣١ – الرعاية سميث ٣٨٨ – الحلية جـ١٠/٩٥ .
(٢) الوصايا ١٢٥ ط. عبدالقادر عطا .
(٣) المسائل في الزهد .
(٤) الرعاية ٧٩ .
(٥) الرعاية ٨١ .
(٦) الرعاية ١١٢ .
(٧) الرعاية ١٦٦ .
(٨) الرعاية ١٦٩ .
(٩) الرعاية ١١٩–١٢٠ .
(١٠) الرعاية ١٢٤-١٢٥ .
(١١) الرعاية ٧٨ ، ٨١ ، ١١٢ ، ١٦٦ ، ١٦٩ . المسائل في الزهد ٨١ .

إلى الفكر والاعتبار [١] » ومن أقواله : « لكـــل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان عقله ، وجوهر العقل التوفيق . وكل زاهد زهده على قدر معرفته ، ومعرفته على قدر عقله ، وعقله على قدر قوة إيمانه » .

ولنقارن بين هذين النصين والنص الآتي لعبد الحميد : « اعلم ان للحكمة مسالك تفضي مضايق أوائلها بمن أمها سالكاً ، وركب أخطارها قاصداً إلى سعة عاقبتها ، وأمن سراحها ، وشرف عزها ، وانها لا تعار بسخف الخفة ، ولا تنشأ بتفريط الغفلة » . ثم بهذا النص للجاحظ : « وعبت الكتاب وهو نعم الذخر والعقدة ، ونعم الجليس والعدة ، ونعم النشرة والنزهة ، ونعم الأنيس لساعة الوحدة » .

نلحظ من هذه النصوص تأثر المحاسبي بأسلوب التحسين والتوليد عنـــد عبد الحميد الذي تطور على يد سهل بن هارون حتى وصل إلى الجاحظ وان بدا أوضح عند المحاسبي بتأثير نزعته الصوفية المدققـــة . كما لاحظنا سابقاً تأثره بابن المقفع من حيث الشكل بضرب الأمثال ومن حيث المعنى بتقـــديم الفكرة على اللفظ .

لكننا نستطيع أن نقول ان أسلوب المحاسبي في الرعاية والبدء إنما هو أسلوب ذاتي مستقل بشكل ظاهر تبدو شخصية المحاسبي من خلاله واضحة مطمئنة في غير هذر ولا اسراف ، كما يبدو فيه مالكاً لناصية الموضوع قابضاً على زمامه ، وأسلوبه الأخير ، أسلوب فريد تحرر من عنعنة المحدثين الطويلة ، وأقوال الفقهاء واصطلاحاتهم التي لا تنتهي ، ولجاجة المتكلمين وغرابة حججهم . وبقيت فيه تلك الصُبّابة الحلوة من الإخلاص والحماس الواثق مع الحرص على التجديد في كل ما يكتبه : « إني أحذرك ونفسي مقاماً عنت فيه الوجوه ، وخشعت فيه الأصوات ، وذلّ فيه الجبارون ، وتضعضع فيه المتكبرون

---

(١) تذكرة الأولياء ج ١٠ /٢٢٦ .

واستسلم فيه الأولون والآخرون ، بالذل والمسكنة والخضوع لرب العالمين ، وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في إلهيّته ، ولا مشارك في حكمهم ، بعد طول البلى ، للفصل والقضاء في يوم آلى فيه على نفسه أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته .

فانظر بأي بدن تقف بين يديه وأعدّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً ، فإنه لا يصدق إلا الصادقين ولا يكذب إلا الكاذبين [1] » .

(٨) اثر المحاسبي في تطور الفكر الاسلامي :

ينبغي التنبه إلى الأثر الكبير الذي تركه المحاسبي في مدرسته التي أنشأها في التصوف ، وآرائه في علم الكلام التي كانت أساساً احتذاه جماعة الصوفية والصفاتية سلف المدرسة الاشعرية . وقد خدمت مدرسته الصوفية العالم الإسلامي خدمة جلى حين حرصت على رعاية تعاليم الإسلام والتمسك بسنة النبي (ﷺ) وسيرة رجال السلف . وقد أدى اعتدالها هذا إلى قبول الرأي العام لتصوفها ، ثم إلى إقبال رجال الأشاعرة عليها رعايةً لقدر شيخها الأول، وللتقارب في الآراء بين المدرستين، فكان ان امتزجت المدرستان في فكر الإمام الغزالي الذي سيطر كتابه « الاحياء » على العالم الإسلامي في أكثر أقطاره ، وما زال ، رغم هجمات التيميين عليه .

ثم لا بد من الاهتمام بالأثر العام الذي تركه المحاسبي بكتبه في سائر الفرق الصوفية باعتباره رائداً في كثير من الموضوعات والاصطلاحات الصوفية خصوصاً في دقائق آثار النفس ، ومخاطر الرياء ، وآفات أعمال القلوب والجوارح .

وكانوا يلقبون زميله وتلميذه أحمد بن عاصم الانطاكي بجاسوس القلوب لحدة فراسته كما في « الرسالة » .

---

(١) الرعاية ٢٧ .

وقد يكون مفيداً في إدراك مدى الأثر العام الذي تركته كتب الحارث في بيئات الصوفية وضع معجم للالفاظ والعبارات والاصطلاحات الجديدة التي قيدها المحاسبي ثم انتشرت في بيئات الصوفية بعده كالبحث في ماهية التقوى [1] ومحاسبة النفس [2] ووصف ثقل الفكرة على القلب [3] وكيفية رد الخطرات وتقسيمها ، ومنازل التوبة ، وماهية الرياء ، وأقسامه و دواعيه ومنازله وأوقاته ، وماهية النية والتحذير من هوى النفس وسوء عملها [4] . والفرق بين العجب ، والكبر ، والتفاخر ، وغيرها من الموضوعات التي عالجها في « الرعاية » و« البدء » وقبل ذلك — لكن بشكل أقل دقة — في المسائل والمكاسب .

على ان الطرافة والتجديد لدى الحارث لا يكمنان في الناحية الصوفية كالاصطلاحات والألفاظ بل يكمنان أيضاً في الموضوعات .

فهو أول من عالج بتوسع مسألة الدماء بين الصحابة وبروح سلفية ، فرأى أن الحق مع الإمام علي وأن خصومه مخطئون مجتهدون . وقد ترك كتابه في هذا الصدد آثاراً واسعة فيمن أتوا بعده ففي حين اعتمدت عليه مدرسته الصوفية كحل نهائي للموضوع هاجمه خصومه وردوا عليه . وهذا الأثر الذي تركه كتاب بعينه تركته كتب أخرى أيضاً في مختلف طوائف العلماء . فكتابه الرعاية الذي كان عمدة الصوفية أيام « ابن خلدون » إلى جانب « الأحياء » كان قد ترك آثاراً مباشرة وقوية على مدرسة بغداد الصوفية كما يتجلى ذلك بوضوح من آراء رجال المدرسة التي تتبعها القشيري بدقة في رسالته ، كما ترك آثاراً ضخمة في المدرسة السالمية التي تزعمها أبو طالب المكي (— ٣٨٠ هـ) بعد وفاة شيخها « ابن سالم » .

---

(١) الرعاية ٢٥ - ٣١ . (٢) الرعاية ٤٤ .

(٣) الرعاية ٥٤ .

(٤) الرعاية ٨١ ، ١٠٧ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٥٩ ، ١٧٢ ، ١٩٦ ، ٢٧٦ .

يقول ابن تيمية : « ان كتاب الإحياء للغزالي يغني عنه كتاب الرعاية للحارث المحاسبي وقوت القلوب لأبي طالب المكي » .

ويقول محمود عرنوس : « ان الغزالي كاد ينقل قوت القلوب لأبي طالب المكي بنصه في كتابه الإحياء[١] » وقد رأيتُ ان أقارن بين المكي والغزالي فيما أورده كل منهما عن الشكر فاتضح لي أن الغزالي تبع المكي فعــلاً في كل شيء .

يقول هنري كوربان : « سنقتصر هنا على التذكير بالدور العظيم الذي قامت به المدرسة السالمية التي تزعمها أبو طالب المكي وأسسها سهل التستري (ـ ٢٨٣ هـ) ثم خلفه شيخها ابن سالم تلميذه الذي استلم زمام الزعامة منه أبو طالب المكي .. ولقد كان لإنتاج أكبر رجال هذه المدرسة وهو أبو طالب المذكور أثر عظيم في الغزالي (٥٠٥ هـ) .[٢]

وقد ثبت بالدليل القاطع من أبواب ونصوص « قوت القلوب » للمكي تأثره الشديد الذي يكاد يكون نصيــاً لآراء واصطلاحات المحاسبي ليس فقط في « الرعاية » بل وفي كتاب «المسائل في أعمال القلوب والجوارح[٣]».

وصحيح أن الغزالي أخذ أكثر كتابه عن «قوت القلوب» وليس له في كثير من المواطن الا البسط والمزيد من التنظيم والتقسيم إلا أنه عرف لا شك كتب المحاسبي الصوفية معرفة مباشرة ونقل عنها أيضا كما نقل عن قوت القلوب المكي ، يدل على ذلك قوله في منقذه انه قرأ (كتب الحارث المحاسبي) كما نقل عن قوت القلوب . ومن « باب العقل » في كتاب « الإحياء » يتضح لنا تأثره الشديد بكتاب «العقل» الصغير للمحاسبي وقد كان كتاب «الرعاية»

---

(١) حاشية الاكتساب للامام محمد ٩٤ .

(٢) السهروردي المقتول ١١٦ . ترجمة د . عبد الرحمن بدوي ـ ضمن شخصيات قلقة في الاسلام .

(٣) المسائل في أعمال القلوب والجوارح ١٢١ .

مشهوراً أيام الغزالي وكذا المسائل ، ولا شك انه نقل عن غير كتاب العقل من كتب المحاسبي كما يبدو في احيائه أيضاً [1] .

وما دامت كتب المحاسبي بهذه الشهرة حتى لقد أدرك ابن تيمية ان كتابه في « رعاية حقوق الله » هو مصدر من مصادر كتاب « الإحياء » فنحن نميل إلى القول بأن الغزالي تأثر أيضاً بالحارث في آرائه الكلامية وردوده على رجال الفرق خصوصاً إذا علمنا أن المحاسبي كان أول من كتب في الرد على الرافضة ، وقد عُرف عن الغزالي اهتمامه بهذا الموضوع وتأليفه فيه بالاضافة إلى اتفاق الاثنين في المنزع الصوفي، وفي آرائهما الكلامية الأقرب إلى النزعة السلفية ، مما يجعل الغزالي مطمئناً إلى آراء المحاسبي في هذا الشأن أكثر من اطمئنانه إلى آراء غيره من رجال علم الكلام .

ومن الموضوعات الجديدة التي ابتكرها الحارث وأثرت فيمن بعده : الترجمة لنفسه وذكر بعض حالاته النفسية كما فعل في مقدمة الوصايا أو النصائح وهو يدور في مقدمته كما أسلفنا حول الأزمة الروحية التي مر بها الحارث في طريق تحوله عن طريقة المحدثين والفقهاء ومعتزلة المتكلمين إلى طريقته الصوفية التي رأى انها الفرقة الناجية من بين الفرق جميعاً ، وقد تأثر به في ذلك كل من الغزالي وابن حزم وابن خلدون فقد ترجم (ابن حزم) لبعض أحواله النفسية في (طوق الحمامة في الألفة والألاف) كما ترجم (ابن خلدون) لنفسه في رحلته شرقاً وغرباً . أما أوضح آثار الوصايا فيمن بعد الحارث فقد بدت في فكر الإمام الغزالي وفي كتابه « المنقذ من الضلال » بالذات . وإذا كان تأثير الحارث في الغزالي في مؤلفاته الأخرى ينصب على الروح العام لا على موضوعات بعينها ، فإنه في هذا الكتاب بالذات، قد تأثر به تأثراً ليكاد يكون لفظياً .

---

(١) يذكر الغزالي انه قرأ كتب الحارث المحاسبي ، لكنه لا يذكر أسماء الكتب التي قرأها. المنقذ ٥٩ .

فهو يذكر في منقذه ، كالحارث تماماً ، انه تلفت فيما حوله من الفرق ودرس مذاهبها وعرف آراءها .

يقول المحاسبي (فلم أزل، برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح والسبيل القاصد وأطلب من العلم والعمل واستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء ، وتدبرت أحوال الأمة ونظرت في مذاهبها وأقاويلها ، فعقلت من ذلك ما قدر لي ، ورأيت اختلافهم بحراً عميقاً غرق فيه ناس كثير وسلم منه عصابة قليلة »[1] .

ويقول الغزالي : « ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين . أقتحم لجّة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، وأتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واقتحم كل ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ومتسنن ومبتدع »[2] .

ومن يتابع النصوص في كل من كتاب الوصايا للحارث ، وكتاب المنقذ للغزالي يجد الشبه العجيب بين كل من هذين الكتابين ، مما يؤكد مدى اعتماد الغزالي على الحارث في كثير من جوانب المنهج وموضوعات البحث .

ولعل هذه المقارنة العابرة بين الكتابين إلى جانب قول الغزالي أنه قرأ كتب الحارث المحاسبي ، توضح مدى تأثير الحارث في فكر الغزالي . فإذا أضفنا إلى ذلك الأثر الكبير الذي تركه المحاسبي في مدرسته هو وتأثيره في فكر المكي والمدرسة السالمية أمكننا أن نكوّن فكرة واضحة بعض الشيء عن آثاره الكبيرة في كل البيئات الصوفية .

---

(١) الوصايا ٢٧ .

(٢) المنقذ من الضلال ٥ .

أما أثره الكلامي فسنعرض له في مجال آخر .

أما كتاب المحاسبي « التوهم » فقد كان أساساً لكل رحلات الخيال في الآخرة عند المسلمين وغيرهم ، فقد أخذ عنه أبو العلاء في « رسالة الغفران» ، كما استقى منه « ابن شهيد » في « التوابع والزوابع » ، وإذا كان أثره على « ابن شهيد » لم يتعد الفكرة نفسها ، فقد أثر في تفاصيل رحلة أبي العلاء بعد أن كان الباعث الأساسي على الفكرة .

ونلحظ أيضاً أوجه شبه قوية بين كتاب « التوهم » وأساطير المعراج الشعبي التي شاعت في العصور الوسطى ، ثم انتقلت إلى أوروبا .

ومن الموضوعات التي عرض لها المحاسبي في كتبه وكانت لهـا آثار بالغة فيمن بعده موضوع « الغرة » الذي عقد له كتاباً في رعايته بعنوان (كتاب الغره)[1] نقد فيه مسالك عوام المسلمين وعصاتهم ومسالك النساك والمحدثين والفقهاء المتصوفين والمتكلمين وبيّن ما يدخل على حملة العلوم جميعاً من خطأ وضلال في فهم رسالتهم ، وصلة ذلك كله بعقائدهم ، وموقف الأسلاف من ذلك . وهو موضوع طريف كان المحاسبي أول من عرض له وقد تأثره في ذلك كثيرون أشهرهم عدوّاهُ اللدودان : ابن الجوزي والذهبي . إذ ألّف ابن الجوزي — ٥٩٧ هـ كتابه الكبير (تلبيس إبليس) الذي عالج فيه الموضوع نفسه الذي عالجه المحاسبي ، لكنه تجاوز الفرق الإسلامية إلى سائر الملل والنحل ، وخص الفلاسفة بفصل من فصوله اللاذعة ، وركز أكبر تركيز في الهجوم على الصوفية مع انه أخذ عن شيخهم فكرته في تأليف كتابه .

كما ألف الذهبي (— ٧٤٨ هـ) جزءاً صغيراً بعنوان (بيان زغل العلم والطلب) نقد فيه القراء والمحدثين واتباع المذاهب الأربعة والنحويين والمفسرين والمتكلمين والمناطقة ورجال الفلسفة .

---

(١) الرعاية ٣٧٠ - ٤١٧ .

فكره

١ – مذهبه السياسي :

لم تعرف عن الحارث واقعة مع خليفة أو وال ، فقد نأى الرجل عن هؤلاء بدنياه كما نأى عنهم بدينه . بيد أنه كان من كبار مفكري المسلمين ومؤسس مدرسة صوفية ، وصاحب مذهب كلامي ، فلا بد أن يكون له فكر سياسي لشدة امتزاج مسائل الحكم بغيرها من أمور العقيدة والتشريع في الإسلام . ثم إنه عرض لموضوع الدماء بين الصحابة ، وذلك يتصل بمسألة الإمامة وعرفت عنه معارضته الشديدة لآراء الرافضة وردوده عليهم كما كان متكلماً وفقيهاً . وعلماء هذين العلمين ، الفقه والكلام ، هم الذين يعرضون لموضوعات الإمامة .

لذلك كله كان لا بد أن يكون له فكر سياسي إلا أنه لم تصلنا إلا شذرات قليلة في تضاعيف موضوعات أخرى كان الحارث يبحثها فوردت عرضاً .

فهو يورد في الرعاية وتحت عنوان : « هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء » ؟

طائفة من الآراء والأحاديث تؤكد أن من ولي الخلافة أو الأمارة أو القضاء أو قام بالدعاء إلى الله عز وجل والفتيا فسلم أن ذلك أفضل من جميع الناس .

من ذلك قوله ﷺ « ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً » . وقال النبي ﷺ « أول من يدخل الجنة ثلاثة : الإمام المقسط أحدهم » . وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل أحدهم » .

وقال : « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة إمام عادل » رواه أبوسعيد الخدري[1] .

ويقول في المكاسب : « وأجمع أهل العلم على الكف عن أمراء المسلمين والسمع والطاعة في العسر واليسر ، وألا ينازع الأمر أهله .. وهذا إجماع لا خلاف فيه . وقد أجمعوا جميعاً أن الإمام المسلم الذي لا بدعة فيه إذا صلى للقبلة فقد حل لك الصلاة خلفه » .

وقال الفضيل ابن عياض : « ان لي دعوة مستجابة مـــا جعلتها إلا في إمام ، وصدق فضيل لأن صلاح الإمـــام عبادة للرعية وطيب في المطعم والمشرب والمجلس وعدل السلطان بحر في الرعية وقوة على الخوارج واللصوص وأمن في الدين وعز » [2].

هذا كله في الإمام العادل الصالح لكن ما هو الحال إذا بدّل الإمام وغيَّر؟ هنا يستثني المحاسبي فيقول : « الا في معصية الله تعالى ورسوله فلا طاعة لهم في ذلك . وقال أبو بكر : لا تسبوا السلطان. وقال ابن عمر : لو لم تسبوهم لسلط الله عليهم ناراً من السماء ولكن قولوا اللهم آذهم كما آذونا . وقال عمران ابن حصين، لحكيم بن عمرو الغفاري انه يذكر يوماً أن رسول الله (ﷺ) قال : لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، قال نعم اما انك حفظت فالزم . ويروى عن ابن عمر عن النبي (ﷺ) لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وهذا إجماع لا خلاف فيه انه لا طاعة لأحد في معصية الله جل وعز ؛ في ارتكاب الفواحش وشرب الخمر وفي السجود للوثن وفي قتل النفس ظلماً »[3].

وفي هذه الحالة ؟ هل نثور عليه ؟ يرفض المحاسبي الثورة ويقول : « ان الإمام المسلم الذي لا بدعة فيه إذا صلى للقبلة فقد حل لك الصلاة خلفه وان

---

(١) الرعاية ٢٢٨ - ٢٢٩ .
(٢) المكاسب ٢٣٢ - ٢٣٣ .
(٣) المكاسب ٢٣٢ .

فسق وفجر وحرام عليك سبه » . ويرد على (طائفة غالطـــة) كما يقول « قالت : إذا لم يعدل الإمام في الرعية ، ويقسم بالسوية ، ويعطي العطاء ، ويسوى بين الناس في الأرزاق ، ويكفي الفاقة ، ويفدي الأسير ، ويجاهد العدو ، ويقيم لهم الحج ، ولا يستأثر دونهم بالفيء ، كان عاصيـــاً وكل من رضي بامامته كان عاصياً »[1] .

وإذا لم تجز لنا الثورة عليه فهل نعاونه في إثمه وعدوانه ؟!

يرى المحاسبي انه في مثل هذه الحالة ينبغي أن نكون سلبيين فلا نعمل للظلمة ، دون أن نثور عليهم ما دمنا لم نر منهم كفراً بواحاً ، عندنا من الله فيه برهان ، كما قال النبي (ﷺ) . وهو يذكر أقوال العلماء في ذلك ثم يرجح بعضها على بعض : « وقد تنازعت طوائف من العلماء في تأويل قوله تعالى : (ولا تعاونوا على الاثم والعدوان)[2] فقال بعضهم : سقي المـــاء للعاصي ، وقالت طائفة : المعونة على حرام بعينه ، وقالت أخرى : (بيع السكين من السلطان والخشبة ليصلب عليها رجل مسلم ، والسوط من الجلاد هذا كله حرام . وذهبت طائفة إلى أن ذلك مباح والاثم على الفاعـــل ، وهذه الطائفة مخالفة في التأويل ، لان النبي (ﷺ) لعن في الخمر عشرة : عاصرها ومعتصرها وبائعها ومبتاعها ، وحاملها والمحمولة إليه ، وشاربها ، وآكل ثمنها ، وحاضر مجلسها . وقد أحرق سعد كرمه وقال : بئس الشيخ أنا إن بعت الخمر .

وقالت فرقة : المعونة لهم حرام في كل مكان لهم فيه منفعـــة ، وهو مذهب طائفة من المتصوفة معهم جهل كبير وغلظة ، وقالت طائفة : بيـــع السلاح والكراع منهم معصية ، وما سوى ذلك ، فترك المعونة لهم وترك متابعتهم أفضل ،وهم طوائف من النساك والقراء ممن ينتحلون مذهب الثوري ،

---

(١) المكاسب ٢٣٤ .	(٢) المائدة آية ٥ .

وابن عياض ، ووكيع بن الجراح وأبي اسحق الفزاري وابن أبي ذئب وأحمد بن حنبل وبشر الحافي . وساعدهم على ذلك طوائف من المتصوفة بمكـــه واليمن وسواحل الشام وعبادان »[1] .

وواضح أن المحاسبي اختار الرأي الأخير القائل باجتنابهم ، والامتناع عن تنفيذ أوامرهم فيما هو حرام ، والتعاون معهم فيما عدا ذلك ، وقد أرجع ذلك إلى أصلين :

١ ــ لا بد من امارة برة أو فاجرة ، والدار لا تصلح إلا بإمام يُصلـّى خلفه ، وتـُرفع اليه الأحكام ، وتـُصلح الطرق ، وتـُعَبَّد الجسور ، وتعمر المساجد العظام ، وتبنى المنائر في الحراس بالثغور ، وتعقـــد الألوية على الطوائف وغيرهم ، ويقيم الحجـــة ، ويعطي الفيء ، ويقسم الغنائم ويجبي الخراج، ويفرض الأعطية،ويدون الدواوين، ويعول الفقراء،ويعطي الغارمين.

٢ ــ جمهور السلف : على انه إذا أحسن كان صلاحاً للرعية ، وإذا أساء وفجر كان فسادُهُ جوَراً في الرعية ، والصبر على الإقامة معه وترك مفارقة الجماعة في الخروج من امامته والمعاملة في البيع والشراء والتجارة والصنائع في دولته جائز ، ويكون بينك وبينــه ستر حتى إذا رأيت حليتهم على أحــد اجتنبته بعينه . قال عمر : ان ضُربت أو ظـُلمتَ ، فاصبرْ. وقال حذيفة : ليس من السنة أن تشهر السلاح في وجه السلطان . وقال النـــبي (ﷺ) « سترون بعدي فتناً وأثرةً ، قيل : فما تأمرنا به بعد يا رسول الله ؟ قال : أعطوا الحق الذي عليكم وسلوا الله الذي لكم . وهذا الحديث أصل عظيم من أصول الإسلام »[2] .

ومذهبه هذا هو مذهب المحدِّثين من أهل السنة وإليه يميلُ الصوفيـــة المعتدلون لأنه يتفق وفلسفتهم الخاصة بالبعد عن الدنيا وما فيها ، حتى لا

---

(١) المكاسب ٢١٦ .
(٢) المكاسب ٢٠٧ ـ ٢٠٨ .

يشغل ذلك قلوبهم عن الله ، بالإضافة إلى كراهية الحارث الشديدة للخصام والفرق وميله بطبعه إلى المسالمة ، لدرجة انه لم يحاول الرد على الإمام أحمد دفاعاً عن نفسه !!

مذهبه الصوفي :

عُرف الحارث كزعيم لمدرسة صوفية ذات مبادىء محددة ظهرت فيها تعاليم شيخها الأول ظهوراً بيّناً . بيد أن تصوفة المعتدل اختلط تماماً بمذهبه في علم الكلام ، بحيث يصعب التفريق بينهما ، وسنحاول أن نقوم بشيء من هذا القبيل لتتضح لنا ميزات تصوفه الخاص ، ولا بأس في إيراد نص له يظهر مكانة العقل في تصوفه بالنسبة لكتاب الله . يقول : « لكل شيء جوهر ، وجوهر الانسان عقله ، وجوهر عقله توفيق الله » .

« والعقل في ظل القرآن » : يمكن أن يكون العنوان الرئيسي لمذهبه الصوفي والكلامي . يقول : « كل زاهد زهده على قدر معرفته ، ومعرفته على قدر عقله ، وعقله على قدر قوة إيمانه » . قوة الإيمان : إذن هي التي تحكم العقل وتوجهه . يقول في «فهم القرآن» في معرض حديثه عن القرآن : « الذي جعله الله للناس إماماً ، ورضي به بينهم حاكماً » ، ثم يحاول تعليل ذلك فيما بعد فيقول : « لانه النور الذي استضاء به الموقنون ، والغاية التي يتسابق إليها المتسابقون ، والمنهج الذي لا يصل السالك إلا باتباع دلائله ، ولا يعلم له طريق النجاة إلا مع الاستضاءة بنوره ، ولا يصاب الحق إلا في محكم آياته » . ويمكننا بعد هذا أن نحصر خصائص تصوفه فيما يلي :

السنية :

باتّباع الكتاب والسنة ، ورجال السلف الصالح ، والتمسك بظاهر الشرع كله ،فهو منذ بداية تصوفه بحث عن سبيل النجاة فوجدها في «التمسك بتقوى الله وأداء فرائضه ، والورع في حلاله وحرامه وجميع حدوده ،

والاخلاص لله تعالى بطاعته والتأسي برسوله[1] ﷺ ، وهو حتى إبان الكشف الصوفي والوصول، يرى ان الطريق الوحيد لذلك هو التمسك بالشرع: « فمن شرح صدره ، ووصل التصديق إلى قلبه ، ورغب بالوسيلة إليه ، لزم منهاج ذوي الالباب ، برعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ وما اجتمع عليه المهتدون من الائمة »[2] . ويرى ان من اراد أن يخرج من ظلمات الجهل إلى نور العلم ، ومن عذاب الشك إلى روح اليقين ، ينبغي له أن يأخذ من كتاب الله : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور . وإنما يميز ذلك ويرغب فيه ، أهل العقل عن الله ، الذين عملوا في أحكام الظاهر ، وتنزهوا عن الشبه ، قال رسول الله ﷺ : الحلال بيّن والحرام بيّن وبين ذلك أمور مشتبهات[3] . فاستعمل لله عقلك بترك التدبير ، واستعن بالله على صرف المقادير »[4] .

وقد أنكر الحارث على عبدك وابن يزيد اللذين تطرفا في اتجاهاتهما الزهدية ، المخالفة للشرع ، كما هدد أبا حمزة بالذبح لأنه يقول بالحلول . وهو يرى ان من أمارات الباطن السليم ، تزين الظاهر بالمجاهدة واتباع السنة[5] . لهذا ألّف كتبه : المكاسب ، والمسائل ، والرعاية .

فهو في المكاسب يبحث ، من وجهة نظر فقهية ممزوجة بدقائق صوفية ، موقف رجال الله من المجتمع من حولهم ، نسائه ورجاله وحكامه ، كما يبحث كيفية التوفيق بين النشاط الاجتماعي وشروط الورع الشرعي .

وهو في « المسائل في أعمال القلوب والجوارح » يفرق بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح ويرى ان السريرة كالميزان ، بينما يرى ان الظاهر من القول والعمل هو الموزون .

---

(١) الوصايا ٢٩ - ٣٠ .
(٢) رسالة المسترشدين ٣٠ .
(٣) رسالة المسترشدين ٣١ .
(٤) رسالة المسترشدين ٣٩ .
(٥) الرسالة القشيرية ج ٧٣/١ .

وهو في كتاب «المسائل في الزهد» يبحث في الموضوع نفسه مع التركيز، على مشكلة المال ، من خلال النظرة الفقهية التي يضل بها الكثيرون .

وهو في « الرعاية » يبحث في آفات أعمال القلوب في الغالب ، ويجعل الشرع رقيباً على الباطن ، مع اتهام للنفس في كل آونة .

وكل هذه المواضيع مواطن للانزلاق والخطر في حياة الصوفيين الروحية. وهو في هذا الصدد استاذ الجنيد صاحب فلسفة الصحو الصوفية التي ترى في الغيبوبة والفناء عن الحواس وما يصدر عن العبد أثناء ذلك ، ترى فيه كله حالاً عارضة والأصل هو الصحو ، وهو الأسمى بما فيه من رعاية لضوابط الشرع وزواجر العقل . هذا الاتجاه الذي سيطرت فيه على تصوف المحاسبي نزعته السنية المحافظة المعتدلة ، وشدة الضبط للسلوك الباطني والخارجي في الطريق الصوفي ، هو الذي جعل، الذين قيَّموا تصوفه من القدامى،يشددون على انه جمع إلى الحالِ العلمَ . فهو فقيه ومتصوف ، وبعبارة أخرى أن تصوفه تصوف فقهي وهو واحد من خمسة هذه حالهم ، هم : الجنيد ورويم وابن عطاء وعمرو المكي. ومما له دلالته ان هؤلاء الذين عرف عنهم الاعتدال لجمعهم إلى المعاملة العلم ، هم تلامذته وأصحابه وكانت شخصيته الكبيرة الورعة قد تركت فيهم هذه الآثار البليغة . وقد قال ماسنيون عن تصوفه :

« في تعاليمه امتزجت لأول مرة وبقدرة نادرة وخشوع كلي ، واحترام للتقاليد الخالصة ، البحث المستمر عن الكمال الخلقي الداخلي والاهتمام الجاد بالتعاريف الفلسفية الدقيقة [١] » . إنه إذن صاحب فلسفة : لا ينبغي للعبد أن يطلب الورع بتضييع الواجب [٢] . وأستاذ ذلك الذي قيل له ان فلاناً كف عن الصلاة والصوم لأن اليقين أتاه تحقيقاً لقوله تعالى « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » . فقال « نعم لقد أتاه اليقين انه في سقر » .

---

(١) Massignon - Essat Page 241 - 255.

(٢) الحلية ج ١/٧٦ .

لهذا كله كان من الغرابة بمكان أن يقول الأستاذ أحمد أمين: « في أواسط القرن الثالث الهجري تفلسف التصوف واستمد من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية فظهر في العراق الحارث المحاسبي وهو بصري الأصل وأستاذ أكثر البغداديين ومفلسف التصوف [1] » .

أما ان التصوف تفلسف ابتداء من القرن الثالث الهجري فقد يكون صحيحاً واما انه استمد من الفلسفة اليونانية والهندية فصحيح أيضاً . أما ان الحارث هو الذي فلسفه فغير صحيح على الإطلاق . لقد تمسك الحارث المحاسبي بالسلف أقوالاً وأفعالاً ، فكان سلفياً في سلوكه ، كما كان سلفياً في باطنه ، وقد أثبتنا ذلك بالادلة القاطعة . وقد يكون الأستاذ أحمد أمين معذوراً في ذلك إذ لم تكن كتب الحارث قد طبعت عندما قال ما قال خصوصاً انه قرأ كما قرأ غيره ، ما كتبه المؤرخون عن الحارث ، من انه كان متكلماً وصوفياً ومحدثاً وفقيهاً ، وانه ألف زهاء مئتي مؤلف في مختلف العلوم المعاصرة له ، فظن ان رجلاً هذا شأنه وهذه ثقافته لا بد أن يكون قد تكلم في فلسفة التصوف والحق ان كل ما عمله الحارث هو جمع ما كان منتشراً وتنظيم ما كان منتثراً ومزج ذلك كله ، بالفقه ليكون ميزاناً إسلامياً ، وبالعقل ليكون ميزاناً إنسانياً للتصوف في تطوره ذاك .

المحاسبة :

ولأنها ركن من أركان فلسفته الصوفية لقب بالمحاسبي على الأرجح لا لأنه كان في يده عرق أو شيء من هذا القبيل يدل لذلك ما عابه عليه الحنابلة من كلام في الخواطر والوساوس مما لم يسبق للسلف أن تكلموا به [2] . وفي المكاسب : « قلت : رحمك الله ما الورع ؟ قال : المجانبة لكل ما كره

---

(١) ضحى الاسلام ج ٢٢٧/١ .

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ج ١٣٢/١ .

الله عز وجل ، من مقال أو فعل بقلب أو جارحة ، والحذر من تضييع ما فرض الله عز وجل عليه ، في قلب أو جارحة . قلت : وبماذا يُنال ؟ قال: بالمحاسبة . قلت : وما المحاسبة ؟ قال : التثبت في جميع الأحوال قبل الفعل ، والترك من العقد بالضمير أو الفعل بالجارحة ، حتى يتبين له ما يترك وما يفعل . فان تبين له ما كره الله عز وجل جانبه ، بعقد ضمير قلبه ، وكف جوارحه عما كره عز وجل ، ومنع نفسه من الإمساك عن ترك الفرائض ، وسارع إلى أدائها » .

المحاسبة إذن هي فرع السلفية أو قل انها ميزان السلفية .

ويدل على ذلك ما قاله بعد النص السابق . « قلت : وما يترك وما يجانب ؟ قال : أربعة أشياء : شيئان واجبٌ تركهما .

فأحدهما ما نهى الله عز وجل عنه من العقد بالقلب على الضلال ، والبدع ، والغلو في القول عليه بغير الحق ولا يعتقد إلا الصواب .

والآخر ما نهى الله عنه من الأخذ والترك من الحرام بالضمير والجوارح .

وأما أحد الشيئين الآخرين : فترك الشبهات خوف مواقعة الحرام وهو لا يعلم استبراء لذمته ، لتمام الورع كما قال النبي (ﷺ) : من ترك الشبهات استبراء لذمته ودينه وعرضه ومن واقع الشبهات فكأنما واقع الحرام » [1] .

وهو يكرر هذا التعريف السابق في الرعاية فيقول : « المحاسبة : النظر والتثبت بالتمييز لما كره الله عز وجل مما أحب ، ثم هي على وجهين :

أحدهما في مستقبل الأعمال والآخر في مستدبرها .

فأما المحاسبة في مستقبل الأعمال فقد دل عليها الكتاب والسنة واجمع عليها علماء الأمة [2] ... وبعد أن يورد آيات وأحاديث تشهد لرأيه هذا

---

(١) المكاسب ٢٠٠ - ٢٠١ . (٢) الرعاية ٣٦ - ٣٧ .

يتابع : « والآي في ذلك كثير فوصف الله جل وعز محاسبته لأنفسهم في أعمال جوارحهم بالإخلاص له .. أما في أعمال القلوب فالمحاسبة والموازنة تكون في **أربعة مواطن** ... فيما بين الإيمان والكفر ، وفيما بين الصدق والكذب ، وبين التوحيد والشرك ، وبين الإخلاص والرياء » [١] . فالخوف والرجاء هما أصل محاسبة النفس كما ان أصل الخوف والرجاء ، معرفة الوعد والوعيد ، وأصل معرفة الوعد والوعيد عظيم الجزاء ، وأصل ذلك الفكرة والعبرة [٢] .

ومهما قيل من أن محاسبة المحاسبي لنفسه إنما تحولت إلى ضرب من الوسواس ، فإن المحاسبي يرد على كل ذلك بقوله : « ان محاسبة النفس تكون بقيام العقل على حراسة جنايتها ، فيتفقد زيادتها من نقصانها » فهي محاسبة عاقلة ، لا محاسبة هواجس ووساوس .

وهي في أعمال الجوارح ، «الاتيان بما أُمرت به والانتهاء عما نُهيت عنه». أما فائدتها الباطنة فهي انها : « تورث الزيادة في البصيرة ، والكيس في الفطنة ، والسرعة إلى اثبات الحجة واتساع المعرفة ، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش [٣] » . إذن كان الحارث مقتنعاً بامكان تحول الانسان تحولاً داخلياً عن طريق حياتية ليست قاسية ، لكنها ورعة ، وينبغي ان توضع موضع الرعاية والمراقبة باستمرار . هذه القاعدة هي التي بها نخضع أعمالنا الفردية وعلاقتنا الإجتماعية مهما كان نوعها لواجب واحد علينا أن نعرفه تمام المعرفة ، الا وهو طاعة الله وحده وخدمته . ان هذه القاعدة الحياتية سوف تؤدي إلى شيئين : التمييز ، بين العقل والعمل من ناحية ، ذلك ان كل معرفة نظرية لا تصبح معقولة إلا من حيث هي عملية . ثم التفرقة

---

(١) طبقات الصوفية ٥٦ . (٢) الحلية ج ١٠/٧٦ .

(٣) الحلية ج ١٠/٨٨ .

بين الإيمان ، والمعرفة من ناحية أخرى غير ان الإيمان الذي يفترض العمل ليس كل فعل من أفعاله مقبولاً عند الله .

غير ان نزعته السنية هذه ترى دائماً : ان الطاعة تعني مراعاة الأحكام ، وان وضع هذه القاعدة موضع التطبيق سوف يستتبع في النفس تتابع الأحوال الداخلية ، وترابطها فترى ان الفضائل ترتبط بعضها ببعض تبعاً لنظام خاص هو أشبه بنظام التولد ، كما يتولد الصدق من المعرفة ، والرضا من الاخلاص . ان العقل ليس له عند الحارث أن يقوم حكماً بين الخير والشر ، وليس له أن يوازن بين فكرة شيطانية ، وفكرة إلهية ، بل هو القدرة التي ينبغي بها أن تكشف عما يفضله الله بين أمرين من أوامره فنختار من بينهما الأقسى ونلتزم به [١] .

الزهد :

ويترتب على هذه المحاسبة العقلية التي تختار الأقسى ، نزعة الزهد في تصوف المحاسبي ، وهو زاهد بحكم مزاجه المدقق ، فقد تورع عن أن يرث عن والده شيئاً، وتورع عن أن يأكل شيئاً من عند الجنيد لانه لم يتحقق من مصدره . ومات وهو محتاج إلى درهم . وبلغ من تطرفه واختياره للأقسى ، في أول عهده للتصوف ، ان آثر عدم كسب الحلال . ثم اعتدلت آراؤه واتزنت وان بقيت نزعته الأصلية المتقللة أصيلة في فكره وسلوكه،وقد مات يوم مات وهو محتاج إلى دانق .

وكتاب الحارث « المسائل في الزهد وغيره » محاولة لبسط فلسفته الخاصة في الزهد في ضوء آيات الكتاب ومأثور السنة وسلوك رجال السلف من الصحابة والتابعين : « سئل أبو عبدالله الحارث بن أسد المحاسبي عن الزهد بالدنيا أفرض أم نفل ؟ وما الفرض وما النفل ؟ فقال : فرض الله على العباد

---

(١) Massignon - Essai 251 - 252.

الزهد في حرامه ، ونفلهم الزهد في حبس حلاله لموضع الفضـــل ، وأمرهم بالرغبة فيما فيه رغبهم ، وبالزهد فيما فيه زهدهم ، فإذا كان الرجـــل يحس التمييز بين الفرض والنفل ، لم يقدم على الحرام ولم يزهد بالحلال . إلا أن الله تعالى لم ينفل أن يزهد الإنسان في حلاله ، ولكن نفـــل أن يزهد في حبس الحلال عن إنفاقه في وجوهه . فإذا تم للعبد الزهد لم يحبس إلا القوت ، وما يعده للنوائب ، ولما يخاف من العواقب ، من أمر نزل بالمسلمين أو أمر مما يُستعان عليها بالتأهب العاجل والآجل) [1] . (فإذا كان العقد عقـــده ، ونيته الامضاء في الحقوق . وليس يمنعـــه من الامضاء أن نفسه بالامضاء لا تصدق ، فهذا خازن من خـُزّانِ الله عز وجـــل ، ليس حَبْسُهُ للأموال ضَنّاً بها ، وحرصا عليها ، فهو زاهد وإنْ كَثُرَ عنـــده المـَتَـاعُ ... ولرب مكثر بغير الإكثار مشغول ، ليس بذاكر دنياه لأنّ الآخرة قد غلبت على مُنَـاهُ ، تذكـُّرُهُ للدنيا تذكر من أراد فيها البلاغ ، وَحَبْسُهُ لهـــا حبس من لا يغيره تقلب الأحوال ، قلبه لغيرها ذاكر ، وهو على ما أعطاه الله منها شاكر ، إن أُعطي منها لم يمنعه حلول النعمة عن أداء شكرها ، وان مُنع لم يمنعْهُ نزولُ البلية عن النظر إلى موضع الخيرة ، فهو صابر على البلاء ، وعالم بأن عسر حاله خير له من الرضاء، وهو يستقبل البلية بالصبر والشكر، ويرى إنها إذا أقبلت عليه صبر عليها ، وإذا نظر في عاقبتها وجد خـــيراً ونعمة وجب عليه فيها الشكر ، فهو مسرور بالرخاء ومختار لما اختاره الله له إذا نزل به البلاء ليس يرد على مولاه ما اختار ، ولا بمختار غيره باختيار.

هذه صفة الزاهد ، باردٌ وَقـْعُ الأشياء في قلبه .

أما بواعث الزهد وأسبابه ، فخفة المؤونة والراحة من عظيم الكلفة ، لانه إذا حل بالزهد حط الكريم عنه في الدنيا مؤونة الراحلة ، واستراح من تعب النقلة ، وحلت نفسه بالطمأنينة) [2] .

---

(١) المسائل في الزهد ٤٣ - ٤٤ .   (٢) المسائل في الزهد ٤٣ - ٤٥ .

ان الزهد ليس زهداً بالمال والمتاع ، إنه زهد بكل مظاهر الدنيا وما فيها من فضول (فصمت الفكرة زهد ، وكسر الأمل زهد ، ومكابرة الرغبة زهد) .

الزاهد عند الحارث هو من برد على قلبه وقع الأشياء « فإذا زهد في فضول الكلام والفعل ، وأوى إلى ضروب من الصمت والفكرة ، كان من ذلك تدبر في الإنابة إليه ، وضرب في إنعامه ، فإن الفكرة اللازمة للخلق هو الفكر فيما هم عليه من طاعة فيقيمون عليها ام على معصية فينتقلون عنها ، فهذه الفكرة اللازمة للخلق . ثم فكرة الموازنة بين الأعمال فيوازن بين الشيئين فينظر إلى أوزنهما ليأخذ به »[1] .

المكابدة :

وتعني شيئاً من القسوة على النفس توشك أن تكون نزعة « ملامتية » . وقد بدا ذلك بحدة منذ خلافه مع والده وتورعه عن أخذ شيء من ماله . ثم استمرت نزعة التفتيش والتدقيق هذه حتى تحولت كتب المحاسبي ، في نظر خصومه ، إلى كتب وساوس وخطرات . وفي هذا الاتهام شيء من الصحة . وتبدو تلك القسوة التي قلنا إنها تشبه قسوة « الملامتية » في مواطن كثيرة من كتبه كلها مختلطة بمحاسبة نفسه . ويقوم التصوف الملامتي على أساسين رئيسيين : الملامة ، والفتوة وكلا الركنين وُجد في تصوف المحاسبي . فمن تعاريفه للفتوة : « أن تنصف ولا تنتصف »[2] . كما أيد لبس الصوف وخشن الثياب للمتصوفة دونما انكار عليهم لكونه شهرة كما ذكر في باب الشهرة[3] . ووصف الفتوة التي افتقدها العصر بقوله : « حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الامانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء »[4] .

---

(١) المسائل في الزهد ٤٣ - ٤٥ ، (٢) الرسالة جـ٢/ ٤٧٣ ،
(٣) المسائل ١٠٢ ، (٤) الرسالة جـ٢/ ١٩٥ .

وتعريفه السابق للفتوة يشبه تعريف زعيم الملامتية الأول إلى جانب « القصار » أعني أبا حفص الحداد الذي عرّفها بأنها : « أداء الأنصاف وترك مطالبة الإنصاف » [1] .

أما الركن الأول وهو الملامة فقد أكثر من الحديث عنه في كتبه في صدد اتهامه لنفسه . يقول : « الا واستعينوا على نفي الإعجاب باحتقار أعمالكم » ، ويقول: « وبعد فإنك منهي عن تفضيل نفسك وتزكيتها، محرم عليك الإعجابُ بها » [2] . ويتحدث عما يسميه الازدراء على النفس فيعرفه بأنه : « المعرفة بقدرها وسوء رغبتها وأفعالها » [3] . « والنفس قد أبطنت الشهوة لتتزين بذلك وتتصنع عند العباد بظاهر الطاعة » [4] . فلا بد من الاستمرار في اتهامها لانها عدو ضار ، فإن عرفها صاحبها ازداد لله عز وجل حبّاً ولها بغضاً ومَقْتاً » [5] فلا يكره الإنسان أن يطلع الناس على سيءِ عمله [6] ، تحطيماً لها . « والاحتياط توقع النقص وخوف البخس دائماً [7] .

الحركة :

ولقد اتسم تصوفه بنزعة إجتماعية فنص في كتاب « الغرة » على أن الاغترار بالخلوة ليس من التقوى بشيء ونعى على أولئك الذين يغترون بها فاتهمهم بالبعد عن العباد والانشغال بذوات أنفسهم [8] . وأثبت بسيرته أن صحبته الناس لا تنافي الإنشغال بالله فعندما قال له الجنيد : « تخرجني من عزلتي وأمني على نفسي إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات وعزلتي أنسي » . قال : « كم تقول عزلتي أنسي . لو أن نصف الخلق تقربوا مني ما وجدت بها أنساً ، ولو أن نصفهم الآخر نأى عني ما استوحشتُ لِبُعدِهِم » . ونعى

---

(١) الحلية جـ١٠/ ٢٣٠ .
(٢) الوصايا ٧٠ - ٧١ .
(٣) المسائل ١٤٨ .
(٤) الرعاية ١٢٨ .
(٥) الرعاية ٢٧٨ - ٢٨٢ .
(٦) الرسالة جـ ٢/٤٥٢ .
(٧) الحلية جـ١٠/١٨٨ .
(٨) الرسالة جـ٢/٤٩٥ .

على أولئك المتصوفة الذين قعدوا عن الكسب بحجة عدم وجود الحلال فوصفهم بالجهل والغلظة في كتابه : « المكاسب » . وجعل العطف على أهل الضعف الفرض الثاني في الإسلام بعد معرفة الله . فقال « أفضل العبادة العلم بالله عز وجل والتعظيم له ... فإذا انتظمت هذه الخصال ، فإنّ أفضل الأعمال العطف على أهل الضعف، وقد سئل النبي (ﷺ) أى الأعمال أفضل ؟ فقال : أن تغيث ملهوفاً أو تنصر أخاً لك . وقال : الخلق عيال الله فأحب الخلق إليه أنفعهم لعياله . فأفضل الأعمال إدخال المرافق في الدين ، والعطف على المساكين وهي صفة النبيين ، وصالح المؤمنين ... فقد كان أفضل عبادة صدر هذه الأمة الجهاد في سبيل الله ، ثم كان أفضل الأشياء بعد هذا إرفاق بعضهم بعضاً ، إما بفرضٍ أو بقَرضٍ ، والإيثار على أنفسهم وقد حلت بهم الخصاصة ... وأفضل الخلق للناس رجل قصر نفسه على العلم ، وآخر بذل نفسه لمؤونة الناس ، مؤونة عالم رعى المتعلمين ، وساع بذل نفسه للمساكين ، فعلى العالم في علمه التواضعُ لمن انقطع إليه ، وَحُسنُ العطف عليه ، وشدة العمل بما يأمر به ، وإيثاره أصحابه على نفسه ، وليس يجمل به أن يكتسي وهم يعرون ، ويشبع وهم يجوعون ، وعليه أن يتعاهد من أمورهم ما يُضيعون ، فيخلف من نأى منهم في عياله ، ويواسيهم بماله، وعليه في تأديبه لهم أن يظهر حسنهم ليزدادوا ، ويكتم خطأهم لئلا ينقطعوا ويتلمس من كل إنسان مذهبه، فيحسن مداراتهم فلا يترفع عنهم، فإن ذلك من العالم قبيح ، ولا يكثر المعاتبة فإنها تحمل على اللجاجة ، ولا يلح على أحد دون الآخر بإقبال ، فإنه مما يصرف عنه قلوب الرجال . ولكن ليقسم بينهم النظر ليكونوا عليه أقبل »[1] .

والمحاسبي هنا يتحدث حديث استاذ تصدر للتدريس زهاء ربع قرن أو أكثر وكان زعيما لمدرسة أخلاق صوفية وهو يذم الادخار ، إلا أن يكون

---

(١) المسائل في الزهد ٤٣ ، ٧٢ .

لنوائب المسلمين[١] .

وهو يرى أن أصل الأمور كلهـا والذي بـه يرتفع العمل ويزهو هو أصلان :

الاول سلامة الصدر لجميع المسلمين[٢] .

الثاني يستحب للزاهد أن يعمل على اكتساب حسن ظن المسلمين به، لأنهم شهداء الله في الأرض[٣] .

والحارث يرى أن حسن الخُلقِ مع الناس تجمعه أربع خصال : احتمال الأذى ، وقلة الغضب ، وبسط الوجه ، وطيب الكلام[٤].

مذهبه الكلامي :

يقول الذين ترجموا للحارث أن له مئتي مصنف في أكثر العلوم الإسلامية ومن جملة هذه المصنفات مصنفات في علم الكلام . ويعتـبره الصوفية ممن جمع بين الفقه والتصوف والحديث وعلم الكلام . وتجمع الروايات التي تتحدث عن موقف ابن حنبل منه أنه تكلم في شيء من الكلام فهجره. وتفصل روايات آخر هذا الأمر مزيد تفصيل فتقول : ان أحمد أنكر عليه أن يـذكر أقوال المخالفين ثم يرد عليها حذراً أن تقع في قلب القارىء شبهة لا تزيلهـا حجج الحارث[٥] .

قال ابن الأثير : « وهو أول من تكلم في إثبات الصفات »[٦] . وقـال الخطيب البغدادي « إليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية » .[٧]

---

(١) المسائل في الزهد ٧٢ – ٧٥ .
(٢) المكاسب ٢٠٢ .
(٣) الرعاية ٢٣٧ .
(٤) طبقات الصوفية ٥٦ – ٦٠ .
(٥) راجع «فهم القرآن» .
(٦) الكواكب الدرية ج ٢١٨/١ .
(٧) تهذيب التهذيب ج١٣٤/٢ .

ويفصل عبد الكريم الشهرستاني الأمر فيقول :

« ان جماعات كثيرة من السلف كانوا يثبون لله تعالى صفات أزلية من العلم ، والقدرة ، والحياة ، والارادة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، والجلال ، والإكرام ، والجود ، والإنعام ، والعزة ، والعظمة . ولا يفرقون بين صفات الذات ، وصفات الفعل . بل يسوقون الكلام سوقاً واحداً . وكذلك يثبتون لله صفات جبرية مثل اليدين ، والرجلين ، ولا يؤولون ذلك إلا أنهم يقولون بتسميتها صفات جبرية . ولما كان المعتزلة ينفون الصفات والسلف يثبتون ، سمي السلف صفاتية والمعتزلة معطلة . وتخطت جماعة من السلف إلى التفسير الظاهر فوقعت في التشبيه . أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس (رضي) الذي قال : الإستواء معلوم والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة . ومثل أحمد بن حنبل وسفيان وداوود الأصفهاني ومن تابعهم، حتى الزمان إلى عبدالله بن سعيد بن كلاب وأبي العباس القلانسي والحارث بن أسد المحاسبي، وهؤلاء كانوا من جملة السلف إلا أنهم باشروا علم الكلام ، وأيدوا عقائد السلف بحجج كلامية وبراهين جدلية »[1] .

وإنما أوردنا هذا النص لنتبين مكان متكلمي الصفاتية من أهل السنة ونعني بمتكلمي الصفاتية أتباع المدرسة الكلابية التي تزعمها عبدالله الكلابي (٢٤٠هـ) ويرى البغدادي[2] والسبكي[3] أن المحاسبي وزملاءه من رجال المدرسة الكلابية هم أسلاف الأشاعرة .

والنصوص التي أوردناها سابقاً تظهر أنه كانت لمتكلمي الصفاتية هؤلاء في مذهبهم ناحيتان : ناحية هدمية وناحية بنائية .

---

(١) الملل والنحل ج ٩/١ ٤ – ٥٠ .

(٢) أصول الدين ٣٠٨ .

(٣) الطبقات ج ٢٦٢/٢ .

أما الناحية الهدمية فتتمثل في الرد على المعتزلة والرافضة والقدرية والجهمية والحرورية والمرجئة ، وغيرها من الفرق التي وردت أسماؤهـــا في كتب الحارث .

وأما الناحية البنائية فتتمثل في بناء مذهب كلامي جديد يصح أن يكون بديلاً عن آراء الفرق التي رأى فيها متكلمو السلف هؤلاء ضلالاً وخطأ .

ولا شك أن قيام هؤلاء بحجج وآراء كلامية للدفاع عن العقيـدة يبين أن علماء القرن الثالث الهجري من أهل السنة قـــد أدركوا أن ضرب المعتزلة والرافضة والجهمية وغيرهـا من الفرق ، ينبغي أن يكون بسلاحهم نفسه ، وان الحاجة ملحة إلى إعادة تقويم موقف رجال السلف من كل موضوعات العصر في الفلسفة والمنطق وعلم الكلام . وأنه قد آن الأوان لنبذ التجاهـل المعيب للعقل بحجة أنه أدى إلى انحراف المعتزلة وغـــيرهم من المتكلمين . ونتيجة لذلك قام علم الكلام عند الصفاتية على علم وعقل بظل القرآن .

وقد حدثنا ابن تيمية عن الناحية الهدمية لمدرسة الصفاتية فقال : « جاء ابن كلاب لما ظهرت الفتنة المشهورة ، فامتحن الامام أحمد وغيره من أئمـــة السنة ... قام أبو محمد ابن كلاب البصري وصنّف في الرد على الجهمية والمعتزلة مصنفات ، وبين تناقضهم فيها وكشف كثيراً عن عوراتهم .. وأما ما أحدثه ابن كلاب ومن اتبعه فمؤلفات بها بينوا فساد قول من قال : «القرآن مخلوق» من الجهمية والمعتزلة »[1] .

ونحن نعرف شيئاً من الناحية الهدمية عند المحاسبي من كتابــه « فهم القرآن » فهو يهاجم المعتزلة في كل أصولهم . في تحجرهم العقلي ، ونفيهم للعرشية ، وقولهم بحدوث الارادة في غير محل ، ثم قولهم في بقية صفات الله التي هي صفات المعاني. لكنه لا يقول بقدم صفات الأفعال. وليس صحيحاً ما

---

(١) منهاج السنة جـ١ / ٢١٧ - ٢١٩ : ط . بيروت بتحقيق د. محمد رشاد سالم .

أتـهم به ابن كلاب وزملاؤه مما أورده ابن النديم من أنهم يقولون أن كلام الله هو الله . ان السبكي يوضح حقيقة الأمر فيقول : كان ابن كلاب وزملاؤه يقولون ان هناك نوعين من الكلام ، الكلام النفسي وهو قـديم ، والكلام اللفظي المتعلق بالنهي والأمر والخبر وهو محدث ، وصفاته تعالى قائمة به ، لا هي هو ولا هي غيره وما دام كلام الله قديماً ، والقرآن كلام الله ، فالقرآن غير مخلوق ، وإنما هو قديم قدماً اعتبارياً باعتبار قدم الكلام النفسي . وإنما قالوا بما قالوه في الصفات من أنها قائمة بـــه لكنها ليست هو وإلا تعطلت الصفة ، وليست غيره وإلا تعدد القديم . فالصفات إذن متعلقاته هو، وليس هو من متعلقاتها ، ثم إن الصفات لا تقوم بالصفات ، لكنها تقوم بالله فالله إذن ليس صفة[1] .

بقي أن نوضح قطعةً وردت في التعرف : « وقالت طائفة منهم — من الصوفية — كلام الله حروف وصوت ، وزعموا أنـــه لا يعرف كلامه إلا بالحروف والصوت . مع إقرارهم أنه صفة الله تعالى في ذاته غـير مخلوق ، وهذا قول حـــارث المحاسبي »[2] . وواضح أن الكلاباذي لم يفهم رأي المحاسبي في الكلام . إذ ان المدرسة الكلابية تقسم الكلام كما ورد سابقاً إلى قسمين : نفسي فهو قديم أو ملفوظ ومرئي فهو حادث . وظاهر أن المدرسة في نتائج أبحاثها لم تخرج على مذهب أهل السنة ، فرجـــالها من مؤيدي المحدثين ، لكنهم أيدوا كلام المحدثين بحجج عقلية وكلامية .

لقد آمن الحارث وزميلاه[3] بآراء أهل الحديث ولكنهم صاغوها صياغة

---

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام : د - النشار جـ ١ / ٢٧٤ - ٣٠٥ .

(٢) التعرف لمذهب أهل التصوف ١٩

(٣) كان القلانسي زميلاً لهما في الفكرة اذ أنه متأخر عنهما زمنياً فقد توفي (٣٥٥ هـ)وقد تبعنا الشهرستاني في ذكره معهما .

كلامية . وأثار قولهم بالمبدأ الأساسي وهو التأويل، أثار عليهم ثائرة المحدثين والصوفية جميعاً .

فهاجم ابن حنبل ابن كلاب كما هاجم الحارث[1] .

وهو ما فعله ابن تيمية فيما بعد في منهاجه[2] .

كما رويت عن الجنيد أقوال في ذم ابن كلاب واتهامه بالزندقة . واتهم أبا علي الدقاق شيخ الامام القشيري ، وأبا الحسين بن سالم زعيم المدرسة السالمية الكلابية ، بأنهم في باطنهم معتزلة .

وقد حاول ماسينيون أن يقوّم عمل المحاسبي في علم الكلام بصورة عامة فقال : « كان لديه ميل واضح إلى إقناع الآخرين . وهذا صحيح . كما يبدو في مؤلفاته ، وقد توسل إلى ذلك عن طريق العقل المتقيد بأحكام الشرع . وكان يمتلك تماماً القدرة على استعمال المعجم الفني الذي كان يتكلم به المشتغلون بالعلوم الإلهية في عصره[3] وصحيح أنه كان يستعمل معجم المعتزلة ولكن الرغبة عنده في استخدام ما يعارضهم فيه . ولم تشفع معارضته هذه عند الحنابلة الذين قاوموه بكل حال ، وأرغموه على التواري في منزله حتى موته .

ويمكن فهم آراء الحارث الكلامية تماماً من المخطوطين اللذين نحققهما وننشرهما بعد هذه المقدمة ، إذ يمثل مخطوط العقل منهجاً للبحث . ويمثل فهم القرآن تطبيقاً لهذا المنهج المستحدث حقاً من حيث هو منهج يعتمد على التحليل العقلي للمعاني الخلقية والخواطر النفسية .

---

(١) لسان الميزان : ابن حجر ج ٣/٢٦٠

(٢) المنهاج ج١/٢٢١ - ٢٢٢

(٣) Abdul Halim Mahmoud - Al Muhasibi p. 30 PARIS - 1940 .

وقد قدمنا سابقاً ما قاله عبد القاهر البغدادي والسبكي من أن المحاسبي من أسلاف الأشاعرة . وليس ذلك غريباً فقد انتهى الأمر بمدرسة ابن كلاب الكلامية أو مدرسة الصفاتية إلى الإندماج في المدرسة الأشعرية . بل لقد تتلمذ الأشعري على زعماء المدرسة الثلاثية فكرياً ، وعرف أقوالهم معرفة تامة . يدل على ذلك روايته لها في مقالات الإسلاميين ، وإذا استثنينا رأيَ الأشعري في الكسب ورأيه في التكليف بما لا يطاق ، نجد انه قد تبنى كل آراء المدرسة الكلابية تقريباً . وبالاضافة إلى هذه الصلة الوثيقة للأشعري بالصفاتية فقد اتصل تلاميذه بتلامذة المحاسبي . فبندار بن الحسين الشيرازي (— ٣٥٣ هـ) الذي ذكره صاحب الرسالة القشيرية كتلميذ للشبلي[1] (— ٣٣٤ هـ) هو أحد أربعة هم أكبر تلامذة الأشعري (— ٣٢٤ هـ) وابن خفيف تلميذ ابن عطاء (٢٧١ هـ ، ٣٤٢ هـ) الذي أخذ عن المحاسبي ، تتلمذ أيضاً على أبي الحسن الأشعري ، وكان أستاذاً للباقلاني في الأصول ، أي علم الكلام . والباقلاني (— ٤٠٣ هـ) وامام الحرمين (— ٤٧٨ هـ) هما زعيما فترة الازدهار الثانية في المذهب الأشعري .

وعندما أراد الباقلاني الخروج إلى عضد الدولة البويهي (٣٧٢ هـ) ، وكان شيعياً يسيطر المعتزلة على مجالسه الكلامية ، خوّفه زملاؤه مغبة ذلك فقال لهم كلاماً معناه : ان حذر أسلافنا كالمحاسبي وغيره هو الذي أدّى إلى سيطرة المعتزلة على الدولة . فاعتبر الحارث الصفاتي سلفاً للاشاعرة . وابن خفيف السابق الذكر هو الذي اشتهر كزعيم لحلقة صوفية في شيراز كان يدرس فيها تلاميذه كتاب « اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع » لأبي الحسن الأشعري .

وابن فورك، رجل الاشاعرة الكبير المعاصر للباقلاني، روى عنه القشيري كثيراً في رسالته باعتباره صوفياً يجمع إلى علم المعاملة علم الكلام واعتبره

---

(١) الرسالة جـ ١/١٧٥ .

بغدادياً . وأبو عبد الرحمن السلمي (— ٤١٢ هـ) صاحب (طبقات الصوفية) تتلمذ على الباقلاني فقرأ عليه اللمع للأشعري . والقشيري (— ٤٦٥ هـ) ، صاحب الرسالة المشهورة في التصوف ، يقول عنه المترجمون له ، إنه « كان شيخاً من مشايخ الصوفية أشعري الأصول ، شافعي الفروع » . وعندما سيطر السلاجقة السنيون على نيسابور حاول وزير السلطان السلجوقي الكندري (— ٤٥٥ هـ) وكان شيعياً ، أن ينزل الضرر بالأشاعرة فأشار على السلطان بلعن المبتدعة على منابر نيسابور ، وأدخل بين أسماء المبتدعة اسم أبي الحسن الأشعري . فثار لذلك الاشاعرة والصوفية وكانوا كثيرين في نيسابور وأعمالها ، فاضطهدهم الوزير الشيعي ففروا من بغداد ، وكان منهم القشيري ، وابن فورك وإمام الحرمين ، وأبو سهل ابن الموفق . وقد كتب القشيري كتاباً حول الموضوع بعنوان (شكاية أهل السنة) نقله السبكي في طبقاته[1]. حتى إذا كانت سنة (٤٥٥ هـ) عاد الاشاعرة والصوفية إلى نيسابور بعد أن قُتل الوزير الرافضي ثم جاء نظام الملك فنصرهم نصراً بيناً .

هذه بعض ملامح الصورة التي كانت عليها العلاقات بين الاشاعرة ومدرسة بغداد الصوفية بعد وفاة شيخها المحاسبي (— ٢٤٣ هـ) وهي تؤيد ما ذهب إليه الباحثون من أن اندماج صوفية بغداد من تلاميذ المحاسبي بالاشاعرة قد تم منذ أوائل القرن الرابع الهجري .

---

(١) السبكي : طبقات الشافعية الكبرى جـ ٢/٢٧٢ .

الحارث ومكانة العقل في مذهبه

العقل في الفلسفة القديمة :

من الواضح لدى مؤرخي الفلسفة أن أول فلسفة عقلية نشأت في العالم القديم كانت نشأتها في بلاد اليونان . وكان سقراط (— ٣٩٩ ق. م) أبرز الفلاسفة العقليين ، بل لقد كان أبرز أصحاب هـــذه المدرسة السوفسطائية القديمة التي قدر لها أن تتحول بالفلسفة القديمة تحولاً جذريـــاً من البحث في الوجود المادى الطبيعي إلى البحث في الوجود الماهوي العقلي ، فرأينا دعائم هذا الاتجاه تتركز مع سقراط عندما جعل موضوع الفلسفة هذه الماهيات العقلية المجردة. ثم نما هذا الاتجاه وتأصل في الأرض اليونانية على يد أفلاطون (—٣٢٧ ق. م) عندما أقام فلسفته كلها على هذه الماهيات العقلية التي عرفت لديه بالمثل، ثم على يد أرسطو (— ٣٢٢) الذي أقام فلسفته بشكل أساسي على هذه الماهيات العقلية التي عرفت من خلال نظريته في « الصورة » .

ونحن نعني بالفلسفة العقلية هنا الاتجاهات الميتافيزيقية النظرية والاتجاهات الحياتية العملية كنتاج لما كان يسمى بالعقل النظري والعملي آنذاك . على أن أهم ميزات هذا الاتجاه أنه كان اتجاهاً عقلياً مجرداً من كل أثر غير عقـــلي ، فالعقـــل إذن هو مقياس لذاته ، وهو سند يقينه ، فلا حاجة للتدليل على صدق قضاياه إلى أدلة خارجة عن دائرة ذاته ، وهو وحده كاف لتحصيل العلوم والمعارف في شتى أشكالها وضروبها .

على أن الأمر في شأن العقل لم يبق على هذا النحو عندما اختلط الأمر لدى المفكرين القدامى إبان خريف الفكر اليوناني ، ذلك أن هذا الاتجـــاه العقلي الذي عرفنا كان قد شهد خلال هذه الحقبة تقهقراً نسبياً عندما تحول

الفكر باتجاه الأفلاطونية الحديثة التي سيطر عليها غنوص الشرق، فإذا بالعقل الفلسفي المجرد يفقد الكثير من سلطانه ، وإذا بالاتجاه الروحي يحقق الكثير من الغلبة .

وجاء فلاسفة الإسلام متأثرين بالاتجاه الأول ، مقدرين للاتجاه الثاني ، ملتزمين بدين الإسلام ، فوقعوا وهم ضمن حدود هذا المثلث ، في أخطاء أساسية من خلال عمليات التوفيق التي حاولوها،وكان على رأس هذه الأخطاء هو الخلط بين نظرية العقل لدى اليونان من ناحية ، ونظرية العقل في الإسلام من ناحية أخرى وبين النظريتين فرق كبير كما يلاحظ ذلك ابن تيمية في كتابه « الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » [1] .

العقل في الكتاب والحديث :

صحيح أن الفلسفة اليونانية في ربيعها استطاعت أن تحقق للعقل استقلاله، وتمد له سلطانه ، وتحقق له من الانجازات الفلسفية ما لم تحقق له فلسفة من قبل ، وصحيح أن أرسطو بشكل خاص ومدرسته ، ثم الابيقوريين والرواقيين ، كانوا قد اعتمدوا العقل المجرد المستقل في بحث موضوعات ما وراء الطبيعة ، كالله والنفس والعالم ، إلا أن ذلك كله لم يفض بهؤلاء وهؤلاء إلا إلى مجموعة من الآراء المتناقضة ، والنتائج المتعارضة ، تتراوح كلها بين طرفي الشك واليقين ، أو النفي والإثبات [2] ، ولقد فطن إلى ذلك نفر من المسلمين فعرفت هذه النتائج لديهم من خلال « نظرية تكافؤ الأدلة » .

على أنه مهما كان من أمر العقل لدى المسلمين إن كان من حيث خطأ البعض منهم كالفارابي وابن سينا ، أو كان من حيث التنبه لممكنات التناقض

---

(١) ابن تيمية : الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ٦٨ - ٦٩ .
(٢) عبد الحليم محمود : الاسلام والعقل ٤٢ .

العقلي في موضوعات الفلسفة الميتافيزيقية كما فعل الكثير من رواد الصوفية الأوائل ، فإن مسألة العقل في الإسلام ، بالرغم من ذلك كله ، ينبغي أن تدرس في أصولها الأولى ، أعني من خلال الكتاب والسنة ، ثم خلال برعمة الفلسفة الإسلامية عند منابعها الصافية ، التي تحفظت إزاء ممكنات التناقض العقلي تحفظاً إسلامياً صوفياً وعقلياً معاً ، أعني من خلال فلسفة الحارث بن أسد المحاسبي بالذات .

أما في القرآن فإن النزعة العقلية الإسلامية واضحة فيه تمام الوضوح ذلك أن الآيات التي تدعو الإنسان إلى التأمل والتفكر والتدبر والاعتناء إنما هي آيات كثيرة تدعو دعوة صريحة لإعمال العقل في ما خلق الله للوصول من خلال ذلك إلى معرفة الخالق ، ومتى تحققت معرفة الخالق ، أصبح الإنسان عارفاً بأوامر الله فيتبعها ، ومتفهماً لنواهيه فيجتنبها ، وبالإضافة إلى هذه المعاني العقلية التي وردت في القرآن ، فإن هناك ألفاظاً للعقل ومشتقاته ومترادفاته وردت في القرآن صراحة أربعاً وثلاثين مرة ، وسنثبت فيما يلي بعضاً منها ثم نحاول أن نبين ما تنطوي عليه مادة « عقل » من معانٍ في الكتاب الكريم .

يقول تعالى « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » [1] .

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكنه تعمى القلوب التي في الصدور » [2] .

« إن في خلق للسموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر

---

(١) النحل – ٦ .　　(٢) الحج – ٤٦ .

بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون »[1].

« إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون ... ولقد تركنا فيها آية بينة لقوم يعقلون »[2].

« ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الارض بعد موتها ليقولنَّ الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون »[3].

« ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »[4].

« وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، يغشي الليل النهار. إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنـــات من أعناب وزرع ونخيـــل ، صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون »[5].

فإذا اعتبرنا مثل هذه الآيات النموذج الأول للمذهب العقلي في القرآن ، فإن النموذج الثاني الذي نرى ضرورة الإشارة إليه إنما يكمن في الآيات التالية:

قال تعالى :

« أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب »[6].

« والذين يُتوفوّنَ منكم ويذرون أزواجاً وصيةً لأزواجهم متاعاً إلى الحوْل غير إخراجٍ. فإن خرجنَ فلا جناح عليكم في ما فعلن في أنفسهنّ من

---

(١) البقرة - ١٦٤ .
(٢) العنكبوت - ٣٥ .
(٣) العنكبوت - ٦٣ .
(٤) الروم - ٢٤ .
(٥) الرعد - ٣ - ٤ .
(٦) البقرة - ٤٤ .

معروف ، والله عزيز حكيم . وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين . كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون »[1] .

« يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون . ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون . إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »[2] .

من هذين النموذجين للعقل في القرآن نستطيع أن نستخلص بعض النتائج التي هي على قدر كبير من الأهمية .

أولها الثقة التي ينبغي أن نوليها للحواس ، بحيث تكون معطياتها دائماً هي منطلق التفكير والتدبر ، فثمرات النخيل ، وهي مرئية بالعين ومذوقة ، هي موضع للتدبر من حيث كونها دليلاً على الرازق المنعم الصانع ، وهذا أمر يتكرر في كل ما أوردناه من آيات وغيرها ، فالسحب في السماء ، والفلك في البحر ، كل هذه وتلك إنما هي ظواهر مشاهدة ومعهودة ، وهي آيات ودلائل على الصانع ، وعاديات البشر كالنوم والسعي لكسب الرزق ، وعاديات الكون ومظاهره كالبرق والمطر ، كل ذلك هو منطلق التفكير وواسطة الوصول إلى النتيجة المنطقية وهي أن في هذا الكون منظماً مدبراً ، وهو الذي أعطاه هذه الصورة التي نراه عليها . فالظاهرة العقلية هنا ظاهرة عقلية من جهتين : الأولى استدلالية ، وهي تعني الاستدلال بالمشاهد على ما وراء المشاهد وهو الله . والثانية سببية ، وهي تعني ارتباط النتيجة التي هي هذا العالم بمعطياته التي نراها ، ارتباطاً ضرورياً وعقلياً بالسبب الأول الذي أدى إلى خلقه وهو الله[3] .

وثاني هذه النتائج العقلية التي نستخلصها من هذين النموذجين السابقين من

---

(١) البقرة : ٢٤٠ - ٢٤٢ . (٢) الانفال - ٢٠ - ٢٣ .

(٣) عبد المنعم خلاف : للعقل المؤمن ٣٠ .

الآيات هي الوضوح والبساطة في عمليات التفكير والتدبر والتعقل هـــذه ، فكلها أمور لا تحتاج إلى تفكير عميق أو بحث غامض ، أو تحليل معقد ، إنما هي من البساطة والوضوح بمكان بحيث تدرك بواسطة العقل إدراكاً أشبه بالعرفان المباشر ، أو بالحدس بتعبير حديث ، ولكنها بالنسبة للنموذج الأول بديهيات حسية ، يستدل الإنسان من خلال الصنعة على الصانع ومن خلال الإتقان على المتقن ، وهي بالنسبة للنموذج الثاني بديهيات أخلاقية اجتماعية ، يستدل الإنسان من خلال أوامر الله ونواهيه ، على ما ينفعه وما يضره ، فيلتزم بطاعة الله ورسوله التزاماً عقلياً وتلقائياً ، لأنه يعلم أن في ذلك خيره وسعادته.

وثالثة هذه النتائج هي أن العقل ما دام على صعيد النظر والايمان بالخالق يبقى عقلاً بديهياً ، وما دام كذلك على صعيد العمل والالتزام ، بطاعة الله ورسوله ، فإن هذا العقل يصبح بمعنى ما من المعاني ، هو بمثـابة هذه الميزة الفريدة التي وضعها الله في الإنسان طبعاً وغريزة ، بحيث يستطيع بها أن يعرف أولاً ثم يعمل بعد ذلك ، ومن هنا كانت مسؤوليته أمام نفسه وأمام الله .

ورابعة هذه النتائج هي أن العقل ما دام غريزة طبع الله الإنسان العاقل عليها ، ليعرف فيؤمن ، ويؤمن فيعمل ، فإن العقل القرآني ، لم يعد عقلاً يونانياً ، أعني عقلاً مجرداً ، أو جوهراً قائماً بذاته ، وإنما أصبح (ظاهرة) إلهية في الإنسان ، جعلها الله تعالى فيه ليعقل بها ، في حدود رسمها الله له ، ونبهه إليها ، وبذلك يصبح العقل القرآني في الإنسان ، عقلاً واعياً لطاعة الله ، فيأتمر ، عن طواعية واختيار ، بما يأمر الله به ، وينتهي عما نهى عنه. لا عقلاً منفصلاً عن خالقه ، مجرداً عن دواعي الحياة التي خلقها الله ، أعني جوهراً قائماً بذاته يصلح أن يكون حكماً في كل شيء ... حتى في موضوع خالقه ، وفي ما يصدر عنه ، وما يرد إليه ، وهذا مستحيل لأن المخلوق لا يستطيع الإحاطة بالخالق ، والأصغر لا يستطيع الإحاطة بالأكبر .

والنتيجة الخامسة هي أن العقل واحد لدى الناس جميعاً ، فالعقل ما دام

غريزة إلهية في الإنسان ، فقد شملت هذه الغريزة الناس جميعاً ، وعليه فإن العقل ينبغي في نظر القرآن أن يتحرك في اتجاهين : الأول هو الاتجاه الايماني وهو ما يعبر عنه النموذج الأول من الآيات . والثاني هو الاتجاه السلوكي وهو ما يعبر عنه النموذج الثاني من الآيات .

من هنا جاء العقل القرآني ، ليس ليناقض العقل ، وقد ناقض العقل المجرد ذاته كما رأينا لدى فلاسفة اليونان ، وإنما جاء هذا العقل هادياً لهذا العقل الذي أراد أن ينفصل عن الحقيقة الكلية الأزلية ، بإقامة سلطان لذاته . وبهذا المعنى لم يكن الوحي مناقضاً للعقل ولكنه جاء ، مفهوماً للعقل في المحكم من الآيات ، غير متعارض معه في المتشابه منها ، وجاء ليخلص العقل من متناقضاته ، ويحرره من شكه ، ويهديه إلى اليقين ، كما جاء العقل القرآني ، « لا ليستشير الانسان في شيء مما لا يستطيع عقله أن يتوغل فيه لقصوره » [1] . وإلا لكان الدين قد وضع نفسه بنفسه تحت سلطة العقل المجرد وهذا خلف .

وإذا كان هذا هو موقف العقل القراني بشكل عام ، فإن التفسير جاء أيضاً ليؤكد هذا الموقف ويعززه . صحيح أن الإسم (عقل) لم يرد في القران ولا مرة ، إنما ورد في التفسير أن (القلب) الذي جاء في القران إنما كان يعني (العقل) بالمعنى القراني للكلمة .

قال تعالى : (لمن كان له قلب) . أي قلب سليم يدرك به كنه ما يشاهده من الأمور ، ويتفكر فيها كما ينبغي . وفسره ابن عباس (— ٦٨ هـ) بالعقل ، وذلك لأن العقل قوة من قوى القلب وخادم من خدامه . وقال أبو الليث (— ٩٧ هـ) (لمن كان له قلب) أي عقل ، لانه يعقل بالقلب فكنى عنه . ففي الأسئلة المقحمة : كيف قال لمن كان له قلب ، ومعلوم ان

---

(١) د. عبد الحليم محمود : الاسلام والعقل ٩ ـ ١٤ .

لكل إنسان قلباً ؟ قلت: ان المراد ههنا بالقلب عقل كنى بالقلب عن العقل، لانه محله ومنبعه كما قال تعالى فانه نزله على قلبك [1] .

(لمن كان له قلب) : قال مجاهد (— ١٠٤ هـ) : (عقل) . وقال ابن أبي حاتم (— ٤٣٦ هـ) (حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو أسامة عن عوف ، قلت لمحمد بن سيرين . ما القلب السليم ؟ قال : يعلم ان الله حق ، وان الساعة آتية لا ريب فيها وان الله يبعث من في القبور . وقال الحسن: سليم من الشرك[2] . (لمن كان له قلب) : أي عقل يتدبر به ، فكنى بالقلب على العقل لأنه موضعه [3] .

وقد سئل ابن عباس عن قوله تعالى — (قسم لذي حجر) قال يعني الرجل ذا النُّهى والعقل : وقد جاء عن الضحاك في تفسير (لينذر من كان حياً) قال :من كان عاقلاً . وعن اللب قوله (فاتقون يا أولى الألباب) قال إنما عاتبهم لانه يحبهم ، لا نهم ذوو عقول . وعن مجاهد في تفسير (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم. قال: أولي العقل والفقه في دين الله عز وجل) [4] .

أما العقل في السنة فله قصة غريبة بعض الشيء . ذلك أن المحدثين وأصحاب المذاهب العقلية كانوا قد انقسموا حول صحة أحاديث رسول الله ﷺ في العقل ، فمنهم من زعم بأنه لم يصح حديث في العقل عن رسول الله، وزعموا أن كل حديث في العقل إنما هو حديث مقحم وموضوع ، ومنهم من زعم بأن أحاديث العقل صحيحة ، وإن جاء بعضها بإسناد ضعيف ، ذلك

---

(١) روح البيان : اسماعيل حقي جـ ٣٩/٩ .
(٢) ابن كثير : جـ ١٢/٤ ، ٢٢٩ .
(٣) القرطبي : جـ ٢٠/٣ .
(٤) ابن أبي الدنيا (— ٢٨١ هـ) ـ العقل وفضله ١٤ ـ ١٥ .

أن روحها تتفق مع روح الإسلام ولا تعارضه . وكان هذا الرأي الأخير هو الذي تبناه الحارث وأخذ به . وقد روى المحاسبي هذه الأحاديث كما رواها غيره ، فكانت دعامة من دعامات رأيه في العقل من حيث تأييدها لرأيه في تفضيل العقل والاعتماد عليه بعض الشيء . لذلك كان مهماً أن نعرف بعض هذه الأحاديث .

فيروي المحاسبي عنه عليه الصلاة والسلام انه قال: « لا يقبل الله صلاة عبد ولا صومه ولا حجه ولا عمرته ولا صدقته ولا جهاده ولا شيئاً مما يقول من أنواع البر إذا لم يكن يعقل . وبلغنا ان الله عز وجل لما خلق العقل قال له: اقعد فقعد ، ثم قال له ادبر فأدبر ، ثم قال له اقبل فأقبل، ثم قال له انظر فنظر، ثم قال له تكلم فتكلم ، ثم قال له انصت فأنصت ، ثم قال له اسمع فسمع ، ثم قال له افهم ففهم ، ثم قال له : وعزتي وجلالي وعظمتي وسلطاني وقدرتي على خلقي ما خلقت خلقاً هو أكرم عليّ ولا أحب إليّ منك ، ولا أفضل عندي منك منزلة ، لأني بك أعرف ، وبك أعبد ، وبك أحمد ، وبك أعطي ، وبك أعاقب ، ولك الثواب[1] .

وفي حديث أن النبي ﷺ قال : « أنا الشاهد على الله عز وجل أن لا يعثر عاقل إلا رفعه الله عز وجل ثم لا يعثر إلا رفعه ، حتى يجعل مصيره إلى الجنة[2] » .

وعنه أيضاً : « كرم المرء دينه ، ومروءته وعقله ، وحسبه خلقه[2]

وعنه : لا يعجبنكم إسلام امرىء حتى تعرفوا معقود عقله »[2] .

وعنه: كان إذا بلغه عن أحد من أصحابه عبادة قال : كيف عقله ؟ فإن

---

(١) الوصايا ٨٦ .

(٢) ابن أبي الدنيا (– ٢٨١ هـ) العقل وفضله : ٩ – ١٥ .

قالوا عاقل قال : ما أخلق صاحبكم أن يبلغ . وإن قالوا : ليس بعاقل. قال : ما أخلقه أن لا يبلغ [1] .

وعنه : إنما يرتفع الناس في الدرجات وينالوا الزلفى من ربهم عز وجل على قدر عقولهم [1] .

وعنه : الناس يعملون بالخير على قدر عقولهم [1] .

وعنه : ... أن رجلاً من بني قشير قد أتى النبي ﷺ فقال : إنما كنا نعبد في الجاهلية أوثاناً وكنا نرى أنها تضر وتنفع فقال رسول الله ﷺ: أفلح من جعل الله عز وجل له عقلاً » [1] .

فإذا كانت هذه الأحاديث ، أو بعضها على الأقل ، من الأحاديث الصحاح[2] ، فإن ذلك يتفق تمام الاتفاق مع الآيات التي أشرنا إليها والروح الإسلامي الذي يعبر بصدق عن العقل القرآني كما جاء في الكتاب .

إن هذه الأحاديث التي جاءت في كتاب ابن أبي الدنيا (— ٢٨١ هـ) إنما تؤكد على أن موضوع العقل كان في زمن الحارث يحظى على صعيد التفسير والتحديث باهتمام الفقهاء والمفكرين المسلمين بشكل عام . وإذا كان الحديث المروي عن عائشة رضي الله عنها « أن دعامة البيت أساسه ، ودعامة الدين المعرفة بالله تعالى، ودعامة المعرفة اليقين والعقل القامع... فقلت (أي عائشة) بأبي أنت وأمي: ما العقل القامع؟ قالت: الكف عن معاصي الله ، والحرص على طاعة الله »[3]... أقول إنه إذا كان هذا الحديث صحيحاً — وهو الراجح —

(١) ابن أبي الدنيا (— ٢٨١ هـ) العقل وفضله ٩ — ١٥ .
(٢) راجع المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي الصادر عن الاتحاد الأممي للمجامع العلمية مطبعة بريل — ليون ١٩٥٥ — مادة عقل .
(٣) القشيري : الرسالة ٦٠١/٢ .

فإنه لا مبرر للقول بأنه لم يصح عن رسول الله حديث في العقل . فقد ذهب ابن قيم الجوزية[1] إلى أن أحاديث العقل كلها كذلك ، ومنها الحديث الذي اعتمده الحارث والقائل « لما خلق الله العقل ... الخ » وحديث « لكل شيء معدن ، ومعدن التقوى قلوب العاقلين » وحديث « إن الرجل ليكون من أهل الصلاة والجهاد وما يجزى إلا على قدر عقله » . وإلى مثل ذلك يذهب السخاوي في مقاصده بالنسبة لحديث « لما خلق الله العقل ... » فيرى أن هذا الحديث كذب وموضوع[2] .

ولا بد لنا في هذا الموضع من أن نتوقف قليلاً عند هذه النقطة الهامة لأن نفي الحديث في العقل أو إثباته سوف يكون له الأثر البالغ في كتابي « العقل وفهم القرآن » للحارث بن أسد المحاسبي سلباً إذا ثبت النفي ، وإيجاباً إذا تحقق الاثبات .

إن الاتجاه الراجح لدينا هو أن حديث العقل « لما خلق الله العقل » ومعظم الأحاديث في هذا الموضوع ، والقضية قضية مبدأ قبل كل شي ، إنما هي أحاديث صحيحة . فبالرغم من أن بيئات المحدثين كما أشرنا كانت منبتاً لأفكار الحشو والتجسيم ، فإن علماء الجرح والتعديل ، ورجال الفقه من السنة بوجه خاص كانوا قد بالغوا في حملتهم على أحاديث العقل ، خوفاً في اعتقادنا من أن ينساق المسلمون وراء العقل وحده ، وإن فعلوا ، فقد أصبح العقل عن ذاته ، لا عن الله ، هو إمامهم ومحط رحالهم . نقول هذا لأن لنا حول تكذيب أحاديث العقل عن رسول الله ﷺ خمس ملاحظات نوردها فيما يلي:

الملاحظة الأولى : تؤكد لنا أن تكذيب هذه الأحاديث لم يأتِ تكذيباً قوياً وحاسماً إنما جاء تكذيباً ضعيفاً ومتداعياً فقد أخرج الطبراني في الكبير

---

(١) ابن قيم الجوزية : المنار المنيف في الصحيح والضعيف ١٦٦ .

(٢) القاري الهروي: المصنوع في معرفة الحديث الموضوع ٣٥ .

والأوسط ، كما أخرج أبو نعيم حديث العقل « لما خلق ... » وإن أتى ذلك باسنادين ضعيفين[1] ، ولقد رواه الطبراني عن أبي إمــامة وأبي هريرة ، كما رواه عبد الله بن أحمد عن الحسن مرسلاً، وقد قال السيوطي في «الدرر» ان لهذا الحديث أصلاً صالحاً وقد أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن الحسن ، وقال إن هذا الحديث مرسل جيد الإسناد وهو موصول[2] .

والملاحظة الثانية : هي أن الأحاديث التي وردت في العقل بشكل عام، إنما تتفق في جوهرها مع روح الآيات التي ذكرناها في النموذجين السابقين ، بل هي تشرح هذه الآيات بشكل غير مباشر ، فالعقل الذي تدعو إليه هذه الأحاديث ليس عقلاً مجرداً شبيهاً بالعقل اليوناني ، إنما هو عقل إسلامي يدعو إلى استعمال العقل في معرفة الله وفي طاعته .

والملاحظة الثالثة : تأتي هي الأخرى لتؤكد لنا من حيث المبدأ صحة الحديث في العقل عن رسول الله ﷺ ، وهذه الملاحظة تجعلنا نقول إن أحاديث العقل إذا لم تصح عن رسول الله فإن أحداً من الصحابة والتابعين والمسلمين الأوائل ، لم يكن ليجرؤ على الحديث في ما امتنع الرسول الكريم عن الحديث فيه ، أو نهى عنه ، بل إن حديث هؤلاء في العقل إنمـا يؤكد استمرار الروح الإسلامي وامتداده إلى أصحاب الرسول الكريم وإلى من عاصروه أو لمن أتوا بعده بقليل . وإذا صح الحديث في العقل عن هؤلاء فإن خط الاستمرار باتجاه الماضي لا بد أن يؤكد صحة ما نسب إلى الرسول في حديث العقل أو بعض منه على الأقل . وإذا صح بعض الحديث سقط المبدأ القائل بأنه لم يصح حديث في العقل عن رسول الله .

وأول هذه الأحاديث التي كان للصحابة شأن فيها هو الحديث الذي روته

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) المناوي : الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية ١١٦ .

عائشة رضي الله عنها وهو حديث العقل القامع . ثم إن هناك لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه كلمـــة في منتهى الدقة في التعبير عن رأي السلف في وظيفة العقل . وهذا حوار له مع شخص يقول فيه: « ألست تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم . فقال السائل : بلى . قال : تعرف تفسيرها ؟ فقال : لا يا أمير المؤمنين ، علمني مما علمك الله ، فقال علي رضي الله عنه : إن العبد لا قدرة له على طاعة الله إلا بالله ، ولا على معصيته إلا بـه عز وجل ، يا سائل أعقل عن الله . فقال : عقلت . فقـــال له : الآن صرت مسلماً ، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده »[1] .

وهذا هو الحسن البصري (– ١١٠ هـ) يقول : ما تم دين الرجل حتى يتم عقله ، ويقول : « ما أودع الله عز وجل امرءاً عقلاً إلا استنقذه بـه يوماً ما » . ومعاوية بن قرة يقول : « الناس يعملون الخير وإنمـــا يعطون أجورهم على قدر عقولهم » ووهب بن منبه يقول : « ما عبد الله عز وجـل بشيء أفضل من العقل » وعامر بن عبد قيس يقول : « إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل » . ووكيع بن الجراح يقول : « العاقل من عقل عن الله عز وجل أمره وليس من عقل تدبير دنياه » . وهـــذا الشعبي يقول : « إنما كان يطلب هذا العلم ممن اجتمعت فيه خصلتان : العقل والنسك ، فإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً ، وإن كان عاقلاً ولم يكن ناسكاً لم يطلبه ، فإن هذا الأمر لا يناله إلا النساك العقلاء » . وقد ذكر عن سفيان بن عيينة قوله: « ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر ، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتبعه ويعرف الشر فيجتنبه » . وها هو عمر الجيلي يقول : « اللهم اجعلنا نعقل عنك » . وابن جريج يقول : « قسم العقل على ثلاثة أجزاء فمن كنّ فيه كمل عقله : حسن المعرفة بالله ، وحسن الطاعة لله ، وحسن الصبر على أمره » . وقوله : « قوام المرء عقله ولا دين لمن لا عقل له » وعن يحيى بن

---

(١) الاسفرايني : التبصير في الدين ٢٨ .

كثيِّر قوله : « أعلم الناس وأفضلهم أعقلهم » . وعن المهلب بن أبي صفرة قوله لما سئل بم نلت؟ ما نلت قال : « بطاعة الحزم وعصيان الهوى ». وقد رويت حادثة عن الضحاك بن مزاحم قيل له : « ما أعبد فلاناً وأورعه وأقرأه ، قال كيف عقله ؟ فقيل له : نذكر لك عبادته وورعه وقراءته وتقول عقله ؟ فأجاب ويحك ... إن الأحمق يصيب بحمقه ما لا يصيب الفاجر بفجوره »[1] .

فإذا كان الحال على هذا النحو في أمر العقل مع الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فإننا نشك في نفي أحاديث العقل عن رسول الله ﷺ ، ولا سيما إذا كانت أحاديث هؤلاء تدور حول معنى العقل عن الله ، وعن الكتاب ، وعن السنّة ، ولا تدور حول العقل الخارج عن سلطان الله وحدوده على العباد .

والملاحظة الرابعة حول هذا الموضوع هي أن أغلب الدارسين من أهل السنّة ، راحوا يكذّبون كلّ محدث روى حديثاً في العقل ، كما راحوا يشككون في صدقه ، وكان ذلك ، على ما نعتقد ، نتيجة « للملاحقة السنية العمياء» — على حد تعبير ماسينيون — التي كانت نتيجتها النيل من كل من يشتغل بأمور العقل والكلام بدون تفرقة ولا تمييز . ولقد اتضح ذلك من خلال تتبعنا لموضوع « كتاب العقل » فقد ذكر الدارقطني « أن كتاب العقل وضعه أربعة : أولهم ميسرة بن عبد ربه ، ثم سرقه منه داود بن المحبر ، فركبه بأسانيد غير أسانيد ميسرة ، وسرقه عبد العزيز بن أبي رجاء ، فركبه بأسانيد أُخر ، ثم سرقه سليمان بن عيسى السِّجْزي فأتى بأسانيد أخر »[2]. ولننظر في ما جاء في « الميزان » عن هؤلاء الأربعة .

أما ميسرة بن عبد ربه البصري فمن جملة من روى عنه داود بن المحبر

---

(١) العقل وفضله ، نشره عزت العطار ـ القاهرة ١٩٤٦ .

(٢) المنار المنيف في الصحيح والضعيف ٦٦ .

وقد سئل ميسرة من أين جئت بهذه الأحاديث ؟ ... فقال : وضعته أرغب الناس فيه ... وهو صاحب فضائل القرآن الطويل . وأكثر الاجماع عليه بأنه يفتعل الأحاديث ويضعها وضعـــاً وهو كذّاب[1] . وأما عن داود بن المحبر فقد حدث عن ميسرة بحديث : من كانت له سجية من عقل وغريزة من يقين لم تضره ذنوبه ، قيل وكيف ذاك يا رسول الله ؟.. قال : لأنـه كلما أخطأ لم يلبث أن يتوب[2] . وأما عبد العزيز بن أبي رجاء فقد قال الدارقطني : « انه متروك وله مصنف موضوع كله . ومن الأحـاديث التي يرويها عن النبي ﷺ : ابن آدم ، أطع ربك (تسمى) عاقلاً ولا تعصيه (تسمى) جاهلاً ... وحديث آخر يقول فيه : « استشيروا ذوي العقول ترشدوا ، ولا تعصوهم فتندموا »[3] . وأما عن رابعهم سليمان بن عيسى بن نجيح السِّجْزي فيقال إنه غير ثقة وكذاب ، قال ابن عدي انـــه يضع الحديث ... وله كتاب « تفضيل العقل ، جزءان » . ومن الأحاديث التي يرويها ويرفعها إلى النبي ﷺ : استرشدوا العاقـــل تُرشدوا ، ولا تعصوه تندموا . وهذا غير صحيح[4] .

ومن العجيب حقاً أن يجيء تكذيب هؤلاء جميعاً اتفاقاً مع « أحاديثهم » في العقل أو مؤلفات بعضهم فيه ، وإذا كان هؤلاء قد لاقوا مثل هذا التعنت من معاصريهم فإن المحاسبي لم يكن أقل حظاً منهم وقد عاصر داود بن المحبر ولاقى ما لاقاه ، فانفض عنه الناس ، ولم يصلّ عليه حين مات إلا أربعـة نفر ، وهذا يرجع إلى الجو « اللاعقلي » الذي كان سائداً آنذاك وكان كتاب الحارث في « مائية العقل وحقيقة معناه واختلاف الناس فيه » هـــدفاً من أهداف هذا الجو المحموم .

---

(١) الذهبي : ميزان الاعتدال جـ ٤/٢٣٠ – ٢٣١ .
(٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه جـ ٢/٦٢٨ .
(٤) المصدر نفسه جـ ٢/٢١٨ – ٢١٩ .

والملاحظة الخامسة في أمر العقل هو التناقض الذي بدا لدى الإمام أحمد بن حنبل في موضوع العقل ، فهو في الوقت الذي يتفق فيه مع الحارث على القول بأن العقل غريزة وهو مذهب أهل السلف[1] فإنه من جهة أخرى كان ينكر على الحارث استعماله العقل وحديثه في بعض أمور الكلام وأدى ذلك بابن حنبل إلى هجر الحارث وتحريض العامة عليه كما رأينا ؛ ولم يكن هذا شأن ابن حنبل مع الحارث فحسب وإنما كان هذا شأنه مع الاتجاه العقلي والكلامي بوجه عام ، فقد كان الامام أحمد يقول : « لا تنظر في كتب أبي عبيد ، ولا فيما وضع اسحق ولا سفيان ولا الشافعي ولا مالك ، وعليك بالأصل » وكان يكره رضي الله عنه أن يكتب شيء من رأيه أو فتواه، حتى لقد جاءه احدهم وقدم له كتاباً فيه كلام له (لابن حنبل) فغضب ورماه من يده . ذلك الروح الذي كان يتحلى به كان يلزمه بتعظيم النقل وبرفض العقل كأداة للبحث في أمور الدين[2] . وهذا السبب إنما يرجع في الأصل إلى غضبته على رجال الكلام والمعتزلة منهم بشكل خاص فقد كان ينعى عليهم اعتمادهم على العقل واللغة في مجال التفسير والحديث بدلاً من الاعتماد على كتب التفسير المأثورة والحديث وآثار السلف[3].

العقل في الفلسفة الاسلامية قبل الحارث .

بالاضافة إلى ما عرضناه من أقوال في العقل لمن سبقوا الحارث أو عاصروه فنحن نرى أنه لا بد من تحديد الاتجاه العام في موضوع العقل الذي سبق الحارث من الوجهة الفلسفية .

لقد كانت أولى المحاولات العقلية للبحث الفلسفي قائمة منذ العهد الأول

---

(١) ابن تيمية : الرد على المنطقيين ٩٤ . وابن الجوزي : كتاب الأذكياء ١٠ .
(٢) ابن الجوزي : مناقب الامام أحمد ١٩٢ - ١٩٤ .
(٣) ابن قتيبة : تأويل مختلف الحديث ١٥٢ .

للإسلام ، فقد أراد بعض الناس الحديث في القدر ولكن رسول الله ﷺ نهاهم عن ذلك نهياً حاسماً ، ولما سألوه عن الروح نزلت الآية « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم قليلاً » .[1] وفي عهد سيدنا عمر رضي الله عنه حاول صبيغ كما نعلم أن يثير بعض المسائل الدينية معتمداً في ذلك على الجدل والنقاش العقليين فضربه أمير المؤمنين حتى سال الدم من رأسه .

على أن أول محاولة مذهبية عقلية في أمور الدين إنما كانت تلك المحاولة الاعتزالية التي قامت على يدي واصل بن عطاء (-١٣١ هـ) وعمرو بن عبيد (- ١٤٤ هـ) فعرف هذا المذهب لدرجة أنه أصبح ترفاً فكرياً انتشر بين الملوك والأمراء وعرف المشتغلون به بالمتكلمين ، وعرف موضوعهم بعلم الكلام أو علم التوحيد[2] فثار الفقهاء على هذا الاتجاه ، وكان على رأس الثائرين ، الشافعي ، ومالك ، وابن حنبل وسفيان . غير أن المعتزلة لم يستقروا على مذهب ، ذلك أن سوء استعمالهم للعقل أدى بهم أو بأغلبهم إلى الانقسام إلى طوائف يكفر بعضها بعضاً ، وكان من أسباب ذلك أن هؤلاء شاءوا أن يضعوا المباحث الميتافيزيقية الواقعة خارج حدود العقل ، موضع البحث العقلي ، فبحثوا في الالهيات وفي الاخلاقيات فما أدت بحوثهم إلا إلى مزيد من التناقض وزعزعة الإيمان .

لقد جاء المعتزلة ليقرروا بأن العقل وحده يكفي للتفرقة بين الخير والشر وأن حرية الإنسان ومسؤوليته إنما تقومان على هذا الاختيار العقلي بين الطرفين[3] هذا الاختيار الذي نقضه الحارث من أساسه مستعملاً اسلوب المعتزلة أنفسهم في الكلام للرد عليهم وإبطال مزاعمهم كما سنرى .

---

(١) الاسراء : ٨٥ .

(٢) عبد الحليم محمود : الإسلام والعقل ٤٤-٤٦ .

(٣) ابو العلا عفيفي : التصوف الثورة الروحية في الاسلام ٩٥

العقل في عصر الحارث .

نحن لا نستطيع في الواقع أن نفصل عصر الحارث عن عصر الاعتزال إلا فصلاً مذهبياً وليس فصلاً زمنياً ، لأن واصلاً كان معاصراً للحارث ، وكان عصر الحارث عصر المتكلمين ، إلا أن اتجاهاً في الزهد كان قد ظهر في هذه الحقبة وتزعمه الحسن البصري ، ثم بلغ أوجه مع المحاسبي بالذات ، هـذا الاتجاه هو الذي حدد هذا الشكل من أشكال الانفصال المذهبي بين المتكلمين المتطرفين من جهة وبين الصوفية توسلوا بالكلام من جهة أخرى ، فقد أصبح العقل مع هذه الطائفة من الزهاد وأهل الورع موضوعاً غير منفصل عن الدين ، وإنما هو موضوع في نظرهم متحرك بحركة الدين يأخذ منه ، ويسترشد به ، ثم ليعطيه بعد ذلك ويرشد الناس إلى الطريق السوي . وهذا كان الحد الفاصل الذي رسم الحدود بين المعتزلة العقليين من ناحية وبين التصوف العقلي من ناحية أخرى والذي يمثله الحارث خير تمثيل . ففي حين كان العقل عن طريق التحليل المنطقي لدى المعتزلة كافياً للتفرقة بين الخير والشر ، فقد أصبح العقل لدى الزهاد والعباد في هذا الطور من تاريخ التصوف الإسلامي ، ليس عن طريق الجدل والتحليل المنطقي ، وإنما بالغريزة التي وضعها الله في الإنسان ، كافياً للتفرقة تفرقة بديهية بين الخير والشر من ناحية ، ومن ناحية أخرى قادراً على تفهم أوامر الله ونواهيه كما وردت في الكتاب والسنة ، ولعل هذا الاتجاه الجديد يبرز واضحاً تمام الوضوح عند الحارث بشكل خاص ، وعند من عاصره أو سبقه أو لحقه بقليل من الزهاد والعباد في الطور الأول من أطوار التصوف الإسلامي ، بحيث كان هذا الاتجاه لديهم سبباً جوهرياً يؤكد على أصالة التصوف الإسلامي العقلي منذ مرحلته الأولى بشكل خاص .

لقد كان هذا الاتجاه واضحاً لدى « الكذابين » الاربعة الذين جاء ذكرهم في الميزان ، ثم كان هذا الاتجاه واضحاً أيضاً لدى من جاء ذكرهم في

كتاب « العقل وفضله » وأكثرهم ممن أخذ الحارث عنه أو اتفق معه ، إن المسألة ليست مسألة من هو الذي أخذ عن الآخر في دائرة هـذا الاتجاه بالذات الذي يعتبر بحق اتجاهاً جديداً ، قام ليعبر بسخط عن هـذه الثورة الروحية التي قامت في ذلك الوقت ضد الانحرافات العقلية والجدلية ، التي بدأها المعتزلة بطفرة جدية متزنة ، ثم انتهوا منها بانشقاق عقدي واجتماعي خطير ، أدى ، بين ما أدى إليه إلى انحلال خلقي واستهتار بالقيم ، دفـع بطائفة الزهاد العقليين إلى الثورة باستخدام سلاح المتكلمين أنفسهم .

ويكفي أن نذكر بالإضافـة إلى من ذكرنا من هؤلاء أحمد بن عاصم الانطاكي الذي كان من أقران الحـارث وكان من أقواله في العقل « انفع العقل ما عرفك نعم الله تعالى عليك ، وأعانك على شكرها ، وقـام بخلاف الهوى » وقوله . « العاقل من عقل عن الله عز وجـل مواعظـه ، وعرف ما يضره مما ينفعه . »[1]

وسري السقطي (— ٢٥١) وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته وقد سئل السري عن العقـل فقال « ما قامت به الحجة على مأمور ومنهي. »[2] ويقول الفضيل بن عيـاض (—١٨٧) « أحـق النـاس بالرضا عن الله ، أهل المعرفة بالله عز وجل » ويقول أبو حفص النيسابوري (—٢٧٠) عندما سئل عن العاقل، بأنه المطالب نفسه بالإخلاص . ويقول ابن مسروق (—٢٩٨) وهو من أقران الحارث « من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك بعقله. »[3]

لقد كان هذا الاتجاه إذن هو اتجاه المدرسة البغدادية في العقل كما ركز دعائمها الحارث بن أسد المحاسبي ، وكانت نظريات هذه المدرسة تدور حول التوحيد بمعناه الكلامي والصوفي ، وما يتصل بذلك من كلام في صفات الله

---

(١) طبقات الصوفية ١٣٧ — ١٣٩ (٢) المصدر نفسه ٤٩ — ٥١ .

(٣) المصدر نفسه ١٣١ .

وحقيقة معرفتها من جهة ومن كلام في الزهـــد ومحبـــة الله من جهة ثانية[1] .

وإذا كان هذا هو الاتجاه العام لهذه المدرسة والتي اتضحت من خـــلال أقوال بعض أصحابها في العقل وربط ذلك بمعان دينية وإخلاقية ، فإن زعامة الحارث لهذه المدرسة إنما تقوم على تحديده لوظيفة العقل تحديداً نظرياً وعملياً معاً ، ضمن هذا الإطار الكلامي الصوفي المزدوج ، ليس عن طريق العبارات المنثورة ، والمواقف المبتورة ، إنما عن طريق مذهب عقلي كلامي وصوفي معاً متتابع الحلقات ، كامل البنيان .

العقل لدى الحارث

مصادر الحارث في العقل

كان الحارث عند خروجه من بيئات المحدثين يقف على مفترق الطرق . هناك أحمد بن حنبل ورجال مذهبه السلفي من المحدثين وقد ولاهم ظهره منذ قليل .

وهناك رجال الفقه وقد عرف مـذاهبهم تماماً عندما درس على الشافعي والقاسم بن سلام لكنهم يكادون يقتصرون على الجدل والرأي في المعامـلات دون العقائد .

وهناك رجال الفرق من المعتزلة والرافضة وغيرهم من الذين توسلوا بالعقل الى إثبات آرائهم وتأييدهـــا ، وكانت لهم السيطرة على الدولة وفي بيئات المثقفين ، بحيث صارت كلمة (محدّث) سُبَّة ، وذلك لما نشره المعتزلة حولها من شكوك ، ولما شنعوا به على رجال الحديث من أخذهم بالضعيف والموضوع — وتقديمه على صحيح العقل وسليمه — ولو خالف روح الاسلام .

---

(١) أبو العلا عفيفي : التصوف ، : ٩٠ .

وهناك أخيراً زهّاد الصوفية ومتورعوهم الذين تركوا الصراع كله ، ونأوا بدينهم ودنياهم عن دنيا هؤلاء جميعاً ، وإليهم رأى الحارث أن ينضم ، مع تبييته النية على التصدّي للمعتزلة بأساليبهم نفسها .

كان ابن حنبل يقول لا تنظروا في كتب ابي عبيد ولا فيما وضع اسحاق ولا سفيان ولا الشافعي ولا مالك وعليكم بالأصل[1] .

وكان المعتزلة يقولون ان العقل وحـــده يكفي للتفرقة بين الخير والشر .

وبين هؤلاء واولئك اختار الحـارث طريقا وسطا لضرب المعتزلة ، فهو محدث في مبدئه وآرائه لكنه متكلم في أساليبه فقط . وكان ان نظر الحارث في مذاهب رجال السلف ممن درس القرآن ووعاه ، كما أخذ ببعض الحـديث وتوسل بكل ذلك ليبرر عند نفسه وعند الحنابلة استخدامـــه للعقل وعلم الكلام للرد على المعتزلة والرافضة والقدرية وغيرهم من الفرق المسيطرة على أجواء بغداد الثقافية . ويقول المترجمون له انـــه كتب كثيراً في أصول الديانات وعلم الكلام لكن لم يصلنا من تراثه الضخم هذا إلا قطعة من كتاب «العظمة» يرد فيها على الثنوية ، وكتاب «فهم القرآن» يرد فيه على المعتزلة والرافضة من خلال اتجاه جديد لفهم القرآن . وكتاب « مائية العقل » الذي ربما كان مقدمة منهجية عامة لكتبه كلها يوضح فيه مكانة العقل في مذهبه ، وكيف يستخدم لنصرة مذاهب رجال السلف وفهم توجيهات القرآن والسنة .

ونستطيع أن نرسم تخطيطاً لمذهب الحـارث العقلي على شكل مثلث ، رأسه الايمان بالله ، وزاويتاه العلم والعقل .

يقول : « كل زاهد زهده على قدر معرفته ، ومعرفتُهُ على قَـدْر عقله ، وعقله على قدر قوة إيمانه » . وهو في هذه العبارة يقيم الايمان عموداً فقرياً

---

(١) مناقب ابن حنبل ١٩٢ .

يصدر عنه علم وعقل ، فالعلم والعقل هما اللذان يحكمها الايمان . فليس العقل مساوياً للايمان ، إنما هو عامل للايمان بقتضى العـــلم الذي حصله عن الله . وإذا كان فضل العقل بقدر ما في القلب من إيمان فكذا المعرفة : « فما عُرف الله إلا بالعقل ولا أُطيع إلا بالعلم »[1] . لذا دعا إلى اكتساب العقل ليصل إلى المعرفة الحقة : « بالعقل رغبوا ورهبوا وزهدوا وانتقلوا إلى الرشد وعلوا به في الدرجات »[2] . بالعلم إذن يصل العقل إلى الله ، وبالعلم يعود العالم ، ويخط رأسي ، إلى طاعة الله . لهذا ولهذا فقط كان العقل جوهر الإنسان الذي به شرف[3] . وكيف لا ؟ وهو العارف بالله ويبقى قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، القول بأن للعقل مجاله الذي لا يتعداه فإن خرج عليه ضل وأخطأ ، ووقع في المهالك فلا يستطيع الذي عقل عن الله معرفته الأولية به ، ان يصل إلى كنه هذه المعرفة .

يقول المحاسبي : « أصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد »[4] . على ان للامر وجهاً آخر فإذا كان الوعد والوعيد يوقظان العقل فإن معاني الشوق والحب والانس بالله تستغرقه : فإذا ألف الخلوة بمناجـــاة حبيبه ، استغرقت حلاوة المناجاة العقل كله حتى لا يعقل الدنيا وما فيها»[5] .

فالعقل أداة للايمان ، وتفاوت الناس في تحقيق المثل الدينية يرجع إلى تفاوتهم في حساسية عقولهم للوعد والوعيد وفهم كلام الله : « فإن تفاوت الناس في الزهد على قدر صحة العقول وطهارة القلوب ، فأفضلهم أعقلهم ، وأعقلهم أفهمهم عن الله ، وأفهمهم عن الله أحسنهم قبولاً عن الله »[6] . والعقل الصحيح الفارغ[7] هو الذي يستطيع أن يتأمل في ملك الله وملكوته ،

---

(١) الوصايا ٨٦ .
(٢) رسالة المسترشدين ٥٤ .
(٣) السلمي ٥٦ — ٦٠ .
(٤) المصدر السابق : نفس الصفحة .
(٥) الحلية ج ١٠/٧٦ .
(٦) الحلية ج ١٠ / ٨٦ .
(٧) التوهم ٢٧ .

دون أن يضل أو يشط . هـــذا العقل المؤمن هو الذي يكبح جماح النفس الشريرة ويرغمها على السير في الطريق الذي يريده الله : « فـإذا قطع العبد عليها الطمع من أسباب الدنيا وغلب هواها ؛ رجعت بطمعها إلى منـــازل الآخرة ، واحضرت أداتها واستعملت آلتها ، فاشتغلت بطلب أسباب الآخرة لا محالة ، لأنها مبنية على الطمع ، فإذا تجردت من طلب أسباب الدنيــا وأقبلت على نفسها بالاياس من المخلوقين ، رجعت برغبتها وطمعها إلى طلب أسباب الآخرة ، فجدّتْ في طلبها ، واجتهدت وعزفت عن الدنيا وباينت الهوى ، وخالفت العدو ، وتبعت العلم ، وكانت مطيةً للعقل ، صابرة على ما يدل عليه الحق فنجت وأنجت »[١] . هذا هو مجال العقل لدى الحارث .

ويبقى الوَحْيُ هـو القائد والحكم : « الذي جعله الله للناس إماماً ، ورضي به بينهم حاكماً[٢] ... لأنه النور الذي استضاء به الموقنون ، والغاية التي يتسابق إليها المتسابقون ، والمنهج الذي لا يصل السالك إلا باتباع دلائله ، ولا يعلم له طريق النجاة إلا مع الاستضاءة بنوره ، ولا يصاب الحق إلا في محكم آياته »[٣] . هذه هي وظيفة العقل عند المحاسبي يدخل في كل شيء حتى في الكشف الصوفي : « فإذا أحضرْتَ عَقلَكَ بجميع همك بنية صادقة مع أمل ورجاء أن تنال ما قال ، وتسارع إلى محابّه ، وتجتنبَ مساخطه ، ... فإذا نظر الله عز وجل إليك ، وأنت كذلك ، وعلم ذلك من ضميرك ، أقبل عليك بلطفه ، وولي تقويم عقلك لفهم كلامه وما فيه من علم الغيوب ومكنون الوعيد »[٤] ... على ان ذلك كله يبقى في نطاق كتاب الله دونما خروج عليه ، أو تعد للحدود التي رسمها للعقل ليعمل فيهـــا . ويأتي عمل الركن الآخر من ركني مذهب المحاسبي الفكري الكـلامي ، وهو ركن العلم . ففي فهم القرآن يقول : « ان تعلم — بالعقل طبعاً — ان القرآن منه

---

(١) آداب النفوس (مخطوط) . (٢) الفهم (مخطوط) .
(٣) المخطوط السابق . (٤) الفهم (مخطوط) .

ناسخ ومنسوخ ومحكم ومتشابه وله وجوه ، فمنه متشابه في التلاوة .. ومنه متشابه والمعاني مختلفة...ومنه مقدم ومؤخر... ومنه موصول ومفصول... ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالسنة والاجماع...ومنه أقسام وأمثال وغير ذلك[١].

هذا العقل الذي يعمل هذا كله : ما هو ؟ وكيف يقوم بوظيفته ؟ هذا ما يشرحه المحاسبي في رسالته الصغيرة (مائية العقل وحقيقة معناه) .

ومن المقارنة بين ما تحدث به المحاسبي عن العقل ، وما أورده المحدثون والمفسرون والصحابة ورجال السلف ، نستطيع أن نقول ان النظرات العقلية في مذهب المحاسبي هي نظرات إسلامية بمجموعها متأثرة بأساليب المتكلمين، ونستطيع أن نحصر مصادر المحاسبي لآرائه في العقل فيما يلي :

القرآن وآراء المفسرين :

وأثر القرآن واضح جداً في مذهب المحاسبي فهو يكثر الاستشهاد بقوله تعالى « إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »[٢]. ثم يقول : « قيل في التفسير له عقل » . قال مجاهد : شاهد القلب لا يحدث نفسه بشيء وليس بغائب القلب . ويقول : قال مجاهد شهيد : شاهد القلب ليس بغائب . وفي رواية « أو القى السمع » أي لا يحدث نفسه بغير ما يسمع » . ويقول أيضاً : « ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد : فحضور القلب باجتماع الهم ، لأن العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد بتفريق الهم في الدنيا ، فإذا اجتمع الهم حضر العقل، ولم يغرب عن الفكر فيما أحب الله عز وجل ، وكذلك روى عن أبي العالية قيل له : ما يفتح عن الفكر ؟ قال : اجتماع الهم ، لأن العبد إذا اجتمع همه تفكر ، وإذا تفكر نظر ، وإذا نظر أبصر[٣] . وكذلك ضمن المقبلين إليه بعقولهم فهم كلامه عنه فقال عز وجل : ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب

---

(١) فهم القرآن (مخطوط) . (٢) سورة « ق » آية ٥٠ .

(٣) الرعاية ٢٧ ط. سميث .

أو ألقى السمع وهو شهيد » ، وقال مجاهد : « شهيد شاهد القلب ليس بغائب فعندها شاهد قلب الغيب كرأي العين ، وفهم كتاب الله عزو جل يؤتيه النفس الثابت في القلب ، فإذا ثبت فكأنه يعاين ربه عز وجل » [1].

وسترد نصوص في معنى القلب المذكور في مواطن من القرآن وانه العقل وان العقل موطنه القلب ، والمحاسبي يتبعهم في ذلك فيقول :« فقال تعالى : لهم قلوب لا يعقلون بها يعني عنه . وقال : وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً يعني عقولاً » .

الحديث : صحيحه وسقيمه :

وقد كثر استشهاد المحاسبي بحديث « أول مــا خلق الله العقل . . » وحديث : « بالعقل رغبوا وبالعقل رهبوا». وحديث : « إن الناس يحاسبون بالعقل . . » وواضح أن أكثر الأحاديث التي أوردها المحاسبي في هــذا فيها كلام من ناحية الدراية ، ولكن أخطرها ولا شك هو حديث « إقبـال وإدبار العقل » وقد حاول البعض التلطيف من حدة مخالفته الظاهرة فروى بدلاً من « أول ماخلق » « لما خلق » أو « عندما خلق» لكن بقيت الصبغة الغنوصية المتأثرة بالرواقية المادية واضحة في الحديث ، رغم كل ما ادخل عليه من ترميمات واصلاحات [2] .

أقوال رجال السلف :

وقد كان لها آثار في آراء المحاسبي فعائشة تذكر في القول الذي رفعتـه إلى رسول الله ﷺ ما سمته « بالعقل القامع » ثم تشرحه فتقول : « الكف عن المعاصي والحرص على طاعة الله » . ويشبه هذا قول الحارث

---

(١) ذم الهوى ٥ .

(٢) الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة للسيوطي ط : مصر ، بلا تاريخ على هامش الفتاوى الحديثة للهيثمي ٢٩٧ .

« إن العقل هو الذي يدرك الوعد والوعيد » وفي كلمة ذكرناها سابقاً لعلي رضي الله عنه تلخيص واف لرأي الحارث في مهمة العقل في الدين. يقول علي في جواب الرجل الذي سأله : « إن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله » . والمحاسبي يقول : « لكل شيء جوهر ، وجوهر الإنسان عقله ، وجوهر العقل التوفيق » يعني « توفيق الله » وهي تلتقي مع « إلا بالله » وفيها توضيح لوظيفة العقل ، فليست وظيفته إدراك الخير ولا اختيار الطاعة على المعصية ، وإنما تلمس نفحات الله في توفيقه إلى اختيار الأحسن والأقسى كما يقول ماسينيون .

أساليب الفقهاء والمتكلمين :

وقد ظهرت بوضوح في « فهم القرآن » و « مائية العقل » في التقسيمات وطرائق الجدل ، وايراد الآراء ، والترتيب المنطقي للمعاني كما ظهرت في بعض الاصطلاحات التي دفعت ماسينيون إلى القول « صحيح بأن الحارث يستعمل معجم المعتزلة ولكن للرد عليهم » .

كما ظهرت في الاهتمام الشديد بالتعاريف الدقيقة للكلمات : ما هو العقل ؟ ما هي التقوى ؟ ما هو الزهد ؟ وربما تعدى الأمر الأسلوب إلى الفكرة نفسها ، خصوصاً في الحديث عن الحجج والفرق بين الخبر والعيان . وذلك كله أثر من آثار ثقافته الكلامية التي تحدث عنها في مقدمة « الوصايا » كما اتضحت في كتاب « مائية العقل » وكتاب « فهم القرآن » .

وتذكرنا بعض اصطلاحات الحارث باصطلاحات الفلاسفة .

كتاب الحارث

باب مائية العقل وحقيقة معناه

شرح وتحليل وربطه بكتاب « فهم القرآن »

كلمة عقل في اللغة :

قال ثعلب (٢٩٢ هـ) : « أصله الامتناع ، يقال عقلت الناقة ، إذا منعتها عن السير » ولربما كان هذا معناه عند المحاسبي . أما مكان العقل فقد نقل الفضل بن زياد عن أحمد أن محله الدماغ وهو قول أبي حنيفه بينما قال الشافعي إنه في القلب : « فتكون لهم قلوب يعقلون بها » [١].

كلمة مائية :

ولا يوصف – أي العقل – بالمائية أو المجانسة للأشياء لأن معنى قولنا ما هو ؟ من أى جنس هو [٢] .

ونفهم من هذا أن ماهية من « ما هو » مع ياء النسبة (ما هوية) وللتخفيف قيل ماهية ومائية . وربما كان أول من استعمل هذه الكلمة ونشرها في أوساط المفكرين المسلمين يعقوب بن اسحاق الكندي (٢٥٢ هـ) فيلسوف الإسلام الأول . فهو يذكر تعريفاً للفلسفة أنها : « علم الأشياء

---

(١) الأذكياء : ١١ ، ومائية العقل ٢ ١٤ .

(٢) ذم الهوى ٥ ، العقائد النفسية ٩٨ .

الأبدية الكلية انياتها ومائيتها وعللها بقدر طاقة الإنسان »[1] . ولأن الكندي كان معتزلياً[2] . فنحن نرجح أن زملاءه من رجال مدرسة الاعتزال في بغداد أخذوا عنه كلمته هذه ، وعن طريقهم وصلت إلى المحاسبي لأننا لا نعلم أن هناك صلات من أي نوع قامت بين فكر الرجلين وإن كان ذلك ممكناً . أما ما يذكره النسفي من أن العقل لا يجوز وصفه أن تعريفه بالماهية ففيه نظر ، إذ أن التعريف عند المناطقة يكون بالحد أي الجنس القريب والفصل المميز له ، ويكون بالرسم ، أي بالجنس والخاصة أو العرض المميز له . ولو سلمنا مع النسفي أن العقل لا يجانس الأشياء ولا يجوز وصفه بالماهية ، فلم لا نعرفه بعرضه العام ؟.

مائية العقل وقيمته :

إذا كان كتاب « مائية العقل » وفهم معناه للمحاسبي يمكن له أن يعطينا صورة واضحة عن مفهوم العقل عنده ، فإن « فهم القرآن » يمكن له أيضاً أن يعطينا صورة صادقة عن قيمة العقل كحاصل نهائي لعلاقة الإنسان بالكون وبخالق هذا الكون بعد ذلك .

ونحن عندما نكون في معرض تحليل العقل وقيمته لدى الحارث نجد أنه لا بد من الاعتراف بأنه ليس من السهل عرض أفكار الرجل[3] ، وعلى الأخص في قضايا العقل بالذات ، ذلك لأن هذه الأفكار هي دائماً ، وفي أي مؤلف من مؤلفاته ، مزيج من الأفكار الفلسفية والأخلاقية والنفسية ،بشكل تبدو معه عملية الفرز والتبويب أمراً بالغ الصعوبة حقاً .

على أن مذهب المحاسبي في العقل ، وحديثه عنه ، لا يمكن في رأينا أن ينفصل بأي حال من الأحوال ، عن التراث الإسلامي ، وعن آراء المسلمين

---

(١) رسائل الكندي ١٧٣ . (٢) رسائل الكندي ٢٧ .
(٣) عبد الحليم محمود المحاسبي : ٩ - ١٠ . باريس ١٩٤٦ .

الأوائل الذين تناولوا هذا الموضوع من قريب أو بعيد ، ولعلنا نستطيع أن نجزم بالقول أن معنى العقل وقيمته لدى المحاسبي ، إنما كانا نتيجة طبيعية للمناخات الفكرية الإسلامية التي عاشها موضوع العقل في الفترة التي سبقت المحاسبي أو عاصرته ، فلما جاء الحارث استطاع بعلمه الغزير ، ونظره الثاقب أن يستوعب كل هذه المناخات ويتمثلها ثم يعبر عنها تعبيراً ، فيه من التقدم والتركيز ، ما يجعله بحق زعيماً لهذا المنحى العقلي الذي سوف نحاول ، بالرغم من الصعوبة التي أشرنا إليها ، أن نكشف عنه النقاب ، لنقف على ما في مذهبه العقلي من أصالة وتفرد .

صحيح أن النبي ﷺ كان قد نهى نهياً حاسماً عن الحديث في القدر ، وصحيح أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد ضرب صبيغاً بدرته حتى سال الدم من رأسه عندما حاول أن يثير بعض المسائل الدينية معتمداً على العقل في الجدل والنقاش[1] ، إلا أن ذلك لا يمكن أن يعني بأي حال من الأحوال رغبة الإسلام في تعطيل العقل عن البحث والتساؤل لمعرفة الحقيقة الكونية أو الحقيقة الإلهية ، إن كل ما يمكن أن يعنيه هذا الردع في صدر الإسلام هو الاعتراض على سوء استعمال العقل ، اما من حيث منطق الجدل ، واما من حيث حدود البحث ، وهذا الاعتراض ليس اعتراضاً على العقل خاصاً بتاريخ الفكر الإسلامي ، وإنما هو اعتراض أزلي امتد حتى يومنا هذا ، ويشهد على ذلك تاريخ الفلسفة الحديثة بوجه خاص ، وما عرفه من النقائض العقلية لدى الفيلسوف الألماني عمانوئيل كنط ، وما شهده من تحديد لمجال العقل وحبسه في قفص المادة الضيق لدى الفيلسوف الفرنسي هنري برغسون .

ليس الاعتراض على سوء استعمال العقل إذن افتئاتاً على قيمة العقل أو انتقاصاً من قدره ، بل هو على العكس تأكيد لهذه القيمة وحرص على هذا

---

(١) د. عبد الحليم محمود – الاسلام والعقل ٤٤ .

القدر ، عن طريق الكشف عن طبيعة العقل وإمكانياته ، ومعرفة حدوده وقيوده .

كيف لا وتاريخ الفكر الإسلامي حافل بما يمجد العقل ويحض على استعماله ولقد سبق وأشرنا إلى كثير من الشواهد من آيات وأحاديث وأقوال تثبت ذلك ، ونحن لن نعود إليها وإلى مثلها هنا ، إلا من حيث ما يرتبط منها بمفهوم العقل لدى الحارث بن أسد المحاسبي .

يذكر الحارث بعد موقفه النقدي أن للعقل عند العلماء ثلاثة معان :

أولها : أن العقل غريزة .

وثانيها : أن العقل فهم .

وثالثها : أن العقل بصيرة .

العقل النظري

الموقف النقدي :

إن للحارث موقفاً يبدو فيه من الجدة على قدمه ما يجعله خليقاً بالتقدير والاهتمام .

أما هذا الموقف فهو منهج البحث العقلي لديه وما يبتدىء به ، ثم ما ينص عليه ، ثم ما ينتهي إليه بعد ذلك . وإذا كان الحارث لم يلتزم فعلاً بالخطوات المنهجية التي سوف نعرضها ، من حيث ترتيبها المنطقي فإننا نعتقد أن من مهمة الباحث الأساسية أن يفترض لمثل هذه الأفكار الموزعة بين رسالة مائية العقل، ومسألة في العقل ، ومواطن أُخرى من مؤلفاته، نوعاً من الترتيب أثناء العرض ، بشكل يبرز فيه معالم فكر هذا الباحث من خلال المخطوطين

« العقل، فهم القرآن » ، من غير إساءة أو إقحام . وهذا ما سنحاوله فعلاً في الصفحات التالية .

تقسيم العاقلين :

يذهب الحارث في كتابه مائية العقل إلى تقسيم العاقلين إلى أربع فرق يرفض منها اثنتين ويقبل اثنتين .

أما الفرقتان اللتان يتوجه اليهما بالنقد والتجريح فهما :

الفرقة الاولى : التي عقلت البيان ثم جحدت كبراً وعناداً وطلباً للدنيا. وهذا ما فعله إبليس الذي أبى واستكبر ، وهذا ما فعله اليهود الذين قال الله فيهم « يكتمون الحق وهم يعلمون » .

والفرقة الثانية : هي الفرقة التي طغت برأيها وأعجبت به وقلدت غيرها ، فعميت عن الحق أن تتبينه ، فإذا بها تجحده كبراً ، وطلب دنيا بعد عقلها للبيان ، فظنت أنها على حق ودين، وهي على باطل وشر وضلال.

أما الفرقتان اللتان يقبلهما الحارث **فالاولى** : هي الفرقة التي عقلت عن الله تعالى عظم قدره ، وقدر ما وعد وتوعد فأطاعت وخشعت .

والثانية : هي الفرقة التي عقلت قدر الله جل وعز في تدبيره وتفرده بالصنع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره في مجانبة الإيمان .

العاقل عن الله ، وكامل العقل عنه :

يرفض الحارث إذن الفرقتين الأولين ويؤيد الفرقتين الأخريين ، ونعني بهما الفرقتين اللتين يعقل أصحابهما عن الله تعالى ما خلق ، ويتدبرون ما صنع ، ولا بد للحارث هنا من أن يبين لنا من هو العاقل عن الله ، ومن هو كامل

العقل عن الله ، فنراه في ذلك لا يخرج عن روح عصره المتميز بالزهد والورع والخوف من الله ، والذي كان قد مهد له الحسن البصري (١١٠هـ) ، وعلى الأخص بظاهرة الخوف من النار ، كأنما النار لم تخلق إلا له ، أضف إلى ذلك أن بعض الحكماء كان يقول : « لا ترى العاقل إلا خائفاً كما أن الجاهل لا تراه إلا آمناً »[1] . وهكذا نرى الحارث يُعرّف العاقل بقوله: «انه المؤمن الخائف من الله » ومن يراجع كتاب «التوهم» يلمس بوضوح نزعة الحسن البصري التي بدت ظاهرة لدى الحارث في التخويف من النار وماذا أعد الله فيها للكافرين من عذاب ، وفي التطمين بالجنة وما أعد الله فيها من نعيم . والعاقل عن الله أيضاً هو :

« من ذكر الله بتأديبه له ، ومن عقل آياته في تدبيره ، وحكمته في آثار صنعته ، ودلائل حسن تقديره ، فاستدل من ذلك كله بأنه الإله العظيم الذي لا إله غيره .

والعاقل عن الله هو من عقل عنه أن الفقه في الدين يورث محبة الله وان اقل قليل المعرفة يورث التعظيم لله والهيبة منه .

والعاقل عن الله هو من عقل عنه انه ابتدأ عباده بالرحمة والتفضل والإحسان .

إن الله مع علمه بأن الناس يعصونه لكنه يبتدئهم بالنعم . فمن يعقل ذلك عن الله يلزم قلبه بالرحمة ، فيحب المحسن ويشفق على المسيء .

والعاقل عن الله من عقل عنه ما وصِفت به النفس من أنها بالسوء أمّارة لأن من يعقل ذلك يستصغر كثير الطاعات من نفسه تغطية لكثرة ذنوبه وسوء رغبته .

---

(١) ابن أبي الدنيا — العقل وفضله ٢٨ .

والعاقل عن الله من عقل ما بيّن الله سبحانه من فرق بين الدنيا والآخرة فكشف عن أن الآخرة شرف ونعيم ، وعن أن الدنيا حقارة وضعة »

وإذا كان العاقل عن الله هذا أمره ، فمن هو كامل العقل عن الله ؟

يقول الحارث : إن الكمال في العقل عن الله غير محدود إذ لا حد لعلمه ولا اصفاته ولا لعظيم قدر ثوابه وعقابه ولا أحد يعرف كال صفاته . ولعل الحارث من خلال هذا التعريف لكامل العقل عن الله ، بأن الكمال فيه غير محدود ، لعله يريد أن يقرر للانسان المؤمن انفتاحاً على المطلق خالصاً من كل حد ، متحرراً من كل قيد ، لأن العقل عن الله (يزيد ويقوى بالعلم والحلم) ولا يمكن أن يقف عند نهاية . أما بالنسبة لذات الله ، فإن أعظم العاقلين عنده هم العارفون عقلاً عنه ، ومعرفة به ، الذين أقروا أنهم لايبلغون بالعقل والمعرفة كنه معرفته .

على أن الحارث لا يريد ـ كما يبدو ـ أن يخرج من هذا التعريف بغير نتيجة ولو نسبية فنراه يستدرك بقوله : « ولكن قد يسمى كاملاً في العقل عن الله في ما غلب عليه من الأفعال التي كانت فيه ثلاث خلال : الخوف منه ، والقيام بأمره ، وقوة اليقين به وبما قال ووعد وتوعد ، وحسن البصر بدينه بالفقه عنه فيما أحب وكره ، من علم ما أمر به ، وندب إليه ، والوقوف عند الشبهات التي سمى الله الوقوف عنها رسوخاً في العلم به »

لذلك فإن الحارث يرى بين العاقلين عن الله تفاوتاً في الدرجة ، فإذا كان الناس متساوين جميعاً في غريزة العقل التي وضعها الله في خلقه وأقام بها الحجة عليهم ، فإن ذلك لا يعني أن جميع خلق الله متساوون أيضاً في درجة العقل عن الله ، ذلك أنهم « بالعقل رغبوا ورهبوا ، وزهدوا وانتقلوا إلى الرشد وعلوا به في الدرجات »[1] . وان « تفاوت الناس في الزهد على قدر

---

(١) المحاسبي : الوصايا – نشرة عطا ٨٦ .

قدر صحة العقول وطهارة القلوب ، فافضلهم أعقلهم وأفهمهم عن الله »[1].

ويبدو أن العقل بمعنى الغريزة كان رأياً شائعاً في زمن الحارث لدرجة رأينا معها ابن حنبل الذين يقف على الطرف الآخر يتفق مع المحاسبي على القول بان العقل غريزة بل لم يقتصر الأمر على ابن حنبل فقد كان معظم أهل السلف يقولون بذلك[2] . على أن هذا الرأي إذا كان شائعاً حقاً[3] في زمن الحارث أو في الفترة الواقعة التي سبقته ، فإن ذلك لا يمكن أن يعني أن هذا الرأي كان يشكل مذهباً عقلياً أو موقفاً فلسفياً واضح المعالم ، بيّن القسمات ، بقدر ما كان لدى هذا أو ذاك من المفكرين رأياً عابراً ، أو تعبيراً عفوياً ، لم يحفل صاحبه بما يحمله من عمق في المعنى ، وبعد في النتيجة .

ويبدو أن الحارث عندما تبنى فكرة « العقل غريزة » لم يفعل ذلك عبوراً وعفوية كما يفعل غيره ، إنما تبنى الفكرة وتوقف عندها ، وما من شك أن كتاب « مائية العقل » — الذي نحن بصدد دراسته — كان من نتاج هذا التوقف الفلسفي عند هذه الفكرة بحيث أدى هذا التوقف العميق إلى الخروج من ذلك كله بموقف عقلي بالغ الجدة والقيمة ، كان له أثره البعيد في الفكر الإسلامي بوجه عام .

وأول علامة من علامات الجدة والقيمة في موقف المحاسبي هذا ، ذلك النمو الذي نلاحظه لدى الحارث في فكرة العقل غريزة ، فلقد نمت الغريزة عنده باضافة كلمة « نور » عليها ذلك أن الحارث لما سئل عن العقل قال : هو نور الغريزة ، مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم[4] .

---

(١) المحاسبي : الكواكب الدرية ٢١٩ .
(٢) ابن تيمية — الرد على المنطقيين ٩٤ — أيضاً كتاب الأذكياء لابن الجوزي ١٠ .
(٣) ذهب الكندي أيضاً الى القول ان العقل غريزة — رسائل الكندي ١٦٩ ، ٣١٢ ، ٣٤٠ .
(٤) طبقات الشافعية جـ ٢/١ ٤ — أيضاً كتاب الاذكياء ١٠ .

ولقد كان لقول المحاسبي بأن العقل هو نور الغريزة وما نتج عن ذلك من نتائج فكرية لديه ، أكبر الأثر في الفكر الإسلامي فيما بعد وعلى الأخص لدى أبي حامد الغزالي في كتابيه « الإحياء » و« مشكاة الأنوار » [١] .

ونحن لا نستطيع أن نقف على علامات الجدة والقيمة التي تميز بها مفهوم العقل لدى الحارث إلا إذا حللنا كتابه في (مائية العقل وفهم معناه) .

ومن خلال هذا التحليل يتبين لنا أن العقل لدى الحارث إنما هو غريزة وضعها الله في أكثر خلقه ، ولا يمكن لهذه الغريزة أن تعرف بالتعليم كما لا يمكن للغريزة العقلية أن تكتسب بالخبرة التي تعطيها الحواس لنا ، وإنما يمكن معرفة هذه بالعقل فقط ، ويعني بذلك أن العقل لا يُعرف إلا بالعقل وأعني بوعي العاقل أنه كائن يتفكر ويتدبر ، وهو بهذه الصفة كائن مميز عمن سواه من الكائنات. ذلك أنه إذا كانت معرفة الأشياء الحسية الخارجية تعتمد على العقل فإن العقل لا يعتمد في سبيل معرفته إلا على ذاته .

لقد اكتشف الحارث عن طريق النور الغزيزي أن العقل هو « شيء واع ومؤمن معاً » ذلك أن العقل عندما يعرف ذاته فإنما يعني ذلك أن العقل قد وعا امرين اثنين :

أولهما : أنه شيء مخالف لضده وهو الحمق والجنون .

وثانيهما : أن هذا الوعي العاقل هو نعمة إلهية أقام بها الله على البالغين للحلم والحجة .

ويستعرض المحاسبي في كتابه « مائية العقل » أقوال بعض الأقوام في أن العقل غريزة .

---

(١) نشرها الدكتور أبو العلا عفيفي ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي.

فقوم من المتكلمين يقولون ان العقل هو صفوة الروح أي خالصها، وذلك في معرض قولهم بان لب الشيء هو خالصه تفسيراً للآية (إنما يتذكر اولو الألباب) .

والحارث يرد هذا الرأي ولا يأخذ به لأنه لا يرى له سنداً لا في الكتاب ولا في الأحاديث المأثورة .

وقوم يقولون ان العقل معرفة وضعها الله في عباده تزداد وتتسع بالعلم المكتسب الدال على المنافع والمضار .

ونحن نرى أن المحاسبي يعارض كون العقل معرفة ، ذلك أن العقل عند المحاسبي ليس شيئاً آخر غير العقل نفسه ، أي أنه مجرد غزيرة وإمكان ،أما المعرفة فهي نتيجة له لأنها عنه تكون .

وقوم يقولون انه نور غريزي ، يبصر به ويعبر بهلمعرفة الأشياء الأخرى وكما أن في العين نوراً هو البصر ، يجعلنا نتعرف على المرئيات ، فإن في « القلب » [1] نوراً يجعلنا ندرك الحكمة الإلهية [2] التي هي باطنة في هذا الكون عندما تتدبر في خلقه ، في حركته وسكونه . وينتهي الحارث إلى تبني هذا الرأي الأخير ، ونحن نرجح بأنه له في الأغلب لأنه لم يقل لنا شيئاً عمن قال بذلك ، ولا نحن رأينا لأحد رأياً يقول فيه أن العقل نور الغريزة غير المحاسبي .

فإذا كان هذا العقل لدى الحارث نورانياً غريزياً ، وبالتالي يعرف ذاته بذاته ، فقد ترتب على ذلك أن يكون العقل بهذا المعنى ، مبدأ أول للمعرفة وعلى هذا الأساس تصبح معرفة الأشياء الأخرى أمراً ممكناً .

---

(١) أي العقل .

(٢) من هنا نعتقد بأن الغزالي وجد منطلقه في تحليل معنى النور كما جاء في كتابه مشكاة الأنوار .

وهذا ما يذهب الحارث إليه بالفعل حينما يقرر بأن هذا العقل عندما يكون الأداة التي يعرف ذاته ، إنما يكون ذلك سبباً لخطوة ثانية يعرف الإنسان فيها ، عن طريق العقل أيضاً ، ما ينفعه مما يضره . وهنا يبرز الجانب العملي من « مائية العقل » لدى الحارث، فهذا العقل الذي كان امكاناً نظرياً للتفرقة بين النافع والضار ، أو بين الخير والشر يصبح أيضاً — وفي مرحلة لاحقة مكملة — ضرورة عملية يقتضي على الإنسان العاقل معها ، أن يزن سلوكه بميزانها ، لأن الله إذا كان قد أعطى الناس هذه الغريزة النورانية فمعنى ذلك أنه أقام في الوقت نفسه الحجة بها عليهم ، فإذا كان العقل من ناحيته النظرية امكاناً وغزيرة ، فهو من ناحيته العملية مسؤولية واختيار . ولا يمكن للعقل أن يكون إلا بهاتين الناحيتين معاً ، بل إن الناحية العملية تبدو لنا عند الحارث أكثر أهمية وخطورة لأن العقل الغريزي (لا يُعرف إلا بفعاله) .

أما العقل الغريزي النظري فلا صفة له ، ولا جسمية ولا أي شيء حسي من هذا القبيل ، وان جاز أن يوصف بشيء فإنما يوصف بجملة أفعاله الظاهرة فهذه الأفعال (المعقولة) الظاهرة هي وحدها التي تصف ما وراءها من عقل غريزي . أما هذه الأفعال الظاهرة فيمكن تلخيصها بما يلي :

٭ **النطق :**

ذلك أن الكلام المتماسك الذي ترتبط فيه المقدمات بالنتائج ارتباطاً منطقياً إنما يدل في الواقع على أن وراءه عقلاً غريزياً بالمستوى الذين يكون النطق عليه . ومن هنا كان الجهر ضرورة عملية للتعبير عن العقل الغريزي .

٭ **الاستدلال :**

والاستدلال ظاهرة ضرورية من ظواهر العقل ، فلولا الاستدلال ، وهو حركة عقلية ، لما عرفنا بأن هناك عقلاً . ان الانسان يتعلم أسماء الأشياء ثم

نراه بعد ذلك يفرق بين هذه الأشياء مستدلاً عليها بما كان قد تعلم فعملية الاستدلال هذه هي عملية عقلية ظاهرية تدل على أن وراءها عقلاً غريزياً باطناً ، ولنفرض جدلاً أن الإنسان لم يتعلم اسماً من أسماء الأشياء، فإن الإنسان بوجه عام قادر على أن يفرق بين الأشياء بالرؤية وهذه التفرقة هي ظاهرة من ظواهر الاستدلال التي تؤكد أن وراءه عقلاً لا يعرف إلا به .

*** الاختيار :**

إن الإنسان عندما يجول بعقله النظري في معطيات هذه الحياة الكونية ، وعندما يتأمل في تفاصيل هذه الحياة الطبيعية ، وعندما ينظر في أسباب هذه الحياة الاجتماعية ، فيرى ما فيها ، ويتفكر فيما وراءها ، ويتساءل عن دوره الخاص بإزاء كل ذلك : ان هذا الإنسان لا يجد مفراً من الاختيار بين ما هو نافع وما هو ضار ، بالنسبه لدنياه وآخرته على حد سواء ، مما يؤدي به إلى اتخاذ موقف معين وسلوك معين . هذا الموقف وذاك السلوك ـ بما هما ـ أمران ظاهران ، يشكلان اختيار الإنسان الظاهر الدال على عقله المستتر .

ولعل هذا المعنى العملي للعقل يتضح لنا أكثر ما يتضح عند حديثنا عن المعنيين الآخرين اللذين أرادهما الحارث للعقل .

الثاني والثالث : العقل فهم وبصيرة :

ويتحدث المحاسبي في كتابه مائية العقل عن هذين المعنيين من معاني العقل الثلاثة مرة واحدة ، فالفهم والبصيرة هما معنيان عقليان جوزتهما العرب (إذ كانا عنه فعلاً ، لا يكونان إلا به ومنه) .

فما هو الفهم وما هي البصيرة كما جوزتها العرب ضمن تعريفات العقل ؟ انهما معنيان كما نرى مرتبطان بروح الإسلام ولننظر في بعض الأقوال التي سبقت الحارث متناولة هذين المعنيين .

يقول الحسن: «ما تم دين الرجل حتى يتم عقله» وقوله : « ما أودع الله عز وجل أمرأً عقلاً إلا استنقذه به يوماً ما ».

وقال معاوية : « الناس يعملون الخير وإنما يُعطون أجورهم على قــدر عقولهم يوم القيامة » [1] .

وقال عامر بن قيس : (إذا عقلك عقلك عما لا ينبغي فأنت عاقل)[2] .

وقال وكيع بن الجراح : « العاقل من عقل عن الله عز وجـل أمره ، وليس من عقل تدبير دنياه » [3] .

وقيل للضحاك ابن مزاحم : ما أعبد فلاناً وأورعه وأقرأه. قال : كيف عقله ؟ فقيل له نذكر عبادته وورعه وقراءته وتقول عقله؟فأجاب ويحك... إن الأحمق يصيب بحمقه ما لا يصيب الفاجر بفجوره » [4] .

وقال الشعبي : « إنما كان يطلب هذا العلم مَن اجتمعت فيه خصلتان ، العقل والنسك ، فإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً ، وإن يكن عاقلاً ولم يكن ناسكاً ، لم يطلبه ، فإن هذا الأمر لا يناله إلا النساك العقلاء » [5] .

وقال سفيان بن عيينة : « ليس العاقل الذي يعرف الخير والشر ، ولكن العاقل الذي يعرف الخير فيتبعه ويعرف الشر فيتجنبه » [6] .

وقال عمر الجيلي : « اللهم اجعلنا نعقل عنك »[7] .

وقال ابن جريج : « قسم العقل على ثلاثة أجزاء فمن كن فيه كمل عقله ، حسن المعرفة بالله ، وحسن الطاعة له ، وحسن الصبر على أمره » . كما قال

---

(١) العقل وفضله – ابن أبي الدنيا – ١٣ .
(٢) المصدر نفسه ١٧ .
(٣) المصدر نفسه ١٩ .
(٤) المصدر نفسه ٢٠ .
(٥) المصدر نفسه ٢٢ .
(٦) المصدر نفسه ٢٣ .
(٧) المصدر نفسه ٢٥ .

أيضاً : « قوام المرء عقله ، ولا دين لمن لا عقل له »[1] .

ونحن إذا أضفنا هذه الأقوال إلى ما نعرفه من الآيات والأحاديث الكثيرة التي تحض على التفكر والتأمل والعقل عن الله ، وتكريم العاقل عن الله في دنياه وفي آخرته ، أدركنا تمام الإدراك هذين المعنيين العقليين اللذين جوزتهما العرب ، على حد تعبير الحارث ، وهما الفهم والبصيرة .

والعودة بنا إلى ما جاء في نص كتاب (مائية العقل) للحارث كفيلة بإيضاح هذين المعنيين المهمين اللذين يشكلان الجانب العملي الحقيقي من نظرية العقل لدى المحاسبي . فالمعنيان اللذان يكونان عن العقل فعلاً ، ولا يكونان إلا به ومنه ، هما إذن الفهم والبصيرة .

أما الفهم فهو الظاهرة العقلية التي تؤدي إلى إصابة المعنى من ناحية ، والقدرة على التعبير عن هذا المعنى بشكل ما من أشكال البيان من ناحية أخرى . وليس الفهم هنا لدى الحارث فهماً سكونياً جامداً ، بل هو على وجه الدقة فهم متحرك وحيٌّ معاً . فهو متحرك باتجاه الأشياء والظواهر الموجودة في الخارج ما يتعلق منها بالحس ، وما يتعلق منها بالدنيا ، ثم ما يتعلق منها بالروح ، وما يتعلق منها بالآخرة . وهو حي لأنه يتصدى لأشياء موجودة ، ولكل شيء من هذه الأشياء معنى ، هو أشبه ما يكون بحياة هذا الشيء نفسه ، فإذا أصاب الإنسان هذا المعنى بعقله فقد حقق الفهم واستقام له البيان .

وإذا كان الفهم لدى الحارث ظاهرة عقلية تتناول الأشياء في معانيها فان البصيرة عنده هي ظاهرة عقلية أيضاً . ولكنها تتخطى معاني هذه الأشياء الواقعية إلى ما وراءها . فالبصيرة العقلية هي غريزة النفاذ إلى ما رواء هذه الأشياء لمعرفة قيمتها الإلهية من ناحية وقيمتها الأخلاقية من ناحية اخرى.

---

(١) العقل وفضله ٢٨ .

إن الإنسان ببصيرته العقلية قادر على أن يتعرف على عظيم قدر الأشياء النافعة في الدنيا والآخرة ، وهنا موطن العقل عن الله ، حيث تتجلى للانسان من خلال هذه التجربة العقلية بالذات ، قدرة الله في هذا الكون ، وتسخيره الأشياء لمنفعة الإنسان ، بشكل تكون فيه هذه البصيرة في النهاية سبباً لطاعة الله طاعة عقلية . ذلك أن الإنسان لدى الحارث إنما بالعقل وحده يطيع الله . وهو عقل البصيرة ، الذي عن عقل الغريزة يكون .

ونحن نرى الحارث يعود للتأكيد في كتابه (مائية العقل) على أن عقل الغريزة يساعد على تمام عقل الفهم والبصيرة ، كأنما هو المحرك والدافع . ثم نرى الحارث بعد هذا يعلق على ذلك بالقول إن هناك أناساً يكابرون لا يتحرك لديهم عقل الفهم ولا عقل البصيرة ، فيكون لهم عقل الغرائز فقط . هؤلاء الناس هم لدى الحارث كالأنعام ، يقلدون آباءهم ويعجبون بآرائهم دون أن يفهموا للحياة معنى ولا أن يدركوا ببصيرتهم ما وراء هذه الحياة من قدرة وقيمة .

العقل والمنهج :

لقد عرفنا أن العقل لدى الحارث هو غريزة أولاً وفهم ثانياً وبصيرة بعد ذلك . وهذه الأجزاء الثلاثة تلتقي في المعنى الذي قال به الحارث بأن العقل لا يُعرف إلا بأفعاله الظاهرة . واستناداً إلى ذلك يمكننا أن نقرر في طبيعة العقل لدى الحارث ما يلي :

العقل حدسي :

ومعنى الحدس هنا هو بمعنى الغريزة التي تميز تلقائياً ما بين الخير والشر فتختار الخير من بينهما . وهنا نرى الحارث يقول : « فبذلك العقل عرفوه ، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم ، بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة

ما يضرهم . فمن عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه عرف أن الله تعالى قد منّ عليه بالعقل »[1] . وذلك يعني بالنتيجة أن طبيعة العقل هي إدراك ذاته ادراكاً حدسياً بأنه إمكان معرفة وفهم وبصيرة .

العقل استدلالي :

وطبيعة العقل لدى الحارث قائمة في عملية الاستدلال ، ذلك أن الإنسان عندما يتيقن من عقله ، تصبح المعرفة بالنسبة إليه أمراً ممكناً ، وهنا تأتي المعطيات الحسية الموجودة في عالمنا ، والحوادث التي تتوالى ، والظواهر التي تتردد لتصبح كلها منطلقاً للاستدلال . ومن هنا يتضح لنا أن الاستدلال ينطلق من الملاحظة الحسية ، أو من التجربة العملية ، للخلاص من هذه وتلك ، إلى حكم عقلي أو خلقي أو ديني ، وها هو الحارث يقول : « أولا تراه يقول عز وجل : « وأما ثمود فهديناهم » يعني بينا لهم ما يعقلونه إن تدبروا ذلك ، فقال عز وجل : « فاستحبوا العمى على الهدى » فإنما خاطب الله العباد من قبل ألبابهم واحتج عليهم بما ركب فيهم من عقولهم (وما الله بظلام للعبيد)[2] .

وإذا كان الاستدلال ينطلق من المعطيات الموجودة في عالمنا فإن الاستدلال من ناحية أخرى يمكن أن ينطلق من معطيات ذهنية تنشأ في العقل بالتعليم . وها هو الحارث يقول في ذلك : « كمعرفة الرجل نفسه وأباه وامه والسماء والأرض وجميع الأشياء التي تشاهد . ولولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من أسماء الأشياء ثم رأى الأشياء لعرفها برؤية ولم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها . ألم تسمع إلى ما وصف الله تعالى به ملائكته إذ سألهم أن يخبروه بأسماء الأشياء فقالوا لا علم لنا ، فأمر آدم عليه السلام فأخبرهم بها لأنه

---

(١) مائية العقل (المخطوط) . (٢) نفسه .

علمه الأشياء »[1] .

العقل منطقي :

وإذا كان العقل لدى الحارث شيئاً غير محسوس بمعنى أن لا طعم ولا رائحة ولا لون ولاجسة ولا طول ولا عرض له [2] فكيف يمكن معرفته؟ .

قلنا جواباً عن ذلك ان معرفة العقل لا تتم إلا بأفعاله . فسلوك الإنسان هو دليل على عقله ، فالعقل للعالم ليس موضوعاً للمعرفة ، إنما الظواهر العقلية هي التي يمكن أن تكون وحدها « موضوعاً » لدراسة العقل وأساساً لقيام علم خاص به .

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة للسلوك ، فإن الأمر يبقى على هذا النحو بالنسبة إلى النطق . فالعقل لدى الحارث لا يعرف إلا بالنطق ، وليس مجرد النطق هو ما يمكن أن يقوم دليلاً على العقل ، وإنما النطق الذي يعنيه الحارث هو بمعنى القضايا المنطقية المتماسكة التي ترتبط فيها المقدمات بالنتائج فلا يداخلها أي وجه من وجوه التناقض أو التهافت . وفي ذلك يقول الحارث « قال عز وجل ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ...وقال خالد ابن صفوان لولا التبيان لكان الإنسان بهيمة مهملة أو صورة ممثّلة. وقال الشاعر:

وفي الصمت ستر العي يوماً وإنمـــا
صحيفة لب المرء أن يتكلمـــا [3]

إن المناطقة يُعَرّفون علم المنطق اليوم بأنه صورة الفكر . ثم يستطرد المناطقة الوضعيون ليقرروا أن الفكر ليس شيئاً غير الألفاظ ، فالفكر إذن لا يمكن أن يعرف إلا بألفاظـه ... وهذا هو المعنى الذي أراده الحارث بالذات .

---

(١) مائية العقل (المخطوط) . (٢) المصدر نفسه .
(٣) المصدر نفسه .

أما منهج البحث العقلي لدى الحارث فهو يكاد يكون أجلّ النقاط التي أثارها في قضية العقل ، وإذا كان الحارث قد أشار في كتابه « مائية العقل » إلى جوانب من هذا المنهج فإن الملحق الصغير الذي أتى بعد هـــذا الكتاب بعنوان « مسألة في العقل » إنما يحتوي على صلب المنهج العقلي الذي تمـــيز الحارث به .

ونحن لن نبدأ بشرح هذه « المسألة » كما وردت ، وإنما سوف نفترض لها تنظيماً معيناً نعتقد بأنه يساعد إلى حد ما على الكشف عن جوانب المنهـــج الذي نشير إليه .

اقصاء العاطفة :

وكخطوة منهجية اولى يؤكد الحارث أن العاطفة إذا تدخلت في حكمنا على الأشياء فإنها ستكون مفسدة لهذا الحكم لا محالة وهذا موقف علمي من غير شك . يقول الحـــارث : « والحب والبغض إذا أفرطا انقصا الاعتدال وأفسدا العقل وصورا الباطل في صورة الحق »[1] . ويقول أيضاً : والذي يمنع من الفهم الأنفة التي تمنع من الخضوع للحق ، وحب الغلبة الذي يبعث على الجدل والجزع من التخطية الذي يمنع من الإذعان بالإقرار بالصواب » .

فكلها إذن عواطف على المرء أن يتخلص منها ، ويتجرد في البحث عنها في سبيل الوصول إلى اليقين المنشود .

التفرغ للبحث :

ويؤكد الحارث على ضرورة التفرغ للبحث : بل وعلى ضرورة التفرد به والانصراف إليه انصرافاً كلياً ، ولعله في ذلك يعتمد على ما كان قد قرره من أن العقل غريزة ، والإنسان بغريزته التي وضعها الله فيه يمكن له أن يتوصل

---

(١) مسألة في العقل .

إلى معرفة الحقيقة بمفرده ، والمحاسبي يقول في ذلك : « وليس من تفرد بكتاب يقرأه وحده ، متثبتاً فيه ، لا يشغله عنه سبب يقطعه ، كمن نازع غيره ، لأنه يعترض في المناظرة آفات كثيرة من العجب بالرأي »[1] .

تحكيم البداهة :

فإذا استطاع الإنسان أن يقصي عاطفته عن مجال بحثه ، وإذا استطاع أن يتفرد في بحثه ، فما عليه بعد ذلك إلا أن يحكّم البداهة في أمر يعرض له لا لشيء إلا لأن البداهة هي من جنس الغريزة العقلية ، وهي التي عنها تكون ، وإذا كنا نحن الآن نطلق عليها اسم البداهة ، فإن الحارث كان قد اطلق عليها اسم الفهم والبصيرة . يقول الحارث : « ان الحجة ظاهرة بنورها على الشبهة »[2] « وان الحق في كل أمر بيّن والباطل في كل حال داحض » .

تطبيق المنهج على مسألة في العقل :

ما هي « المسألة في العقل » التي أراد الحارث أن يطبق عليها منهجه سالف الذكر ؟ حتى نعرف هذه المسألة لا بد من الرجوع إلى كتابه في « مائية العقل » لنراه يقول ان العقل هو الغريزة التي أنعم الله بها على عباده « فأقام بها الله على البالغين للحلم الحجة » . يعني أن الله سبحانه وتعالى سوف يحتج بهذه الغريزة التي وضعها في كل إنسان ليحاسبه بها على أفعاله يوم القيامة . فإذا كان له على عباده حجة وهي العقل ، فليس للعباد حجة على الله في تبرير أعمالهم . فالحجة إذن هي حجة الله على العباد . فما هي هذه الحجة التي قال بها الحارث ؟ .

---

(١) مسألة في العقل .

(٢) المصدر نفسه .

للاجابة عن هذا السؤال نرى أنفسنا ننتقل إلى الملحق الخـــاص والذي يتناول « مسألة في العقل » وليست هذه المسألة في الواقـــع إلا محاولة من الحارث للكشف عن هذه الحجة (نعني عن العقل) التي سوف يحتج بها الله على عباده يوم القيامة ويحاسبهم بميزانها .

يقول الحارث ان هذه الحجة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر . ومعنى ذلك أن العقل الغريزي الذي أودعه الله فينا بات عليه أن يدرك ، ولا عذر له في أن يدرك ، بأن حجة الله عليه حجتان :

أولهما : العيان الظاهر :

وهو ما يشاهده الإنسان من مظاهر هذا الكون المنظم الدال على عظيم قدر الله ، وجلال قدرته ، وجمال صنعته ، فاحكم غريزة عقله ، وقاس ذلك بميزان البداهة فآمن بالله الواحد القهار ، مدبر هذا الكون ، ومقدر حركته وسكونه .

وثانيهما : الخبر القاهر :

وهو ما أوحى به الله تعالى على نبيه محمد ﷺ ، من آي وخبر قاهر (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) [١] . فالإنسان إذن بغريزتـــه مطالب بأن يعقـــل عن الله أن الفقه في الدين يورث محبة الله ، فيكثر من الطاعات له من تلقاء نفسه .

والإنسان مطالب بأن يعقل عن الله كلامه وعلى الأخص في ما أمر بـه وما نهى عنه ، وما وعد وتوعد . وعلى هذا الأساس يختار الإنسان بعقله الغريزي ، ما يحقق به رضى الله ، ويكفل له سعادته في الدنيـــا وفي الآخرة معاً .

---

(١) سورة فصلت : ٤٢ .

ولننتقل إلى العبارة الثانية التي يقول الحارث فيها . «والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل » إن هذه العبارة تعني ، على ما نرى — وبالتعبير الارسطي — « ان العاقل والمعقول شيء واحد » ذلك أن الدليل هو العيان الظاهر والخبر القاهر . وكلاهما عند المحاسبي مطابق للعقل ، فالعقل إذن موجود فيهما ، وهما موجودان في العقل ، وكل من الطرفين مضمن بالآخر في وحدة صوفية عقلية متكاملة .

أما عبارته التي يقول فيها : « والعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل وكون الاستدلال مع عدم الدليل » . فإنما يعني بها على ما نرى أن هذا الكون من ناحية ، وأن القرآن من ناحية اخرى هما أصل الاستدلال وسببه . ولما كان منهما الاستدلال ، فقد كانا هما الأصل .

أما الفرع فهو العقل المستدل ، وبالتالي فإن الحارث يريد أن يقرر بأنه لا معنى للعقل ـ الذي هو الفرع ـ بدون علة الاستدلال الموجودة في كتاب الكون وكتاب الله ـ وهما الأصل في الاستدلال ـ .

ثم يقول الحارث « فالعيان شاهد يدل على غيب والخبر يدل على صدق فمن تناول الفرع قبل إحكام الأهل سُفته » .

هذا يعني على ما نعتقد أن هذا الأصل المكون من (العيان الظاهر والخبر القاهر) إنما يدل على يقين فالاولى إذن أن يكون هذا الأصل (الثنائي) سنداً ومنطلقاً لكل يقين ، لأنه لا يمكن أن يكون الفرع (وهو العقل) السند والمنطلق لليقين الذي نبحث عنه ... (ومن تناول الفرع قبل احكام الأصل سفه) . ولعل في ذلك الرد الحاسم على المعتزلة .

صحيح أن العقل حق ، والعيان الظاهر والخبر القاهر كلاهما حق . ولكن يقول المحاسبي : « رب حق أحق من حق ... الخ . . وبهذه العبارة على ما

نعتقد يضع المحاسبي حداً نهائياً للمسألة « في العقل » التي عرض لهـا وذلك عندما يقرر بشكل واضح أن الأصل هو أحق من الفرع . نعني أن الأخذ بالعيان الظاهر والخبر القاهر أحق من الأخذ بالعقل . إن الحـارث لا يقول هذا الكلام لينفي عن العقل حقه في البحث ، بل ليعترف بحقه ، أما هـذا الحق فهو في أن يعقل عن الله عيانه الظاهر وخبره القاهر ، فالأخذ إذن ينبغي أن يكون عن هذين الأخيرين أولاً وقبل كل شيء .

العقل هو القرآن (والعكس غير صحيح) :

بالرغم من أن الحارث بن أسد المحاسبي لم يستعمل هذا التعريف المبـاشر للعقل فيقول : « إن العقل هو القرآن » فإن جميع الأفكار المنثورة في كتابه حول ماهية العقل أو مائيته ، وفي كتابه في « فهم القرآن » إنما تنتهي بـه ذكر ذلك صراحة أو لم يذكره إلى هذا الحكم بالذات وهو الحكم الذي انتهينا إليه بعد التحليل . ويشكل هـذا الحكم النتيجة النهائية للتصوف العقلي الإسلامي لدى الحارث .

إن المنطلق الذي يمكن الاعتماد عليه كأساس لهذا الحكم يعتمد على مصادر ثلاثة :

أولها « مسألة في العقل » .

وثانيها : كتاب « مائية العقل » .

وثالثها : كتاب « فهم القرآن » التي وردت فيها كلها تعريفات، وتفصيلات عن العقل ما هو .

أما بالنسبة للمصدر الأول ونعـني بـه « مسألة في العقل » وهـي المسألة التي طرحها الحارث حول ماهية العقل في صفحتين أو ثلاث ، فإن كل ما يعنينا هنا هو المقدمة التي نوردها بأسطرها القليلة التالية . يقول الحارث

في هذه المسألة :

« ١) الحجة حجتان : عيان ظاهر ، أو خبر قاهر .

٢) والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل .

٣) والعقل هو المستدل والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله .

٤) ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، وكون الاستدلال مع عدم الدليل .

٥) فالعيان شاهد يدل على غيب .

٦) والخبر يدل على صدق .

٧) فمن تناول الفرع قبل إحكام الأصل سفه » .

هذه هي المسألة العقلية كلها لدى الحارث . إنها كامنة في هذه الأسطر القليلة ، التي تختصر ، وبإيجاز كلي ، ماهية العقل وحقيقة معناه ، فما هي « ماهية العقل وحقيقة معناه » كما وردت في هذه المقدمة الموجزة ؟

في الجملة الأولى يقول الحارث : «الحجة حجتان : عيان ظاهر أو خبر قاهر » . أما معنى الحجة فهو العقل الغريزي الذي وضعه الله في خلقه وأقام به على البالغين للحلم الحجة ، والحارث يردد هذا الكلام وما هو في معناه في كثير من المواطن في كتابيه « مائية العقل » و « فهم القرآن » . فماهية العقل إذن هي في جوهرها حجة الله على عباده « وضعها الله في أكثر خلقه » مستثنياً من ذلك أهل التيه والحمقى ، « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيى عن بينة » الآية .

وإذا كانت ماهية العقل هي حجة أقامها الله على العاقلين ، فإن الحارث بقوله إن الحجة حجتان ، إنما يعني أن للعقل ماهيتين وهما « العيان الظاهر»

و « الخبر القاهر » . فأما الأولى وهي العيان الظاهر ، فهي ما يشاهده الإنسان بأم عينه من بحار وجبال وأنهار وكائنات وأفلاك وهي من « آثار الصنعة واتصال التدبير الذي يدل عليه أنه واحد لا شريك له ... فكأن جميع الأشياء عين يعتبر بها (الإنسان) ويجل ويعظم لما يرى ويسمع . »[1] وأما الماهية الثانية ، وهي الخبر القاهر ، فهي ما أخبر الله به عباده إخباراً قاهراً ومعنى القهر هنـــا ـ وهو قهر عقلي ـ أنه خبر لا يرد ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأن القرآن وهو يدعو الإنسان إلى التفكر والتأمل ، ويكشف له بالبرهان والحجة عن إتقان الصنعة ، إنما يعطي الدلائل القاطعة القاهرة على وحدانية الله وتفرده بالصنع إنهـــا كما يقول الحارث[2] « ومن الدلائـــل عليه من آيات الكتاب ... الذي يدل عليه أنه واحد لا شريك له ...

... ألم تسمعه عز وجل يقول (وتعيها إذن واعية) ... يعني عقل عن الله ما سمعت أذناه مما قال وأخبر . فهذا هو العقل . » فماهية العقل الثانية إذن لدى الحارث هي ما قال الله وأخبر في آيات الكتاب ، وهذا كلام صريح للحارث لا لبس فيه ولا غموض .

ومع انتقالنا إلى الجملة الثانية يزداد معنى هاتين الماهيتين وضوحاً ورسوخاً . يقول الحارث « والعقل مضمن بالدليل والدليل مضمن بالعقل » فما هو هذا الدليل الذي يعنيه الحارث ؟. كما هو واضح من الجملة السابقة دليلان:

الدليل الأول هو العيان الظاهر .

والدليل الثاني هو الخبر القاهر .

فإذا كان العقل مضمناً بالدليل ، بالنسبة للدليل الأول ، فإن ماهية العقل

---

(١) مائية العقل (المخطوط) . (٢) المرجع نفسه .

من جهة أولى كامنة في هذه « المعقولات » من بحار وجبال وأنهار وكائنات وأفلاك مما هو ظاهر أمام عين الإنسان ، فماهية العقل إذن هي في هـــذا الوجود الحسي المطلق ، لا من حيث هو وجود حسي ، بل من حيث هـــو عقلي شامل كامل يتجه نحو غاية واضحة هي التدليل على وجود الله ، وعلى أنه واحد لا شريك له .

ولما كان العقل كامناً في هذا العيان الظاهر على هـــذا النحو فهو ضمنه ، والتضمين هنـــا لا يعني الاحتواء ، وإنمـــا يعني التطابق ، لأن الحارث الذي قال : إن العقل مضمن بالدليل ، يقول من ناحية أخرى إن الدليـــل مضمن بالعقل . ومعنى ذلك أن هذا العالم المادي ، إنما هو عالم متطابق مع العقل، فكما أن العقل الغريزي الذي وضعه الله في خلقه هو « عقل كوني » ، فإن الكون الذي خلقه الله وأتقن صنعه إنما هو «كون عقلي» كذلك ، فكلاهما عقلياً مضمن بالآخر .

وإذا كان العقل مضمناً بالدليل ، بالنسبة للدليـــــل الثاني ، فإن ماهية العقل من جهة ثانية أصبحت كامنة في هذا الخبر القاهر ، ويعني به المحاسبي، القرآن كما رأينا . فآيات الله كلها إلى جانب كونها أدلة تدبير عاقل .. على وجود الله ووحدانيته ، فهي أيضاً أدلة تدبير عاقل لحياة الإنسان في الدنيا والآخرة على السواء .

إن هذه الأدلة تجعل الإنسان – كما يقول الحـــارث – قادراً على التمييز « بين النافع والضار ، للعمل بما ينفعه » إن العقل لدى الحارث ليس عقـــلاً مجرداً إنما هو غريزة « للعقل عن الله كلامه » ومعنى قوله تعالى (استمع لمـــا يوحى) ... أعقل ما أقول لك [١]. ولما كان العقل على هذا النحو كامناً في الخبر القـــاهر ، وهو القرآن ، فهو ضمنه ، والتضمين هنا أيضاً لا يعني الاحتواء ، وإنما يعني التطابق ، لأن الحارث ـ مرة أخرى ـ الذي قال بأن العقل مضمن بالدليل ، يقول من ناحية أخرى إن الدليل مضمن بالعقـل ،

(١) مائية العقل (المخطوط) .

ومعنى ذلك أن القرآن مضمن بالعقل ، وهو أيضاً تضمين تطابق لا تضمين احتواء ، فلما كان القرآن قد أتى مخاطباً للألباب ، والقلوب ، والعقول والأفكار ، فلا يمكن أن يكون إلا متطابقاً معها ، غير ناقص عنها ولا زائد عليها ، ومن هنا كان معنى التضمين التطابقي بين القرآن والعقل ، أو العقل والقرآن ، كما أن العقل الغريزي الذي وضعه الله في خلقه هو « عقل قرآني » فإن القرآن الذي خلقه [1] الله بشكل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا خلفه ، إنما هو « قرآن عقلي » وكلاهما عقلياً مضمن بالآخر .

على أن هذا التضمين المتبادل بين العقل والدليل بالرغم من كونه تضمين تطابق ، فإنه في الوقت نفسه ليس تضمين درجة ، لأن تضمين التطابق لا يعني بالضرورة تضمين الدرجة أو المرتبة . إن هذا الكلام توضحه جملة الحارث الثالثة التي تقول : « والعقل هو المستدل . والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله . »

فالواضح إذن من جملة الحارث هنا أن الأصل في الاستدلال ليس العقل ، وإنما هي هذه المعقولات التي خلقها الله ، هي هذا الكون اللانهائي من ناحية ، والقرآن من ناحية أخرى ، ولماذا يشكل هذا الطرفان أصل الإستدلال ؟ يقول الحارث لانهما « علة » الاستدلال ، فلو لم يكن هناك « علة » للاستدلال لما كان هناك حاجة للمستدل وهو العقل –كما يقول الحارث. فالعقل إذن تابع من حيث الدرجة والترتيب ، للكون المطلق ، والعقل تابع ، من حيث الدرجة والترتيب أيضاً ، للقرآن . من أجل ذلك كان العقل يدور وجوداً وعدماً مع الكون من ناحية ، ومع القرآن من ناحية أخرى ، ذلك أن العقل هو فرع لكل منهما ، « ومحال كون الفرع مع عدم الأصل وكون الاستدلال مع عدم الدليل » وبذلك تصبح هذه الجملة الثالثة واضحة .

---

(١) راجع فكرة خلق القرآن في كتاب الحارث « فهم القرآن » .

وإذا كان كل من الكون اللانهائي والقرآن المنزل من عند الله أصلاً دالا على وحدانية الله وتفرده بالخلق والصنعة ، فان معنى الأصل يحتم عدم التفرد بالعقل وسلخه عن ماهيته ، أعني عن عقلانية هذا الكون اللانهائي من ناحية وعن عقلانية القرآن من ناحية أخرى لأن «من تناول الفرع قبل إحكام الأصل سفه» كما يقول الحارث في الجملة السابقة لذلك فقد أصبح من الضروري للانسان حتى يصل الى معرفة الحق أن يخضع عقله أولا لمعطيات هذا الكون اللانهائي ، من حيث هو وجود مشاهد يدل على وجود غير مشاهد ، وهذا مايعنيه الحارث بقوله في الجملة الخامسة «فالعيان شاهد يدل على غيب» وأن يخضع عقله ثانياً لآيات الله في القرآن ، ولما أخبر فيه ووعد وتوعد ، ولأن الرسول جاء مصدقاً لما بين يديه فالخبر «الذي أتاه من الله» يدل (إذن) على صدق وهذا ما عناه الحارث في الجملة السادسة .

وخلاصة القول أن ماهية العقل لدى الحارث هي ماهيتان فهي الكون اللانهائى من جهة ثم هي القرآن من جهة أخرى . وإذا كان الأمر كذلك فهل يعني هذا الكلام أنهما ماهيتان منفصلتان أولاً ثم ماهيتان يصح أن تكون الواحدة منهما بديلاً للأخرى ؟ الجواب عن ذلك أن الحارث الذي قال بهاتين الماهيتين للعقل صراحة كما رأينا ، لم يقل ، ولو تلميحاً ، إن هاتين الماهيتين منفصلتان وبالتالي يصح أن تكون الواحدة منهما بديلاً للأخرى . ومن هنا يمكن أن نقول إنهما ماهيتان متلازمتان بالضرورة ، بمعنى أن هذا « العقل الكوني » ملازم « للعقل القرآني » وأن « العقل القرآني » ملازم « للعقل الكوني » ، كلاهما من خلق الله ، وكلاهما متطابق مع العقل البشري ، وكلاهما يستدل به على وحدانية الله وتفرده بالصنعة . فإذا كان ذلك كذلك، وكان كلاهما حقاً كما نرى ، فأي حق منهما ينبغي للعقل البشري أن يتوجه إليه ، أهو الكون اللانهائي الدال على وحدانية الله أولاً ؟ أم هو كلام الله الذي يهدي للتي هي أقوم ؟ إن الحارث يجيب بنفسه عن هذا السؤال مباشرة بعد الاسطر القليلة التي جاءت في مقدمة « مسألة في العقل » فيقول : «ورب

حق أحق من حق ... وكم من حسن أحسن من حسن غيره ، وفرض أوجب من فرض ، وفضل أفضل من فضل ... وان الحق في كل أمر بين ، والباطل في كل حال داحض ، إلا أن كثيراً من الناس لا يعرف وجه مطلبه ، ومنهم من عرف ثم نسي ، ومنهم من يعرف أكثره ولا يعرف أسهل طرقه ، وأقرب وجهه » .

إذن إن بين ماهيتي العقل — الكون والقرآن — حقاً هو أحق من حق... وحسناً هو أحسن من حسن غيره ، وفرضاً أوجب من فرض ، وفضلاً أفضل من فضل ، فما هو الأحق والأحسن والأوجب والأفضل بين هاتين الماهيتين؟

انه القرآن من غير شك ، الذي أصبح عند المحاسبي هو ماهية العقل المفضلة والأحق بعمل العقل ووجهته من الماهية الأخرى . يقول الحارث في المسألة « فجميع الحق في فنون الطاعات ... والعالم به (بالقرآن) يريد جمعه في بصيرته ...

... إذا فهم حسن العبارة عنه (عن الله) وايضاح حجمه ، ونور بيانه يتنبه من رقدته ويفيق من سكرته » . فلماذا رأى الحارث « القرآن » أحق من « الكون » للأخذ عنه ، واعتباره ماهية العقل الفضلى ؟ إن ذلك يعود بطبيعة الحال إلى أن القرآن هو كلام الله المباشر ، وهو كلام الله المفصل ، وهو كلام الله الذي أخبرنا به عن نفسه وصفاته ، وهو كلام الله الذي يحوي من الحقائق ، مما أوضحه في كتابه « فهم القرآن » ما يعجز عنه كل بيان ، ولهذا فإن وجهة العقل ، كانت تتحرك ليس باتجاه الكون ، وإنما باتجاه القرآن ، وهذا ما عبر عنه الحارث بعبارته المشهورة « العقل عن الله » وهي العبارة التي كثر ترددها في كتابه « مائية العقل وحقيقة معناه » وهذا الكتاب ، كما أسلفنا ، يشكل المصدر الثاني ، الذي بنينا عليه الرأي بأن « العقل هو القرآن » لدى الحارث .

يفرق الحارث في هذا المعنى بين الذين لا يعقلون وبين الذين يعقلون ،

ولكنهم لا يعقلون عن الله ، وبين الذين يعقلون عن الله وهم كاملو العقل، لأنهم يرون في القرآن ماهية لعقولهم . فأما الذين لا يعقلون البيان ولا المبين عنه بالفهم له (أي الله) فهم طائفة كمشركي العرب(إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً) يعيشون على التقليد والكبر والإعجاب بالرأي من غير أن يتبينوا ما ينفعهم مما يضر بهم ، وأما الذين يعقلون ولا يعقلون عن الله فمثلهم كمثل الإنسان يكون « عاملاً للبيان الذي لزمته من أجله الحجة ... ولكنه لا يكون عاملاً عن الله » كبعض الكفار من أهل الكتاب يعتبر عاملاً للبيان الذي لزمتهم به الحجة يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون . أما العاقل عن الله فهو الفاهم لما كلمه به ربه وأخبر به من أمر الدنيا والآخرة، وما وعد وتوعد وما أحب وكره ، فائتمر بأمره،وانتهى عما نهى عنه ، والعقل عن الله لا غاية له ، أي لا نهاية له وذلك نظراً لقوله تعالى لرسوله « وقل رب زدني علماً » وقوله « ولا يحيطون به علماً ... وأعظم العاقلين عنده العارفين عقلاً عنه ومعرفة به، الذين أقروا بالعجز أنهم لايبلغون في العقل كنه معرفته »[1] . فالعقل عن الله إذن عقل منفتح على لا نهاية في المعرفة وهو من أجل ذلك « غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأسباب الدالة على المعقول »[2]. وهذه الزيادة المعاني بعد المعاني في العقل لا تعرف حداً ولا تتوقف عند نهاية .

وإذا كان العقل منفتحاً على المعرفة اللانهائية ، فأين يمكن أن تكون هذه المعرفة إن لم تكن في غير الكائن اللامتناهي وهو الله ؟ يقول الله تعالى « وفوق كل ذي علم عليم » ويقول الحارث في كتابه « فهم القرآن » الذي يشكل بالنسبة إلينا المصدر الثالث والأخير والذي عليه بنينا الرأي بأن « العقل هو القرآن » ، يقول « إن العلم على قدر العالم ... وقد قال الله (وفوق كل ذي علم عليم) . فهل يمكن أن يكون أحد أعلم من قائله والمتكلم

---

(١) كتاب مائية العقل (المخطوط)   (٢) المصدر نفسه

به ، ولا يصيب أحد علماً إلا من قائله وهو الله رب العالمين » .

فإذا كان الأمر كذلك فكيف السبيل إلى العقل عن الله ، وإلى العقل عن القرآن باعتباره كلام الله ؟.

يقول الحارث ـ وكأنه يضع موضوع التطبيق العملي لمبدأ العقل عن الله ، إن علينا قبل إحضار العقل أن نعلم ، حتى لا نخطىء ، « أن القرآن منه ناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، والمتشابه له وجوه ، فمنه المتشابه في التلاوة من غير أن ينسخ بعضه بعضاً ، ومنه متشابه لاختلاف أوقاته في الواجب ـ وفي الكائن ، ومما أخبر الله أنه كائن ، ومنه متشابه والمعاني مختلفة ، إلى آخر هذه المعرفة الضرورية التي لا بد منها قبل إحضار العقل عن الله والتي ذكرها الحارث في كتابه « فهم القرآن » وينبغي أن يكون من المسلم به أنه لا يجوز النسخ في الصفات ، كما لا يجوز النسخ في اخبار الله عما كان ويكون.

وعلى المرء أن يحضر عقله بعد ذلك ليكون خليقاً بالعلم وأهله « فأهل العلم بكلام ربهم عز وجل هم أهل الصفاء من الأدناس وأهل الخاصة من الله جل وعز الذين أشعروا فهمه قلوبهم ، وتدبروا آياته عند تلاوته بألبابهم . » فإذا أحضر الإنسان عقله ، وهو نور الغريزة لدى الحارث ، فإنه ملتق مع ما في القرآن من نور ورحمة ، وموعظة وبيان وحق وبصائر ، ولعل الإنسان لا يستطيع أن يحضر عقله لفهم القرآن كما يقول الحارث إلا عندما يعظم عند الإنسان « قدر ما ينال بفهمه من النجاة ، وما في الإعراض عن فهمه من الهلكة . » وبعد إحضار العقل بهذا الشكل ينبغي تجميع الفهم حول كلام الله ، ويعني ذلك تركيز الانتباه بحيث لا يتفرق الانتباه إلى شيء دون كلام الله ، وذلك لا يتم كما يقول الحارث إلا بإعمال الجوارح بما يعمل العقل به ، وعدم إشغالها بموضوعات أخرى كالنظر في المصحف والاستماع إلى تلاوة الغير أو ما شابه .

---

(١) كتاب مائية العقل للحارث (٢) المصدر نفسه

فإذا كان القرآن هو ماهية العقل النظرية فإن فهم القرآن هـــو التطبيق المباشر لهذه النظرية ، ولا بأس هنا من أن نتوقف عند بعض المعاني التطبيقية في « فهم القرآن » بالرغم من أن الكتاب يشكل وحدة لا تتجزأ ، ذلك أن هذا التوقف من شأنه أن يعطينا صورة عن المنحى العقلي في فهم القرآن لدى الحارث ، وهو الموضوع الذي يستأثر بهذه الدراسـة .

العقل ومعرفة الله

وأول جوانب هذه الصورة هو موضوع العقـل ومعرفة الله ، فالله عند الحارث هو فوق اعتبارات الكم الواقعة في الزمان والمكان .

يقول الحارث :[1] « فات المقدار ... وتاهت الألبـــاب عن تكييفه ، وتحيرت العقول عن إدراكه ». وهو جانب يكاد يكون عند الحارث جانبـاً أولياً بمعنى أنه ينبغي أن يكون سابقاً على أية معرفة قرآنية أخرى ، فالله هو أول المعارف ، لأنه على معرفته سوف تبنى المعرفة العقلية القرآنية بعد ذلك . وواضح أن الحارث في كتابه « مائية العقـــل » يركز على أن كامل العقل عن الله هو من أقر بعجزه عن إدراك معرفته . فقصور العقل البشري عن إدراك حقيقة الله ليس انتقاصاً من قيمة العقل لدى الحارث إنمـا هو على العكس من ذلك إكتمال لهذا العقل وتحديد ممتاز لقيمته .! إن هـذه القيمة تتبلور من غير شك في وعي العقل لحدوده وأولها عجزه عن الإحاطة بموضوع الله . إن هذا الوعي هو ذروة الكمال العقلي .

وإذا كان كمال العقل هو وعي العجز عن معرفة الله ، فهل يعني ذلـــك توقف العقـــل عن البحث في الله توقفاً كامـــلاً . إن الحارث كان في عصره أكبر متكلمي الصفاتية ، بل إليه ينسب أكثر متكلمي الصفاتية [1]،فالبحث

---

(١) فهم القران (المخطوط)

إذن في صفات الله ، باعتبارها الطريق الأساسي إلى معرفته ، كان يأتي في رأس اهتمامات جماعة أهل السلف ومن بينهم الحارث ، فلقد ذهب هـؤلاء إلى إثبات الصفات لله فسموا صفاتية [1] وذلـك رداً منهم على المعتزلة الذين نفوا عن الله صفاته فسموا معطلة .

ولقد كان الحارث من القائلين إن الباريء سبحانه ليس بغير صفاته [2] وهذا ما يتضح لنا بالفعل في كتابه « فهم القرآن » غير أن هذه الصفات التي يثبتها الحارث لله ليست صفات من اختراع العقل المجرد ، إنما هي الصفات التي وصف الله بهـا نفسه في القرآن يقول المحاسبي : « فأرسلهم (الرسل) بكلامه ووصف لهم صفاته الكاملة واسماءه الحسنى ، وما يرضى به من المقال والفعال » . ويقول: «ولم تكن الرسل لتعرف صفاته ، ولا ما يحب ويكره ، فيعلموا غيبه كما علم غيوبهم فيكونوا أرباباً مثله ».[3]

فالله إذن لدى الحارث يعرف بصفاته ، وصفاته هـذه التي يعرف بها ليست إلا الصفات التي أخبر الله بها عن نفسه في القرآن ، وإذا كانت عقول الرسل لم تكن لتعرف صفاتـه إلا من خلال ما أخبرهم الله بها عن نفسه فكيف بعقول الناس التي هي أدنى مرتبة من عقول الرسل .

والملاحظة الأساسية التي يوردها الحارث حول هذه الصفات هي كونهـا ثابتة كما وردت في القرآن لا تتغير ، وعلى هذا الأساس فإن النسخ في هذه الصفات لا يجوز وإلا كانت عرضة للنقصان وهذا نقص في حق الله وصفات الله لا يمكن إلا أن تكون كاملة . ونحن نجد الحارث الصفاتي يثبت هـذه الصفات بأسلوب كلامي فالله هو القديم الذي لم يسبقه شيء وإلا كان محدثاً مخلوقاً ، وهو الأزلي إذ لا بعده شيء وإلا كان فانياً موروثاً ، وهو المريد لم

---

(١) العسقلاني : تهذيب التهذيب ج ٢/ ٣٤ - ١٣٦

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ٤٩/١ - ٥٠

(٣) الأشعري : مقالات الاسلاميين ٥٤٦

يزل ، وإلا كان حدوث الإرادات واقعاً في ذاته . وذو البداوات جاهل بما يكون فيما يستقبل »[1] وقس على ذلك باقي الصفات التي أخبر الله بهـا عن نفسه كالسمع والبصر وما إلى ذلك فهذه صفات ليست حادثة في الله وإنما يفعلها الله بإرادة متقدمة عنها ، لأن الله جل وعلا عن أن يكون جاهلاً بما يكون فيما يستقبل .

فإذا كانت معرفة الله تكون من خـلال معرفتنا لصفاته كما وردت في القرآن ، فإن معرفته من جهة ثانية تكون من خلال ما أخبرنا به من أخباره عما كان ويكون كما ورد في القرآن ، إن قصة الخلق ، وأخبـار الرسل ، والوعد والوعيد ، وكل ما يتعلق بالإنسان وبهذا الكون كلها وغيرها من أخباره تعالى ، من شأنها أن تعطينا إلى جانب الصفات ، فكرة عقلية عن الله .

ثم إن هذه الأخبار التي أخبرنا الله بها عن نفسه ، هي كالصفات تماماً من حيث أنه لا يجوز فيها النسخ على الإطلاق وإلا كان كلام الله فيها من قبيل الهزل واللعب ، أو الجهل والكذب ، أو التراجع والنكوص ، تعالى الله عن كل ذلك ، لأن في ذلك ادعاءً لنقص ، وحدوثاً لإرادة ، في ذات الله ، وكيف يمكن أن يكون ذلك « وكل شيء يكون فهو يكوِّنُهُ ؛ فلم يأتِ إلا وقد تقدم العلم منه به »[2] .

فإذا كانت معرفة الله مباشرة عن طريق العقل المجرد مستحيلة ، وإذا كانت معرفة الله عن طريق صفاته وأخباره كما وردت في القرآن أمراً ممكناً ، فإن معرفة الله بالدلائل الدالة عليه هي أمر واجب ، إن على الإنسان أن يستجيب إلى تنبيه الله له ليتأمل في آثار هذه القدرة الإلهية ، في ما يحيط به من مخلوقات وأشياء في هذا الكون ليرى إحكام الصنع وإتقان التدبير ، وليستدل من ذلك كله على وحدانية الله وتفرده بالصفة ، ثم ليعرف بعـد الغايـة العاقـلة من الخلق فيتأكد أن الله لم يخلق شيئاً عبثاً .

---

(١) فهم القرآن (المخطوط)

(٢) المصدر نفسه

إن في القرآن دعوة ، بل دعوات كثيرة إلى مثل هذا التأمل أو التفكر أو الحث على الاستدلال ، ثم إن الله تعالى بالإضافة إلى ذلك قد هيأ للإنسان أمرين ليساعده على الاستدلال لمعرفة الله :

« **أولهما** العقل الذي فطر الإنسان عليه ليدبر به شواهد التدبير وأحكام التقدير .

وثانيهما الرسالة التي حملها الرسل إلى الإنسان لتنبيهه على النظر عما شاهد من الآيات الظاهرة والدلائل البينة ، ولقد كلم الله بذلك تكليماً وأكد على الإنسان الحجة بكلامه ، فلم يعد بعد ذلك للانسان عذر أمام الله ، وفي ذلك كمال المسؤولية ، وكمال الحرية معاً (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيي عن بينة) » .

ولعل العقل في نهاية الأمر يمر عند الحارث ، وهو بصدد معرفة الله ، في ثلاث مراحل :

أولهما : الإيمان الاستدلالي ، بمعنى أن العقل عندما يتحرك باتجاه الكون من ناحية وباتجاه القرآن من ناحية أخرى ، لا بد أن يؤمن بالله عن طريق الاستدلال عليه بآثاره .

وثانيهما : معارضة الشك للعقل ، ذلك أن العقل على ما يبدو عندما يؤمن بالله عن طريق آثاره ودلائل صنعته يحاول أن يبحث في الله بحثاً عقلياً مجرداً فإذا بالشك يخالط ايمانه ، وإذا بهذه العقول الإنسانية كما يقول المحاسبي « قد عارضها هاجس الشك » إلا أن هذه العقول الواعية لذاتها ، وعياً بأنها عاجزة عن إدراك كنه معرفة الله ، تأبى هذا الشك وتدفعه ، وإذا حصل ذلك تكون :

المرحلة الثالثة والاخيرة : في معرفة الله قد تحققت ، فإذا باليقين يأتي هذه العقول ، وإذا « بلطف البصير » يهدي هذه العقول ، وإذا بالحقيقة الإلهية أمـــام العقل كرأي العـــين ، فيصبح العقل مصدقاً غير مكذب ولا مرتاب .

وإذا كان اليقين العقلي يتحقق عن طريق البصير أو البصيرة ، فإن ذلك لا يعني أنها ظاهرة عقلية مجردة ، إن البصيرة لدى الحارث معنى إسلامي بحت ، ذلك أنه يقول توضيحاً لذلك « فسلكوا سبيل الرشاد بالبصائر النافذة على منهاج الكتاب والسنة ... » يعني « الفهم بما قال جل وعز في كتابه بالتذكير والتفكير والتثبيت والتدبير».لأن الله قد سمى القرآن «مجيداً وبصائر وهدى » ... لذلك فإن « العاقل عن الله عز وجل بدلائل الكتاب مستبصر » . وإذا فعل الناس ذلك كانت « عقولهم معلقة بالملكوت وذلك بغير ابتداء منهم اجتبوه ولا نالوه ، ولكن بتفضل الله جل وعز عليهم » .

العقل والناسخ والمنسوخ :

ذكرنا فيما سبق أن الحارث يرفض رفضاً عقلياً كلامياً جواز النسخ في صفات الله وأخباره ، غير أن هذا الرفض لا يشمل لدى الحارث النسخ في الأحكام ، والمحاسبي عندما يقول بجواز النسخ في القرآن ضمن مفهوم معين إنما يتحفظ في ذلك أمام مدعي القول بأن القرآن مخلوق . ذلك أن هؤلاء يذهبون إلى أن مبدأ النسخ إذا أُقر بالنسبة القرآن فمعنى ذلك أن القرآن حادث وبالتالي فهو مخلوق ، ويبين لنا المحاسبي الخلف في هذا الادعاء بقوله : « إن النسخ إبدال أمر بأمر حسب الوقت ، والله كان عالماً مريداً قبل الوقت لكلامه » . كما هو الحال بالنسبة لأمر الله بالصلاة إلى بيت المقدس ثم لأمره بالصلاة إلى الكعبة فقد أبدل الله « أحدهما بدلاً من الآخر في وقتين مختلفين وكلاهما كان مريداً له » وإرادته في ذلك قديمة غير متغيرة ولا متبدلة ولا حادثة ، فالقرآن قديم غير مخلوق .

نلاحظ مما تقدم ، ومما سيأتي ، أن ميزان الناسخ والمنسوخ في القرآن عند الحارث إنما هو العقل وحده . فإذا كان العقل يقرر على ما رأينا بأنه لايجوز النسخ في صفات الله ولا في أخباره فإن العقل أيضاً هو الذي يقرر جواز النسخ في الأحكام .

يقول المحاسبي « إن الحق لا يصاب إلا في المحكم من الآيات ... فإذا أحضرت عقلك لفهم معاني القرآن ... أقبل الله عليك بلطفه وولي تقويم عقلك لفهم كلامه ... ويجلي عنك ظلم الشبه، ويدلك على محبة المهتدين ... فإذا طلبت الفهم بالصدق أقبل عليك بالمعونة » . إذن حتى المتشابه من الآيات فإنه يمكن للعقل أن يجلو الشبهة منها ، إذا كان العقل حاضراً لفهم معاني القرآن ، منتبهاً لكل آية فيه . ويروي الحارث عن أبي الأحوص عن عبد الله قوله : « لكل آية من كتاب الله ظهر وبطن وحد ومطلع » قال أبو عبد الله : أما ظاهرها فتلاوتها ، وأما باطنها فتأويلها ، وأما حدها فمنتهى فهمها . وعند هذه الخلة فرق الله بين الصادقين والكاذبين ممن تلاها أو من عرف تفسيرها ولم يبلغ منتهى فهمها » . فالعقل هو إذن بلوغ منتهى فهم القرآن .

ونحن نجد الحارث يورد تفسير قتادة لقوله تعالى : (نأت بخير منها أو مثلها) . يقول : فيها تخفيف وفيها رخصة وفيها أمر وفيها نهي . وإذا كان ذلك كذلك فإن التخفيف كان قد بُني على العقل ، والرخصة كانت قد بُنيت على العقل ، والأمر والنهي كلاهما قد بُني على العقل أيضاً .

فالعقل هو أساس التخفيف في نسخ قوله تعالى (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً) ذلك أن النبي ﷺ وأصحابه أقاموا على ذلك حولاً كاملاً حتى تورمت أقدامهم ، فنسخها الله جل ثناؤه بقوله (فاقرأوا ما تيسر منه) .

والعقل هو أساس الرخصة في تبديل أحكام بعض الآيات تبعاً لتغير الزمان وتغير المكان . وهاهو الحارث يقول «لقد اختلف صحابة محمد ﷺ في آيتين هل نسخت إحداهما الأخرى وحكمها جميعاً ثابتان ثم أجمعت العلماء بعد عصرهم من التابعين ومن بعدهم عن سنة النبي ﷺ أن إحداهما نسخت الأخرى ، وأنها مبدلة لبعض حكمها .... » حتى يقول « والأمة

مجمعة اليوم [١] أن الآية في الحامل قد ثبت حكمها وأنها لا تربص آخر الأجلين .... ومنه أيضاً المملوكة يكون لها زوج يريد المولى أن يعزل عنها زوجها وينكحها فأجمعوا أن ذلك جائز في بعض المماليك واختلفوا في بعضهم» .

ويقول الحارث «ولقد كان بعض من مضى يرى أن آية الاستئذان منسوخة والعلماء اليوم مجمعة أنها ثابتة ، إلا أن بعضهم رأى أن دق الباب يجري من الاستئذان » .

ويقول: «إن الأمة قد تختلف في الآية أولها وآخرها وفي آيتين هل نسخت إحداهما الأخرى ثم يجمعون على واحد من القولين ..» كقوله (فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم ...) فاختلف في ذلك العلماء فقال قوم من أهل العراق [٢] إن الآية محكمة لم ينسخها شيء ... وقال بعض العلماء نسختها الآية (وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم) . كما أشار الحارث إلى اختلاف الأمة في قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) هل نسختها آية الزكاة أم لم تنسخها ؟ يقول الحارث إن أكثر [٣] رجال الأمة قالوا إن الآية نسخت بآية الزكاة .

المهم من ذلك كله أن نستخلص مع الحارث أن اختلاف الأمة حول بعض الأحكام اختلافاً يتغير من إجماع لإجماع آخر . لا يمكن أن يكون ظاهرة مرضية أو ظاهرة خطيرة ، وإنما هو ظاهرة عقلية ومتحركة وفيها رخصة من الله للانسان يسمح له بالتحرك فيها بين طرفي الناسخ والمنسوخ تبعاً لتغير الزمان والمكان والأحوال ، وبهذا المعنى يصبح التحرك بين هذين الطرفين

---

(١) استعمال كلمة «اليوم» يمكن أن تعني تغير الأحكام بتغير الأزمان .

(٢) استعمال « قوم من أهل العراق » يؤكد أن مبدأ النسخ هو اعتباري أو نسبي يعود الى المكان الذي تطبق فيه الأحكام ، والى طبيعة الأقوام الذين تطبق عليهم هذه الأحكام بالذات.

(٣) استعمال كلمة «أكثر » تعني أن هناك من يرى أن آية الزكاة لم تنسخ قوله تعالى (وفي أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) .

ضرورة عقلية ، بالمستوى الذي هو فيه ضرورة قرآنية .

وكما أن العقل هو أساس التخفيف وأساس الرخصة في مبـــدأ الناسخ والمنسوخ فكذلك هو أساس للأمر والنهي فيه كما هو الحال في إبدال الأمر بالصلاة إلى بيت المقدس إلى أمر آخر بالصلاة إلى الكعبة « فأبدل أحدهما من الآخر في وقتين مختلفين » . وكما هو الحال كذلك في كثير من الأوامر والنواهي التي نصت الآيات عليها .

إن فهم القرآن كما يبدو عند الحارث هو أولاً فهم ما يجوز النسخ فيه وما لا يجوز . وفي الوقوف عند ما لا يجوز النسخ فيه تحديد للعقل وضبطه ضمن ما ينبغي أن يحد فيه ويضبط ؛ إلا أن في التحرك العقلي بين الناسخ والمنسوخ إطلاقاً لحرية العقل ضمن حدين :

الأول : منهما هو الحد الناسخ .

والثاني منهما : هو الحد المنسوخ . وبينهما يكون التأويل ، تأويلاً ينبغي أن يتناسب مع زمان معين ، كما ينبغي أن يتناسب مـــع مكان معين ، بل وجماعة معينة ، وعندما يكون هذا الاختيار العقلي محدوداً بهذين الحدين ، ـــ وهما حكمان مختلفان في الوقت ــ فلا مبرر للتخوف من أن يكون في ذلك خروج على أحكام الله ، طالما أن التحرك يكون ضمن هذه الأحكام بالذات ولعل في ذلك فتحاً لباب الاجتهاد على مدى الزمان أمام العقل وهذا ما يؤكده الحارث في تفسيره لقوله تعالى (وما يعلم تأويله إلا الله) « يعـــني يوم القيامة لا يعلمها إلا الله »[1] .

(١) فهم القرآن (مخطوط)

العقل العملي

والعقل العملي لدى الحارث هو التطبيق الحياتي لما يعقل الإنسان عن ربه من معاني قرآنية وأحاديث نبوية ، ولقد ذكرنا جانباً من هذا العقل العملي عندما تحدثنا عن المذهب الصوفي لدى الرجل ، غير أنه لا بـــد لنا هنا من التوقف قليلاً عند بعض هذه المعاني وتلك الأحاديث للكشف عن بعدهـــا الحقيقي في حياة العاقلين عن الله ، وأثر هذا البعد في ضبط السلوك وتقـويم العلائق . إن العقل بهذا المعنى يصبح لدى الحارث من غير معنى إن هـــو اقتصر على الجانب النظري ولم يتعده إلى الممارسة العملية لذلك نجد الحارث يقول في فهم القرآن .

«وما تدبرُ آياته ، إلا اتباعُه بعقله، أما والله ماهذا بحفظ حروفه، وإضاعة حدوده ، حتى أن أحدهم ليقول : إني لأقرأ القرآن ، فما أُسقطُ منه حرفاً، وقد والله أسقطه كله فما يُرى له القرآن في خلق ولا عمل » .

فالأخلاق العملية ، بما هي أخلاق كريمة توجب على الإنسان حسن المعاملة مع الآخرين . هي جزء لا يتجزأ من فهم القرآن كما يقول الحارث« ما يستدل به على كل خلق كريم » حيث « ندبنا الله فيه إلى الأخلاق الكريمة والمنازل الشريفة وأخذ علينا الميثاق المؤكد » . ويورد الحارث في كتابه « الفهم » بعض الأحاديث عن رسول الله في هذا المعنى كقوله : « إن كل مؤدب يحب أن يؤدي أدبه ، وإن أدب الله القرآن » . وقوله : « من أخذ القرآن وعمل به فقد أخذ النبوة كلها » .

وإذا كان العقل النظري لدى الحارث عقلاً إسلامياً وقرآنياً فإن العقـل

العملي هو عقل إسلامي وقرآني عنده أيضاً ، وبذلك يبقى الحارث أميناً على المبدأ في مجال التطبيق ، فها هو يحدثنا عن أخلاق المريد بقوله « وأكرم أخلاق المريد إكرامه نفسه عن الشر ودناءة الأخلاق وعظيم الهمة بالظفر بما يرضي الله » [1] . وكيف لنا بالظفر بما يرضي الله في حياتنا العملية إن لم نتحل بهذه الأخلاق القرآنية التي دعانا إليها كمثل الدعوة إلى ضبط النفس وكظم الغيظ . وهنا نرى الحارث لا يكتفي بالإشارة إلى هذه الأخلاق القرآنية إشارة عابرة بل نراه يحاول تحليل هذه المعاني الأخلاقية القرآنية تحليلاً عقلياً ليجعل منها « أمراً معقولاً » يقبله العقل بالطبع والغريزة ، وذلك بما يخلع عليها في سياق التحليل من سمو نفسي وترفع عن مواطن الدناءة .

وها هو الحارث يؤكد أننا قادرون أن نتوصل إلى كظم الغيظ الذي دعانا الله تعالى إلى التحلي به ، وذلك عندما تتكون لدينا قناعة عقلية بأن الحلم ليس ذلاً ، وإنما على العكس من ذلك إكرام للنفس وزينة لها ، وعندما يتأكد للانسان ذلك يصبح قادراً على كظم الغيظ « بصبر النفس وحبس الجوارح ، والصبر وحبس الجوارح يأتي عندما يعقل الإنسان أن الحلم زين ، والسفه ذل وشين ... (وإذا كان قد حل في قلبك ضد هذا) فلأنك - كما يقول الحارث - لم تعقل ظاهر قبح السفه فيك ، وحسن ستر الحلم عليك ، وجزيل مثوبة الله لك في آخرتك » [2] .

والجميل في ذلك كله أن الحارث لا يكتفي بتبيان قيمة الحلم وكظم الغيظ من الناحية الأخلاقية والروحية عن طريق تحبيب الحلم إلى نفس الإنسان وإنما نراه يتجاوز ذلك إلى بيان بشاعة المتطاول على الآخرين ، ليس ببيان بشاعته الأخلاقية الخفية فحسب ، وإنما بالإشارة إلى بشاعة مظهره الدالة

---

(١) الاصبهاني - الحلية جـ١٠/ ٩٧ .
(٢) المصدر نفسه - جـ١٠/ ٩٦ .

دلالة واضحة على ما وراء هذا المظهر من سفه ودناءة ، فيقول[1] :

« أما قبيح السفه ، وزوال حسن رد الحلم فبما ترى من أحوال شاتمك ومؤذيك بالغيظ والغضب من لونه ،وفتح عينيه ، وحمرة وجهه ، وانقلاب عينيه ، وكراهية منظره، واستخفافه بنفسه ، وزوال السكينة والوقار عن بدنه ، فأنت تبَيّنُ ذلك منه ، ويراه كل عاقل من فاعله. فإذا بُليت بذلك فاذكر ما أعد الله سبحانه وتعالى للكاظمين الغيظ من إيجاب محبته » .

وللحارث أقوال في الدعوة إلى التحلي بأخلاق القرآن فهو يقول « حسن الخلق احتمال الأذى ، وقلة الغضب ، وبسط الوجه ، وطيب الكلام » . ويقول « الظالم نادم وإن مدحه الناس . والمظلوم سالم وإن ذمه الناس ، والقانع غني وإن جاع ، والحريص فقير وإن ملك »[2] . وقوله : « فقدنا ثلاثة أشياء : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الأمانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء »[3] .

وإذا كانت الأخلاق عند الحارث مبنية على حسن معاملة الآخرين فذلك لأن الله تعالى قال « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم »[4] .

وهنا تأتي المحاسبة لتكون لدى الحارث ركن الأخلاق الأول. يقول الحارث « قال الله وهو أحسن القائلين في وصف أوليائه الخائفين : إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ، والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ... إلى قوله وهم لها سابقون ... فوصفهم بسبع مقامات جامعات بالغات تنتظم بمقامات أهل المحاسبة ، وتستحوذ على معاني أحوال أهل المراقبة افتتحها بالخشية والإشفاق ، وختمها بالوجل والإنفاق وجعل موجبها اليقين »[5] .

---

(١) الحلية جـ ١/٩٦ .
(٢) السلمي : طبقات الصوفية ٥٦ - ٦٠ .
(٣) القشيري : الرسالة ٤٩٥ .
(٤) سورة الزلزلة : ٦ .
(٥) المكي - ابو طالب - قوت القلوب ٧٨ .

وإذا كانت المحاسبة عماد الأخلاق فإن المراقبة تعتبر من مستلزمات المحاسبة . وللمراقبة عند الحارث وجوه كثيرة فقد سئل الحارث عن المراقبة لله وعن المراقب ربه فقال : «إن المراقبة تكون على ثلاث خلال .وعلى قدر عقل العاقلين ومعرفتهم بربهم ، يفترقون في ذلك :

فإحدى الثلاث الخوف من الله ،

والخلة الثانية الحياء من الله .

والخلة الثالثة الحب لله .

فأما الخائف فمراقب بشدة حذر من الله تعالى ، وغلبة فزع ، وأما المستحيي من الله فمراقب بشدة انكسار ، وغلبة إخبات ، وأما المحب فمراقب بشدة سرور ، وغلبة نشاط ، وسخاء نفس مع إشفاق لا يفارقه ، ولن تكاد أن تخلو قلوب المراقبين من ذكر اطلاع الرقيب بشدة حذر من قلوبهم أن يراهم غافلين عن مراقبته »[1].

ونحن إذا أضفنا إلى ذلك بعض أقوال الحارث كقوله « العلم يورث المخافة ، والزهد يورث الراحة ، والمعرفة تورث الإنابة... وأصل الطاعة الورع ، وأصل الورع التقوى ، وأصل التقوى محاسبة النفس ، وأصل محاسبتها الخوف والرجاء ، وأصلها معرفة الوعد والوعيد » [2] .

وسئل الحارث بم تحاسب النفس ؟ فقال : بقيام العقل على دراية جناية النفس ، فيفقد زيادتها من نقصانها ، فقيل له : وبم تتولد المحاسبة ؟ قال : من مخاوف النقص وشين البخس والرغبة في زيادة الأرباح. والمحاسبة تورث الزيادة في البصيرة ، والكيس في الفطنة ، والسرعة إلى إثبات الحجة ، واتساع المعرفة ، وكل ذلك على قدر لزوم القلب للتفتيش » [3] . أقول إننا إذا أضفنا مثل

---

(١) الأصبهاني : حلية الأولياء جـ١٠/٩٣ .

(٢) المناوي : الكواكب الدرية ٢١٩ .

(٣) الأصبهاني : حلية الأولياء جـ١٠/٨٨ .

هذه الأقوال إلى ما سبق فإن ظاهرة توليد المعاني الخلقية بعضها من البعض الآخر على النحو الذي أشار إليه « ماسينيون » تبدو لنا في هذا المجال الخلقي عند الحارث واضحة جلية .

فمحاسبة النفس إذن ، التي هي أساس الأخلاق ، إنما تعود إلى الخوف والرجاء وأصلها معرفة الوعد والوعيد ، غير أن معرفة الوعد والوعيد تقتضي « فهم القرآن » من هذه الناحية بالذات ، لذلك نرى الحارث يقول في كتابه وهو يتحدث عن الخوف كيف يكون فيقول : « وفهموا منه شدة إجهادهم يوم القيامة ففزعوا وذكروا به السؤال عند الله ... فتابوا ... وتطهروا ... وأخلصوا له النيات... فاستعدوا بالقرآن للعرض والسؤال ... وإنّ وجل الذين أوتوا العلم من قبلنا ومخافتهم كانت عند فهم آياته في كتابه ، وتدبر قوله » .

وإذا كانت معرفة آيات الله وما وعد وتوعد تورث الخوف ، والخوف يورث المحاسبة ، والمحاسبة تؤدي إلى المراقبة ، ومن المراقبة تتولد المعاني الأخلاقية التي أشرنا إليها كالمحبة والصدق والإخلاص . نقول إنه إذا كان الأمر كذلك فإننا نستطيع أن نستخلص من ذلك كله مذهباً للحارث يمكن أن نطلق عليه « مذهب العقل العملي » لدى الحارث ويتلخص ذلك بدعوة المحاسبي إلى إيجاد قاعدة حياتية علينا أن نلتزم بها في كل تصرف نقوم به .

هذه القاعدة التي يدعونا الحارث إلى الالتزام بها هي ضرورة الخضوع للواجب ، والواجب هنا ليس واجباً عقلياً مجرداً ، إنما هو ، مرة أخرى ، واجب إسلامي وقرآني ، لأنه واجب الطاعة لله ، وذلك لا يكون إلا برعاية حقوق الله في تصرفاتنا وسلوكنا ، هذه الحقوق كما جاءت في كتاب الله من خلال ما أمر به ونهى عنه ، وكما جاءت أيضاً في سنة نبيه .

وهذه القاعدة كما يقول « ماسينيون » سوف تؤدي إلى نتيجتين :

اولاهما : التمييز بين العقل من ناحية وبين المعرفة من ناحية اخرى .

فالمعرفة من خلال هذا التمييز هي أمر نظري مجرد ولا علاقة لها بالعمل ، وكل ما ليس له علاقة بالعمل هو أمر غير معقول . أما العقل من خلال هذا التمييز المحاسبي فهو معرفة إيضاً ، والمعقول وحده هو ما كان معقولاً من الناحية العملية والتطبيقية .

وثانيتهما : التفرقة بين الإيمان من ناحية وبين المعرفة من ناحية اخرى ، ذلك أن المعرفة بالله وأحكام الله والعمل بمقتضى هذه الأحكام ليس من الضروري أن يكون مقبولاً عند الله ، ذلك أن الإيمان وحده وما يصدر عنه من أفعال هو وحده الذي يمكن أن يكون مقبولاً من الله ، وهنا تكون التفرقة على أساس مفاضلة الإيمان على المعرفة ، قد قامت لقيام الإيمان على الورع وهو عملي ، وقيام المعرفة على التأمل وهو نظري .

إن الإنسان إذا كان هذا شأنه في العقل ، وفي فهم القرآن فإنه لا محالة واصل إلى السعادة التي يرجو وإلى مشاهدة ربه الذي يتطلع شوقاً إلى لقائه. بذلك يقول الحارث في كتابه « الفهم » « فإذا أحضرت عقلك بجميع همك، بنية صادقة مع أمل ورجاء ، وأن تنال ما قال ، وتسارع إلى محابّه وتتجنب مساخطه ... أقبل عليك بلطفه ، وولي تقويم عقلك لفهم كلامه وما فيه من علم الغيوب ... فما زال (ذلك) دأب العاقلين عند ربهم عز وجل لأنه ربيع قلوب المؤمنين ، وراحة الراجين ، ومستراح المحزونين ... وكذلك إذا أقبل على الله تعالى وذكره بطلب الفهم ، أسرع (الله) إليه بالإفهام له ... وفهم كتاب الله يورثه النفس الثابت في القلب ، فإذا ثبت فكأنه يعاين ربه جل وعز ، ووعده ووعيده » .

أثر مذهبه العقلي في الفكر الاسلامي :

ربما كان مذهب الحارث العقلي هذا أعظم اتجاهاته أثراً في الفكر الإسلامي لطرافة موضوعه ، وقوة حجته ، ونزعته الكلامية التي تبناها

أهل السنة اتباع المدرسة الأشعرية فيما بعد ، عندما احتاجوا إلى كتب الأسلاف فيها . وفيما يلي محاولة لبيان مدى هذا الأثر :

١ - **ألف الكندي رسالة في العقل** (- ٢٥٢ هـ)[١] . لخص فيها أقوال قدامى الفلاسفة وتصرف فيها بعض الشيء ، ومع أنه لا اتفاق بين مضموني الرسالتين المحاسبية والكندية ، فربما كان من المفيد التحقيق فيمن يكون السابق إلى تأليف رسالته أولاً . وربما كان الكندي سابقاً في ذلك ، لأنها من أول ما ألف من رسائل على ما يظهر من طريقته في العرض ، وإن كنا لا نستطيع أن نجزم بذلك . وقد أوضحنا سابقاً النقطة التي التقى فيها الكندي بالحارث .

وفي رسائل الكندي رسالة موجهة إلى علي بن الجهم في الإجابة عن سؤال له في (وحدانية الله وتناهي جرم العالم) [٢] ، ومعروف عن ابن الجهم أنه كان يظهر التسنن ، وقاسى طويلاً من مكائد المعتزلة في بلاط المتوكل (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ) فربما كان سؤاله للكندي الذي كان يحضر مجالس كبار رجال الدولة والخلفاء ، من قبيل محاولة التحقق من صحة التهمة القائلة بأن الفلاسفة زنادقة لأنهم يقولون بقدم العالم وغير ذلك من الأقاويل الغريبة عن الإسلام . وربما كان بينهما ما يشبه المناظرة ، فألف الكندي نتيجة لها رسالة في توضيح بعض الأمور التي كانت غامضة في نظر ابن الجهم . ويدل هذا على وجود صلات بين السنيين والكندي ، وإن كنا لا نستطيع أن نثبت وجود صلة بين المحاسبي والكندي ، فربما ألف المحاسبي رسالته في العقل كرد على رسالة الكندي ، باعتبارها نهجاً إسلامياً للبحث العقلي ، مقابل النهج الفلسفي اليوناني الذي تبناه الكندي وألف فيه .

٢ - **سري السقطي** (-٢٥١ هـ) وهو إمام البغداديين وشيخهم في وقته ، كان زميلاً للمحاسبي ، سئل عن العقل فقال : ما قامت به الحجة على مأمور

---

(١) رسائل الكندي ٣١٢ (٢) رسائل الكندي ٢٠١ .

ومنهجي . لقد أخذ من العقل المحاسبي جانباً من جوانبه ، ذلك الذي يعقل الخبر القاهر[1] .

٣ – **أحمد بن عاصم الانطاكي** : قال الأستاذ لويس ماسينيون : ان الانطاكي سبق المحاسبي ورأى أن المحاسبي تأثر بالانطاكي للأسباب الآتية :

* كلاهما كتب في علم القلوب والمعاملات .

* كلاهما يقابل العقل بالهوى .

* كلاهما يرى الإسلام غريباً في زمانه .

لكن البحث النقدي يدل على أن الانطاكي كان مدة من الزمن مريداً للمحاسبي فنقل عنه كتاب الخلوة ، وكتاب دواء داء القلوب . فلم يكن الانطاكي على ما نعتقد هو الممهد لنظرية العقل وإن عبر عن أفكار مشابهة كقوله : « أنفع العقل ما عرفك نعم الله عليك ، وأعانك على شكرها ، وقام بخلاف الهوى . والعاقل من عقل عن الله عز وجل مواعظه، وعرف ما يفيده وما يضره » وهي فكرة محاسبية تماماً ، مع ملاحظة الخصيصة الاسلوبية المحاسبية في عبارته : « عقل عن الله عز وجل مواعظه ».

٤ – **أبو حفص الحداد** (– ٢٧٠ ﻫ) وكان شيخ الملامتية بنيسابور . سئل عن العاقل ما هو ؟ فقال: « المطالب نفسه بالإخلاص . والمطالب نفسه هو المحاسب لها ، والمراقب لأعمالها بالعقل العاقل عن الله » وعن هذه المراقبة تحدث الحارث طويلاً . وقد بينا سابقاً قرابة التفكير بين المحاسبي والملامتية[2] .

٥ – **ابن أبي الدنيا** (– ٢٨١ ﻫ) : الواعظ المعروف ألف كتاب « العقل وفضله » جمع فيه أقوالاً للصحابة والتابعين في العقل . بينه وبين

---

(١) الطبقات الكبرى ١٣٥ .
(٢) الطبقات الكبرى ١١٥ .

الحارث قرابتان : زمنية إذ أنه يكاد يكون معاصراً له . وفكرية ، إذ أنه كان زاهداً وواعظاً معروفاً ، ويشكل كتابه محاولة منهجية لجمع التراث المتناثر في العقل ليكون سداً في وجه نظريات المعتزلة وفلاسفة الإسلام .

٦ — **ابن مسروق** (— ٢٩٨ ﻫ) : تلميذ المحاسبي نراه يقول : « من لم يحترز بعقله من عقله لعقله هلك بعقله » [١] . والاحتراز هو المراقبة . وقد تحدث المحاسبي في كتابه عن اولئك الذين يفهمون ولا يعملون فيضلون كبراً وعناداً واتباعاً للهوى . وفي عبارة ابن مسروق نزعة محاسبية شديدة الوضوح .

٧ — **يوسف بن الحسين الرازي** (— ٣٠٤ ﻫ) قال بأن « اصل العقل الصمت ، وباطن العقل ، كتمان السر ، وظاهر العقل الاقتداء بالسنة » [٢] . وملحوظ ما بين رأيه ورأي المحاسبي من فرق ، فأصل العقل عنده الصمت والدليل الأول على العقل عند المحاسبي النطق ، وربما كان مذاق الرازي في هذه العبارة مذاقاً صوفياً.

أما أن ظاهر العقل الاقتداء بالسنة فهو ما يقول به المحاسبي . إلا أنه لا يقول بباطن يُحفظ سراً ، ليتبع غيره في الظاهر . وهذه نزعة فلسفية باطنية تتصل بمفهوم الشريعة والحقيقة عند الصوفية ذلك الوقت . هذه النزعة بريء منها المحاسبي الذي زان ظاهره وباطنه بميزان الشرع .

٨ — **قدامة بن جعفر** (— ٣٣٧ ﻫ) قال : « العقل قسمان : موهوب ومكسوب ، فالموهوب خلقه الله .

والمكسوب ما يستفاد من التجربة والعبر والأدب والنظر .

العقل هو الغريزة مع الخبرة والتجربة . أما الذين يقتصرون على العقل الغريزي دونما شحذ له بالأدب والتفكير والتمييز فهم كالأنعام . إلا أن

---

(١) طبقات الصوفية ٥١ ، والرسالة ج١/١٣١ .

(٢) طبقات الصوفية ١٨٩ .

الموهوب أصل ، والمكسوب فرع ، والأشياء بأصولها ، فإذا صح الأصل صح الفرع ، وإذا فسد فسد.

وقد شبه بعض القدماء العقل الغريزي بالبدن وشبه المكتسَب بالغذاء .

ومع أنه مشهور أن قدامة متأثر إلى حد كبير بالفكر اليوناني . فظاهرة التشابه بين حديثه عن العقل وحديث المحاسبي عنه تسترعي النظر[1] . فالحارث هو القائل أن العقل نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم . وهو يشبه المقتصرين على العقل الغريزي بالأنعام ، مستشهداً في ذلك بالآية الكريمة : « إن هم إلا كالأنعام ... » .

٩ ـ **جعفر الخلدي** (ـ ٣٤٨ هـ) : وهو ممن روى عن المحاسبي وكتب عنه ، قال : « العقل ما يبعدك عن مراتع الهلكة [2] ، وهذا هو العقل القامع الذي قال المحاسبي بما يشبهه . وقال : إن العقل الصحيح هو الذي يعرف ما ينفع وما يضر .

١٠ ـ **الجويني**: (ـ ٤٧٨ هـ) : نقل السبكي رأي إمام الحرمين في كتاب المحاسبي هذا فقال : « قال إمام الحرمين في البرهان عند الكلام في تعريف العقل : (وما حوم عليه أحد من علمائنا غير الحارث ، فإنه قال : العقل غريزة يتأتى بها درك العلوم وليست منها . وقد ارتضى الإمام كلام الحارث هذا كما ترى ، وقال عقيبه : انه صفة إذا ثبتت ، بها التوصل إلى العلوم النظرية ومقدماتها من الضروريات التي هي مستند النظريات وهي منه بناء على أن العقل ليس بعلم ، والمعزو إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري أنه العلم . وقال القاضي أبو بكر ـ الباقلاني ـ أنه بعض العلوم الضرورية) والإمام حكى في الشامل مقالة الحارث هذه التي استحسنها في البرهان ، وقال :(إنا لا نرضاها ونتهم فيها النقلة عنه ، ثم قال : ولو صح النقل عنه فمعناه أن العقل ليس بمعرفة الله تعالى ، وهو إذا أطلق المعرفة أراد بها معرفة الله

---

(١) نقد النثر ٤ ـ ٥ .

(٢) طبقات الشافعية الكبرى جـ٢/٢٣٨ .

فكأنه قال : ليس العقل بنفسه بمعرفة الله تعالى ولكنه غريزة ، وعنى بالغريزة أنه عالم لأمر جبل الله عليه العاقل ويُتوصل به إلى معرفة الله) . انتهى كلامه في الشامل . والمنقول عن الحارث ثابت عنه . وقد نص عليه في كتاب الرعاية وكان إمام الحرمين قد نظر كلام الحارث بعد ذلك ثم لاحت له صحته بعدما كان لايرضاه .

واعلم ـ والكلام للسبكي ـ أنه ليس في ارتضاء مذهب الحارث واعتقاده ما يُنتقد ، ولا يلزمه قول بالطبائع ولا شيء من مقالات الفلاسفة كما ظنه بعض شراح كتاب البرهان . وقد قررنا ذلك في غير هذا الموضع، وقول إمام الحرمين أنه أراد معرفة الله ممنوع ، فقد قدمنا عن الحارث بالاسناد قوله : « انه نور الغريزة يقوى ويزيد بالتقوى . نعم الحارث لا يريد بكونه نوراً ما تدّعيه عليه الفلاسفة » [(١)] .

١١ ـ **أبو حامد الغزالي** (ـ ٥٠٥ هـ) : وهو شديد التأثر بكتاب الحارث في العقل . وقد ذكر من الأحاديث الغريبة قدراً كبيراً زاد فيه على ما ذكره الحارث ... مثل حديث « لكل شيء عدة ... » و « لكل شي دعامة » .. و« أتمكم عقلاً أشدكم لله تعالى خوفاً » ، و «نور السموات والأرض العقل » .

فشرف العقل مدرك بالضرورة .

ثم قال : « ان العقل يطلق على أربعة معان :

« **فالأول** : الوصف الذي يفارق الإنسان به سائر البهائم وهو الذي استعد به لقبول العلوم النظرية ، وتدبير الصناعات الخفية الفكرية وهو الذي أراده الحرث بن أسد المحاسبي حيث قال في حد العقل : انه غريزة يتهيأ بها إدراك العلوم النظرية ، وكأنه نور يقذف في القلب به ، ولم ينصف من

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى جـ٢/ ٢٠ .

أنكر هذا ورد العقل إلى مجرد العلوم الضرورية فإن الغافل عن العلوم والنائم يسميان عاقلين باعتبار وجود هذه الغريزة فيهما مع فقد العلوم . الخ ...

الثاني : هي العلوم التي تخرج إلى الوجود في ذات الطفل المميز بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد وأن الشخص الواحد لا يكون في مكانين في وقت واحد . وهو الذي عناه بعض المتكلمين حيث قال في حد العقل إنه بعض العلوم الضرورية كالعلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات ، وهو أيضاً صحيح في نفسه لأن هذه العلوم موجودة وتسميتها عقلاً ظاهر وإنما الفاسد أن تنكر تلك الغريزة ويقال : لا موجود إلا تلك العلوم .

الثالث : علوم تستفاد من التجارب بمجاري الأحوال فإن حنكته التجارب وهذبته المذاهب يقال إنه عاقل في العادة ومن لا يتصف بهذه الصفة فيقال إنه غبي غمر جاهل فهذا نوع آخر من العلوم يسمى عقلاً .

الرابع : أن تنتهي قوة هذه الغريزة إلى أن يعرف عواقب الأمور ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً من حيث إقدامه وإحجامه بحسب ما يقتضيه النظر في العواقب لا بحكم الشهوة العاجلة ، وهذه أيضاً من خواص الإنسان التي مر بها يتميز عن سائر الحيوان .

فالأول هو الأس والسنخ والمنبع ، والثاني هو الفرع والأقرب إليه ، والثالث فرع الأول والثاني ، إذ بقوة الغريزة والعلوم الضرورية تستفاد علوم التجارب. والرابع هو الثمرة الأخيرة وهي الغاية القصوى ، فالأولان بالطبع والأخيران بالاكتساب .

والمقصود أن هذه الأقسام الأربعة موجودة والإسم مطلق على جميعها ولا خلاف في وجود جميعها إلا في القسم الأول والصحيح وجودها بل هي الأصل وهذه العلوم كأنها مضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ولكن تظهر في الوجود

إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود »[1] .

وهكذا نرى مدى تأثر الغزالي بوضوح وصراحة بمذهب الحـــارث في العقل ، ونرى الغزالي ينقل في كثير من المواطن الـــتي مرت رأي المحاسبي بحذافيره مع عدم تغييره حتى في الألفاظ فهو يذكر الأحاديث التي ذكرها الحارث ويزيد عليها ، وهو يقول عن العقل انه نور الغزيرة كما قال الحارث في (العقل) لكنه ينقل عن (الوصايا) عن « شرف العقل »[2] . وينقل عن كتاب للحارث لا نعرفــه كلامـــاً ورد مثله في كتاب العقل في المعنى نفسه . ويقسم العقل إلى أربعة أقسام يتولد بعضها عن بعض حتى يبلغ المرء (مرحله العقل الكامل عن الله) وهي التي سميناها مرحـلة (الاستبصار) . وكل ذلك للحارث . وليس للغزالي إلا البسط وزيادة الدقة في التقسيم . وقد ذكر هو نفسه أن الرأي للحارث .

ومما له دلالته أنه قال في منقذه (وقرأت كتب الحارث المحاسبي) ، مما يدل على أنه قرأ أكثر من كتابين للحارث وربما وصلته كتبه كلها لأنه ينقل فيما نعلم عن الحارث في « الرعاية » و « المكاسب » و « المسائل » و « الوصايا » و « مائية العقل » وعن كتاب آخر للحارث يتحدث فيه عن الموضوع نفسه ولم يصلنا .

١٢ – **أما ابن الجوزي** : (ـ ٥٩٧ هـ) فينقل ما قاله الغزالي كله دون أن يزيد عليه شيئاً تقريباً[3] . ثم يلمس موضعاً هاماً من نظرية المحاسبي لم يعرض له الغزالي ، حين يقول : « يعرف العاقل بسكوته وسكونه ومراقبته للعواقب ، وليس العقل محسوساً وإنما يدل عليه ظاهر قول العاقل وعمله » .

ويقول : « إنما تتبين فضيلة الشيء في ثمرته وفائدته ، وقد عرفت ثمرة

---

(١) الغزالي : احياء علوم الدين ج١/٧٢ – ٧٧ .
(٢) الوصايا ٨٦ .
(٣) الأذكياء ١٠ – ١٥ ، وذم الهوى ٥ – ٨ .

العقل وفائدته ، فإنه هـو الذي دل على الإله ، وأمر بطاعته وامتثال أوامره ».

١٣ – **أما النسفي** (– ٥٧٣ هـ) فبعد أن يذكر أن العقل هـو أداة المعرفة الحقة بعد أن تتدرج من خبر صادق إلى الحواس، فالعقل يقول : «إنه أشرف أدوات المعرفة » ثم يذكر نظرية السبب عند الأشاعرة وينتقل إلى القول :

« هو قوة للنفس بها تستعد للعلوم والإدراكات ، وهو المعـني بقولهم: غريزة يتبعها العلم بالضروريات عند سلامة الآلات » ثم يقسم العقل كما فعل من تأثروا بالمحاسبي جميعاً إلى غزيري واستدلالي [1] .

ومع أن الفترة التي ألف فيها النسفي كتابه في العقائد هي فترةامتزاج علم الكلام بالفلسفة ، فإن النسفي ينقل لا شك عن الغزالي وغـيره ممن تأثروا بالحارث .

١٤ – **وعضد الدين الايجي** (–٧٥٦ هـ) يقول في المواقف : «كرم الله بني آدم بالعقل (الغريزي) أي بالقوة المستعدة لإدراك المعقولات الـتي جعلت عليها فطرتهم ، ويسميه عقلاً هيولانياً ، والعلم الضروري الحاصل لهم بـلا اكتساب والمسمى عقلاً بالملكة ، وجعل الإنسان أهـلاً للاستدلال والارتقاء في مدارج الكمال من الضروريات إلى النظريات، وإذا تكرر ذلك، أصبح الإنسان قادراً على التفكير بلا تجشم عقل بالفعل [2] .

ومع أن الايجي يرتب على مقدمته نتيجة لم يقصد إليها المحاسبي ولم يقل بها لأنها تخرج عن القرآن الذي لم يتحدث عن العقل المجرد . مع ذلك ، فقد كان أثر المحاسبي فيه واضحاً .

ولا يجوز أن نتجاهل في هذا المجال الأثر الفلسفي الذي نوهنا عنه سابقاً

---

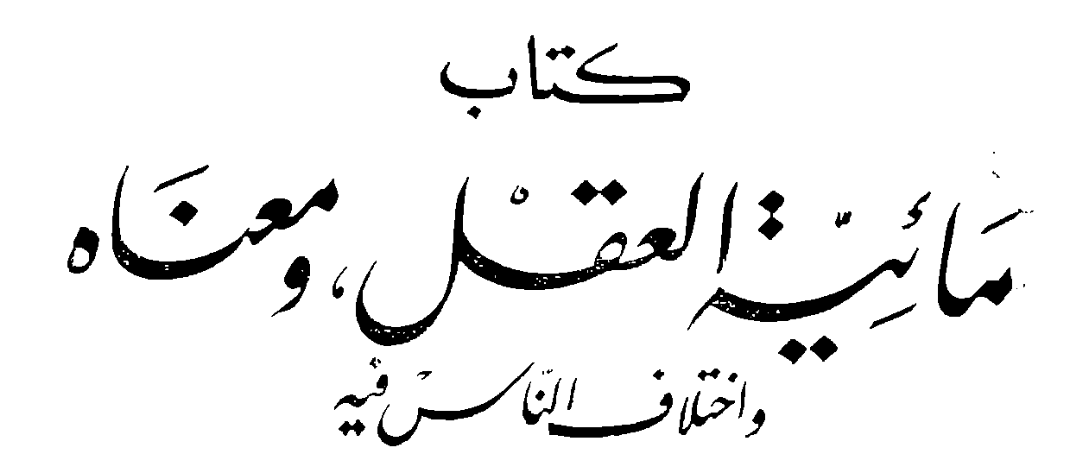
(١) العقائد النسفية ٤٦ – ٦١ . (٢) المواقف العضدية ٢٥ .

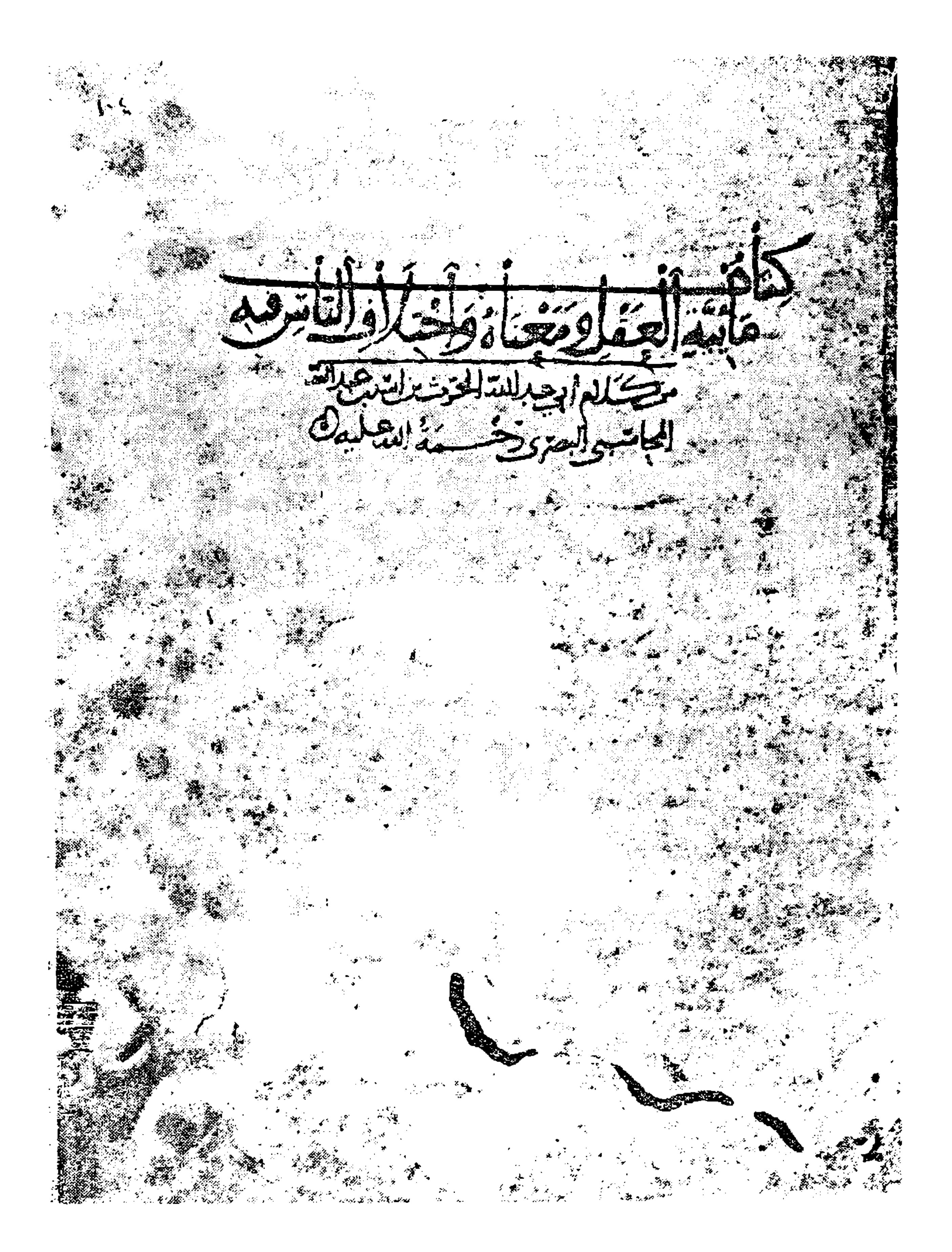
في معرض الحديث عن رأي النسفي ، ذلك الأثر الذي امتزج بعلم الكلام في مؤلفات المتأخرين ، كالنسفي والرازي والايجي والبيضاوي ، فخلطوا آراء الحارث بآراء الفلاسفة وإن بقيت حارثيتها واضحة .

١٥ – **الراغب الأصفهاني** (– ٥٠٠ هـ) : يقول : العقل عقلان ، غريزي : وهو القوة المتهيئة لقبول العلم ووجوده في الطفل كوجود النخلة في النواة ، ومستفاد : وهو الذي تتقوى به تلك القوة .

ثم قسم العقل المستفاد إلى ضروب ، تمشي بتأثره بالغزالي في تقسيمه . وكلمة (مستفاد) أثر من آثار الفلسفة اليونانية في أوساط مدرسة الكندي والفارابي وابن سينا ، تلك التي قويت ، واشتد عودها ، منذ القرن الرابع الهجري . بيد أنه يبقى بعد ذلك كله ، أن أصل التقسيم ، إلى غريزي ، ومكتسب ، هو تقسيم محاسبي ، تلقاه أهل السنة بالقبول ، وذكروه في تعميم على أنه الرأي المرضي ، مع فلسفته ، بإلباسه حلة مشائية مستوردة ، ممزوجة بمادية رواقية ، وغنوصية أفلوطينية في نفس الوقت !!.

بعد هذا التتبع لفكر الحارث في التصوف وعلم الكلام والفلسفة العقلية في كتب المفكرين المسلمين ، وبيان ما في فكره هذا من طرافة وأصالة وعمق . بعد هذا كله نستطيع أن نقول إن الحارث كان من أعظم مفكري الإسلام في مختلف العصور ، وهو أعظمهم في القرن الثالث الهجري على الخصوص وينبغي أن يعتبر مجدد هذا القرن ، وليس ذلك كثيراً على صاحب (الوصايا) و (التوهم) ، و (بدء من أناب إلى الله) و (العقل) ، و (فهم القرآن) و (المكاسب) ، و (الرعاية) .


كتاب
مائية العقل ومعناه
واختلاف الناس فيه


كتاب مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه
من كلام أبي عبد الله الحرث بن اسد بن عبد الله
المحاسبي البصري رحمة الله عليه

غلاف المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم عونك اللهم

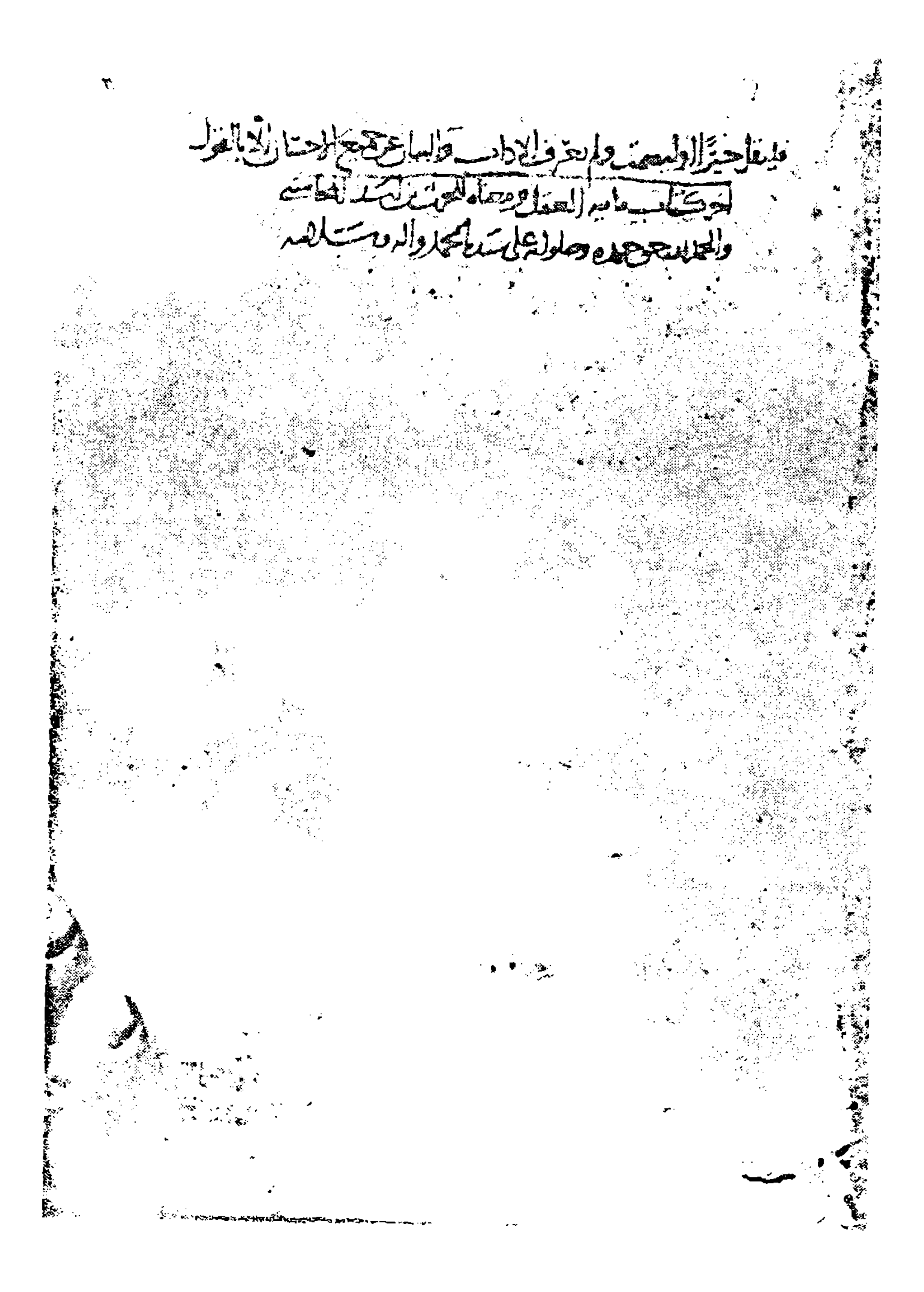
قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي رحمه الله تعالى

باب

مائية العقل وحقيقة معناه

قال: انعت العقل ما هو وإلى أي شيء يرجع في اللغة والمعقول من الكتاب والسنة وما أجمع العلماء منهم بالتسمية [illegible] لا معنى له في الحقيقة والإقرار [illegible] العرب إذا كان عندهم فعلا لا يكون إلا به وقد سماهما الله تعالى في كتابه وسماهما العلماء عقلا. فأما ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره فهو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه لم يطلع عليها العباد بعضهم من بعض ولا اطلعوا عليها من أنفسهم برؤية ولا بحس ولا ذوق ولا طعم وإنما عرفهم الله إياها بالعقل منه فبذلك العقل عرفوه وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعهم ومعرفة ما يضرهم فمن عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنياه عرف أن الله تعالى قد من عليه بالعقل الذي سلبه أهل الجنون وأهل التيه ونقص أكثره الحمقى الذين قلت عقولهم وكذلك معرفة بعضهم من بعض بظاهر أفعال الجوارح فيستدل أنه عاقل [illegible] إذا رأوه [illegible] أنه قد عرف ما ينفعه من دنياه وما يضره إذا رأوه طالبا لما ينفعه من دنياه مجانبا لما يضره من دنياه يسمونه لم يزل كذلك عاقلا ويشهدوا أن له عقلا وأنه لا مجنون ولا تائه ولا أحمق فإن رأوه [illegible] ذلك شهدوا أنه مجنون قد [illegible] من [illegible] أو ذهله وأن المعرفة [illegible] ومضاره فإن رأوه يتبع منافعه ويجانب مضاره [illegible] من الله تعالى بخلاف ذلك سموه [illegible] الكثير خلاف ما

الورقة الأولى من المخطوطة



والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد وآله وسلامه

الورقة الاخيرة من المخطوطة

بسم الله الرحمن الرحيم

عونك اللهم

قال أبو عبد الله الحارث بن أسد بن عبد الله المحاسبي البصري

رحمة الله عليه

باب مائية العقل وحقيقة معناه

سألتَ[1] عن العقل ما هو ؟

واني أرجع اليك في اللغة ، والمعقول من الكتاب والسنة ، وتراجع العلماء (فيما) بينهم بالتسمية ، ثلاثة (معاني)[2] :

أحدها : هو معناه ، لا معنى له غيره في الحقيقة .

والآخران اسمان جوَّزَتْهما العربُ إذ كانا عنه فِعْـلاً ، لا يكونان إلَّا به ومنه ، وقد سَمّاها اللهُ تعالى في كتابه وسَمَّتْها العُلَماءُ عَقْلاً .

فأمَّا ما هو في المعنى في الحقيقة لا غيره : فهو غريزةٌ وضَعَها

---

(١) أشرنا الى أن الجنيد روى عن الحارث أنه كان يطلب منه الخروج معه الى الصحراء حتى اذا ما وصلا الى مكان ناء ، طلب الحارث من الجنيد أن يسأله ، فيسأله الجنيد والحارث يجيب فيصنع الحارث من ذلك كتباً . وهذا جانب من جوانب اسلوب الحارث في بعض كتبه .

(٢) حاولنا من جهتنا ترتيب المقاطع بشكل يسهل ادراك المعنى .

اللهُ سبحانَهُ في أكثرِ خَلْقِهِ لم يَطَّلِع عليها العبادُ بعضُهم من بعض، ولا اطَّلعوا عليها من أنفسِهم برؤْيةٍ، ولا بحسٍّ، ولا ذوقٍ، ولا طَعْمٍ. وإنما عرَّفهم الله (اياها) بالعقل منه.

فبذلك العقل عرفوهُ، وشهدوا عليه بالعقل الذي عرفوه به من أنفسهم بمعرفة ما ينفعُهُمْ ومعرفةِ ما يَضُرُّهُمْ.

فَمَنْ عرف ما ينفعه مما يضره في أمر دنيـــاه، عرف أن الله تعالى قد منَّ عليه بالعقل الذي سلبَ أهل الجنون وأهل التيه، وسلب أكْثَرَهُ الحمقى، الذين قَلَّتْ عقُولُهُمْ.

وكذلك معرفةُ بعضِهم من بعض بظاهِرِ فِعْلِ الجوارح.

فيُستدل أنه عاقل له عقل اذا رأَوْا من أفعالِهِ ما يَدُلُّهُمْ أنه قد عَرَفَ ما ينفعُهُ من دنياهُ وما يَضُرُّهُ، اذا رَأَوْهُ طالباً عاملاً ما ينفعُهُ من دُنياهُ مُجانباً لما يَضُرُّهُ من دنياه. فسموا من كان كذلك عاقـلاً وشهدوا أنَّ له عقلاً وأنه لا مجنون، ولا تايه ولا أحمق.

فإِنْ رأَوْهُ بخلافِ ذلك شَهِدُوا أنه مجنونٌ قد (تغشّا) عَقْلَهُ من الآفةِ ما أذْهَلَهُ، وأزالَ معرفتَهُ بمنافعه ومَضَارِّهِ.

فإن رَأَوهُ يتبعُ منافِعَهُ، ويُجانبُ مضارَّهُ، وفي كثيرٍ من أفعالـــه

يعملُ بِخِلافِ ذلك سَمَّوهُ على قَدْرِ ٱلْكَثْرة بِخِلافِ ما (١٠٥)[1] يفعلُ ٱلْعاقِلونَ أَو لقلته أحمقَ أو مائقاً[2] .

فإنْ كان له وقتٌ تَزُولُ أفعال ٱلْعقل عنه بِصَعْقٍ ، أو تقلُّبٍ للأُمور في القول والفعل سَمَّوهُ مجنوناً في ذلك الوقت ، [illegible] إذا أفاق ، وتجلى ذلك عنه ، وعاد لهيئَتِهِ الأُولى ، من أن تَظْهَرَ منه أفعالُ ٱلْعقل واللبِّ بأسباب ذلك .

إذا سئل أجاب بما يُعقل . ويطلب منافِعَهُ ويجتنبُ مَضَارَّهُ .

وربما تعرض لما يضره في العواقب ، وذلك نافِعٌ له في العاجل ، ضارٌّ له في الآخرة ، فيُسَمَّى عاقلاً • يعنون أن له الغريزة التي هي ضد الحمق والجنون ، وأنه قد نقص عقله للعاقبة بقدر ما تعرض لما ينفعه في العاجل بما يضره في العاقبة .

فالعقل غريزة جعلها الله عز وجل في الممتَحَنين من عباده ، أقام به على البالغين للحلم الحُجَّةَ . وأتاهم خاطب من قبل عقولهم ، ووعد وتوَّعد ، وأَمر ونهى وحضَّ وندب .

---

(١) هذه الأرقام وما يتبعها هي أرقام صفحات المخطوط كما رقمها « المصور » .
(٢) المائق : الهالك حمقاً وغباوة : لسان العرب : ١٢/ ٢٢٧

فهو غريزةٌ لا يُعْرَفُ إلّا بفعاله في القلب والجوارح. لا يَقْدِرُ أَحَدٌ أن يَصِفَهُ في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله.

لا يقدر أن يصفه بجسمية، ولا بطول، ولا بعرض، ولا طعم، ولا شم، ولا مجسة، ولا لون، ولا يُعْرَفُ إلّا بأفعاله.

وقال قومٌ من المتكلمين: هو صفوةُ الروح، أي خالص الروح.

واحتجوا باللغة فقالوا: لُبُّ كل شيء خالصُه. فمن أجل ذلك سُمِّيَ العقل لُبّاً. وقال الله عز وجل «إنما يتذكر اولوا الألباب»[1] يعني اولي العقول.

ولا نقول ذلك إذا لم نجد فيه كتاباً مسطوراً، ولا حديثاً مأثوراً.

وقال قوم: هو نورٌ وضعه الله طَبعاً وغريزةً، يُبْصَرُ به، ويُعبَّرُ به.

نورٌ في القلب كالنور في العين، وهو البصر.

فالعقل نور في القلب، والبصر نور في العين.

---

(١) سورة الزمر: آية ٩.

فالعقل غريزة يولد العبد بها ثم يزيد فيه معنى بعد معنى بالمعرفة بالأَسباب الدَّالَّةِ على المعقول .

وقد زعم قومٌ أن العقل معرفةٌ نظمها الله ووضعها في عبـــاده يزيدُ ويَتَّسِع بالعلم المكتَسَبِ (١٠٦) الدَّالِّ على النافع والمَضَارِّ .

والذي هو عندنا أنه غريزة ، والمعرفة عنه تكون .

وكذلك الجنون والحمق لا يُسَمَّى نكرة لأَنه لو كان المعرفة هو العقل ، سُمِّيَ الجنون نكرة ، والحمق نكرة ، لأَن النكرة ضد المعرفة والجهل ضد العلم .

فلما امتنع أَهل العلم أَن يسموا المجنون منكراً جاهلاً ، ولا يسمون المنكر ، مجنوناً ، والجاهـــل مجنوناً وقالوا بأنه مجنون صَحَّ ما قُلْناهُ .

ومِمَّا يدل على أَن العقل هو الغريزة التي (بها) عَرَفَ فأَقَرَّ ، وعَرَفَ فأَنكر ، أَو ظَنَّ فأَنكر ، لأَن الإِنكار فعل ، فكذلك ضـــد المعرفة فعل .

فمنه فعل عن طبع يوجبه الطبع (كالضرة) [1] ، كمعرفـــة

---

(١) يقصد الضرورة . يعني ان هذه المعرفة تأتي نتيجة ضرورية لكون العقل غريزة .

الرجل نفسَهُ ، وأَباه ، وأُمَّه ، والسماءَ ، والأَرضَ ، وجميعَ الأَشياء التي تُشَاهَدُ .

ولولا الاستدلال بالعلم الذي سمعه من أَسماءِ الأَشياء ثم رأى الأَشياء ، لعرفها بروْيا ولم يعرفها باسم ولا تفصيل بين معانيها .

أَوَلم تستمِعْ إلى ما وصف الله تعالى ملائكته ، إِذ سأَلَهُمْ أَن يُخْبِرُوهُ بأَسماءِ الأَشياءِ فقالوا : لا علم لنا . فأَمر آدمَ عليه السلامُ فأخبرهم[1] بها لأنه عَلَّمَهُ الأَشياءَ .

فلم يعرف عاقل أَسماء الأَشياء إلا بالتعليم منذ هو طفل لمــــا يسمع ويرى . عرف بعقله الأَشياء ، وفَصَّلَ بين معانيها .

فكُلُّ بالغٍ من الجِنِّ والانْس من الذكورِ والاناثِ ممن أمره اللهُ تعالى ونهاهُ ووعده وتوعَّدَهُ بإرسال النُذُر ، وإنزالِ الكُتُب ، وآثارِ آياتِ التدبير فَحُجَّةُ العقل لازمةٌ له ، إذ أَنعم الله سبحانــه بالعقل عليه ، ومعرفة البيان (ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من َحيَّ عن بينة[2] ، وإن الله لسميع عليم) . (وما كان الله لِيُضِلَّ قوماً بعد إذ

---

(١) يريد الاشارة الى الآية ٤٣ من سورة البقرة .

(٢) سورة الأنفال: آية: ٤٢ .

هَدَاهُمْ حتى يُبَيِّنَ لهم ما يتقون)[١] .

أَوَ لا تراهُ يقولُ عَزَّ وَجَلَّ . (وأَمَّا ثمودُ فهديناهم)[٢] يعني بيَّنا لهم ما (يعقلوه) بعقولهم إن تدبَّرُوا ذلك . فقال عز وجل : (فاستحبُّوا العمى على الهدى) .

فإنما خاطب الله العباد مِنْ قِبَلِ أَلْبَابِهِمْ ، واحتَجَّ عليهم بما رَكَّبَ فيهم من عقولهم ، وما اللهُ بِظَلَّامٍ للعبيد .

ومع هذا فإنه قد يحض بالتنبيه والتوفيق مَنْ يشاءُ من عباده ، ويختصُّ بجواره مَنْ أَحبَّ مِنْ خَلْقِهِ .

إِلَّا أَنَّ أَبْيَنَ الأَشياءِ هذه قبل الجهر باللسان . فإنه قال عز وجل : (ومن الناس مَنْ يُعْجِبُكَ قولُهُ في الحياة الدنيا)[٣] .

وهذا قبل أَن يَخْبُرَهُ .

وقال خالد بن صفوان[٤] : لولا التبيان لكان المرء بهيمة مهمَلة أَوصورةً ممثَّلة.

وقال الشاعر :

---

(١) سورة التوبة: آية ١١٥ . (٢) سورة فصلت :اية ١٧ .

(٣) سورة البقرة :اية : ٢٠٤ .

(٤) أحد خطباء العرب وبلغائهم المعروفين . له أخبار مع هشام بن عبد الملك وأبي العباس السفاح .

وفي الصمت سترٌ للعيِّ يوماً وإنما صحيفة لُبِّ المرءِ أَنْ يتكلَّما

وأَما الاثنتان اللتان جوَّزَتْهما اللُّغَةُ في الكتاب، والسنةِ، وتراجعِ أَهْلِ المَعْرِفَةِ فيما بينهم بالتسمية فجوَّزَتْهما اللُّغَةُ على حقيقةِ المعنى بأَنْ سمَّتْهما عقلاً، إِذ كانا عن العقل لا عَنْ غيرِهِ.

فإِحداهُما الفهمُ لإِصابةِ المعنى؛ وهو البيان لكل ما سَمِعَ من الدنيا والدين أَو مَسَّ أَو ذاق، أَو شَمَّ؛ فسمَّاهُ الخَلْقُ عقلاً، وسمَّوا فاعِلَهُ عاقلاً.

وقد رُوي في التفسير لما قال الله تعالى لموسى عليه السلام: «فاستمع لما يوحى»[1] قيل: اعقِلْ ما أقول لك.

وهذه خصلةٌ يشتركُ فيها أَهلُ غريزةِ العقل التي خلقها الله فيهم، من أَهل الهدى، وأَهل الضلالة، من بعض أَهل الكتاب لِما تقدَّمَ عندهم من أَهل الدين.

ويجتمعُ عليها أَهْلُ كُلِّ إِيمانٍ وضلالٍ في أُمور الدنيا خاصةً، والمطيع والعاصي، وهو فَهْمُ البيان.

وقال الله عز وجل في ما يَعِيبُ به أَهْلَ الكتاب، فقال:

(١) سورة طه: اية ١٣. الأصل « استمع ».

« يَسْمَعُونَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونه مِنْ بَعْدِ مـا عَقَلُوهُ وهُم يَعْلَمُونَ »[1] .

وقال عز وجل : « يَعْرِفونَهُ كما يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ »[2] .

وقال : « يعلمون أنه الحق من ربهم »[3] .

وقال : « يعلمون أنه منزل من ربك بالحق »[4]

فالفهم والبيان يسمى عقلاً لأنه عن العقل كان .

فيقول الرجل للرجل :

أَعقَلْتَ ما رأيتَ أو سمعت ؟

فيقول نعم . يَعني اني قد فهمْتُ وتبيَّنْتُ .

والعرب إنما سَمَّتِ الفَهْمَ عقلاً لأَنَّ ما فهِمْتَهُ فقـد قَيَّدْتَـهُ بعَقْلِكَ وضبَطْتَهُ كما البَعيرُ قد عُقِلَ. (أي)[5] أنك قد قيَّدت ساقه إلى فَخذَيهِ .

وقالوا . اعتقل لسان فلان ، أي استمسك .

---

(١) البقرة : ٧٥ . (٢) البقرة : ١٤٦ .

(٣) البقرة : ٢٦ و ١٤٤ والاصل (من ربك) .

(٤) الانعام : ١١٤ . (٥) زدناها لاقامة المعنى ، واستواء الجملة .

ويقال اعقل شاتك إذا (حبستَها)[1] . وهو أَن يضع (رجلَه) بين (نوفِها) وفخذ(ها)[2] ، (ويقال) : اعتقــل رجــل فلانٍ إذا (صارعه) .

والمعنى الثالث : هو البصيرة، والمعرفة . بتعظيمِ قَدْرِ الأَشياءِ النافعةِ والضارة (١٠٧) في الدنيا والآخرة . ومنه العَقْــلُ عن اللّٰه تعالى .

فمن ذلك أَن تَعْظُمَ معرفتُهُ وبصيرتُهُ بعظيمِ قَدْرِ اللّٰه تعالى وبِقَدْرِ نِعَمِهِ وإِحسانِهِ ، وبِعَظيمِ قَدْرِ ثوابِهِ وعِقَابِهِ ليَنالَ بــه النَّجَاةَ من العِقَابِ ، وَالظَفَرَ بالثَوابِ .

فإذا كان للّٰهِ مُعَظِّماً ، كان للّٰهِ مُجِلّاً هايباً .

وإذا كان للّٰهِ مُجِلّاً هايباً ، كان منه مُسْتَحِياً ، وإلى طاعتِهِ مُسَارِعاً ، ولِمساخطِهِ مُجانِباً .

وإذا كان مُعَظِّماً لما ينَالُ به النَّجاةَ من العِقَابِ والظَفَرَ بالثَوابِ عُنِيَ بطَلَبِ العِلْمِ ، ورغِبَ في الفَهْمِ . وَالْعَقْلُ عن اللّٰهِ عزَّ وجلَّ أَكْثَرُ همَّتِهِ .

---

(١) في الأصل (حبتها) .

(٢) في الأصل : رجلها ، ونافيته ، وفخذ . والتصحيح استناداً إلى لسان العرب ١٢/٢٥٨ وتاج العروس ٦/٢٦٣ ، إذ ورد فيهما : النوف : أسفل الذنب لزيادته وطوله عن كراع .

وإذا عُنِيَ بطلب العلم بِذلك استَدَلَّ به على عِظَمِ قَدْرِ المولى؛ وقَدْرِ ثَوَابِهِ وعِقَابِهِ .

وإذا استَدَلَّ على ذلك أَبْصَرَ ، وفَهِمَ حقَائِقَ معاني البيان .

فإذا فَهِمَ عَقَلَ عظيمَ قَدْرِ اللهِ تعالى — وعرضه على الله سبحانه — وعقابَهُ وثَوَابَهُ .

وإذا عَظَّمَ قَدْرَ ذلك هابَ اللهَ ، وفَرِقَ ورَجَا ، ورغب واشتاقَ فكَأَنَّما يُعاينُ ذَلك كرأْيِ العَيْنِ ، فكان عن الله تعالى عاقلاً ، وسُمِّيَ ذلك منه عقلاً ؛ إذ كان بالعقل طَلَبَ ذلك وبالعقلِ فَهِمَ ذلك، وبالعقل لَزِمَ ذَلِك ، وبالعقلِ جَانَبَ ما يُزِيلُهُ عن ذلك .

فهذا الذي عَقَلَ عن رَبِّهِ .

أَلَم تسمعه[1] عَزَّ وجَلَّ يقولُ (وَتَعِيَهَا أُذُنٌ واعية)[2] . قال : أُذُنٌ عَقَلَتْ عن اللهِ تعالى . يعني عَقَلَ عن اللهِ ما سَمِعَتْ أُذُنَاهُ ، مما قال وأَخبر .

---

(١) المتحدث هنا هو المحاسبي نفسه ، لأن جل كتبه – كما ذكر الجنيد – كانت بصيغة « قال وقلت » على أساس أسئلة تطرح ويجيب عنها الحارث ، ثم يصيغها بعد ذلك كتباً ، وقد ورد ذكر ذلك في المقدمة .

(٢) الحاقة : ١٢ .

فهذا هُوَ العَقْلُ .

ومَنْ زال عن ذلك ومعه غريزةُ العقل التي فَرقَ الله تعالى بها بين العقلاء والمجانين فهو غيرُ عاقِلٍ عن الله عَزَّ وجَلَّ . وهو عاقِلٌ للبيانِ الذي لَزِمَتْهُ من أَجلِهِ الحُجَّةُ .

وقد وصف الله عزَّ وجل هذا في كتابه عن رجال (وسما) لهم عقلاً . فقال تعالى :

« لهم قلوب لا يعقِلون بها »[1] يعني عنه .

وقال عز وجل : « وجعلنا لهم سَمْعاً وأَبصاراً وأَفئدةً » . يعني عقولاً ، « فما أَغنى عنهم سمعهم ولا أَبصارهم ولا أَفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله »[2] . ثم سَمَّى بعضَ الكُفَّارِ مِنْ أَهلِ الكتاب عاقلاً للبيان الذي لَزِمَتْهُمْ به الحُجَّةُ « يحرِّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون »[3] .

فأَخبر انهم لا يعقلون، يعني عنه (وعن) ما قال من عظيم قدره المبيّن عنه .

---

(١) الحج : ٤٦ .
(٢) الاحقاف : ٢٦ .
(٣) البقرة : ٧٥ .

ثم قال : « يُحَرِّفُونَهُ من بعد ما عَقَلُوه » يعني : عَقْلَ البيان .

وآخرون لهم عقولُ الغرايز لا يعقلون البيان ولا المبين عنه بالفهم له إلّا أنهم يسمعون بلُغَةٍ يعرفونها كلاماً لا يعقلون معانيه بالفهم له كمشركي العرب فقال :

« إنْ هم إلّا كالأنعامِ بل هم أَضلُّ سبيلا »[1] .

فلم يَعْقِلُوا ما قال عَزَّ وجَلَّ لإعجابِهِمْ برأْيِهِمْ ، ولتقليدِهِمْ آباءَهُمْ ، وكُبَرَاءَهُمْ ، وقد كانت لهم عقولُ غرايز ، يعقلون بها أمر دنياهم .

ولو تركوا الإعجابَ بالرأْيِ ، وتقليدَ الكُبَرَاءِ ثُمَّ تدبَّروا لَعَقَلُوا ما قال اللهُ . ولكن أُعجبوا بآرائِهِمْ ، وَقَلَّدُوا كُبَرَاءَهُمْ .

فقال عزَّ وجلَّ : « ويحسبون أنَّهم يُحْسِنُون صُنْعا »[2] .

وقال جلَّ ثناؤُه : « أَفمن زُيِّنَ له سُوءُ عمله فرآه حسناً »[3] .

وقال : « ويحسبون أَنهم على شيءٍ ، أَلَا إِنَّهم هُمُ الكاذِبون »[4] .

فلم يعقلوا ما قيل لهم كما عَقَلَهُ المُحَرِّفُونَ للسان بعدما عقلوه .

---

(١) الفرقان : ٤٤ .
(٢) الكهف : ١٠٤ .
(٣) فاطر : ٨ .
(٤) المجادلة : ١٨ .

فهم يعلمونَ أَمْرَ دنياهم ؛

ودقايقُ معايِشِهِمْ أَدَقُّ في الغموضِ من أَعلامِ الدين . فقال الله جل وعز : « يعلمون ظاهِراً من الحياةِ الدُّنْيا ، وهم عن الآخرة هُمْ غافلون »[1] .

قال : حدثني عفان[2] . قال : حدثنا صخر بن جويرية[3] عن الحسن[4] في قوله تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » قال :

لا جَرَمَ واللهِ لقد بَلَغَ من علم أَحدِهِمْ بِدُنْيَاهُ أَنـه يَقْلِبُ الدرهَمَ على ظفْرِهِ ويُخْبِرُكَ بِوَزْنِهِ ، وما يُحْسِنُ يُصَلِّي .

قال : حدَّثني عَفَّان قال : حَدَّثَنَا شُعْبَةُ[5] عن شَرْقِيٍّ[6] في

---

(١) الروم : ٧ .

(٢) ترجمته أثناء الحديث عن شيوخ المحاسبي .

(٣) أبو نافع صخر بن جويرية ، مولى بني تميم ، روى عن أبي رجاء العطاردي ، ونافع ، وهشام بن عروة ، وعبد الرحمن بن القاسم وغيرهم . وعنه : أيوب السختياني ، وأبو عمرو بن العلاء وحماد بن زيد والقطان وابن مهدي وابن المبارك وعفان . قال أحمد : شيخ ثقة ثقة . ووثقه عفان ، إلا أن بعضهم تكلم فيه لضياع كتابه . تهذيب التهذيب ٤ / ٤١٠ – ٤١١ .

(٤) هو الحسن البصري المشهور (٢١ – ١١٠ هـ).

(٥) شعبة بن الحجاج (٨٢ – ١٦٠ هـ) الأزدي البصري . قال الحاكم : شعبة إمام الأئمة في معرفة الحديث بالبصرة . رأى أنس بن مالك وعمرو بن مالك الصحابيين وسمع من أربعمائة من التابعين . تهذيب التهذيب جـ ٤ / ٣٣٨ – ٣٤٦ .

(٦) شرقي بن قطامي : أخباري ، له نحو عشرة أحاديث فيها مناكير . ذكره ابن عدي في الضعفاء . واسمه الوليد بن الحصين ، والشرقي لقب له . لسان الميزان ٣/١٤٢ .

قوله : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فذكرَ الخرّازَ والخَيّاطَ ونحوَهما ، فأَخبر الله تعالى انهم يعقلون أمر دنياهم . ولو تدبَّروا ، وتركوا التقليدَ والإعجابَ بالآراءِ لعقلوا أَمْرَ آخِرَتِهِمْ ، كما عقلوا أَمر دنياهم ، حين عُنوا بطلبِ منافِعِها في العواقِبِ ودفع مضارِّها في العواقِبِ .

فهذه أَربعُ فِرَقٍ :

فرقةٌ عقلت عن الله تعالى عِظَمَ قَدرِهِ وقدرتِهِ وما وعد وتَوَعَّد، فأَطاعت ، وخَشَعَتْ .

وفرقةٌ عَقَلَتْ البيانَ ثم جَحَدَت كِبْراً وعِناداً لطلب الدنيا كما وصف عن إبليس أَنه تَكَبَّر وعاندَ كِبْراً ، وهو مع ذلك يقول : « فبعزتك لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجمعين »[1] . ووصف اليهود (١٠٨) فقال : « ليكتمون الحق وهم يعلمون »[2] .

وقال : « وجحدوا بها واستيقنتها أَنفسهم ظلماً وعلوا »[3] .

وقال : « يعلمون انه منزل من ربك بالحق »[4] .

---

(١) ص : ٨٢ .
(٢) البقرة : ١٤٦ .
(٣) النمل : ١٤ .
(٤) الانعام : ١١٤ .

وقال : « اشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون »[1] .

وفرقةٌ طغت ، وأُعجبت ، وقلّدت ، فعميت عن الحق أَنْ تَتَبَيَّنَهُ ثمَّ تقر به ، ثم تجحده كِبْراً وطَلَبَ دُنْيا بعد عقلها للبيان فظنَّتْ أنَّها على حقٍّ ودينٍ وهي على باطلٍ وشرٍّ وضلالٍ .

وفرقةٌ رابعةٌ عَقَلَتْ قَدْرَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ في تدبيرِهِ وتفرُّده بالصنع ، وعرفت قَدْرَ الإيمانِ في النجاة بالتمسك به ، وقَدْرَ العقاب في ضَرَرِهِ في مُجانبةِ الإيمانِ ، فلم يجحدوا كِبْراً ولا أَنفةً ولا طَلَبَ دنيا لعقلها أَنَّ عاجِلَ الدنيا يفنى ، وعذاب الآخرة لا يفنى . فَأَقرَّتْ وآمَنَتْ ، ولم تعقل عظيم قدر الله في هيبتِهِ ، وجلالِهِ ، وعظيم قدر ثوابه وعقابه في إتيان معاصيه ، والقيام بفرايضه ، فعصَتْ ، وضيَّعَتْ ، وغفَلَتْ ، ونسيَتْ ، إلَّا أَنَّها عَلِمَتْ عظيمَ قَدْرِ الإيمان في النجاة ، وعظيمَ ضررِ الكُفْرِ ؛ قد عقلتْهُ عن الله تعالى فهي قائمةٌ به ، دائمةٌ عليه .

ثم بعد عقلِهِ قَدْرَ الإيمانِ يزدادُ معرفةً بقدْرِ الغَضَبِ والوعيد والوعد .

---

(١) ال عمران : ١٨٧ .

فإن ازدادَ طائفةً قام بطـــائفةٍ من الفروض ، وترك بعضَ المعاصي ، وإلّا ضيَّعَ بعض الفروض ، وركب بعضَ المعاصي من أَجل الهوى ، ومعه عقل البيان والإقرار ، فعقل انه مُسيءٌ ، ولم يرجع عن إساءته لِغَلَبَةِ الهوى .

ولو ازداد عقلاً بعظيم قـدر الغضب ، والرضى ، والثواب ، والعقاب ، لاستعمل ما عقل من البيان ، وأَقَرَّ به بأَنَّه حقٌّ فتاب وأَناب .

وجميعُ الممتحَنين المأمورينَ من العُقَلاءِ البالِغِينَ كُلُّهم لهم عُقولٌ يُمَـيِّزونَ بها أُمورَ الدنيا كُلَّها ، الجليـل ، والدقيق ، وأَكثرُهُم للآخِرَةِ لا يعقلون .

أَلَمْ تسمعْهُ عَزَّ وجلَّ يقول : «وتراهم ينظُرُونَ إليكَ وهم لا يبصرون »[1] .

وقال جَلَّ ثَنَاؤُهُ : «لهم قُـلوبٌ لا (يفقهون)[2] بها ، ولهم أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمَعُونَ بها »[3] .

وهم بالدنيا أَهلُ بصرٍ وسمْعٍ وعَقْلٍ ، ولم يَعْنِ انهم صُمٌّ ، خُرْسٌ ، مجانين ، وإِنَّما عَذَّبَهُمْ لأَنهم يعقلون لو تدبَّروا ما يَرَوْنَ

---

(١) الاعراف : ١٩٨ .
(٢) في المخطوطة (لا يعقلون) .
(٣) ال عمران : ١٧٩ .

ويسمعون من الدلائل عليه من آياتِ الكتاب ، وآثارِ الصَنْعَةِ ، واتصالِ التدبير ، الذي يَدُلُّ عليهِ أَنَّهُ واحدٌ لا شريك له .

وحكى تعالى قولَ أهلِ النارِ فقال : « وقالوا لو كُنَّا نسمعُ أَو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أَصحابِ السعير »[1] .

وقد كانت لهم عقولٌ وأسماعٌ لَزِمَتْهُم بها الحُجَّةُ لله عز وجل . وإنَّما عنى عَزَّ وجَلَّ أَنَّها لم تَعْقِلْ عن الله فهماً لِمَا قال من عَظِيمِ قَدْرِ عذابه ، فندِمَتْ ، ونَادَتْ بالوَيْلِ والنَّدَمِ لا أَنَّها لم تَكُنْ تَسْمَعُ ولا تَعْقِلُ ، ولا كانوا بمجانِينَ ، ولكن يعقلون أَمْرَ الدُّنيا ، لا يَعْقِلونَ عَنِ الله ما أَخبر عنه ووَعدَ وتَوَعَّدَ .

قلت :[2] فمتى يُسَمَّى الرجُلُ عاقِلاً عن الله تعالى ؟

قال : إذا كان مؤْمناً خائفاً من الله عز وجل .

والدليلُ على ذلك أنْ يكونَ قائماً بأَمْر الله الذي أَوجبَ عليه قيامَ به مُجانباً لما كَرِهَ ونَهاهُ عنهُ . فإذا كان كذلك استحقَّ أَن سَمَّى عاقلاً عن الله .

بل لأَنه لا يُسَمَّى عاقلاً عن الله مَنْ يعزم على القيـــام بِسُخْطِه

(١) الملك : ١٠ .

(٢) نرجح أن السؤال للجنيد .

فأقامَ على ذلك مُصِرّاً غيرَ تايب .

قلتُ : فمتى يُسَمَّى العاقلُ عن الله كامِلَ العَقْلِ عن الله تعالى؟

قال : إنَّ العَقْلَ عن الله تعالى لا غايَةَ له . لأَنه لا غايةَ لله عز وجل عند العاقل بالتحديد ، بالإحاطة بالعلم بحقائقِ صفـاتِه ، ولا بِعَظيمِ قَدْرِ ثوابِهِ ولا عِقابِهِ إذْ لم يعايِنْها .

ولو عاين الله جَلَّ ثناؤُه وتقدَّسَتْ أَسماؤُهُ بِصِفاتِهِ لما أَحاطَ به علماً .

ولكن ، وقـد يَقَعُ اسمُ الكمالِ على الأَغْلَبِ في الأَسماء في العقل عن الله تعالى لا العقل بالكمال الذي لا يَحْتَمِلُ الزيادَةَ .

أَلا تَراهُ عَزَّ وجَلَّ يقولُ لرسولِهِ ﷺ « وقـل ربِّ زِدْني عِلْماً »[1] . وقال : « ولا يُحيطُونَ به عِلْماً »[2] .

ورُوي عن الملائكة انها تقول يوم القيامة « ربِّ ما عبدْناكَ حَقَّ عِبادتِكَ » .

فلا أَحد يساوي الله عَزَّ وجَـلَّ في العلْمِ بنفْسِهِ فيعرفَ عن عَظَمَتِهِ تعالى كَمالَ صِفاتِهِ كما يعلمُ الله عَزَّ وجَلَّ عن نَفْسِهِ .

---

(١) طه : ١١٤ .　　(٢) طه : ١١٠ .

فأَعظمُ العاقِلِينَ عنده العارفين عقــلاً عنه ومعرفة به ، الذين أَقرُّوا بالعجز انهم لا يَبْلُغُونَ في العقلِ والمعرفةِ كُنْهَ مَعْرِفَتِهِ .

ولكن قد يُسَمَّى كاملاً في العقل عن الله (١٠٩) في ما غَلَبَ عليه من الأَفْعال التي كانت عن العاقِلِ كاملاً مَنْ كانت فيــه ثلاثُ خلال :

الخوفُ منه والقيامُ بأَمْرِهِ ، وقوةُ اليقين به ، وبما قال ووعد وتوعَّدَ .

وحُسْنُ البَصَر بدينهِ بالفقه عنه فيما أَحبَّ وكَرِهَ مِنْ عِلْم مـا أَمَرَ به ونَدَبَ إليه ، والوقوفِ عند الشُبُهــاتِ التي سَمَّى اللهُ الوُقوفَ عنها رُسوخاً في العلم به .

فإذا اجتمع الخوفُ منه ، وقوةُ اليقين به وبمــا قال ووعد وتوعَّد ، وحُسْنُ البَصَر بِدِينِ الله ، والفقه في الدين فقــد كَمَّلَ قوةَ عقله .

وإن كانَ الخَوْفُ مِنَ اللهِ هو مِنْ قُوَّةِ اليقين بالوعيد ، فإنه قد يكونُ خائِفاً ، ولا يكونُ معه اليقينُ القويُّ الذي ينالُ بــه الرضى والتوكُّل والمحبة والزهد .

فمن ثَمَّ قُلْنا: الخوفُ من الله وقوةُ اليقين والبصرُ بالدين، لأَنه قد يكونُ قويَّ اليقين وليس يُحْسِنُ البَصَرَ بالدين. ويكونُ بَصيراً بالدين لا خائفاً ولا قويَّ اليقين.

وجِمَاعُ هذه الثلاثِ الخصال قوةُ اليقين، وحُسْنُ البَصَرِ بالدين.

وإنما زِدْنا ذِكْرَ الخَوْفِ، وإن كان من اليقينِ لأَنه قد يكونُ خائفاً، وليس بالقويِّ اليقين في كمالِ ما قال اللهُ عزَّ وجلَّ مما وَصَفَ به نَفْسَهُ من قَدْره وجلالِهِ وعَظَمَتِهِ، وما وعد وتَوَعَّدَ، وحَذَّرَ، ورَجَا، وأَنعَم، وابْتَلَى به.

ثم هذه الثلاثُ الخلالُ حقائقُ من الفعل بالقلب والجوارح، لأَنه إذا تَمَّ عقْلُ المؤمنِ عن ربِّه أَفْرَدَهُ عزَّ وجَلَّ بالتوحيدِ له في كُلِّ المعاني؛ فعلم انه مالكٌ له لا غيره، وأَنه عَتيقٌ ممن سِواهُ؛ فَتَواضَعَ لعَظَمَتِهِ، واستَعْبَدَ، وخَضَعَ لجَلالِهِ، ولم يَذِلَّ لِمَنْ سواه؛ وعَقَلَ عنه أَنه الكاملُ بأَحسنِ الصِّفات، المتنزهُ، من كُلِّ الآفاتِ، المُنْعِمُ بِكُلِّ الأَيادي والإِحسان. فاشتدَّ حُبُّهُ له، لما يَسْتَأْهِلُ لِعَظِيم قَدْرِهِ، وكريم فَعَالِهِ، وحُسْنِ أَياديه.

وعقل عنه أَنه لا يملِكُ نفعَهُ وضرَّهُ في دنياه وآخرتِهِ إلَّا هو،

فأَفْرَدَهُ بالخوفِ ، والرجاءِ وحدَهُ وآمَنَ به ، وأَيِسَ مِنْ جميعِ خَلْقِهِ . فهو المُوحِّدُ له إذا عقل وحدانِيَّتَهُ وتفرُّدَهُ بكلِّ معنًى كريمٍ ، ووصْفٍ جميلٍ ، وجلالَ عظَمَتِهِ ، ونفاذَ قدْرَتِهِ ، ومُضيَّ إرادتِهِ ، وإحاطَةَ علمِهِ ، وقديمَ أَزَلِيَّتِهِ وأَوَّلِيتِهِ .

فإذا كان كذلك زايَلَ الكِبْرَ على (العبادِ)[1] لخضوعِهِ لجلالِ اللهِ مولاهُ فتواضَعَ للحقِّ ولم يَحْقِرْ مسلِماً لشدةِ معرفتِهِ بصِغَرِ قَدْرِ نفسِهِ ولِما جنى من الذنوبِ على نفسِهِ ولعلمِهِ بأَنَّ خواتمَ الأَجَلِ بسوءِ العواقِبِ وحسنَ الخاتمةِ من الشقاءِ والسعادةِ قد سبقَ بهما العلْمُ ونَفَذَتْ فيهما المشيئةُ .

فقد أَمِنَ مَنْ عرفه كِبْرَهُ وبَغْيَهُ وقد عَقَلَ عنِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ حُجَجَهُ على خَلْقِهِ واعتذارَهُ إلى خَلْقِهِ بأَنه ليس لهم بظالم ، وانه قد بدأَهُم بالرحمةِ قبل العُقوبةِ وقد سبقت (منه)[2] الأَيادي قبل الشكر . طويلُ الحلم ، دائمُ التأَنِّي ، جميلُ الستر ، مُقيلُ العَثَرات ، مُحْسِنٌ إلى مَنْ تَبَغَّضَ إليه ، متقرِّبٌ إلى مَنْ تباعَدَ منه ، وعقل عنه أَمْره وآدابَهُ وأَحكامَهُ وعقل داءَ النفوسِ ودواءَها.

---

(١) في المخطوط (العبادة) . (٢) في المخطوط (من) .

فمن عرفه أَمَّلَ الرشدَ منه ، وأَن يَحْيا بمنطِقِهِ ، ويعْقِل عن اللهِ جَلَّ ذكْرُهُ بتأديبِهِ له .

وعَقَلَ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ ما عَظَّمَ مِنْ قَدْرِ ثوابِه في جَنَّته بدوامِهِ ، وطيبِ العيشِ فيه ، وزوال الآفات والتكابر ، والتنغيص عنه ، وانه فوق ما تُحِبُّ النُّفوسُ ، لا يُحْسِنُ أَحدٌ أَن يخطُرَ ببالِهِ ذِكْرُ كثيرٍ مما أُعِدَّ فيها .

وقد قال الرسول ﷺ : « أَعَدَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ في جنته ما لا عينٌ رأَتْ ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وكفاكَ بالله تعالى واصِفاً عمـا أَعَدَّ لأَوليائِهِ إذ يقول عز من قائل : « فلا تعلمُ نَفْسٌ ما أُخْفِيَ لهم مِن قُرَّةِ أَعْيُن »[(١)] .

فقد أَخبرنا انه جاز في الكمال ، والنعيم ، (وقُرَّةِ) العيونِ وصفَ الواصفين ، ومعرفة العارفين، وذِكْرَ الذاكرين لجميع النعيم . فَعَظُمَ في قلبه جوار مولاه ، (و) ما أَعدَّ فيه لمن أَناب إليه وأَطاعَهُ ، فشخَصَ إليه بعقْلِهِ، فاتَّصل ما استودع قلبه من العلم بذلك لمشاهدته بعقله حتى كأَنه رأْيُ عينه كما قال حارثة : « فكأَني أَنْظُرُ إلى عرش

---

(١) السجدة : ١٧ .

ربِّي بارزاً ، وإلى أهل الجنة يتزاورون » .

وكما قال الحَسَنُ وذكر أَولياءَ الله في الدنيا فقال : « صَدَّقوا به فكأَنما يَرَوْن ما وُعِدُوا رأيَ العين » .

فلما اتَّصل عَقْلُهُ بمشاهدةِ ذلك حَنَّ واشتاقَ ، فلمَّا حَنَّ واشتاقَ تعلَّقَ قَلْبُهُ واشتغل ، فلمَّا اشتغَلَ بالشَّوْقِ إلى جِوارِ ربه سلا عن الدنيا فلها عنها (١١٠) فَمَنْ تَفَكَّرَ في دارِ الدُّنيا ــ أَين هي من جوار ربه إذ يقولُ عَزَّ وجَلَّ « لعلَّكم تفكرون »[١] في الدنيا والآخرة . قيل في التفسير : تفكَّروا فيها فعلموا أَنَّ الدنيا دارُ فناء ، وأَنَّ الآخِرةَ دارُ جزاءٍ وبقاء ــ فعقل نَعْتَ ربهِ لزوال الدنيا وفنائها ، وأَنَّ كل ما أَخَذَ منها لغيرِ القُربةِ إلى ربِّه في جِوارِهِ ناقِصٌ مِنْ دَرَجاتِ القُرْبِ ، وكمالِ النعيمِ في جِوارِ ربه ، وأَنَّ فيه الحسابَ والسؤَّالَ عن نعيمِها بالحبسِ عن السَّبْقِ في أَوائِلِ الزُّمَرِ إلى جِوارِ رَبِّه ومولاهُ ، وانها مَشْغَلَةٌ له عن الاشتغالِ بربِّه ما دامَ فيها حتَّى ما يعدِلُهُ من الأُنْسِ بربِّه وحلاوةِ مُناجاةِ سيِّده .

---

(١) وردت في ايات كثيرة من القران .

فارتفع قلبُهُ عنها وتمنّى أَنْ لو استغنى أَنْ يتناولَ منها شيئاً ، فلم يَجِدْ بُدّاً من الأَخْذِ منها ما يُقَوِّيهِ على طاعةِ ربه خوفاً أَنْ يُمسِكَ عن القُوتِ فينقطعَ عن عبادةِ ربِّه .

فكان نصيبُهُ منها القوتَ من الغذاء ، ولم يتكَلَّفْ ما جاز بُلْغة القوت من غذائه وستر عورته ، وان تكلف طلبه لم يتكلف إِلَّا للقُرْبةِ إلى ربِّه ، فإن ابتُلِيَ منها بما فوق غذائِهِ ، وسَتْرِ عورته مِنْ مِثْلِ ميراثٍ أَو غيره فمبذولٌ كُلُّهُ لربِّهِ يفرحُ بإِخراجِـــهِ ، ويغتمُّ أَن يَمكُثَ عنده أَقلَّ من طَرْفَةِ عَيْنٍ .

وعقَلَ عن اللهِ تعالى آياتِهِ في تــدبيرِهِ ، وحكمتِهِ ، في آثار صنعتِهِ ، ودلائِلِ حسن وتقديره ؛ (فَ) عَلِمَ أَنَّه بقُدْرَةٍ نافذةٍ قَدَّرَها ، وبحكمةٍ كاملَةٍ أَتْقَنَها ، وبعِلْمٍ مُحيطٍ اخترَعها ، وبِسَمْعٍ نافِذٍ سَمِعَ حَركاتِها ، وببَصَرٍ مُدْرِكٍ لها دَبَّرَ لَطَائِفَ خَلْقِهـــا ، وغوامِضَ كوامِنِها ، وما وارَتْهُ حُجُبُها وسَوَاتِرُها .

فاستدَلَّ بذلك أَنَّه الإلهُ العظيمُ الذي لا إله غيرُهُ ، ولا رَبَّ سِواهُ . فكَأَنَّ جميعَ الأَشياءِ عينٌ يَعْتَبِرُ بها ، ويُجِلُّ ويُعَظِّمُ لِمـــا يَرَى ويَسْمَعُ (من) مولاه وسيده ، فدام ذِكْرُهُ وزالتْ عن الله عزَّ وجلَّ غَفْلَتُهُ ، وعقَلَ عن الله تعالى انه ما يبلغُه غاية العلم به ، ولا بلطائفِ

مَحابِّهِ ، والقربِ إليه والفَهْمِ لِما كَلَّمه به ، فكان مع سيِّده اجتهادُهُ ، ودوامُ اشتغالِهِ بربِّه ، غير تاركٍ ولا منقطعٍ عَن طلب الازديادِ من العلم بربه. والتَّزيُّدُ في الفقه عنه أَعلى في قلبه، وأَعظم عنده قدراً من الازدياد من كثير أعمال النوافل ، إذ عقل عن ربه أَنَّ أَقلَّ قليل المعرفةِ يُورِثُ التعظيمَ والهيبةَ ، ويبعثُ على الاجتهاد، ويورِثُ الطاعاتِ ، والشغلَ عن جميع العباد .

وعقَلَ عن الله تعالى أَنَّه ابتدأَ عِبادَهُ بالرحمةِ والتفضُّلِ والإِحسانِ بعد تقديمِ العِلْمِ منه لهم انهم سيَعْصُونَهُ ويخالِفُونَ أَمْرَهُ فلم يمنعْهُ ذلك عن ابتدائِهِمْ بالنِّعَمِ والتَّحَنُّنِ والرحمةِ والإِحسانِ . وجعلَ أَفضلَ أَوليائِهِ عنده ، الرحماءَ بخلْقِهِ ، المتحنِّنين على عبادِهِ ، الناصحينَ لبريَّتِهِ ، وهم رسلُهُ الداعون العبادَ إلى نجاتِهِم ، والمحذِّرونَ لهم من هلكتهم، المتحمِّلونَ منهم الأَذى ، والمتحنِّنونَ عليهم بالرحمةِ والنُّصْحِ ، والإِشْفاقِ مع أَذاهُم لهم ، وتكذيبِهِم إيّاهم واستهزائهم بهم؛ لا يكافئونهم بمثل ما نالوا منهم، ولا ينصرفون عن الإِشْفاقِ عليهم إذ سَمِعُوا الله جل ثناؤُه يَصِفُهُم إذ قالوا لنوح : « إنا لنراك في ضلال مبين »[١] .

---

(١) الاعراف : ٦٠ .

وقالوا لهود : « إنا لنراك في سفاهة »[1] .

ثم وَصَفَ جوابَهما فقال نوح : « ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين »[2] إلى قوله : « ولعلكم ترحمون » .

ووصف ردَّ هودٍ عليهم فقال : « يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسولٌ من ربِّ العالمين ، أبلِّغُكم رسالاتِ ربي ، وأنا لكم ناصحٌ أمين »[3] . إلى قوله : « لعلكم تفلحون » . أي تظفرون بثواب الله إن قبلتم مني ، فأخبرهم بعد تسفيههم له انه لم يَنْصَرِفْ من أجل ذلك عن النصيحة لهم لعلهم يفلحون .

وقال إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنه مني ، ومَنْ عصاني فإنك غفور رحيم »[4] .

وقال النبيُّ ﷺ ، ووصف نبياً من الأنبياءِ شَجَّهُ قومُهُ فهو يمسحُ الدَّمَ عن وجهِهِ وهو يقول : « ربِّ اغفِرْ لقومي فإنهم لا يعلمون » .

ورُوِي أَنَّ نوحاً عليه السلام كان يَخْنُقُهُ قَوْمُهُ حتى يُغْشى عليه فإذا أفاق قال : « ربِّ اغفِرْ لقومي إنَّهم لا يعلمون » .

---

(١) الاعراف : ٦٦ .
(٢) الاعراف : ٦١ .
(٣) الاعراف : ٦٧ .
(٤) إبراهيم : ٣٦ .

وفضَّلَ النبيُّ ﷺ صدِّيقَ هذه الأمة عليها بالرحمة لها ، فقال : « أرحمُ أُمَّتي بها أبو بكر » .

فلمَّا عقل عن الله عز وجل (١١١) ما ابتدأ العبادَ به من الرحمة ، وأنه خصَّ أعظمَ خلقِهِ عنده قدراً ، وفضَّلَهُ بها على جميعِ العباد .

ألزم قلبَهُ رحمةَ الأُمَّةِ فأَحبَّ مُحْسِنَهُمْ ، وأشفق على مسيئِهم ، ودعا إلى الله سبحانه - إذا أمكنه - مُدْبِرَهُمْ ، ولم يدَّخِرْ مالاً عن فقيرِهمْ فَفَضْلُ ماله عليهم مبذول ، والمواساةُ في قُوتِهِ منهم المجهودُ . مَنْ سأَلَهُ منهم ما يَقْدِرُ عليه لم يتبرَّمْ بطلبِهِ ، ولم يَضْجَرْ بإعطائه للرحمةِ التي لَهُمْ في قلبه ، ومن آذاهُ وأساءَ إليه لم يَجِدْ في نفسِهِ كراهيةً للعَفْوِ والصَّفْحِ عنه . يَعُدُّهم جميعاً كأقربِ الخَلْقِ منه . كبيرُهم مثلُ أبيه ، وصغيرُهم كولدِهِ ، وقِرنُهُ كأخيه ، فكُلُّ هؤلاء يُحِبُّ الإحسانَ إليهم ، وأن لا يفارقَ قَلْبَهُ الشفقةُ عليهم .

وعقلَ عن اللهِ تعالى عظيمَ قَدْرِه وقدر ما يطلُبُ من ثوابِهِ ، وما يخافُ من عقابه ، وعظيمَ الأيادي وكثرةَ النعيم عنده ، وأنَّ جميعَ خلقِهِ من أهل سمواته وأرضه لو دأبوا جميعاً واجتهدوا عُمرَ الدنيا كلها وأبداً ما أدَّوا شُكْرَ نِعَمِهِ ولا أدَّوا ما يَحِقُّ في عظمته . فكيف بالحلول في جواره ، والنجاة من عذابه ؟

فقد عقل أيَّ ربٍّ يعبد ، وأيَّ ثواب يطلب ، ومن أيِّ عقابٍ وعذاب يَهْرُبُ ، وأيَّ نعيمٍ يَشْكُرُ . والشكر أيضاً ممن هو ومَنْ مَنَّ به ؟

فلما عقل ذلك كُلَّه عن ربه استقلَّ واستصْغَرَ جميع دؤوبه واجتهادِهِ لِعَظيمِ ما عَقَلَ من جميعِ ذلك .

وعقلَ عن اللهِ تعالى ما وَصَفَ به نَفْسَهُ أنها بالسوءِ أَمَّارة ، وللذنوب مسوِّلة ، وانها هي التي جَنَتْ عليه ما قد أَحصاه ربُّه عليه ، ولم يأْمَنْ أَن يكون قد حَلَّ به غَضَبُهُ ، وانه لا يكادُ يَعْدِلُ في بعضِ أَحوالِهِ أَن يتعرَّضَ لبعضِ مَسَاخِطِهِ ، وأَنه قد لَزِمَتْهُ عظيمُ حُجَّةِ ما خُصَّ به من العلم ، وما مَنَّ عليه به من المعرفة دون أَكثرِ العَوامِّ . فاستكثر قليلَ طاعتِهِمْ واستعظَمَها مع استصْغارِ كثيرِ الطاعاتِ من نفسه لأَنه أعلمُ بنفسِهِ وبِذُنوبِهِ من ذنوبِهِمْ ، وأنَّ الحُجَّةَ عليه أعظمُ منها عليهم .

وعقلَ قَدْرَ مَنْ عصاه وخالفه فيما أمره به ، فعقل قَدْرَ عظمةِ مَنْ عصاه ، وشدَّةَ غَضَبِهِ ، وشِدَّةَ عذابه ، وهَوْلَ المُكْثِ في عقابه إِن لَمْ يَعْفُ عنه .

فعقل كَثْرَةَ ذنوبِه و (سوءَ رغبةِ) نفسِهِ ، ودناءَةَ همتـــهِ ، وعجيبَ جهله ؛ إذ كان قد آثرَ على رِضاهُ من العبيد ما لا معنى لهم في دُنْيا ولا آخرة بِملْكٍ ، ولا نَفْعٍ ولا ضرٍّ ، وإيثارَهُ من الدنيا المكدِّرَ المنغِّصَ الفانيَ منه، والفاني هو عنه، والباقي عليه بعد فنائِهِ شدة الحساب ، وعظيم السؤال عنـــه ثم لا يَأْمَنُ من سخط الله في الآخرة على ذلك أَن يَحِلَّ به .

فلمَّا عَقَلَ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ جميعَ ذلك من نفسِهِ ، وتسَتَّر عنه عامة ذنوب الخلق ، وحقَّتْ عليهم الحجَّةُ بدون ما وَجَبتْ من الله عز وجل من أَجل العلم الذي استودعه ، والستر عليه لذنوبه وما حَبَّبهُ إلى عبادِهِ ؛ لم يأْمَنْ أَنْ يكونَ استدراجاً له ، وأَنَّه وُكِّلَ بالخوفِ على نفسِهِ قبل غيره ، وانه لا يأْمَنُ لِسالِفِ ذنوبه ، وتضييعِ شُكْرِ نِعَمِ ربِّه ، وعظيم ما لَزِمَهُ من الحُجَّةِ ، وان يُخْتَمَ له بغيرِ دينِ الإسلام ، أَو بعظيمِ الذنوب مع الإيمان ؛ فلم تقع عينُهُ على أَحدٍ ، ولم يستمع به من المسلمين إلَّا خاف أَن (ينجوا) ويهلك هو دونه . (يكسر) قَلْبَهُ مَنْ يرى مِنْ أَهلِ الطاعاتِ ، ويقطعُ عليه أنه خيرٌ منه ، ويتمنَّى أَنْ يكونَ مثله ، ويهيجُ عليه الخوف من قلبه مَنْ رآه دونه في الدين يخافُ أَن يهلكَ هو دونه ، أَو يُختم له

بأَشرِّ الأَعمال لعظيمِ حُجَّةِ العلم ، وجميلِ السَّتْرِ عليه ، ولِما أَمَرَ به من خوفِ سُوءِ الخواتم التي مات عليها الأَشقياء . فهو مُتَواضِعٌ للعباد كلِّهم لشدَّةِ ذِلَّةِ الخوف على نفسه .

وعَقَلَ عن اللهِ عزَّ وجلَّ ما بَيَّنَ من قَدْرِ الدنيا والآخرة فعقلَ صِفَةَ الآخِرَةِ بنعيمِها ومُلكِها وشرفِها وعِزِّها ، وعظيمِ قَــدْر سكانها أَنها في جوار المولى ، وما وُصِف به سوءُ عيش الدنيا وضَعةُ رفعتها عنده يوم يحاسِبُ عباده ، وذُلُّ العزيز بها عنده في يوم يبعث خَلْقَهُ ، وحقارَة المتكبِّرين في عينه ، وصنعه بهم يوم النشور حتى انهم ليُحشرون في صُورِ الذَّرِّ دون جميعِ العِباد .

وعقلَ عن اللهِ تعالى ما أمره به ، وأخبر أَنَّ الفقير مَنِ استغنى بالدنيا عنها ، ومن (يجازي) بما (١١٢) حرمه من خفةِ الحساب والتصاعُدِ في معالي درجاته .

فلمَّا عقلَ ذلك كُلَّهُ عن ربه كان الفقرُ في الدنيا أَحبَّ إِليه من الغِنَى بها ، وكان التواضُعُ أَحبَّ إِليه من الشرف فيها ، وكان الذُّلُّ أَحبَّ إِليه من العِزِّ بها .

مسألة في العقل

الحُجَّةُ حجتان :

عَيَانٌ ظاهرٌ ، أَو خَبَرٌ قاهرٌ .

والعقلُ مُضَمَّنٌ بالدليل ، والدليلُ مضمَّنٌ بالعقل .

والعقلُ هو المستدلُّ .

والعيانُ والخَبَرُ هما عِلَّةُ الاستِدْلالِ وأَصْلُهُ .

ومُحالٌ كَوْنُ الفَرْعِ مع عدمِ الأَصْلِ ، وكَونُ الاستدلالِ مع عَدَمِ الدَّليل .

فالعَيَانُ شاهدٌ يَدُلُّ على غيبٍ .

والخَبَرُ يَدُلُّ على صِدْقٍ ؛ فَمَنْ تنـــاولَ الفَرْعَ قبل إحكامِ الأَصْلِ سُفِّه .

وَرُبَّ حَقٍّ أَحقَّ مِنْ حَقٍّ ، كَمَنْ عفا ومن اقتصَّ ، وكاقْتضاءِ

الدَّيْنِ ساعَةَ مَحِلِّهِ ، أَو تَرْكِهِ قليلاً إِحساناً إِليه ، فَقَدْ أَحسنَ في الطَّلَبِ .

فكم مِنْ حَسَنٍ أَحْسَنَ مِنْ حَسَنٍ غيره ، وقبيحٍ أَقبح من قبيحٍ ، وفرضٍ أَوجبَ من آخَرَ ، وفَضْلٍ أَفْضَلَ مِنْ فَضْلٍ آخَرَ.

والحُبُّ والبُغْضُ إِذا أَفرطا أَنقصا الاعتدال ، وأَفسدا العقل ، وصوَّرا الباطِلَ في صُورةِ الحَقِّ .

فأَهْلُ الشَّرِّ لا يُفَرِّقُونَ بين (أَئِمَّتِهِمْ) كما لا يُفرِّقُونَ (بين) إِمامِهِمْ .

وإِنَّ الحَقَّ في كُلِّ أَمْرٍ بَيِّنٌ ، والباطِلَ في كُلِّ حالٍ داحضٌ ، إِلَّا أَنَّ كثيراً من الناسِ لا يَعْرِفُ وَجْهَ مَطْلَبِهِ ، وبعضُهُم يَعْرِفُ بَعْضَهُ ويجهلُ بعضَهُ ، ومنهم مَنْ عرفَ ثم نَسِيَ ومنهم من يَعْرِفُ أَكْثَرَهُ ولا يعرفُ أَسْهَلَ طُرُقِهِ ، وأَقربَ وَجْهِهِ .

فجميعُ الحَقِّ في فُنونِ الطاعاتِ ، وتحذير الباطل في مذاهبه إِذا جمع وأَلف ، وكانَ أَنْشطَ لِحِفْظِهِ ، ويفهمُهُ مَنْ كان لا يَنْشَطُ لأَن يطلُبَ عملَهُ حتَّى يجمعَهُ .

والعالِمُ به يُريدُ جَمْعَهُ في بَصيرَتِهِ ، وجَمْعَ كُلِّ مذهَبٍ إِلَّا

خَبَرَ الواحِدِ لِمَنْ كان لا يعرفُ إلَّا بعضَهُ .

ويذكِّرُ الناسَ بما قد عَلِمَهُ فَنَسِيَهُ ، وينبِّهُ المُتَهاوِنَ لِما كان قد اشتغَلَ عن العِنايةِ بالقيام به ، ويُبيِّنُ للزَّائغ عن طَريقِ الرُّشْدِ أَنه قَدْ تَرَكَهُ . ولعلَّ مَنْ نَظَرَ فيه بالإعْجابِ برأْيِهِ أَن يَنْقُضَ مذاهِبَهُ ، إذا فَهِمَ حُسْنَ العبارةِ عنه ، وإيضاحَ حُجَجِهِ ، ونُورَ بيانه ، يتنبَّهُ مِنْ رَقْدَتِهِ ، ويُفيقُ من سَكْرَتِهِ ، لأَنَّ الحَقَّ عزيزٌ أَينَ كانَ ، والباطل ذَلِيلٌ في كُلِّ أَوانٍ .

والحُجَّةُ ظاهرةٌ بنورِها على الشُّبْهَةِ .

وليسَ مَنْ تفرَّدَ بكتابٍ يقرؤُه وحده مُتَثَبِّتاً فيه ، لا يَشْغَلُهُ عنه سببٌ يقطعُهُ كَمَنْ نازَعَ غيره لأَنه يعترضُ في المُناظرةِ آفاتٌ كثيرةٌ من العُجْبِ بالرأْي .

والذي يَمنَعُ مِنَ الفَهْمِ الأَنَفَةُ التي تَمنَعُ من الخُضُوعِ للحقِّ ، وحُبُّ الغَلَبةِ الذي يَبْعَثُ على الجَدَلِ ، والجَزَعُ من التَّخْطِئَةِ التي تَمنَعُ من الإذْعانِ بالإقْرارِ بالصَّواب .

فَلَمَّا كَثُرَتْ آفاتُ المُناظَرَةِ ، وكان التفرُّدُ بقراءةِ الكتابِ المجموعِ فيه ، والمؤَلَّف فيه حدود الحق ، رأَيتُ أَنْ أُصَنِّفَهُ مبيناً ،

وأستشهدَ عليه الكتابَ والسنةَ وإجماعَ الأُمَّةِ أَو استنباطاً بيِّناً ، أَوِ قياساً إِذا عدم البيانُ بالنصِّ فيما يجوزُ فيه القياسُ وإلَّا فالتسليم .

(والأَصْوَنُ)[1] الكَفُّ عن تَكَلُّفِ ما نُهِيَ عنه ممـــا يَسَعُ جَهْلُهُ ، ولا يؤَدِّي عِلْمُهُ إلى القُرْبى . بـــل تَرْكُ البحْثِ عنه هو القُرْبى والوسيلةُ إلى رِضى الله عز وجل .

ولا غَناءَ بالعَبْدِ عن التَّفْكيرِ والنَّظَرِ والذِّكْرِ لِيَكْثُرَ اعتبارُهُ ، ويزيدَ في علمه ، ويَعْلُوَ في الفضل .

فَمَنْ قَلَّ تفكُّرُهُ قَلَّ اعتبارُهُ ، ومَنْ قَلَّ اعتبارُهُ قَلَّ علمُهُ ، ومن قَلَّ علمُهُ كَثُرَ جَهْلُهُ ، وبانَ نَقْصُهُ ولم يَجِدْ طَعْمَ البِرِّ ، ولا بَرْدَ اليقين ، ولا روحَ الحكمة .

وما بلغ عِلْمُ مَنْ دَرَسَ العِلْمَ بلسانِهِ ، وحفِظَ حروفَـــهُ بقَلْبِهِ ، وأَضرَبَ عن النَّظَرِ والتَّذكُّرِ والتَّدبُّرِ لمعانيه وطلب بيان حدوده ؟

ما أَقربَهُ في حياتِهِ من حياةِ البهائِمِ التي لا تعرفُ إلَّا مـــا باشَرَتْهُ بجَوارِحِها ، لكنَّ المتذكِّرَ النَّاظِرَ فيما يَسْمَعُ ، المتدبِّرَ لِما

---

[1] في المخطوطة : (والأصول والكف) .

عَلِمَ ، المتفهِّمَ لما به أُمِرَ ، الطالبَ لنهايةِ حُدودِ العلمِ ، الغائصَ على غَامِضِ الإصابة ، المُحكِمِ للأُصول ، الرَّادَّ عليها الفُروعَ ، هو المُفَرِّق بين ما لَهُ وما عليه ، والمُبْصِر لما يُصْلِحُهُ وما يُفْسِدُهُ ، القوي على عصيان طبائِعِهِ المنازِعةِ إلى ما يُهْلِكُهُ ، والمخالِف لِشَهواتِهِ التي تُرْديه .

عارفٌ بعواقبِ الأُمور وبما يَحْدُثُ في غابِرِ الدهور (١١٣) مما حدثَ منه ، وهابَ ربَّه ، المؤْثِرُ لَذَّةَ عقلِهِ على لَذَّةِ هَواهُ .. لَذَّةُ الحكماءِ العلماءِ في عقولِهِم ولذةُ الجُهَّالِ والبهائِمِ في شَهَواتهم .

وأيُّ سُرورٍ يَعْدِلُ سُرورَ العِلْمِ ، وروحَ اليقينِ ، وعظيمَ المعرفةِ ، وكثرةَ الصوابِ ، والظفرَ الذي لا يَثْبُتُ ولا يُنالُ إلَّا بحُسْنِ النَّظَرِ ، وطولِ التَّذكُّرِ ، وتكْرارِ الفِكْرِ ، والتقديمِ في التَّكْبير .

فبِذَلِكَ ظَفِرَ بالعِلْمِ باللهِ ، والتعرُّضِ لِولايتِهِ ، وطلبِ الجاهِ عنده ، والتسليمِ لأَمْره ، والتوكُّلِ على كِفايَتِهِ ، وبَذْلِ القليلِ من الدنيا للثوابِ الجَزيل ؛ لأَنه الربُّ الكريمُ .

مَنْ طلبَهُ وجدَهُ ، ومن استكْفاهُ كَفاهُ ، ومن اتَّقاهُ وَقاهُ ،

ومن تَقَرَّبَ إليه أسرع إليه بالإجابة .

يدعوكَ إن أَدْبَرْتَ ويَقْبَلُكَ إِنْ رَجَعْتَ ، ويحمَـدُكَ على حَظِّكَ ، ويُثني عليكَ بما وهَبَ لكَ ، ويحضُّكَ على النَّظَرِ لنَفْسِكَ.

إنما يُمرِضُك لِيُصِحَّكَ ــ إن عقلْتَ ــ ويفقرُكَ لِيُغْنِيَكَ ، ويمنعُك ليُعْطِيَكَ ، يمنعُكَ القليلَ الفانيَ لترضى ؛ فيعطيَكَ الجزيلَ الباقيَ ، ويميتُكَ ليُحْيِيكَ ، ويفنيكَ ليُبْقِيَكَ ، ويُداويكَ بالأَمْراضِ لتبْرَأَ مِنْ سَقَمِ الذُّنوبِ ، ويَغُمُّكَ بالأَوجاعِ ليَغْسِلَكَ مِنْ دَرَنِ الخطايا ، ويعركَكَ بالبَلاءِ ليُلينَ قَلْبَكَ لطَلَبِ الفَوْز .

ابتدأَكَ بالنِّعَم قبل إن تسأَله ، وثنَّاها بعدما ضَيَّعْتَ شُكْرَهُ ، وأَدامها بإِحسانِهِ مع دوام الإعراض مِنْكَ عنه ، فكيف تعرفُ إحسانَهُ ، وتَتَبيَّنُ إساءَتَكَ ، وتُبْصِرُ نجاتَكَ ، وتتَّضِح لكَ أَسبابَ عَيْشِكَ إلَّا بالنَّظَر بعقلكَ فيما قال ؟ والتذكُّر والمجاهدة لنفسِكَ إلَّا لتَعرِفَ ما يُرضيه وتُجانبَ ما يُسْخِطُهُ ، ويباعِدُ منه ؛ لأَنه قد جَعَلَ فيكَ غَريزَةَ العقل ، ومَنَّ عليكَ بالمعرفةِ ، وابْتلاكَ بما في طِباعِكَ مما يهيجُ الغَضَبَ والرضى والبخلَ بالسُّكوتِ لأَنَّ الصَّمْتَ أَعجميٌّ ، وفاعلُهُ كالأَخرسِ لا يعرفُ معناه إلَّا صاحبُهُ .

والقولُ فصيحٌ مبيَّن يَعْرِفُهُ سامِعُهُ ، ومَنْ بَلَغَهُ إلى يوم القيامة لم يَعْرِف القولَ الحَقَّ بالصَّمْتِ ، ولا جميعَ الأَعمـــالِ بالحَقِّ إلَّا بالقَوْلِ ، بل لم يعرف الصمتَ عن الباطِلِ إلَّا بالقول لِما عَرَفَهُ من الكتاب .

وإنَّما أَمر النبيُّ ﷺ بالصَّمْتِ لتارِكِ القَوْلِ بالخَيْرِ فقـــال : « مَنْ كان يؤْمِنُ بالله واليوم الآخِرِ فليقُلْ خيراً أَو ليصمت » .

ولم يُعرف الأُداءُ (١) والبيانُ عن جميعِ الإِحْسان إلَّا بالقول .

آخرُ كتاب مائيَّة العَقْلِ ومعناهُ للحارث بن أسدٍ المحاسبيِّ ، والحمد لله حق حمده وصلواتُهُ على سيِّدِنا محمَّدٍ وآله وسَلامه .

---

(١) في الأصل : الأداب .

كتاب فهم القرآن ومعانيه

تأليف

أبي عبد الله الحارث

رحمه الله

كتاب

فهم القرآن وحقيقة معناه

تمهيـــد :

يعتبر كتاب «فهم القرآن» من أهم الكتب في تاريخ التصوف الإسلامي على الإطلاق ، ليس لأنه تضمن كثيراً من الآراء الأصيلة فحسب ، ولكن لأنـــه يشكل برهاناً أكيداً على أن التصوف الإسلامي إنما هو إسلامي المصدر يعتمد الكتاب والسنة أصلاً له .

ولقد اعتمد كثير من الباحثين القدامى والمحدثين ، على كتاب « فهم القرآن » للمحاسبي فيما يتعلق بالتفسير ، وفيما يتعلق بالتصوف ، وفيما يتعلق بالفكر الإسلامي بوجه عام. ومن الطريف أن يعتقد البعض بأن كتاب « فهم القرآن » قد ُفقد ، ولم يبق منه إلا شذرات منثورة هنا وهناك ، وهذا ما ذهب إليه بالفعل الدكتور عبد الحليم محمود [1] ، الذي استطاع ، بالرغم من اعتقاده هذا ، أن يلم بكثير من جوانب هذا الكتاب القيم ، معتمداً في ذلك على دراسة للاستاذ ماسينيون تناولت مقالة المحاسبي المعروفة باسم «تنبيه التنبيه» وعلى إشارات المحاسبي نفسه في بعض ما كتب ككتاب «العظمة» الذي ذكر فيه أن الدليل على وحدانية الله موجود في كتاب « فهم القرآن » [2] .

---

(١) د. عبد الحليم محمود : المحاسبي ٤٨ - ٤٩ . باريس ١٩٤٠ .

(٢) المصدر نفسه ٦٥ — ٦٦ .

ونحن نذهب مع الدكتور عبد الحليم إلى أن محاولة ترتيب كتب المحاسبي ترتيباً زمنياً هي من الصعوبة بمكان نظراً لأن هذه الكتب قد خلت من تواريخها، غير أن الكتاب عندما يتوفر نصه بكامله بين أيدينا من يكون السهل إلى حد ما البحث عن بعض الأحداث المشهورة ، فنربط بينها وبين تاريخ الكتاب إذا كان وضعه قد رافق هذه الأحداث بالذات .

وهذا ما فعلناه بالنسبة لكتاب « فهم القرآن » للمحاسبي ، ففي حين يحاول الدكتور عبد الحيم محمود أن يرتب ، منطقياً كتاب « فهم القرآن » في في المرحلة الأولى من حياة المحاسبي أي قبل الثامنة والثلاثين من عمره ، على اعتبار أن الكتاب قد تميز بأسلوب هذا العصر الذي يشير إليه ، وبالموضوع الذي كان شغل المفكرين آنذاك ، وهو موضوع « فهم القرآن » والحديث في ذات الله وصفاته [1] ، فلقد حاولنا من جهتنا أن نرد هذا الكتاب ، تاريخياً إلى الزمن الذي نعتقد أنه وُضع فيه ، أي إلى الوقت الذي كان فيه المحاسبي قد بلغ فيه سن الخمسين على وجه التقريب . ذلك لأن هذا الكتاب قد وُضع في العقد الثاني من القرن الثالث الهجري على وجه التقريب . لأن المحاسبي يذكر فيه ولاية ابن طاهر على خراسان ، وقد وليها هذا على اثر استقرار الأمور في بغداد أيام المأمون .

والمحاسبي يذكر أن تولية عبد الله بن طاهر (١٨٠ ـ ٢٣٠ هـ) على خراسان كانت أمراً مشهوراً بحيث يستطيع الإجابة عليه كل أحد، وهذه الشهرة لن تكون إلا بعد ولايته بمدة . وقد وليها هو بعد وفاة أخيه طلحة والياسنة ٢١٤ هـ.

ولقد كان ابن طاهر ، وقت تأليف المحاسبي لكتابه هذا في قمة شهرته ، اذ يقول القائل : من بخراسان ؟ فيقال: ابن طاهر . فيكون تأليف هذا الكتاب في النصف الثاني من العقد الثاني من القرن الثالث للهجرة كما قلنا .

---

(١) المصدر السابق ٦١ — ٦٥ .

ثم ان هناك سبباً آخر لجعل هذه الفترة وقتاً لتأليف كتاب الحارث هذا، إذ تمكنت في ذلك الوقت سيطرة المعتزلة على الفكر في الدولة ، بعد أن انتصر المأمون لمذهبهم ، وحاول حمل الناس عليه . وفي الكتاب حملة على المعتزلة والرافضة معاً وهما الفرقتان اللتان ناصرهما المأمون في حماس وقوة .

وكتاب « فهم القرآن » هو أهم ما وصلنا من كتب الحارث وفي الرد على المبتدعة . فهو في مقدمته يتحدث عن نهج العقل المؤمن ويرى أن العقل الذي يزيغ ليس بعقل حق .

ثم يتحدث عن الفرق الزائغة فيركز على الرافضة الذين يهاجمهم في قولهم بنسخ الأخبار . ثم يعرج على بعض المغفلين من أهل السنة الذين يؤدي قولهم إلى مثل ما أدى إليه قول الشيعة ممن يقولون بالبدوات وحدوث الإرادات، ولا شك أنهم حشوية المحدثين ، ولا بد أنهم كانوا ذوي قوة ملحوظة في ذلك الوقت حتى اهتم الحارث بالرد عليهم .

ثم يبدأ بنقده الأشد والأطول لبعض أهل البدع من المعتزلة ـ كما يسميهم ـ فيمسك بخناقهم في زهاء (١٠ صفحات) من المخطوطة ويبدأ معهم في مسألة النسخ التي يقول انهم خلطوا فيها بين رأي أهل السنة السلفيين ، ورأي الحشوية ، وجعل ذلك مدعاةً لمهاجمتهم جميعاً . ومن هنا نفهم سر حملة المحاسبي على الحشوية إذ بغبائهم أفسحوا المجال أمام المعتزلة لضرب أهل السنة في علوم القرآن .

يبدأ معهم إذن في مسألة النسخ ثم يرد عليهم في بقية أجزاء مذهبهم ، فتتضح من خلال ذلك آراؤه الكلامية فهو يقول بقدم الذات والصفات ، ويثبت العرش والاستواء ، ثم يرد عليهم في العدل والوعد والوعيد ، وينعى عليهم تحجرهم العقلي ، ويسخر منهم في القول في المنزلة بين المنزلتين ، كما يحمل عليهم في نفي الرؤية والشفاعة ، ثم يعلل خطأهم في كل هذا واحتجاجهم على

ذلك كله بالقرآن بأنهم لا يعرفون الناسخ من المنسوخ ، كما لا يحسنون التأويل كما يريد الله ورسوله ، فيجعلون العام خاصاً والخاص عاماً .

ثم يعود في الجزء الأخير من الكتاب إلى تقرير الوضع الصحيح في فهم القرآن : ناسخه ومنسوخه ، وخاصه وعامه. وربما سقطت صفحة أو صفحتان من آخر المخطوط ، لأن الكلام مبتور . وقد يكون الساقط أكثر ، لأن الحارث يذكر في كتاب « العظمة » أن في « فهم القرآن » الدليل على وجود الله . وما تحدث عنه الحارث في كتاب العظمة غير موجود فيما بين أيدينا من « فهم القرآن » .

شرح وتلخيص

المقدمـــة :

أ – في تنزيه الله :

تتضمن الرد على الجهمية والمعتزلة والمشبهة والحشوية فهو يقول : « الحمد لله الذي ما سبقه شيء فيكون محدثاً مخلوقاً ، ولا بقي إلى أجل فيكون فانياً موروثاً ... فات المقدار وعلا عن توهم الأذهان ، تاهت الألباب عن تكييفه ، وتحيرت العقول عن إدراكه » فلا تشبيه ولا تجسيم وإنما هو تنزيه مطلق يتفق وجلال الألوهية .

ويصل إلى خلق الإنسان فيذكر أنه سبحانه « خلقه لغير وحشة في انفراد أزليته ، ولا استعانة به على ما يريده من تدبيره » ؛ فلا قيمة لمـــا يرويه الحشوية ، وينسبونه إلى الرسول « كنت كنزاً مخفِيّاً فأردت أن أُعرف فخلقتُ الخلق فبي عرفوني » .

ويفضي به القول إلى آراء الجهمية في تنزيه الله والمعتزلة في الذات والصفات فيرد عليهم في سياق المقدمة فهو سبحانه « علم ما كان وما يكون ومـــا لا يكون لو كان كيف كان يكون » وذلك « لتفرده بعلم الغيوب فلا حاجـــة للقول بصفات حادثة ، ولا حاجـــة لنفي الصفات بحجة التنزيه ما دام العلم واحداً في كل حال والمتغير تعلقه أي المعلوم إذ أن العلم هو انكشاف المعلوم على ما هو عليه .

ب - في العقل :

ولقد استخص الله آدم وذريته « فأخذ منهم الميثاق بما فطرهم عليه من العقول الرضية والألباب والفهم ليدبروا بها شواهد التدبير ، وأحكام التقدير » ولن يستطيع الإنسان أن يقدر نعمة الله في هبته العقل له حق قدرها إلا إذا عرف أن « العقول معادن الحكمة ، ومقتبس الآراء ومستنبط الفهم ، ومعقل العلم ، ونور الأبصار ، إليها يأوي كل محصول » .

ولأنه تفرد بعلم الغيب سبحانه ، فإنه لا يعرف صفاته ومراضيه ومساخطه إلا هو ، لذا فقد أرسل الرسل « فكلمهم تكليماً لا بأداة أو آلة بل (بذاته) » فخاطبوا العقل البشري بأمر الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) ففضل العقل ، في أنه الأداة التي تتلقى عن الرسل شرع الله ، وهذه هي وظيفة العقل ، أن يعقل الشرع لا أن يشرع ويبتدع من عنده ، فلم يكن ممكناً أن نعبد الله حق العبادة بغير رسالة ، وباسم العقل لأن العقل متلق وليس صانعاً .

القسم الاول :

لما كان القرآن بهذه المثابة من الأهمية إذ أنه المهيمن على العقل ، فلا بد من تعريف به وبحامله ، وهو ما فعله المحاسبي في هذا الفصل ، وقد قسمه إلى عدة فقرات :

أ - فضائل القرآن :

« فقد أمرهم بالمكارم ، ونهاهم عن الآثام والمحارم ، ووعدهم فيه جزيل الثواب ، وضرب لهم فيه الأمثال ، وفصّل لهم فيه المعاني الدالة على سبيل النجاة ، وأبان فيه المشكلات ، وأوضح لهم فيه الشواهد... فهو بركة لقوله

تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك) ليعلموا بذلك أنه يدلهم على النجاة ، وينالون باتباعه الزلفى والكرامة . وهو أحسن الحديث تصديقاً لقوله تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم) . فأخبرهم أنه لا حديث يشبهه في حسنه ، وأخبر أنه متشابه غير مختلف فيه . وسماه بأحسن الأسماء فقال : (كتاب عزيز) .

وقال أن ما قبله من الكتب مصدق له وشاهد ، وأخبر أنه محفوط لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو نور الليل المظلم ، وضياء النهار ويجب العمل به على ما كان من جهد وفاقة » .

ب – فضائل القراء :

أما الذين يتلون القرآن ويتدبرونه فهم أولياء الله الذين نعتهم بقوله : (تقشعر جلودهم) وتبكي أعينهم وتطمئن قلوبهم إلى ذكر الله عز وجل وقد ضمن الله لهؤلاء : أن من اتبع منهم ما في كتابه من الهدى الإجارة من الضلالة في الدنيا والسعادة في الآخرة والنجاة من الشقاء . قال الله عز وجل : (فمن تبع هداي فلا يضل ولا يشقى) .

ثم روى أحاديث كثيرة في فضل حاملي القرآن وقراءته ، « فلو ذاب أهل السموات والأرض حين يسمعون كلام الله عز وجل أو ماتوا خموداً أجمعون لكان ذلك حق لهم ، ولما كان ذلك كثيراً إذ تكلم الله عز وجل به تكليماً من نفسه من فوق عرشه . من فوق سبع سماواته . وإذا كان كلام العالِم أولى بالاستماع من كلام الجاهل وكلام الوالدة الرؤوم أحق بالاستماع من كلام غيرها والله أعلم العلماء وأرحم الرحماء فكلامه أولى كلام بالاستماع والتدبر والفهم . فإذا اجتمع هَمّ القراء وحضر ، زكت أذهانهم ، وإذا زكت قويت على طلب الفهم واستبانت اليقين وصفت للذكر » .

القسم الثاني

في فقه القرآن

ينبغي لتالي القرآن أن يعرف ناسخه ومنسوخه ، محكمه ومتشابهه وعامه وخاصه، ومقدمه ومؤخره وموصوله ومفصوله ، وغريبه وما لا يعرف معناه إلا باللغة أو بالسنة أو بالإجماع ، « قال ابن عباس : أُنزل القرآن على أربعة أوجه : حلال ، وحرام ، ولا يسع جهله . وتفسير يعلمه العلماء . وعربية تعرفها العرب . وتأويل لا يعلمه إلا الله » .

القسم الثالث

ما يجوز فيه النسخ وما لا يجوز فيه ذلك :

بعد أن ذكر أنّ في القرآن ناسخاً ومنسوخاً، ورأى أن على قارىء القرآن المتدبر له معرفة ذلك قال إن في القرآن معنيين « لا يجوز فيهما النسخ ومن دان بأنه يجوز فيهما النسخ فقد كفر » :

١ ـ صفات الله وأسماؤه :

« فلا يحل لأحد أن يعتقد أن مدح الله جل شأنه ولا صفاته ولا أسماؤه يجوز أن ينسخ جل وعز ، وصف نفسه بصفاته الكاملة . فمن أجاز النسخ فيها أجاز أن يبدل أسماءه الحسنى فيبدلها قبيحة ، وصفاته العليا فتكون دنية ناقصة سفلى ، ومدحه الظاهر ، فتكون مذمومة دنية جل وتعالى عن ذلك علواً كبيراً » .

٢ ـ وأخباره تعالى عما كان ويكون :

« لأنه بذلك يكون منصرفاً من الصدق إلى الكذب ، ومن الحق إلى الهزل

واللعب . وإنما ينسخ أخباره الكذاب أو المخبر بالظن » والمحاسبي ينطلق من المقدمة السابقة ليهاجم طوائف من الشيعة والمعتزلة والحشوية .

وقد سبق أن أوضحنا أن القرن الأول من عصور الدولة العباسية ساده صراع عنيف بين المعتزلة والشيعة من جانب والمحدثين من جـــانب آخر ، وتطرف كل من الفريقين في موقفه ، فكان كتاب المحاسبي هذا لإعادة الأمر إلى نصابه ، بعيداً عن الغالين والمقصرين ، المفرطين والمُفَرِّطين . وقد رأى المحاسبي أن القول بالنسخ في الأخبار ، والأخذ بالمتشابـــه في صفات الله ، يؤدي إلى نتائج ليست من الإسلام في شيء .

البدوات وحدوث الارادات :

« إن النسخ في الأخبار يوجب بالخبر الثاني الكذب في الخبر الأول ، كما يلزم منه البداء . والبداء من الجهل ، وذو البدوات جاهل بما يكون فيما يستقبل . والله سبحانه وتعالى يقول : لا تبديل لكلماته ، وقد أوّل بعض من يدّعي السنة ، وبعض أهل البدع ذلك على الحدوث . فأما من ادعى السنة فأراد إثبات القـــدر فقال : إرادة الله عز وجل أحدث من تقديره ، فتقديره سابق لإرادته .

وأما أهل البدع فزعموا أن إرادة الله عز وجل ، بها كوّن المخلوق ، فزعمت أن الخلق غير المخلوق ، وأن الخلق هو الإرادة » .

ويرد عليهم المحاسبي رداً هو رد الأشاعرة والغزالي فيما بعد . ان العلم هو انكشاف المعلوم على ما هو عليه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً . والإرادة تخصيص لزمان وقوع الفعل ... «وأما قوله : (إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقوله : (إذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها) . فإنه لم يزل يريد قبل أن يحدث الشيء أن يحدثه في وقت إحداثه . فلم يزل يريد إحداثـــه في الوقت المؤخر ، فإذا جاء الوقت فهو أيضاً يريد أن يحدثه فيه فبإرادته أحدثه في ذلك الوقت الذي فيه أحدثه ، فإرادته عز وجل دائمة لأنه مُريدٌ قبـل

الوقت ... وفي الوقت الذي أحدثه فيه، فأراد بقوله عز وجل: (إذا أردناه): إذا جاء الوقت الذي هو فيه وهو له قبل في الوقت مريد ، فأوقع إذا على الإرادة ، وإنما أراد الوقت وهو مريد له أيضاً في الوقت . واذا أردنا أن نهلك قرية : يعني الوقت الذي أردناه من قبل إذا جاء الوقت أهلكناها فيه ... لا على البدء منه بإرادة أخرى » .

السمع والبصر :

وكذا السمع والبصر ، معناهما انكشاف المسموع والمبصر على ما هما عليه لا بآلة « والمراد من مثل قوله تعالى : إنا معكم مستمعون . أن المسموع والمبصر لم يَخْفَ على أن أدركه سمعاً وبصراً لا بالحوادث في الله عز وجل . ومن ذهب إلى أنه يحدث له استماع مع حدوث المسموع وإبصار مع حدوث المبْصَر فقد ادعى على الله عز وجل ما لم يَقُلْ » .

العلو :

والحارث سلفي في مسألة العلو والعرشية[1] ، فهو يقول أنه تعالى على عرشه بائن عن خلقه ، ويرد على أولئك الذين يقولون انه تعالى في كل مكان بذاته ، وهم الجهمية وأهل الحلول من المتصوفة . وقد عاصر الحارث المنزّهة المخطئين ، كما عاصر جماعة من الحلولية منهم أبو حمزة الصوفي ، الذي كان له وقائع معه . أما ما ورد في القرآن من مثل قوله تعالى : معهم أينما كانوا . وهو الذي في السماء إله ، وغيرها ... « فذلك موجود في اللغة إذ يقول

---

(١) ابن رشد : مناهج الادلة في عقائد الملة ١٧٦ « وأما هذه الصفة - الجهة - فلم يزل أهل الشريعة من أول الامر يثبتونها لله سبحانه حتى نفتها المعتزلة ، ثم تبعهم على نفيها متأخرو الاشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله . وظواهر الشرع كلها تقتضي اثبات الجهة » . والقول بأن الله فوق عرشه ، يقول به : الاوزاعي ، ومالك والثوري ، وحماد بن سلمة ، ومسعر بن كدام ، وأكثر السلف . راجع الذهبي : العلو للعلي الغفار . مع ملاحظة أنه متطرف في ذلك الى حد التشبيه بل التجسيم .

القائل : من بخراسان ؟ فيقال ابن طاهر ، وإنما هو في موضع ، فجائز أن يقال أمير في خراسان فيكون أميراً في بلخ وسمرقند وكل مدنها . هذا وإنما هو في موضع واحد يخفى عليه ما وراء بيته ... ولو كان على ظاهر اللفظ ما جاز أن يقال أمير في البلد الذي هو فيه ولا في بيته كله وإنما هو في موضع منه ، لو كان معنى هذا الكون ، فكيف العالي فوق كل شيء ولا يخفى عليه شيء من الأشياء يدبره فهو إله أهل السماء وإله الأرض ؟ » .

الحشوية والنسخ في الاخبار :

وافق الحشوية بعض الروافض في القول بنسخ الأحبار دون أن يقصدوا إلى ذلك « فقال الكلبي أنه لما نزلت : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم . نسخها بقوله : إن الذين سبقت لهم منا الحسنى . ومعنى ذلك أن لو لم يكن نسخها أن الله عز وجل قال انكم ومـا تعبدون من دون الله حصب جهنم أنه أراد به أن يعذب عزيراً والملائكة والمسيح فأوجب عليهم العذاب، ثم نسخ ذلك بعد ما أوجبه كما أوجب قيام الليل ثم نسخه ... ومعـاذ الله أن يكون الله عز وجل أراد وأحب تعذيب أوليائه من الملائكة ولا المسيح ولا عزير ، وقد تقدمت فيهم أخبار من الله عز وجل بالولاية قبل أن ينزل آية العذاب ... فلما نزلت آية العذاب لم يرد بها من تقدم منه القول بولايتهم وإنما أراد من عبدوا سوى أوليائه ، وكان خبراً خاصاً لا عاماً » .

ثم ذكر أمثلة أخرى من الأخبار التي ظاهرها العموم وهي خـاصة في طائفة معينة أو واقعة معينة .

أين يجوز النسخ ؟

« فالناسخ والمنسوخ لا يجوز أن يكونا إلا في الأحكام في الأمـر والنهي والحدود والعقوبات في أحكام الدنيا .... »

ولا يعني ذلك البداء ، أو التناقض « ولكنه أمَر بأمر ، وحكم بحكم وهو يريد أن يوجبه إلى وقت ويريد أن يأمر بتركه بعد ذلك الوقت فلم يزل مريداً للفعل الأول إلى الوقت الذي أراد نسخه وإيجاد بدله ... ولا ينسخ أمره ، ولكن ينسخ المأمور به بمأمور آخر . وذلك موجود بين العباد على تقدم الإرادة منهم ، فيما أُمِروا به أولاً ثم نهوا عنه وامروا بغيره من غير بدو ولا جهل . وذلك كأن يأمر الرجل غلامه ليعمل في أرضه وهو يريد أن يعمل فيها وقت الزراعة ثم يصرفه بعد ذلك إلى خدمته في منزله وكلاهما قد تقدمت به الإرادة منه » .

ثم ذكر أن المعتزلة رغم ضلالهم وافقوا أهل السنة في امتناع نسخ الأخبار وجواز نسخ الأحكام لكنهم أفضوا من هذه المقدمة السليمة إلى نتيجة فاسدة ، هي :

القول بخلق القرآن :

ولهم على ذلك حجتان :

أ ـ أن كلام الله مخلوق « لأنه ينسخ كلامه بكلامه ، فيما أمر به ونهى عنه ، ولو لم يكن مخلوقاً ما جاز عليه النسخ ولا التبديل » .

وقد رد عليهم الحارث بأن هذا التفسير منهم للنسخ تمحل وجهل بالمعنى الحقيقي ، إذ أن الله لم ينسخ كلامه ، وإنما « نسخ مأموراً به بمأمورٍ به . فأبدل أحدهما مكان الآخر وكلاهما كلامه . وإنما ينسخ كلامه الأول بكلامٍ منه ثانٍ الكاذبُ الراجعُ عما قال . فأما إذا كانا جميعاً منه حق وصدق فلا نسخ إلا في المأمور والله سبحانه يقول : (لا مبدل لكلماته) . ويقول : (يريدون أن يبدلوا كلام الله) . فدل الله عز وجل بذلك أن في تبدل كلام الله ايجابَ الكذب ، والله عز وجل لا يبدل كلامه ولا ينسخ قوله وإنما ينسخ فرضه بفرض آخر » .

ب – « (ما نسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها . فقالوا : ما جاز فيه أن يكون بعضه خيراً من بعض فهو مخلوق لأنه إذا كان شيء هو خير من شيء فقد فضله والآخر منقوص ، وقال : أو مثلها . وما كان له فهو مخلوق لأن المثل يشتبه بمثله ، وما جاز أن يأتي به الله عز وجل فيحدثه فهو مخلوق ، وكل مخلوق فمثله مخلوق ، لأن حكم المثل حكم مثله ... وجهلوا التأويل . إنما قوله جل وعز : نأت بخير منها ، بخير مأمور به خير م ها لا يعني خيراً من التوحيد ، وإنما يعني له فيها خير ، كما يقال : الدراهم خير من المال ، لا يريد أفضل من المال ، وإنما يعني له فيها خير... أي يريد الدراهم من المال خير ... ومن زعم أن كلامه عز وجل في (وأقرأوا ما تيسر منه) خير من قوله (يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلاً) كان كافراً بالله عز وجل إذ ازدرى كلام الله وزعم أنه منقوص دني » .

القسم الرابع : مع المعتزلة ، دفاع والتزامات

دعوى المعتزلة :

« وقد ادعى علينا بعض أهل البدع من المعتزلة أنا نزعم أن الله عز وجل ينسخ أخباره وصفاته ، فقالوا ان الله عز وجل أخبر أنه يعذب القاتل والزاني وشارب الخمر وآكل مال اليتيم ظلماً ولم يستثن منهم أحداً فزعمتم أنه جائز أن يغفر الله لبعض أهل الكبائر ، وأنه لا يغفر لبعضهم ...»

ويصل الأمر إلى الصفات فيقول المعتزلة : « زعمتم أن الله جل وعز امتدح بأن الأبصار لا تدركه . ثم زعمتم أن هذه المدحة تبدل في الآخرة فتراه العيون وهذا نسخ المدح لأنه امتدح بأن الأبصار لا تدركه ولم يستثن.. فزعمتم أنها تدركه في الآخرة نظراً ... » .

«ولو جاز أن يغفر الله لأهل الكبائر لجاز أن يغفر للكفار لأنه كذلك قال إني أعذبهم» .

ويرد الإمام المحاسبي عليهم بأنهم أبعدوا في القياس ، وإنما أُتوا من قبل الجهل بخطاب الله وتأويله وغفلتهم عن علوم القرآن ، فأخبار الله ومدحه لا تنسخ لكن من الاخبار عاماً وخاصاً. « وان اتفق ظاهر تلاوتها في العموم، فهو مختلف في معاني العموم والخصوص » .

في الوعد والوعيد :

« فأما ما ادعوا علينا في الوعيد فهذه دعوى باطل » إذ أن الله جل وعز أوجب لاهل الكبائر العذاب ، وهو يريد أن ذلك عليهم وأنهم له مستحقون ولم يرد أن يعذبهم أجمعين « فإن أراد أن يعذب بعض من استوجب فيعذبه بعدله ، ويعفو عن بعض من وجب عليه بفضله » وقد قال الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فأيسنا من عفوه عن المشركين ، ورجونا عفوه عن بعض أصحاب الكبائر دونما تعيين .

ورأى المحاسبي بعد هذا أن المعتزلة يمكن أن يلجأوا إلى ظواهر الآيات مع أنهم هم متطرفة المؤولة فتتبعهم في ذلك وسد عليهم الطريق بحجج من كلامهم نفسه وألزمهم عدة الزامات .

الزام المعتزلة :

يوجب المعتزلة على الله عقاب الكفار وأصحاب المعاصي ، كما يوجبون المغفرة لاصحاب الصغائر غير المصرين ، وهذا الإيجاب يرى فيه المحاسبي خروجاً على الكتاب والسنة وإجماع الامة ، ويرتب عليه عدة نتائج .

أ ـ امتناع الخوف والرجاء :

« إذ أن مرتكب الكبيرة مستيقن أنه في النار ، ومجتنبها مستيقن أنه

في الجنة ، إذا خاف أحدهما أو رجا يكون شاكاً في وعد الله ووعيده ، فيكفر .. والموحدون لا يخلو أحد منهم من أن يكون مجتنباً للكبائر أو مصراً على بعض الكبائر أو دون ذلك أو كلاهما ، فحرام عليهم على قولكم الخوف والرجاء ، لأنه لا يخلو أحد منهم من أن يكون من إحدى المنزلتين ، وهذا الخروج من الكتاب والسنة وإجماع الأولين والآخرين » .

ب - امتناع العفو :

« وكذلك العفو في الآخرة لا يجوز أن يكون من الله جل ذكره على مذهبكم ، لأنه لا يلقى الله إلا صاحب كبيرة قد أوجب في الدنيا ألا يعفو عنه ، وذلك عندكم إن اعتقده لأن الله جل ذكره قد آيسه من ذلك . أو صاحب صغيرة غير مصر على كبيرة يعد مجتنباً للكبائر كلها فقد عفى الله عنه في الدنيا ، وقد مات يوم مات وهو مغفور له ، من أهل الجنة فلا يحتاج إلى العفو والصفح ... وهذا الخروج من الكتاب والسنة وإجماع القرون من الأولين والآخرين » .

ج - امتناع شفاعة النبي ﷺ :

«لأن صاحب الكبيرة معذب لا محالة ، فلا يستطيع الرسول ﷺ ، أن يشفع له ولا تغني عنه شفاعته شيئاً ، والمجتنب للكبائر مثاب لا محالة .. فلا حاجة به إلى شفاعة وهذا رد للآراء المستفيضة عن النبي ﷺ والأمة كلها جاهلها وعالمها ، كلهم يرجون شفاعة النبي ﷺ » .

القسم الخامس

في ذكر الناسخ والمنسوخ من الاحكام :

بعدما خاض المحاسبي معركة مع المشبهة والمعتزلة والروافض ، حول

الناسخ والمنسوخ ، والعام والخاص في القرآن أراد أن يرسم الطريق الصحيح الذي ينبغي أن يتبع في فهم القرآن ومعرفة معانيه. فعقد هذا الباب للناسخ والمنسوخ ثم عرض بعد ذلك لدقائق ولطائف في التفسير .

بدأ المحاسبي هذا القسم بتقسيم القرآن إلى مكي ومدني . ليعرف المتقدم من المتأخر وهو الأمر القاطع في معرفة الناسخ من المنسوخ وبعد أن عدد آراء العلماء في عدد السور المكية والمدنية عرض لمميزات كل من المكي والمدني بإيجاز ، ثم تحدث في الناسخ والمنسوخ ، فقسمه إلى خمسة عشر باباً :

١ — ما رفع رسمه من الكتاب ولم يرفع حفظه من القلوب ، فأثبت حكمه بسنة النبي ﷺ كآية الرجم وغيرها .

٢ — ما رفع حكمه من الآية بآية أخرى وبقي رسمه ثابتاً في كتاب الله عز وجل منه : (إن يكن منكم عشرون صابرون) الآية .

٣ — أن يرفع رسمه من الكتاب ويرفع حفظه من القلوب وحكمه : « حدثنا القاسم بن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن ليث عن عقيل عن ابن شهاب عن أبي امامه أن رجلاً كانت معه سورة فقام يقرأ من الليل فلم يقدر عليها ، وقام آخر يقرؤها فلم يقدر عليها ، فقال النبي عليه السلام : إنها نُسخت البارحة » .

٤ — أن يرفع رسمه من الكتاب ويبقى حفظه في القلوب ويرفع حكمه . من ذلك ما روت عائشة أنه كان فيما أنزل الله ألا يحرّم إلا عشر رضعات . والأمة مجمعة على أن حكم العشر رضعات غير لازم في الكتاب والسنة . وإنما اختلف العلماء في رضعة أو خمس رضعات ولم يقل أحد ما فوق الخمسة .

٥ — أن يرفع الرسم ويرفع الحكم لعلة فانقضت تلك العلة وذلك كقوله: (فإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) .

٦ – أن يفعل النبي ﷺ أو يأمر أمته بفعل ليس بنص كتاب الله عز وجل فينسخه الله بحكم أنزله في كتابه فيثبت الحكم في الكتاب ... من ذلك نسخ الصلاة إلى بيت المقدس ، ونهيه عن الاستغفار لعمه .

٧ – أن يختلفوا في الآيتين ناسخة إحداها الأخرى أم غير ناسخة، وإن أجمعوا أن يستعملوا التي اختلفوا فيها أمنسوخة أم لا؟ على التجوز والاحتياط لا لا على القطع ، من ذلك قوله (وأن تجمعوا بين الاختين) ثم قال جل ثناؤه (إلا ما ملكت ايمانكم) فقال علي وعثمان : أحلتهما آية وحرمتهما أخرى .

٨ – أن يختلفوا في الآيتين أناسخة إحداهما أم لا ، ويجمعوا على إثبات حكمها في معنيين مختلفين . من ذلك : (ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها)، لا تخافت عن أصحابك فلا يستطيعون أن يأخذوا عنك . ولا تجهر حتى لا لا يسب المشركون القرآن وكان ذلك بمكة .

٩ – ان أصحاب محمد عليه السلام اختلفوا في آيتين هل نسخت إحداها الاخرى؟ وحكمها جميعاً ثابتان. ثم أجمعت العلماء بعد عصرهم من التابعين ومن بعدهم أخذا عن سنة النبي عليه السلام أن إحداهما نسخت الاخرى، وأنها معدلة لبعض حكمها من ذلك قوله عز وجل : (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهم أربعة أشهر وعشراً) . وقوله : (واولات الاحمال أجلهن أن يضعن حملهن) . فاختلف الصحابة : فقال ابن مسعود إن سورة النساء القصرى أُنزلت بعد . وقال غيره تربص آخر الأجلين ... والامة مجمعة اليوم أن الآية في الحامل قد ثبت حكمها وأنها لا تتربص آخر الاجلين ، وذلك أنه ثبت عن النبي (ص) أنه أمر سبيعة أن تتزوج بعد وفاة زوجها بأربعين يوماً .

١٠ – أن يجمع العلماء على نسخ آية ثم يختلفون في الناسخة ماذا أوجبت من الحكم ، فيجمعوا على حكم أنها أوجبته ونسخت ما قبله ، ويختلفون في غيره أثبت بالناسخة أم لا ؟

١١ – أن يختلف الصدر الاول من أصحاب النبي (ص) في الآيتين أنسخت إحداهما الاخرى أم لم تنسخها ، ثم يجمع العلماء على أن إحداهما هي المحكمة من ذلك الآيتان : (والزانية لا ينكحها إلا زان) ، (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات) .

١٢ – أن تختلف الامة في الآية أولها وآخرها في آيتين ، هل نسخت إحداهما الاخرى ؟ ثم لا يجمعون على واحد من القولين ، من ذلك قوله عز من قائل في أهل الذمة (فإن جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض) .

١٣ – الذي أجمعت عليه الامة أنه ناسخ فمنسوخ لا يختلفون في ذلك .

١٤ – أن يختلف العلماء في نسخ آية أو عدمه ، بناء على الاختلاف في تفسيرها ، من ذلك : (فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً). فأجمعوا أنه أسقط الفسق بالتوبة ، فقال بعضهم : نسخه . وقال بعضهم : لم يرده ، وإنما أراد من لم يتب . فقال بعضهم : لم يرد التائب في ترك قبول الشهادة . ثم اختلفوا في الشهادة ....

١٥ – ما اختلفوا أنه منسوخ ولا يجوز عند أهل النظر أن يكون في الكتاب والسنة . من ذلك قوله عز وجل : (انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) . وقد سبق أن ذكرنا رأي الحارث فيما ذكره الكلبي حول نسخ هذه الآية .

ويلاحظ أن أكثر ما ذكره الحارث مما اختُلف فيه يمكن ارجاعه إلى نوع واحد . وتبقى أنواع ثلاثة : منسوخ حكماً وتلاوة ، ومنسوخ حكماً ثابت تلاوة ، ومنسوخ تلاوة ثابت حكماً [١] .

---

(١) الآمدي : الإحكام ١٢٩/٣ : اتفق العلماء على جواز نسخ التلاوة دون الحكم ، وبالعكس ونسخهما معاً ، خلافاً لطائفة « شاذة » من المعتزلة ، ويدل على ذلك العقل والنقل اه .

القسم السادس

من أساليب القرآن :

وأفضى بالمحاسبي الحديث إلى تناول بعض جوانب التفسير مما يتصل بالنحو والبلاغة . ولا شك أن هذا أثر من آثار بيئته الثقافية ، سيما وأن من أساتذته أبا عبيد القاسم بن سلام صاحب كتاب (غريب الحديث) الذي يعرض لموضوعات مشابهة . والمخطوط ناقص من آخره ، سطوراً أو صفحات. والامور التي نبه إليها الحارث الناظرين في القرآن بعد حديثه المسهب في في الناسخ والمنسوخ ، هي :

التقديم والتأخير :

(لان العرب قد كانت تفعل ذلك في تراجعها بينها ومخاطبتها قبل أن ينزل الكتاب على نبيه عليه السلام) . من ذلك قوله : فكيف كان عذابي ونذر . ولا شك أن النذر مقدمة على العذاب في الواقع . وقوله : (من بعد وصية يوصي بها أو دين) ، فبدأ بالوصية ، وسنة النبي (ص) البدء بالدين . وقوله : (لهم غرف من فوقها غرف مبنية) مقدم ومؤخر ، وإنما معناه لهم غرف مبنية من فوقها غرف كذلك . وكذلك فسرها أهل التفسير .

الاضمار :

من ذلك قوله : (واشربوا في قلوبهم العجل). وإنما هو حب العجل. وقوله (واسأل القرية) أي أهل القرية. (واسأل العير): أي أصحاب العير . وقوله: (يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق). ومعناه: ونقول ذوقوا...

الحروف الزوائد :

من ذلك: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) فلا زائدة. وقوله: (خلقكم

والذين من قبلكم) من، زائدة. وقوله: (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة) ما زائدة ، وهي توكيد وانما معناه أن يضرب مثلاً بعوضة فزاد قوله « ما » توكيداً .

الفصل والوصل :

« وفصل الكلمة عن الكلمة إذا انفردت كل واحدة منهما بمعنى هو المعنى الذي في الاخرى وكان لا يتم المعنى إلا بتواصلهما جميعاً فهو موصل ومفصل من هذه الجهة ، وهو مفصل من معنى آخر : ان الله جل ذكره بيّنه كله وهو قوله تعالى: (وفصّلناه تفصيلاً). وقال عز من قائل: (احكمت آياته ثم فصلت) » .

ومن الفصل فصل يكون كفراً ، كالوقوف عند لا إله ، من لا إله إلا الله . ومن الوصل وصل يكون خطأ . وعلى قارىء القرآن أن يراعي ذلك كله .

وواضح كما قلنا أثر كتاب المجاز لابي عبيدة معمر بن المثنى[١] وأثر شيخه أبي عبيد القاسم بن سلام .

---

(١) ينقل المحاسبي عن كتاب المجاز لأبي عبيدة في أثناء حديثه عن قوله تعالى : « وأخر متشابهات » وفي مواطن أخرى .

كتاب
فهم القرآن ومعانيه

فهم القرآن

لأَبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي

في تنزيه الله [١] :

عونَكَ اللَّهُمَّ .

الحمدُ للهِ الذي ما سبقَهُ شيءٌ ، فيكونَ مُحْدَثاً مَخْلُوقاً ، ولا بقيَ إلى أَجلٍ ، فيكونَ فانياً موروثاً .

الأَوَّلُ القديمُ ، الدايمُ الكريمُ ، فاتَ المقدارَ ، وعلاَ عن توهُّمِ الأَذْهان .

تاهتِ الأَلْبابُ عن تكْييفِهِ ، وتحيَّرتِ العُقول عن إدراكِه . تفرَّدَ بعلمِ الغُيوبِ ، فَعَلِمَ ما كان ، وما يكونُ ، وما لا يكونُ لو كان كيف كان يكون .

---

(١) هذه الترويسات وضعناها من عندنا محاولة منا للتبسيط بتقسيم الكتاب وتبويبه .

خَلَقَ (الخَلْقَ) لغيرِ وَحْشةٍ في انفرادِ أَزَلِيَّتِهِ ، ولا استعانةٍ بهم على ما يُرِيدُ من تدبيره.

لكنْ أَرادَ أَن يَنْشُرَ رَحمَتَهُ ، ويمنَّ بفضْلِهِ ، ويستخلص مَنْ يَشاءُ من بَرِيَّتِهِ ، فابْتَدَأَ آثارَ الْقُدْرَةِ ، وأَحْكَمَ الصُّنْعَ ، وأَتْقَنَ التدبيرَ ، وابتدأَ بالطَّوْلِ ، وبَعُدَ بالمَنِّ ، فعمَّ به عبادَهُ عَدْلاً وأَوسعَهُمْ فَضْلاً ، فله الحمدُ والثناءُ شُكراً .

لم يَخْلُقْ خَلْقَهُ عَبثاً : ولا تركَهُم سُدًى ، ولكنْ أَراد أَن يتعرَّفَ إلى عِبادِه بآياتِهِ البيِّنةِ ، ودلايِلِهِ الواضحةِ ، ليؤَدُّوا واجِبَ حَقِّهِ ، ويجتنبوا مَساخِطَهُ ، لغيرِ حاجةٍ إلى طاعتِهِمْ ، ولكنْ ليستحقَّ الثوابَ من أَنابَ وأَجابَ ، ويستحقَّ العِقابَ مَنْ جَحَدَ وارْتَابَ .

فاستَخَصَّ آدمَ وذريتَهُ ، فأَخذَ منهم الميثاقَ بما فَطَرهم عليه من العقولِ الرضيةِ ، والأَلبابِ والفَهْمِ ، ليدَّبروا بها شواهدَ التدبيرِ ، واحكامَ التقديرِ ، فأَلزمهم بذلك حُجَّةً مِن عُقُولِهِم ، بما شاهدوا من إنشائه ، وإِتْقانِ صُنْعِهِ في أَنْفُسِهِم ، وفي جميعِ خَلْقِهِ ، ثُمَّ أَكَّدَ الحُجَّةَ عليهم ، بإرسال الرُسُل إليهم ، فنبَّهَهُمْ على النَّظَرِ بما

شاهدوا من الآياتِ الظاهرةِ ، والدلايـل البيِّنةِ ، ولم يَظْهَرْ لهم سبحانَهُ بنَفْسه ، فيُبْدي لهم عظمتَهُ ويخاطبهم (دون رسله ؟)

ولم تكنِ الرُّسُلُ لتعرفَ صفاته ، ولا مـا يحبُّ ويكرهُ ، فيعلموا غَيْبَهُ كما عَلِمَ غُيوبَهُمْ ، فيكونوا أرباباً مثلَهُ ، جلَّ وعلا عن ذلك وتعالى ، ولم يكونوا ليعرفوا صفاته ولا ما في نفسِهِ مما يُحِبُّ ويكْرَهُ ، وما يُرِيدُ أن يُكْرِمَ به مَنْ أَطاعَهُ ، ولا مـا يهينُ به مَنْ عصاهُ أبداً .

ثم تكلَّمَ بذلك تكليماً بذاتِهِ ، فأَكَّدَ عليهم الحُجَّةَ بكلامِهِ ، واختارَ إرسالَ الأَنبياءِ مِنْ عِبادِهِ ، فأَرسلهم بكلامِهِ ، ووَصَفَ لهم صفاته الكاملةَ ، وأَسماءَهُ الحُسْنى ، وما يرضى بـه من المقالِ والفعالِ ، وما يُسْخِطُهُ من الأَعمالِ ، وما أَعَدَّ لمن أَطـاعَهُ من الثَّوابِ الجَزيلِ ، والعَيْشِ السليمِ ، والنعيمِ المُقيمِ ، ومـا أَعدَّ لأَعدائِهِ من أَليمِ العَذابِ ، وشديدِ العقابِ في اليوم الذي يَعْرِضُ فيه عِبادَه ، ويُحاسِبُ خَلْقَهُ بأَهوالِهِ وزلازله ، فأَرسل بذلـك الأُمَناءَ من رُسُلِهِ ، فقطع بهم العذرَ وأَزاحَ بهم العِلَلَ ، وقال جَلَّ من قائلٍ : « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[1] » . وقال :

---

(١) النساء : ١٦٦ .

« ان تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير »[1] . ثم أَخبر عباده انه وجه إِليهم النذر بكلامه وقوله ، فقال : « ومَنْ أَصدقُ من الله قيلا »[2] .

وقال : « لا مبدِّل لكلماته »[3] .

في العقل :

وأَنَّهُ خاطبَهُمْ به من قِبَلِ أَلْبابِهِمْ ، فقال : « إِنَّما يتذكَّر أولوا الأَلْباب »[4] .

وقال: « لقومٍ يعقلون »[5] ، و « لقومٍ يتفكَّرون »[6] ، لأَنه جعلَ العقولَ معادنَ الحكمةِ ، ومقْتَبَسَ الآراءِ ، ومُسْتَنْبَطَ الفهمِ ، ومَعْقِلَ العِلْمِ ، ونورَ الأَبْصارِ ، إِليها يأْوي كُلُّ محصول ، وبها يُسْتَدَلُّ على ما أَخبر به من عِلْمِ الغُيوبِ ، فبها يقدِّرونَ الأَعمالَ قبل كونِها ، ويعرفون عواقِبَها قبل وجودِها ، وعنها تصدرُ الجوارِحُ بالفعال بأَمرها ، فتسارعَ إِلى طاعتها ، أَو تزْجرها ،

---

(١) المائدة : ١٩ . (٢) النساء ١٢٢ .

(٣) الكهف : ٢٧ . (٤) الرعد : ١٩ .

(٥) البقرة : ١٦٤ ، الرعد : ٤ ، النمل : ١٢ ، ٦٧ ، العنكبوت : ٣٥ ، الروم : ٢٤ ، ٢٨ ، الجاثية : ٥ .

(٦) يونس : ٢٤ ، الرعد : ٣ ، النحل : ١١ ، ٦٩ ، الروم : ٢١ ، الزمر : ٤٢ ، الجاثية : ١٣ ، الانعام : ١٢٦ ، النحل ١٣ .

فتمسكَ عن مكروهِها .

فاستخلَصَ من عِبادِهِ خالصةً من خلْقِهِ ، فَهِمَتْ عنه قولَهُ بعقولِها ، فاتَّسع لها ما خفيَ عن الأَبصار .

فآمَنَتْ به ، وبما غيَّبَتْهُ حُجبُ غيوبِهِ من لدُنْ عرشِهِ إلى مُنْتهى علمِهِ ، ثُمَّ عارَضَها هَاجِسُ الشَّكِّ فأَبَتْهُ ، وذلك بِلُطْفِ البصيرِ ، وما وصفَهُ لها وبفضلِهِ عليها .

فكان عندها ما أَخبرَ به عَمَّا غابَ مما كان ، ومما هو كائِنٌ ، كرأْيِ العينِ ، فكانت بذلك مصدِّقةً غيرَ مكذِّبةٍ ولا مُرْتابةٍ .

ثُمَّ استخَصَّ من الخالِصةِ الأُولى خاصةً ثانيةً ، من المقرِّينَ والمعترِفِينَ له برُبوبِيَّتِهِ ، المصدِّقينَ بقوله ، فعظَّمُوا قَدْرَهُ ، فأَجلُّوه ، وهابُوهُ واسْتحْيَوْا منه ، وخافُوهُ ، وحَذِرُوا نَقْمَتَهُ وبأْسَهُ ، فتطهَّروا من كُلِّ دَنَسٍ ، وبَذَلُوا له المجهودَ من قلوبِهِم وأَبْدانِهِم ، ووصفُوهُ بصِفاتِهِ الكامِلَة ، ونزَّهوهُ من كُلِّ ما لا يَلِيقُ ، وأَفْرَدُوهُ في كُلِّ مَعْنًى ، ولم يُساوُوهُ بشيءٍ مِنْ خَلْقِهِ .

فأَفْردوهُ بالمَخافةِ ، والرَّهبةِ ، والآمالِ ، والرَّغْبةِ ، والثِّقَةِ به ، وحُسْنِ التوكُّلِ عليه ، فأَعتقوا مِنْ خِدمةِ الدنيا أَبدانَهُمْ ،

وأَفْردوا مولاهم بالمعاملةِ بإخلاصِ النيةِ له ؛ بطلبِ مَرْضاتِهِ ، واجْتنابِ مَساخِطِهِ ، وأَيقنوا بما وَعدَ وتَوَعَّدَ به ، فكان عندهم كرأْيِ العيْنِ ، فخَشَعوا لذلك واستكانوا ، فدأَبوا واجتهدوا فاشتَغَلوا به ، وانْقَطَعوا عن العِبادِ إِليه بِهُمُومِهِمْ ، ولم يكن فيهم فَضْلٌ لغيرِهِ ، ولا تزيُّنٌ لِسِواهُ ، فَسَلَكوا سبيلَ الرشادِ بالبصائرِ النافِذَةِ على منهاجِ الكتابِ والسُّنَّةِ ، وعلماً بما أَمر به ، ونهى عنه ، ونَدَبَ إِليه ، وحَضَّ عليه من مكارمِ الأَخْلاقِ ، وحُسْنِ الآدابِ ، فَبانوا من عَوامِّ المسلمينَ بالفَضْلِ ، والطهارةِ فكانوا أَئمةَ الهُدى ، وأَعْلامَ المتقينَ ، ومصابيحَ العلمِ ، ومَفْزَعَ كُلِّ مَلْهُوفٍ في الدين ، وطالبٍ لسبيلِ النَّجاةِ .

فأَحلَّ عليهم عظيمَ رِضْوانِهِ ، وأَعدَّ لهم جَزِيلَ ثوابِهِ ، وأَجْرَ أَعمالِهِمْ ، وأَعمال المُقْتَدينَ بهم ، وكان لهم كأُجورِ أَعمالِ المُتَّبِعِينَ لهم مع أُجورِ أَعمالهم ، ولم يُعْطِهِمُ اللهُ عَزَّ وجلَّ اليقينَ به وبما قال ، عن رؤْيةٍ منهم لربِّهِمْ ، ولا مُعَايَنةٍ منهم لما وَعَدَ وتوَّعدَ ، ولكن عنِ الفَهْمِ بما قالَ جَلَّ وعَزَّ في كتابِهِ ، بالتَّذْكيرِ والتَّفْكيرِ والتثبيتِ والتَّدْبيرِ .

فردَّدُوا النَّظَرَ ، وأَجالوا الفِكْرَ ، وكرروا الذِّكْرَ ،

وتدبَّروا العواقِبَ ، وطلبوا مَعانِيَ الدلائلِ ، فطالعوا الغُيُوبَ ، وشاهدوا بقلوبِهِم الآخرةَ ، فصاروا في الدنيا بِأَبْدانِهِمْ ، وفي الآخِرَةِ بأَرواحِهِم ، وأَجسامُهُم فيها كعُوَّاد ، وعقولُهُم معلَّقَةٌ بالمَلَكوتِ . وذلك بغيرِ ابتداءٍ منهم اجتبوهُ ولا نالُوهُ : لكن بتفضُّلِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ عليهم ، وتعبُّدِهِ إيَّاهُم .

فأَقامنا اللهُ وإِيَّاكَ مَقامَهُمْ ، وأَسلَكَنا وإِيَّاكَ سبيلَهُمْ ، حتى يُلْحِقَنا بمنازِلِهِمْ ويرافقَ بيننا وبينهم في جِوارِهِ . فإنهم أَعقلُ خَلْقِ الله جَلَّ وعَزَّ عنه ، لما فهموا من كلامِهِ ، وتدبَّروا معانيَ قوله ، وبذلك (أَمَّنَهُمْ) ورضيَ عنهم وأَثنى عليهم ، ورفعَ به قَدْرَهم ، لأَنهم فَهِموا منه ما أَخبرهم عنه بكلامِهِ الذي أَنزلَهُ في كتابه ، إذ يقول جل وعز : (يا أَيها الناس قد جاءتْكم موعِظةٌ من ربكم وشِفاءٌ لما في الصُّدور وهدًى ورحمةٌ للمؤْمنين)[1] .

فلمَّا عَقَلوا ذلك عن ربِّهم ، ابتغَوْا منه الشفاءَ والهُدى والرحمةَ ، فداوَوا به قساوةَ قلوبِهِمْ ، وغَسَلُوا بــه دَرَنَ ذُنوبِهِم ، ووضعوا دواءَهُ على أَدْواءِ قلوبِهِم ، ونَفَوا به سُوءَ النِّيَّاتِ من ضمائِرِهم ، وأَزالوا به وحَرَ صُدُورِهِمْ ، ونَظَروا ببصائِرِهِم إلى ما يُشْبِهُ الشُّبُهاتِ

---

(١) يونس : ٥٧ .

من سوءِ الدلايلِ ، ومكايدِ الشَّيْطــانِ ، وزُخْرُفِ المُبْطِلِينَ ، وكَشَفوا بمنارِ دلايِلِهِ ما وارَتْهُ الظُّلُماتُ ، وغطَّتْهُ الشَّهَواتُ ، من خَفيَّاتِ الغُيوبِ ، ومعالمِ الطريقِ المضروبِ على المَحَاجِّ الواضحاتِ ، والبُرْهَانِ النَّيِّرِ . فنَظَرُوا بنورِ هِدايةِ كلامِ الربِّ ، جَلَّ ذِكْرُهُ ، وواضِحِ دلايِلِهِ ، إلى ما خَفِيَ عن الغافِلِينَ ، المُوْثِرِينَ لأَهْوائِهِم على استيضاح كتابِ ربِّهِم جَلَّ مولانا وتعالى ، فهَتَكوا بنورِهِ حِجابَ كُلِّ ظالمة ، وكشفوا بتبْيانِهِ غِطاءَ كُلِّ ضلالةٍ وبدعة ، لأَنَّه الدليلُ الواضِحُ ، والصِّراطُ المستقيم ، الذي جعلَهُ اللهُ للناسِ إمامــاً ، ورضيَ به بينهم حاكماً ، فأَماتوا عنده كُلَّ شَهْوة ، وانبعثوا بتأَمُّلِهِ إلى كُلِّ رغبـــة ، وحنُّوا بتشويقِهِ إلى جِوارِ المولى الكريمِ ، وصَبَروا لأَحكامِهِ في كُلِّ عُسْرٍ ويُسْرٍ ، وتأَدَّبوا بِأَدَبِهِ في كُلِّ أَقْوالِهِمْ ، وتَزَيَّنوا بأَخْلاقِهِ في كُلِّ أُمورهم ، فصاروا للقيامِ بِهِ (و) للمتعبِّدين أَعلاماً ، يَرْجِعُ الحائرون عن الحقِّ إلى سبيلِهِم ، ويتأَدَّبون بمكارِمِ أَخلاقهم ، ويتزَيَّنون بزينةِ هَدْيِهِمْ ، ويستضيئونَ بنورِ هِدايَتِهِمْ ، (٨٥) ويَدينونَ بما أُلزموا من بُرهانِ حُجَّتِهِ .

فارْغَبْ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ في طَلَبِ آثارِهِم ، وسُلُوكِ طريقِهِمْ .

القسم الأول

فضائل القرآن

فإنَّ العاقِلَ عن الله عَزَّ وجلَّ ، بدلائِلِ الكتابِ به بَصِرٌ ، وبحبلِهِ من كُلِّ هلَكَةٍ معتصمٌ ، ولربِّه بتلاوتِهِ في الخَلَوات مُناجٍ لأَنه بنجاةِ نفسِه مهتمٌّ ، ففزعَ إلى فهمِ كلامِ الربِّ جلَّ وعَزَّ ، لِيُحْيِيَ به قلبَهُ ، وينجو به من عقابِهِ ، في يومٍ يندمُ فيه الغافلون، ويتحسرُ فيه المُبْطِلون ، فكفى بكتابِ الله عَزَّ وجَلَّ عن غيبِ الآخِرةِ مُخَبِّراً، وببصائِرِهِ للعوامِّ مُوَضِّحاً ، لأَنَّ مَنْ فَهِمَ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، ذاقَ طَعْمَ حلاوتِهِ ، وخالطَ فهمَهُ لَذَّةُ مناجاتِهِ ، إذ عرف من تحاوُرِهِ ، فعقلَ عن اللهِ عَزَّ وجَلَّ ما به خَاطَبَهُ ، فاتَّخذه مَعاذاً فسكن إلى الله جَلَّ وعَزَّ ، وأَنِسَ به من كُلِّ وَحْشَةٍ ، فلم يُؤْثِرْ شيئاً عليه ، فكان للمتَّقينَ الماضين قبلَهُ في الدنيا خَلَفاً ، وللآخرين المريدينَ من بعده سَلفاً ، فتدبَّرَ القُرآنَ أَيَّامَ حياتِهِ ، فصار اللهُ جَلَّ وعَزَّ به مُسْتَفيداً ، لأَنَّه الدليلُ الهادي للعباد قبل نزول المَحَلِّ ، وحادي المُشْتاقِينَ إلى جِوارِ الكريم .

فبه نطقَ الحُكماءُ ، وبه أَنِسَ المُنْفرِدونَ إلى إدْمانِ الفِكْرِ في معانيهِ .

لا يَضِلُّ السَّالِكَ باتِّباعِ دلايلِهِ ، لأَنَّهُ النورُ الذي استَضاءَ به المُوقِنونَ ، والغايةُ التي يَتَسابَقُ إليها المُتَسابِقونَ ، والمنهجُ الذي لا يَصِلُ السالِكُ إلَّا باتِّباعِ دلايلِهِ ، ولا يعلمُ له طريقَ النجاةِ إلَّا مع الاستِضاءةِ بِنُورِهِ ، ولا يُصابُ الحَقُّ إلّا في مُحْكَمِ آياتِه .

شفيعٌ في القيامةِ لِمَنْ تَقَرَّبَ إلى الله جَلَّ وعَزَّ برعـايَتِهِ ، وحِفْظِ حُدوده ، وصَبَرَ للهِ جَلَّ وعَزَّ على أحكامِهِ ، وهو الماحِلُ لِمَنْ لم يكُنْ في قَلْبِهِ منه إلَّا حِفْظُ حُروفِهِ ، وفي جَوارِحِهِ منه إلَّا تلاوتُهُ .

هو القولُ الذي فُصِّلَتْ آياتُهُ ، والفُرْقانُ الذي يميزُ بين الحَقِّ والأَباطيل بشواهد بيِّناتِهِ .

حكمةٌ بالغةٌ منزَّلةٌ من حكيمِ الحُكماءِ ، وعليمِ العُلَماء ، أَنزله اللهُ تعالى دواءً للقلوبِ شافياً ، ولِمَنْ حَرَّمَ حرامَهُ وأَحلَّ حَلالَهُ عن النارِ عادلاً ، ولِمَنْ حَذِرَ مَخاوِفَهُ في مَقِيلِ الجِنانِ نازلاً .

فأَهْلُ العلمِ بِكَلامِ ربِّهِمْ عَزَّ وجَلَّ هم أَهـلُ الصَّفاءِ من

الأَدْناسِ ، وأهْلُ الخاصَّةِ من الله جَلَّ وعَزَّ الذين أَشْعَرُوا فَهْمَهُ قُلوبَهُمْ ، وتدَبَّروا آياتِهِ عند تِلاوتِهِ بألبـابِهِمْ ، فتزوَّدُوا لِبُعْدِ سَفَرِهِمْ إلى مَعَادِهِمْ ، وفَهِموا منه شِدَّةَ إجْهادِهِمْ يومَ القيامة ، فَفَزِعُوا ، وذَكَرُوا به السؤَالَ من اللهِ عزَّ وجَـلَّ ، فاستعدُّوا للجَوابِ عَمَّا عَمِلوا ، فتابوا إلى الله جَـلَّ وعَزَّ عن كُلِّ ذَنبٍ ، وتَطَهَّروا له من كُلِّ دَنَسٍ ، وأَخْلَصوا له النياتِ في أَعمـالِهم لِيُجيبوهُ عَمَّا سلف من ذُنوبِهِمْ بالتَّوْبةِ . وعن إرادتهم في طاعتِهِ بِصِدْقِ النية . فاستعدُّوا بالقرآنِ للعَرْضِ والسؤَالِ ؛ (منقادين)[1] له بِذِلَّتِهِمْ (وخاشعين)[2] له باسْتِكانَتِهِمْ . لأَنَّهُم وقَّروه لإجلال المُتَكَلِّمِ به . غيرَ مغيَّبينَ عن تِلاوتِهِ لِطَلَبِ حقائِقِ معانيهِ . ولا مُسْتَهِينينَ بِحُرُماتِهِ . فانْتَعَشوا به من كُلِّ صَرْعَةٍ . وجَبَرَ اللهُ لهم به من كُلِّ مُصيبةٍ .

فما زال ذلك دَأْبَ العاقِلِينَ عن ربِّهم عَزَّ وجَلَّ . لأَنه ربيعُ قُلوبِ المُوقِنين . وراحةُ الراجينَ . ومُستَراحُ المحزونـينَ . لا ينقصُ نورُهُ لدوامِ تِلاوتِهِ . ولا يُدْرَكُ غَوْرُ فهمِهِ . ولا يبلُغُ له غايةَ نهايةٍ تاليه أَبداً . لأَنه كلامُ اللهِ جَلَّ ثنـاؤُهُ . الذي تعلَّقَ

(١) في الأصل : منقادون .   (٢) في الأصل : خاشعون .

المتَّقون بِعُروَتِهِ . والملجأُ الذي أوى الراهِبونَ إلى كَنَفِ رَحْمَتِهِ .

قلتُ : كيف لي بِفَهْمِ ما قال اللهُ جَلَّ وعَزَّ في كتابِهِ ؟ لَعَلِّي أُدْرِكُ مَنازِلَهُمْ أو أُقارِبُ مَقامَهُمْ ؟

قال : بأَنْ يَعْظُمَ عندكَ قدرُ ما تنالُ بِفَهْمِهِ من النجاةِ وما في (الإعراض)[1] عن فهمه من الهلكة . لأَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ . أَنزلَ في كتابِهِ كلامَهُ مع الروحِ الأَمينِ . إلى محمدٍ المُصطفى برسالَتِهِ ، والمُنْتَخَبِ لإِنْذارِ عبادِهِ ﷺ . فوصف تعالى نفسَهُ بأَحسنِ الصِّفاتِ. ودَلَّ خلْقَهُ ونَبَّهَهُمْ فيه لمعرفتِهِ . بما وَضَعَ في سماواتِهِ وأَرْضِهِ ، من آثارِ صَنْعَتِهِ . ونَفاذِ قُدْرَتِهِ . وذكَّرَهُمْ فيه أَيادِيَهُ عندَهُمْ ، وكثرةَ نِعَمِهِ ، وتعهُّدَهُ إياهم ، من ابتداءِ خَلْقِهِم ، وحسن تقديرِهم وإجراءَ أَرزاقِهِم . ودفاعَ البلايا عنهم ، والآفاتِ المهلكةِ لهم ، وحسنَ سَتْرِهِ عليهم ، وإِقالتهمْ ، والعفْوِ عما (٨٦) استوْجبوا من تعجيلِ العقوباتِ ، ونُزُولِ النقَمِ بهم .

فأَمَرَهُم فيه بالمكارِمِ ، ونَهاهُم عن الآثامِ والمَحارِمِ ، ووَعَدَهُم فيه جَزِيلَ الثَّوابِ ، وضَرَبَ لهم فيه الأَمْثالَ ، وفصَّلَ لهم فيه المعانيَ الدَّالَّةَ على سبيلِ النجاةِ ، وأَبانَ فيه المُشْكِلاتِ ، وأَوضحَ

---

[1] في الأصل : الأعمال .

لهم فيه الشواهِدَ على علمِ الغُيوبِ . وجعل فيه حياةَ قُلوبِهِمْ ، وعزَّهم وشَرَفَهُمْ ، والغِنى به عن جميعِ العِبادِ .

ثم أَخبرهُم أَنه أَنزل كِتابَهُ ليدَّبَّروا آياتِهِ بعقولِهِمْ ، ويتذكَّروا ما قال بألبابِهِمْ ، وقال : (كتابٌ أَنْزلناهْ إليكَ مباركٌ)[1] فسمَّاه بالبَرَكَة ، لِيَعْلَموا بذلك أَنه يَدُلُّهمْ على النجاةِ ، وينالُونَ باتِّباعه الزُّلفى والكرامةَ . ثم قال : (ليدبَّروا آياتِهِ)[2] فأَخبر أَنه أَنْزَلَهُ للتذَكُّرِ والتفكُّرِ فيه ، وخصَّ بالتفكُّرِ والتَّذكُّرِ أَهْلَ العُقولِ ، أُولي الأَلْباب .

قال : حَدَّثَنا سُنيد ابن داود[3] ، قال : حَدَّثَنا عبدُ الله بنُ المُبارَك[4] . قال : أَخبرني معمَّر بنُ يحيى بنُ المختار[5] عن الحسن[6]

---

(١) ص ٢٩ . (٢) ص ٢٩ .

(٣) ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث .

(٤) عبد الله بن المبارك (١١٨ – ١٨١ هـ) ابن واضح الحنظلي التميمي مولاهم، أبو عبد الرحمن المروزي، إمام ، ثقة. روى عن الأعمش وهشام بن عروة والثوري وشعبة والأوزاعي وابن جريج ومالك والليث وخلق كثير . وعنه : الثوري وابن عيينة وفضيل بن عياض وابن مهدي والقطان وابن راهويه وابن معين وأبناء أبي شيبة . أجمع الأئمة على جلالته في العلم والورع والزهد ، قال الأسود بن سالم : إذا رأيت الرجل يغمز ابن المبارك فاتهمه على الاسلام . له ترجمة في : ابن سعد ١٠٥/٧ ، مشاهير علماء الامصار ١٩٤ ، العبر ٢٨٠/١ ، الحلية ١٦٢/٨ ، تهذيب التهذيب ٣٨٢/٥ .

(٥) ربما كان معمر بن يحيى بن سام الضبي الكوفي، روى عن محمد الباقر، وفاطمة بنت علي وعنه وكيع وأبو أسامة وأبو نعيم ، له حديث في البخاري . قال أبو زرعة : ثقة . تهذيب التهذيب ٢٤٩/١٠ .

(٦) الحسن البصري (٢١ – ١١٠ هـ) عالم الاسلام العظيم مشاهير علماء الأمصار ٨٨ .

أنه تلا هذه الآية : (كتابٌ أَنزَلْناهُ إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياتِهِ وليتذكَّرَ أُولوا الأَلباب[1]) . فقال : وما تَدَبُّر آياتِهِ إِلَّا اتِّباعُهُ بعقلِهِ ، أَمَا واللهِ ما هذا بحفظِ حروفِهِ وإِضاعةِ حدوده ، حتى أَنَّ أَحدَهم ليقولُ : إني لأَقْرأُ القرآنَ ، فما أُسْقطُ منه حَرْفاً ، وقد واللهِ أَسْقَطَهُ كُلَّهُ ، فما يُرى له القُرآنُ في خُلُقٍ ولا عَمَلٍ .

ثم أَخبرهم أَنَّ اتِّباعَ ما فيه، سُلوكٌ للصراطِ المستقيم، والنورِ المُبينِ ، والعِصْمةُ لمن تَمسَّكَ به من كُلِّ هُلْكةٍ وشِفاءٌ لما في الصدور .

قال الرب جَلَّ ثناؤُهُ : (قد جاءكم من اللهِ نورٌ ، وكتابٌ مُبِينٌ ، يهدي به اللهُ من اتَّبع رضوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ ، ويُخْرِجُهُمْ من الظُّلماتِ إلى النُّور بإِذْنِه ، ويهديهِمْ إلى صِراطٍ مُستقيم)[2] . فَضَمِنَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ لمتَّبِعِهِ الهَدْي لطريقِ السلامةِ ، والسلوكَ للطريقِ المُسْتقيمِ ، ووصفَ المتَّبِعينَ له كيفَ قلوبُهُمْ ، وما ورَّثهمْ من خشيته، فقال جَلَّ وعَزَّ : (اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحديث كتاباً مُتَشابهاً مثانيَ تقشعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ ربَّهُمْ)[3] فأَخْبرهم أنه لا حديثَ يُشْبِهُهُ في حُسْنِهِ ، وأَخبر أَنه مُتَشابِهٌ غيرُ مُخْتَلَفٍ فيه،

---

(١) ص ٢٩ .
(٢) المائدة ١٥ .
(٣) الزمر ٢٣ .

ثم أَخبرَ أَنَّ فيه التكرارَ عن معاني ما قال إِن تَنَحَّتْ قُلُوبُهُمْ عند تلاوةِ ما في سُوَرِهِ عن فهمِ معانيه، تكرَّر في سُورةٍ أُخْرى فَفَهِموهُ فقال (مثاني) .

حَدَّثنا سُنَيدٌ ، قال : حدَّثنا سُفين[1] عن معمر عن قَتَادَة[2] في قولِ الله جَلَّ وعزَّ (الله نَزَّلَ أَحسنَ الحديثِ كتابا مُتَشابهاً) في حلالِه وحرامِهِ لا يختلِف شيءٌ منه . تُشبهُ الآيــةُ الآية ، والحرفُ الحرفَ .

حدَّثنا إِسماعيلُ[3] عن أَبي رجاء[4] ، عن الحَسَن ، (كتاباً

---

(١) سفين هنا سفيان الثوري ، الذي نترجم له فيما بعد . ولنا على ذلك دليلان :

١ – انه في تفسيره المطبوع في الهند ، والذي اطلعنا عليه يذكر اسمه في أول الاسناد دائماً بصيغة التصغير « سفين » .

٢ – أن الحديث هنا مروي بطريق سنيد بن داود عن سفين ، ولا نجد بين شيوخ سنيد من يسمى « سفيناً » بل نجد سفيان الثوري : تهذيب التهذيب ٤/ ٢٤٤ أما ما يرويه الحارث في الصفحات القادمة عن معمر بطريق أبي سفيان ، فالمقصود به : طريف بن شهاب البصري، الذي ضعفه العلماء : تهذيب التهذيب ٥/ ١١ .

(٢) قتادة بن دعامة السدوسي (٦١ – ١١٧ هـ) كان ثقة مأموناً حجة في الحديث، وكان يقول بشيء من القدر . ترجمته : ابن سعد ٧/ ٢ ، مشاهير علماء الأمصار ٩٦ ، العبر ١/ ١٤٦ ، الميزان ٤/ ٣٨٥ ، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ .

(٣) اسماعيل (– ٢٣٦ هـ) ابن ابراهيم البغدادي تتلمذ عليه أيضاً أحمد بن الحسن بن عبد الجبار الصوفي تلميذ المحاسبي. كان صاحب سنة وفضل وخير كثير . تهذيب التهذيب ١/ ٢٧١ أو هو إسماعيل بن عياش (– ١٨٢ هـ) الذي روى عنه الحارث فيما بعد بطريق خلف بن هشام البزار .

(٤) أبو رجاء (– ١٠٥ هـ) العطاردي ، عمران بن تيم التميمي . أسلم شابــاً ، وروى عن الصحابة . ترجمته : ابن سعد ٧/ ١٠٠ .

مُتَشابِهاً ، مثاني) قال : ثَنَّى اللهُ فيه القضاءَ ، تَكون السُّورةُ فيها الآيةُ ، وفي السورةِ الأُخرى آيةٌ مِثْلُها .

قال أَبو رجاء : وسئل عنها عِكرمةُ[1] فقال : ثَنَّى اللهُ فيه القضاءَ .

قال : حدَّثنا حَجَّاجٌ[2] عن ابنُ جريج[3] ، عن مُجاهِد[4] في قوله (متشابهاً) قال : يُصَدِّقُ بعضُهُ بعضاً قـــال : القرآنُ كُلُّهُ مثاني ، أَبو سعيد[5] .

فَتُثْنِيَةُ القرآنِ تعودُ للشيءِ قد قالَهُ .

قال حدَّثنا سفين عن معمر عن قتادة : مثاني . قال : قد ثَنَّاهُ الله تعالى .

---

(١) عكرمة : مولى ابن عباس ، أحد أوعية العلم ، تكلم فيه لرأيه لا لحفظه ، فاتهم برأي الخوارج ، فاختلف العلماء في شأنه اختلافاً شديداً : ميزان الاعتدال ٩٣/٣ .

(٢) ابن حماد بن سلمة ، المحدث المشهور .

(٣) ابن جريج (٥٨ – ١٥٠ هـ) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الرومي ، مولى بني أمية ، أخذ عن عطاء وطبقته ، وهو أول من صنف الكتب بالحجاز . قال أحمد : كان ابن جريج من أوعية العلم : العبر ٢١٣/١ .

(٤) مجاهد (٢٠ – ١٠٣ هـ) ابن جبر ، أبو الحجاج العتكي ، أخذ عن ابن عمر وابن عباس ، كان أعلم أصحابه بالتفسير : العبر ١٢٥/١ .

(٥) أبو سعيد : الحسن البصري .

قال : حدَّثنا وكيعٌ[1] عن سُفيان[2] عن منصور[3] عن أبي مالك[4] قال : القرآنُ كُلُّهُ مثاني .

قال : حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : (تقشعرُّ منه جُلودُ الذين يخشون ربهم) قال : إذا سمعوا ذكر النارِ والوعيدِ . ثم تلينُ جلودُهم إذا سمعوا ذِكْرَ الجَنَّةِ .

قال : حَدَّثنا أبو سفيان عن معمر قال : تلا قَتادَةُ (تَقْشَعِرُّ منه جُلودُ الذين يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ) الآيـــة . . . فقال : هذا نَعْتُ أَولياءِ اللهِ .

نَعَتَهُمْ بأَنْ تقشعِرَّ جُلودُهم ، وتبكيَ أَعْيُنُهُمْ ، وتطمئنَّ قُلُوبُهُمْ إلى ذِكْرِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، هذه صفةُ الذين آمنوا ، وكيف حزنهم ورجاؤُهم .

---

(١) وكيع بن الجراح (– ١٩٧ هـ) كان ثقة ، مأموناً ، رفيعاً ، كثير الحديث ، حجة ، ابن سعد ٦/٢٧٥ .

(٢) سفيان (٩٧ – ١٦١ هـ) ابن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي ، أمير المؤمنين في الحديث ، ومن أعاظم العلماء في كل العصور : ابن سعد ٦/٢٥٧ ، تهذيب التهذيب ٤/١١١ ، العبر ١/٢٣٥ ، مشاهير علماء الأمصار ١٦٩ ، الحلية ٦/٣٥٦ ، سفيان الثوري : د. عبد الحليم محمود .

(٣) منصور بن المعتمر (– ١٣٢ هـ) كان ثقة مأموناً كثير الحديث ، رفيعاً عالياً : ابن سعد ٦/٢٣٥ .

(٤) أبو مالك الأشجعي (– ١٤٠ هـ) سعد بن طارق ، روى عن أنس وصحابة آخرين، وعنه يزيد بن هارون وشعبة والثوري وعباد بن العوام : مشاهير علماء الامصار ١٠٧ ، ميزان الاعتدال ٢/١٢٢ ، التهذيب ٣/٤٧٣ .

ووصفَ الذين أُوتوا العلْمَ ، عِلْمَ كتابِهِ من قبل أن ينزِلَ القرآنُ ، فقال جَلَّ وعَزَّ : (إِنَّ الذين أُوتوا العلم من قبله إذا يُتْلَى عليهم يَخِرُّونَ للأَذقانِ سُجَّداً ، ويقولون سُبحانَ ربنا إِنْ كان وعدُ ربِّنا لمفعولاً ، ويخرُّون للأَذقان يَبْكون ويزيدُهم خُشوعاً[1]) (٨٧) وقال عزَّ وجلَّ (خرُّوا سُجَّداً وبُكِيّاً)[2] .

يُخبرُ تباركَ وتعالى ، أَنَّ وَجَلَ الذين أُوتوا العِلْمَ من قبلنا ومخافَتَهُمْ كانت عن فَهْمِ آياتِهِ في كتابه وتَدَبُّرِ قولِهِ ، وقد ضَمِنَ جَلَّ وعَزَّ لأُمَّةِ محمَّدٍ ﷺ ، أَنَّ لِمَنْ اتَّبَعَ منهم ما في كتابِهِ من الهدى ، الإِجارةَ من الضَّلالةِ في الدنيا ، والسعادةَ في الآخِرة ، والنجاةَ من الشقاءِ ، وقال جلَّ وعزَّ : (فمن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى) .

قال : حدَّثنا أَبو النضر[3] قال : حدَّثنا عيسى بن المسيِّب

---

(١) الاسراء : ١٠٧ .   (٢) مريم : ٥٨ .

(٣) أبو النضر (١٣٤ – ٢٠٧ هـ) هاشم بن القاسم بن مسلم القعني البغدادي ، روى عن شعبة وسفيان وابن الماجشون وخلق . وعنه : اسحق ، وابن حنبل ، وابن المديني ، وابن معين ، وابن أبي شيبة ، وأبو خيثمة ، وكان ثقة ثبتاً . وكنا قد ترجمنا له بين شيوخ الحارث بحسبانه « أبا نصيرة » والصحيح ما أثبتناه هنا . استناداً إلى : تهذيب التهذيب ١٨/١١ .

البَجَلي[1] قاضي خالد ، قال : حدثنا خالدُ بنُ عبد الله[2] عن إبراهيمَ النَّخعي[3] قال : قال ابنُ عبَّاس[4] ، أُجـيرَ صاحبُ القرآنِ من الضلالةِ في الدنيا ، والشقاءِ يومَ الحِسابِ ، ثمَّ تلا (فمن اتَّبعَ هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى)[5] .

وعظَّمَت العُلماءُ باللهِ عزَّ وجلَّ ما أنزل في كتابِهِ لتعظيمِهِ له ، إذ سمعوه يقولُ تباركَ وتعالى (ولو أَنَّ قُرآناً سُيِّرَتْ به الجبالُ أَو قُطِّعَتْ به الأَرْضُ أَو كُلِّمَ به الموتى)[6] .

قال : حدَّثنا الحسنُ بنُ محمَّد[7] قال . حدَّثنا شَيْبانُ[8] عن

---

(١) عيسى بن المسيب البجلي الكوفي .. قال يحيى والنسائي والدارقطني : ضعيف . وتكلم فيه أبو حاتم وأبو زرعة وابن حبان . وقال أبو داود : هو قاضي الكوفة : ضعيف . ميزان الاعتدال ٣/٣٢٣ .

(٢) خالد بن عبد الله بن أسد القسري، والي العراق لهشام بن عبد الملك، من (١٠٦ - ١٢٠ هـ) قتل سنة ١٢٠ هـ على يد يوسف بن عمر ، الذي خلفه على ولايته : البداية والنهاية ١٠/١٧ .

(٣) إبراهيم بن يزيد بن الاسود النخعي (٤٦ - ٩٦ هـ) قال الشعبي : والله ما ترك بعده مثله لا بالكوفة ولا بالبصرة ولا بالشام ولا بالحجاز . كان إماماً ، ثقة ، ثبتاً ، شديداً في دينه : طبقات ابن سعد ٦/١٨٨ .

(٤) عبد الله بن عباس (٣ ق. هـ - ٦٨ هـ) الاصابة ٤/٩٠ .

(٥) طه ١٢٣ . (٦) الرعد ٣١ .

(٧) الحسن بن محمد بن عثمان الكوفي : منكر الحديث : روى عن الثوري وشريك وعافية القاضي ، وعنه إسماعيل بن بهرام، والنضر بن سعيد الحارثي: الميزان ١/٥٢١، التهذيب ٢/٣١٩.

(٨) شيبان بن عبد الرحمن (- ١٦٤ هـ) التميمي مولاهم ، النحوي ، أبو معاوية ، البصري ، المؤدب ، سكن الكوفة ، ثم انتقل إلى بغداد ، روى عن خلق منهم قتادة . رضيه الأئمة : طبقات ابن سعد ٦/٢٦٢ ، تاريخ بغداد ٩/٢٧١ ، ميزان الاعتدال ٢/٢٨٥ ، تهذيب التهذيب ٤/٣٧٣ .

قتادة في قوله : (ولو أن قرآناً سُيِّرَت به الجبالُ أَو قُطِّعَتْ به الأَرض أَو كُلِّم به الموتى) . الآية . . .

قال : ذُكِرَ لنا أَنَّ قُرَيْشاً قالت للنبيِّ ﷺ ، إن سَرَّكَ أَن نُتابِعَكَ ، فسيِّرْ لنا جِبالَ تِهامةَ ، ووسِّعْ لنا في حَرَمِنا نَتَّخِذْ قطايعَ وبساتينَ ، وأَحْيِ لنا فُلاناً وفُلاناً ، أُناساً ماتوا في الجاهلية ، فإن تَابَعوكَ ، وآمَنوا بك تابعْناكَ وآمنَّا بكَ ، فأَنزلَ الله عزَّ وجلَّ هذه الآية . فلو فعل هذا بقرآنٍ غيرِ قرآنكم لفعل بقرآنِكم هذا ، وكَلَّمَ به المَوْتى . وسَمَّاهُ بُرْهاناً ، ونوراً ، ورحمةً ، وموعِظةً ، وبياناً ، وحقاً ، ومجيداً ، وبصائرَ وهُدًى ، وفرقاناً ، وشِفاءً لِما في الصُّدُور .

فعظَّمَهُ عند المؤْمنينَ ، ليعْظِّموا قَدْرَهُ ويفهموهُ ، لينالوا به شفاءَ قلوبِهِمْ .

وقال جَلَّ وعَزَّ : (لو أَنزلْنا هذا القرآنَ على جَبَلٍ لرأَيْتَهُ خاشِعاً متصدِّعاً من خَشْيَةِ الله ، وتلك الأَمْثالُ نَضْرِبُها للنَّاسِ لعلَّهم يتفكَّرون)[1] . وأخبر جَلَّ وعَزَّ ، بعظيمِ قَدْرِهِ ، وضربَ الجبلَ مَثَلاً لقلوبِ المستمعينَ له ، ليعْقلوا فيتدَبَّروا آياتِهِ ،

---

(١) الحشر : ٢١ .

ويتفكَّروا في عجائبِهِ . فَضَرَب هذا المَثَلَ فدلَّ به أَنَّ مَنْ لم يَفْهَمْ عنه ما أَنزَلَ في كتابِهِ ، أَنَّ قَلْبَهُ أَقْسى من الحَجَر الاصَمِّ ، وأَنَّ ما فيه تتصدَّعُ الجبال لو فَهِمَتْهُ ، خشيةً للمتكلِّمْ به ، يُعَظِّمُ بذلك قَدْرَهُ وقَدْرَنا فيه ، ويُبيِّنُ لنا أَنَّ القلوب تَخْشَعُ لفَهْمِهِ وتخافُ اللهَ جَلَّ وعَزَّ : لعَقْلِها ما أَخبر به وأَخبَرَنا ، أَنَّ الجبالَ الرواسيَ لو أُنزلَ عليها كلامُهُ لتصدَّعتْ خاشعةً لتعظيمِهِ .

وأَخبَرَنا أَنه أَحسنُ من كلِّ حديث ومن كل قَصَصٍ ، وقال : (نحن نَقُصُّ عليكَ أَحسنَ القصَص)[1] .

ثُمَّ أَخبَرَنا جَلَّ وعَزَّ أَنه قد انتهى في الحكمةِ ، فقال : (حكمةٌ بالغةٌ فما تُغْني النُّذُرَ)[2] .

وأَخْبَرَ أَنَّه لا مُبَدِّلَ لكلماتِهِ ، وأَخبَرَ أَنه لا يَفنى ولا يَنْفَدُ ، فقال جَلَّ وعَزَّ : (قُلْ لو كان البحرُ مِداداً لكلماتِ ربِّي لَنَفِدَ البَحْرُ قبل أَنْ تَنْفَدَ كلماتُ ربِّي)[3] .

وسَمَّى اللهُ عَزَّ وجَلَّ نَفْسَهُ فقال : (عليّ حكيم)[4] .

---

(١) يوسف : ٣ .
(٢) القمر : ٥ .
(٣) الكهف : ١٠٩ .
(٤) الشورى : ٥١ .

وسمَّى كلامَهُ فقال : (وإِنَّــــه في أُمِّ الكتابِ لدينا لَعَليٌّ حكيمٌ)[1] .

حدَّثنا سُنَيد ، قال : حدثنا سفيانُ عن معمر عن قَتادَة قال : فإن استخففتم به فانه في أَمِّ الكتابِ لدينا لعليٌّ حكيمٌ .

وسمَّاهُ بأَحْسَنِ الأَسماء وأَعلاها ، إِنما سَمَّى به نَفْسَهُ فقال : (كتابٌ[2] عزيزٌ) .

ثم أَخبر أَنَّ ما قبله من الكتب مصدِّقٌ له ، وشاهِدٌ له ، وأَنه لا يأْتي مِن عنده كتابٌ أَبداً يبدِّلُ حُكمهُ ، ولا يَنْسخُ أَمْرَهُ ونَهْيَهُ، فقال عَزَّ وجَلَّ من قائل : (لا يأْتيه الباطِلُ من بين يديهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تنزيلٌ من حكيمٍ حَميد)[3] فأَخبر أَنه مَنَعَهُ من الخلائِقِ أَن ينتقصوا منه أَو يزيـــدوا فيه ، أَو يُحَرِّفوه كما حُرِّفَتْ الكُتُبُ من قَبْلِهِ .

حدَّثنا سُنَيد قال : حدثنا سفين عن معمر عن قتادة في قوله : (إِنَّ الذين كفروا بالذِّكْرِ لمَّا جاءهم وإِنه لكتابٌ عَزيزٌ[4] ، لا

---

(١) الزخرف : ٤ .
(٢) فصلت : ٤١ .
(٣) فصلت : ٤٢ .
(٤) فصلت : ٤١ .

يأْتيهِ الباطِلُ من بينِ يَدَيْـهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ) قال : الشيطـانُ لا يستطيعُ أَن يبدِّلَ منه حَقّاً ولا يُحِقَّ (به) باطِلاً .

قال حدَّثنا حَجَّاج ، عن ابن جُريج عن مُجاهد ، قال : الباطِلُ الشيطان .

قال ابن جُريج : (لا يأْتيه الباطل من بين يديه) ، قال : ليس (فيما) قَصَصْنا (٨٨) على محمَّدٍ ﷺ فيما كان قبلَهُ باطلٌ ، ولا مِنْ خَلْفِهِ : مما قَصَصْنا عليه مما هو كائنٌ بعده من الدُّنيا والآخرةِ .

قال حدثنا حجَّاج عن حمزةَ الزيات[١] ، عن أَبي مختار الطائي[٢] عن ابن أَخي الحارث ، عن الحارث[٣] قال : دخلتُ المسجدَ ،

---

(١) حمزه بن حبيب (٨٠ – ١٥٦ هـ) أبو عمارة الكوفي الزيات ، شيخ القراء ، أحد السبعة الأئمة . إليه المنتهى في الصدق والورع والتقوى . وهو صدوق في الحديث لكنه يخطىء فيه : طبقات ابن سعد ٢٦٨/٦ ، مشاهير علماء الأمصار ١٦٨ ، ميزان الاعتدال ٦٠٥/١ ، تهذيب التهذيب ٢٧/٣ .

(٢) أبو مختار الطائي . قيل اسمه سعد الكوفي . روى عن ابن أخي الحارث الأعور ، وشريح القاضي ، وسعيد بن جبير ، وأبي البختري . وعنه حمزة الزيات ، وشريك القاضي . لم يعرفه ابن المديني ، وأبو زرعة والترمذي : تهذيب التهذيب ٢٢٦/٨ .

(٣) الحارث (– ٦٥ هـ) بن عبد الله الأعور : من كبار علماء التابعين على ضعف فيه . كان له قول سوء ، وهو واه في رواياته . قال الشعبي : حدثني الحارث الأعور ، وكان كذوباً . وقال حصين: ما كذب على أحد من هذه الأمة ما كذب علي . ورجح الذهبي انه كان يكذب على علي فقط ، لا على رسول الله : طبقات ابن سعد ١١٦/٦ ، ميزان الاعتدال ٤٣٥/١ . وابن أخي الحارث : عن الحارث عن علي . وعنه أبو المختار الطائي ، لم يسم هو ولا أبوه : تهذيب التهذيب ٣١٧/١٢ .

فإذا الناسُ قد وَقَعوا في الأَحاديثِ فأَتيتُ علياً [1] رضيَ اللهُ عنه فقُلْتُ : يا أَميرَ المؤْمنين إنَّ الناس قد وقَعُوا في الأَحاديثِ قال : وقد فعلوها ؟ قلتُ : نعم .

قال : إني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول (إنها ستكون فتنة) قلت : وما المَخْرَجُ يا رسولَ الله ؟ قال : (كتابُ الله عزَّ وجلَّ، فيه نبأُ ما كان قبلكم ، وخَبَرُ ما بعدَكم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفَصْلُ ليس بالهزل ، مَنْ تركه من جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، ومَن ابتغى الهُدى في غيرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ . هو حَبْلُ الله المتينُ ، وهو الذِّكْرُ الحكيمُ ، وهو الصِّراطُ المُستقيمُ . هو الذي لا تَزِيغُ به الأَهواء ، ولا تَلْتَبِسُ فيه الأَلْسُنُ ، ولا تَشْبَعُ منه العلماءُ ، ولا يُخْلِقُ عن رَدٍّ ، ولا تَنْقَضي عَجائِبُهُ . وهو الذي لم تَلْبَثِ الجنُّ إذْ سَمِعَتْهُ أَنْ قالوا : (إنَّا سمعنا قرآناً عَجَباً) [2] . مَنْ قال به صُدِّقَ ، ومن عمِلَ به أُجِرَ ، ومن حَكَم به عَدَل ، ومن دَعى (دعا) إليه هُديَ إلى صراطٍ مستقيم) . قال : خُذْهَا إليكَ يا أَعورُ .

قال : وإنما احتاجَ التالي له إلى الأَحاديثِ عن قولِ العلماء

---

(١) علي بن أبي طالب ، أمير المؤمنين (٢٣ ق. هـ – ٤٠ هـ) : ابن سعد ٦/ .

(٢) الجن : ١ .

الحكماءِ بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ ، حين ضُيِّعَ منهم كتابُهُ وطَلَبُ معانيه ، ولولا ذلك لكان كأَحدِ العلماءِ الذين يقولونَ بالحكمةِ ، ويتعظون بالتَّقوى ، لأَن فيه معانيَ التعظيمِ ، وما ينالُ به اليقينُ ، ويُستَدَلُّ به على كُلِّ خُلُقٍ كريمٍ .

قال : حدثنا خَلَفُ بن هشام البزَّار[1] ، قال : إسماعيلُ بنُ عيَّاش عن حجاجٍ عن مَروانَ الكلاعي[2] ، وعقيل بن مُدرك[3] السُلَمي يرفعانِهِ إلى أَبي سعيدٍ الخُدْري[4] ، أَنَّ رَجُلاً أَتاه ، فقال : يا أَبا سعيد ، أَوْصني ، فقال : سأَلْتُ رسولَ الله ﷺ من قبلِكَ ، فقال : (أُوصيكَ بتَقْوى اللهِ عز وجل ، فإنَّها رأْسُ كُلِّ شيءٍ ، وعليك بالجهادِ ، فإنه رهبانيةُ الإسلام ، وعليك بذِكْرِ الله ، وتِلاوةِ القُرآنِ ، فإنَّه رُوحُكَ في السماء ، وذِكْرُكَ في الأَرض ، وعليكَ بالصَّمْتِ إلَّا في حَقٍّ ، فإنك تَغْلِبُ الشَّيْطان) .

---

(١) خلف بن هشام البزار (– ٢٢٩ هـ) روى عن جماعة من الثقات ، وروى عنه كثيرون . . . قال عنه الامام أحمد ، هو عندنا الثقة المأمون : تهذيب التهذيب ١٥٦/٣ .

(٢) مروان الكلاعي الهمذاني ابن سالم المقفع ، روى عن ابن عمر وغيره من الصحابة . ذكره ابن حبان في الثقات : تهذيب التهذيب ٩٣/١٠ .

(٣) عقيل بن مدرك السلمي : روى عن لقمان بن عامر الوصابي ، وجماعة . وروى عنه صفوان بن عمر وإسماعيل بن عياش وبقية بن الوليد : تهذيب التهذيب ٢٥٥/٧ .

(٤) أبو سعيد الخدري ، الصحابي الجليل : سعد بن مالك بن سنان (١٠ق٠هـ – ٦٥هـ): الاصابة ٨٥/٣ .

قال : وحدثنا يزيدُ بنُ هرون[1] ، قال : أخبرَنا حمّادُ بنُ سَلَمَة[2] عن عاصمِ بنِ بَهْدَلة[3] عن مُعَتِّب[4] عن كعب[5] قال : عليكم بالقرآنِ ، فإنه فَهْمُ العقلِ ، ونُورُ الحكمةِ ، وينابيعُ العِلْمِ ، وأَحدثُ الكتبِ بالرحمنِ عَزَّ وجَلَّ .

قال : وحدَّثنا يزيدُ بنُ هرون ، قال : أَخبرَنا زياد[6] ، قال: حَدَّثنا الحَسَنُ ، قال: لمَّا أَحسَّ جُنْدُب[7] بقُدومِ طلحةَ والزُّبير[8] وخافَ القتالَ فخرجَ يُريدُ الحجازَ ، فتَبِعَهُ قومٌ ، أَو قال ناسٌ ، فجَعَلوا يقولونَ : أَوْصِنا ، فقال : إقرأُوا القرآنَ ، فإنَّه نورُ

---

(١) ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث .

(٢) حماد بن سلمة (— ١٦٧ ﻫ) الإمام ، العلم . كان إماماً في العربية ، فقيهاً وفصيحاً ؛ مفوهاً مقرئاً شديداً على المبتدعة ، له تواليف : طبقات ابن سعد ٣٩/٧ ، مشاهير علماء الأمصار ١٥٧ ، الميزان ٥٩١/١ ، العبر ٢٤٨/١ ، التهذيب ١١/٣ ، البداية والنهاية ١٥٠/١٠ .

(٣) عاصم بن بهدلة (— ١٢٨ ﻫ) هو ابن ابي النجود المقرىء المشهور، كان ثقة إلا انه كثير الخطأ في الحديث : تهذيب التهذيب ٣٨/٥ .

(٤) معتب : قيل ان اسمه مغيث، وهو مولى جعفر الصادق، وكان كذاباً: الميزان ١٤٢/٤ .

(٥) كعب الأحبار (٧٢ ق. ﻫ — ٣٢ ﻫ) يهودي، أسلم في خلافة عمر ، وكان كثير النقل عن أهل الكتاب ، فاتهم بالكذب : ابن سعد ١٥٦/٧ ، التهذيب ٤٤٠/٨ .

(٦) زياد بن حسان بن قرة الباهلي البصري ، وهو زياد الأعلم . روى عن أنس والحسن البصري ، وثقة العلماء ، وهو من قدماء أصحاب الحسن : تهذيب التهذيب ٣٦٢/٣ .

(٧) جندب بن عبد الله (— ٦٥ ﻫ) بن سفيان البجلي ثم العلقي ، يكنى أبا عبد الله ، له صحبة ، روى عن حذيفة ، وعنه : الحسن وابن سيرين وغيرهما : تهذيب التهذيب ١١٧/٢ .

(٨) طلحة بن عبيد الله ، (٢٨ ق. ﻫ — ٣٦ ﻫ) الصحابي الجليل، أحد العشرة المبشرين بالجنة : الاصابة ٢٩٢/٣ ، والزبير بن العوام (١٢ ق. ﻫ — ٣٦ ﻫ) الصحابي الكبير ، قال فيه عمر : الزبير ركن من أركان الإسلام . الاصابة ٥/٣ .

الليلِ المظلم ، وضياءُ النهار ، فاعملوا به على ما كان من جُهْدٍ وفاقةٍ .

قال : وحدَّثنا إسحاقُ بنُ عيسى [1] ، قال : حدَّثنا محمَّدُ بنُ طلحةَ [2] عن معنِ بن عبدِ الرحمن [3] عن عبدِ الله بنِ مسعود [4] قال : قال رسول الله ﷺ ، إنَّ كُلَّ مؤدِّبٍ يُحِبُّ أن يؤدِّي أَدَبَهُ ، وإنَّ أَدَبَ اللهِ القُرآنُ .

وحدَّثنا خَلَفُ بنُ هشام ، قال : حدَّثنا عبدُ الوهاب الخَفَّاف [5] عن سعيدٍ [6] عن قَتادَةَ في قولِهِ (ومن يؤْتَ الحكمة) [7] قال : القرآن .

---

(١) اسحاق بن عيسى (١٤٠ – ٢١٥ هـ) البغدادي . روى عن مالك والحمادين وشريك وهشيم ، وعنه جماعة ، وثقة العلماء . ابن سعد ٧/٨٣ ، التهذيب ١/٢٤٥ .

(٢) محمد بن طلحة (– ١٦٧ هـ) بن مصرف ، روى عن ابيه وجماعة ، وقد ضعفه بعض العلماء . الميزان ٣/٥٨٨ .

(٣) معن بن عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود ، روى عن ابيه وعن جده بالواسطة وعن أخيه القاسم ، وكان قاضياً على الكوفة كان ثقة ، ديناً : ابن سعد ٦/٢١٢ .

(٤) عبدالله مسعود (– ٣٢ هـ) صحابي جليل ، أسلم قديماً ، قال فيه رسول الله : إنك لغلام معلم: الإصابة ٤/١٢٩ .

(٥) عبد الوهاب بن عطاء الخفاف (– ٢٠٤ هـ) ابو نصر العجلي البصري ، سكن بغداد ، وكان مستملي سعيد بن أبي عروبة . أكثر العلماء على قبوله : التهذيب ٦/٤٥٠ .

(٦) سعيد بن أبي عروبة (– ١٥٥ هـ) كان ثقة، كثير الحديث ، ثم اختلط في آخر عمره . وهو من أوائل من ألفوا في الحديث : طبقات ابن سعد ٦/٣٣ ، مشاهير علماء الامصار ١٥٨ .

(٧) البقرة ٢٦٩ .

قال : وسمعتُ الكلبي[1] يقولُ : هي النبوةُ ، قال فذكرتُ ذلك لداود بن أبي هند[2] ، فقال : إنَّ النبوةَ لَحَسَنٌ ، ولكنه القرآن .

فضائل القراء :

قال : وحدَّثنا خلف بن هشام قال : حدثنا عبد الوهاب عن بشر[3] عن القُثَم[4] مولى خالد بن يزيد بن معاوية قال : أَخبرني أبو أُمامةَ الحمصي[5] ، ان رسولَ الله ﷺ قال : مَنْ قرأَ ثُلُثَ القرآن أُعطيَ ثلثَ النبوةِ ، ومن قرأَ ثُلُثَيْهِ أُعطيَ ثُلُثَيْ النبوةِ ، ومَنْ قرأَ القرآنَ كُلَّهُ أُعطيَ النبوةَ كُلَّها .

قال : وحدَّثنا خلف بن هشام قال : حدَّثنا إسماعيل بن عَيَّاش الحمصي عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : مَنْ أَخذَ ثُلُثَ

---

(١) محمد بن السائب الكلبي ، الكوفي ، المفسر ، النسابة ، الأخباري ، ضعفه الأئمة ، وردوا حديثه : ميزان الاعتدال ٣/٥٥٧ .

(٢) داود بن أبي هند (- ١٣٧ هـ) واسم ابي هند دينار. كان من أهل الورع والفضل. روى عن أنس بالواسطة : مشاهير علماء الامصار ١٥١ .

(٣) بشر : هو ابن عبد الله السلمي ، نزيل الشام . كان من حرس عمر بن عبد العزيز . ذكره ابن حبان في الثقات : تهذيب التهذيب ١/٤٥٤ .

(٤) لا يعرف .

(٥) لا يعرف .

القرآن وعَمِلَ به ، فقد أخذ ثُلُثَ النبوةِ . ومَنْ أَخذ نِصْفَ القرآن وعَمِلَ به ، فقد أَخذ نِصْفَ النبوةِ . ومَنْ أَخَذَ القرآنَ وعَمِلَ به ، فقد أَخذ النبوةَ كُلَّها .

قال : وحدَّثنا عُمَرُ بنُ طلحة[1] قال : حدَّثنا أسباطُ بنُ نصر[2] قال : حدَّثنا سِماك[3] عن ملحان بن المخارق التيمي[4] قال : مَرَّ عمَّارُ بن ياسر[5] علينا ونحن في حلقةٍ فقُمْنا إليه فجلسْنا حوله ، فقلنا : حدِّثْنا ما سمعْتَ من رسول الله ﷺ فإنك صاحبه ولو فارقْتَنا (٨٩) لم نَجِدْ مِثْلَكَ ، قال : عليكم القرآنَ فإنَّ فيه كنزَ الأَوَّلينَ والآخرينَ .

قال : حدَّثنا يزيدُ بن هرون قال : أَخبرنا شُعْبَة[6] ، عن أَبي

---

(١) عمر بن طلحة الأزدي : روى عنه البصريون وضعفة المحدثون : الميزان ٧/٢٠٨ .

(٢) أسباط بن نصر : الهمداني . عن سماك وإسماعيل السندي ، وعنه ابو غسان الجنهدي، وعمرو بن حماد وجماعة . ضعفه جماعة . الميزان ١/١٧٥ .

(٣) سماك بن الوليد الحنفي ، ابو زميل ، من أهل اليمامة . كان متقناً ، ثبتاً ، قدم البصرة فحدثهم بها فكتب عنه العراقيون : مشاهير علماء الأمصار ١٢٣ .

(٤) لا يعرف .

(٥) عمار بن ياسر (٤٦ ق.هـ - ٥٧ هـ) ابو اليقظان الصحابي القديم ، شهيد صفين : الاصابة ٤/٢٧٤ .

(٦) شعبة بن الحجاج (٨٥ - ١٦٠ هـ) بن ورد ، مولى بني عتيك ، كنيته ابو بسطام ، كان يسكن البصرة زماناً ، وواسط حيناً ، وهو امام ، ثقة ، ثبت ، امير المؤمنين في الحديث . اجمع العلماء على إمامته ، وجلالة قدره : ابن سعد ٧/٣٨ ، مشاهير علماء الأمصار ١٧٧ ، حلية الأولياء ٧/١٤٤ ، العبر ١/٢٣٤ ، البداية والنهاية ١٠/١٣٢ ، تهذيب التهذيب ٤/٣٣٨ .

إسحق[1]، عن عمرو بن مرة[2]، عن عبد الله، قال: مَنْ أَحَبَّ العِلْمَ (فليثور ؟) القرآن، فإنَّ فيه عِلمَ الأَوَّلينَ والآخرين.

قال: وحدَّثنا حُجينُ بن المُثنى[3] قال: حدَّثنا إسرائيلُ[4]، عن أَبي إسحقَ، عن عَمرو، عن عبدِ الله، أَنه كان يقرأُ القرآنَ فيمُرُّ بالآيةِ، فيقولُ للرجُلِ خُذْها، فوالله لهيَ خيرٌ مما على الأَرض من شيءٍ، فيرى الرجل انما يَعْني تلك الآيــة، حتى يفعلَهُ بالقومِ كُلِّهِمْ. ثم قال: جَعَلَ اللهُ جَلَّ وعزَّ قارىءَ القرآنِ مع السَّفَرَةِ.

قال: حدَّثنا أَبو النضر. قال: حدَّثنا شُعْبَةُ، عن قَتادةَ، قال: سمِعْتُ زُرارة بنَ أَوفى[5] يحـــدِّثُ عن سعدِ بن هِشامٍ

---

(١) ابو اسحاق السبيعي (٣٠ - ١٢٨ هـ) الهمداني، عمرو بن عبدالله. ثقة، ثبت، يقال انه سمع علياً وبعض الصحابة. نسي في اخر عمره: ابن سعد ٢١٩/٧، مشاهير علماء الأمصار ١١١.

(٢) عمرو بن مرة الجملي المرادي (- ١١٦ هـ) ثقة، اثنى عليه الأئمة، وكان مرجئاً: مشاهير علماء الأمصار ١٠٣، الميزان ٢٨٨/٣. وعبد الله الذي يروي عنه، هو الصحابي عبد الله بن أبي أوفى (- ٨٦ هـ) اخر من توفي من أصحاب النبي بالكوفة: ابن سعد ١٣/٦، التهذيب ١٠٢/٨.

(٣) ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث.

(٤) إسرائيل بن يونس (- ١٦٠ هـ) ابن أبي اسحاق السبيعي، من المثقنين: مشاهير علماء الامصار ١٦٩.

(٥) زرارة بن اوفى (- ٩٣ هـ) من كبار التابعين، ثقة، عابد، كان على قضاء البصرة: طبقات ابن سعد ١٠٩/٧.

الانصاري[1] ، عن عائشة[2] ، عن النبي ﷺ ، قـال : الذي يقرأُ القرآنَ وهو له حافظٌ ، مع السَّفَرَةِ ، الكرامِ ، البَرَرَةِ . ومَثَلُ الذي يقرؤُهُ وليس بحافظٍ له وهو يتعاهَدُهُ ، فله أَجْرانِ .

قال : ثمَّ جعلَ تباركَ وتعالى قارئَهُ في أَعلا درجاتِ الجنّاتِ ، ومَنْ قرأَ منه شيئاً ارتقى في دَرَجِ الجنَّاتِ على عَدَدِ ما أَخَـذَ من آياتِهِ .

قال : حدَّثنا أَبو نُعَيم[3] قال : حدَّثنا سُفْيَن ، عن عاصم ، عن زرّ[4] عن عبدِ الله بنِ عَمْروٍ[5] ، عن النبيِّ ﷺ قال : منزِلتُك عند آخِرِ آيةٍ تَقرؤُها .

قال وحدَّثنا أَبو النضر قال : حدَّثنا أَبو خَيْثَمَةَ[6] قـال :

---

(١) سعد بن هشام بن عامر الانصاري : ابن عم أنس بن مالك . كان من عباد التابعين والمرابطين . قتل بأرض مكران غازياً : مشاهير علماء الامصار ٩١ .

(٢) عائشة بنت الصديق (٩ ق. هـ – ٥٨ هـ) أم المؤمنين : الاصابة ١٣٩/٨ .

(٣) ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث .

(٤) زر بن حبيش (٤٠ ق. هـ – ٨٢ هـ) الاسدي ، أبو مريم ، ادرك الجـاهلية ، ولا صحبة له : مشاهير علماء الامصار ١٠٠ .

(٥) عبد الله بن عمرو بن العاص (٧ ق. هـ – ٦٥ هـ) الصحابي الجليـل . غير أن زراً روى عن ابن مسعود ، ولم يرو عن ابن عمرو : تهذيب التهذيب ٣٢١/٣ .

(٦) زهير بن معاوية (– ١٧٤ هـ) الجعفي ، أبو خيثمة ، مولده بالكوفة ، وكان حافظاً متقناً : مشاهير علماء الامصار ١٨٦ .

حدَّثنا موسى الفَرَّاء[1] ، عن (أَبي) عنبس[2] ، عن عمران بن حطان[3] ، قال : سألتُ أُمَّ الدرداء[4] فَقُلْتُ : حَدِّثينا عن فَضْلِ القرآن فقالت : إنَّ دَرَجَ الجنةِ على عَدَدِ آي القرآن ، وإنه يُقال لصاحِبِ القرآنِ : إقرأْ وارْقَهْ .

قال : وحدَّثنا يزيدُ بن هارون[5] ، قال : أَخبر اسماعيلُ بنُ أَبي خالد[6] ، عن أُبَيٍّ[7] قال : حُدِّثْتَ أَنَّ ثلاثةً على كُثْبانِ المِسْكِ يومَ القيامةِ :

رُجُلٌ وعى كتابَ الله جلَّ وعزَّ ، فأَمَّ به قوماً وهم به راضون.

ورجلٌ يُؤَذِّنُ بالصلواتِ في كُلِّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ في الليلِ

---

(١) موسى الفراء : ابن قيس الحضرمي ، أبو محمد الكوفي . لقبه عصفور الجنة . وثقة ابن معين وأحمد وأبو حاتم . وضعفه العقيلي لرفضه : تهذيب التهذيب ١٠/٣٦٧ .

(٢) أبو عنبس : حجر بن العنبس الحضرمي . قال ابن معين : ثقة ، كوفي ، مشهور ، وفي الاصل « عنبس » تهذيب التهذيب ٢/٢١٤ .

(٣) عمران بن حطان (- ٨٤ هـ) السدوسي ، البصري ، الخارجي . كان صدوقاً ، على كونه من أهل الاهواء : الميزان ٣/٢٢٥ .

(٤) أم الدرداء : إحدى زوجتي الصحابي أبي الدرداء. وهي هنا الصغرى ، واسمها هجيمة ولا تعرف لها صحبة : الاصابة ٨/٧٤ .

(٥) يزيد بن هارون : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث .

(٦) إسماعيل بن أبي خالد (- ١٤٥ هـ) أبو عبد الله ، واسم أبي خالد سعد البجلي : مشاهير علماء الامصار ١١١ .

(٧) أبي (- ٣٠ هـ) ابن كعب الانصاري ، الصحابي ، الصدوق ، سيد القراء : الاصابة ١/١٦ .

والنهارِ يبتغي بذلك وَجهَ اللهِ عزَّ وجلَّ والدارَ الآخرة .

وعَبْدٌ مملوكٌ ، لم يَشْغَلْهُ رقُّ الدنيا عن عِبادةِ ربِّهِ .

قال : وحدَّثنا الحسن بن محمد قال : حدَّثنا شيبانُ ، عن قتادةَ في قوله : (آلر تلك آياتُ الكتابِ المُبين)[1] قال : أي والله مبين بركته ورشده . وقوله : (ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يشكرون) قال : إنَّ المؤمن ليشكرُ نعمةَ الله عليه وعلى غيره . قال : وذُكر لنا أنَّ أبا الدرداءِ كان يقولُ : يا رُبَّ شاكرٍ نعمة غيرِهِ .

قال : وحدَّثنا سَيَّار[2] ، عن قَتادةَ في قوله : (لقد كان في قَصَصِهِمْ عِبْرةٌ لأُولي الألْباب)[3] إلى قوله : (ولكنْ تصديقَ الذي بين يديه) .

قال : القرآنُ مُصَدِّقٌ الكتبَ التي قبله ، ويشهدُ عليها قوله : (وتفصيل كُلِّ شيء) ، قال : فَصَّلَ اللهُ حلالَهُ وحرامَهُ ، وطاعَتَهُ ومَعْصِيَتَهُ .

---

(١) سورة يوسف : ١

(٢) سيار (- ١٩٩ هـ) ابن حاتم العنزي البصري ، صالح الحديث ، وثقة ابن حبان : الميزان ٢/٣٥٢ .

(٣) يوسف : ١١١ .

قال : وحدَّثنا أبو النَّضْر قال : حَدَّثنا شُعْبَةُ ، عن عطاء بنِ السَّائب[1] ، عن الأحوص[2] قال : كان عبدُ الله يقول : تَعَلَّموا القرآنَ ، واتْلوهُ تُؤْجرُوا بِكُلِّ حَرْفٍ عَشْرَ حسناتٍ . أَما إِني لا أَقولُ الم حَرْفٌ ، ولكن أَلف حرفٌ ، ولام حرفٌ ، وميم حرفٌ .

قال : وحدَّثنا محمدُ بنُ جعفر[3] قال : حدَّثنا وَرْقَاءُ[4] ، عن أَبي نَجيح[5] ، عن مجاهد قوله (النبأ العظيم)[6] قال : القرآن .

قال : وحدَّثنا عثمانُ بن محمد[7] قال : حدَّثنا عَقيلُ بنُ جابر[8]

---

(١) عطاء بن السائب (٣٨ – ١٣٦ هـ) أحد علماء التابعين، روى عن جماعة من الصحابة. حدث عنه سفيان الثوري وشعبة والفلاس . تغير بأخرة ، وساء حفظه : الميزان ٣/٧٠ .

(٢) عوف بن مالك بن فضلة : أبو الاحوص الكوفي ، روى عن أبيه ، وله صحبة ، وكان قاصاً ، قتلته الخوارج أيام الحجاج بن يوسف ، وثقة ابن معين : تهذيب التهذيب ٨/١٦٩ .

(٣) محمد بن جعفر : المدائني ، روى عن ورقاء وغيره ، روى عنه مسلم حديثاً واحداً : الميزان ٣/٤٩٩ .

(٤) ورقاء بن عمر اليشكري : كوفي : نزل المدائن ، وثقة أحمد وشعبه وأبو داود، وضعفه يحيى القطان : ميزان الاعتدال ٤/٣٣٢ .

(٥) أبو نجيح (– ١٠٩ هـ) اسمه يسار ، روى عن جماعة من الصحابة، وثقه ابن معين: التهذيب ١١/٣٧٧ .

(٦) النبأ : ٢ .

(٧) عثمان بن محمد (١٥٦ – ٢٣٩ هـ) بن إبراهيم العبسي ، أبو الحسن ابن أبي شيبة الكوفي ، صاحب المسند والتفسير ، روى عن هشيم وجرير بن عبد الحميد ووكيع وخلق . وروى عنه كثيرون ، وثقة الائمة : تهذيب التهذيب ٧/١٤٩ .

(٨) عقيل بن جابر : بن عبد الله الانصاري المزني ، روى عنه صدقة بن يسار ، وثقه ابن حبان : تهذيب التهذيب ٧/٢٥٣ ، وفي الاصل : ابن جبير .

عن هلال بن يَساف[1] ، عن فَروةَ بنِ نوفل[2] قال : حدَّثنا خَبَّابُ ابن الأَرَتّ[3] ـــ وخرجْتُ معـــه من المسجد ـــ فقال لي : إن استطعْتَ أَن تَقَرَّبَ إلى الله عزَّ وجلَّ ، فإنك لا تَقَرَّبُ إليه بشيءٍ أَحَبَّ إليه من كلامه .

قال : وفَضَّلَ الله جَلَّ وعزَّ أَهْلَ التِّلاوةِ للقرآنِ بِتِلَاوتِهِ ، وأَخْبَرَ أَنهم يقُومونَ بأَمْرِهِ ، فقال : (إن الذين يَتْلُونَ كتابَ الله، وأَقاموا الصلاةَ ، وأَنفقوا مِمَّا رزقْنـــاهم سِراً وعلانِيَةً يَرْجُونَ تِجارةً لَنْ تَبور)[4] يُخْبِرُهُمْ أَنَّ تِجارَتَهُمْ في الآخِرَةِ (هي) الرابحة وانها لا تَكْسَدُ عنده حتى يوفِّيَهُمْ أُجورَهُمْ من الجَنَّةِ .

قال : حدَّثنا يحيى بن (أَبي) بكير[5] قال : حـدَّثنا شُعْبَةُ

---

(١) هلال بن يساف الاشجعي الكوفي ، روى عن الحسن بن علي ، وجماعة منهم فروة بن نوفل ، وثقه الائمة : ابن سعد ٢٠٨/٦ ، مشاهير علماء الامصار ١٠٩ ، تهذيب ٨٦/١١ .

(٢) فروة بن نوفل الاشجعي الكوفي ، روى عن النبي (ص) مرسلاً ، وعنه ؛ هـــلال بن يساف ، وأبو إسحاق السبيعي ، وشريك بن طارق ونصر بن عاصم: تهذيب التهذيب ٢٦٦/٨ .

(٣) خباب بن الارت (٢٦ ق.هـ – ٣٧ هـ) الصحابي القديم : الاصابة ١٠١/٢ .

(٤) فاطر : ٢٩ .

(٥) يحيى بن أبي بكير (– ٢٠٩ هـ) أبو زكرياء الكوفي ، سكن بغداد ، فروى عنه أهلها ، وثقة الائمة : تهذيب ١٩٠/١١ في الاصل : ابن بكير .

(٩٠) عن يزيد[١] « الر تلك » قال ، قال مطرف بن الشخير[٢] : هذه آيةُ القرآن : (إنَّ الذينَ يَتلُونَ كتابَ الله، وأَقاموا الصلاةَ، وأَنفقوا ممَّا رزقناهم سِرّاً وعلانِيَةً يَرْجُونَ تجــارةً لن تَبور) إلى قوله (غفور شكور)[٣] .

قال: وحدَّثنا القُثَمُ بنُ القُثَمِ[٤] قال : حدَّثنـــا شُعبةُ ، عن علقمةَ بن مرْثَد[٥] قال : سَمِعْتُ سعدَ بنَ عبيدة[٦] يقول : ان أَبا عبد الرحمن السلمي[٧] (حدَّثه) عن عثمان بن عفان[٨] رضي الله

---

(١) يزيد بن حميد (- ١٣٠ هـ) أبو التياح الضبعي ، البصري . روى عن خلق منهم مطرف بن الشخير ، وروى عنه كثيرون : ابن سعد ١٣/٧ ، تهذيب التهذيب ٣٢٠/١١ .

(٢) مطرف بن الشخير (١١ - ٦٧ هـ) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير العامري ، أبو عبد الله ، من أهل العبادة والزهد والتقشف ، ممن لزم الورع الخفي : ابن سعد ١٠٣/٧ ، مشاهير علماء الامصار ٨٨ ، الحلية ١٩٨/٢ .

(٣) فاطر : ٣٠ .

(٤) لا يعرف .

(٥) علقمة بن مرثد (- ١٢٠ هـ) الحضرمي ، أبو الحارث الكوفي . روى عن جماعة من التابعين . وعنه روى بعض كبار تابعيهم ، كشعبة والثوري ومسعر ، وثقه الائمـــة : ابن سعد ٢٣١/٦ ، تهذيب التهذيب ٢٧٨/٨ .

(٦) سعد بن عبيدة (ت ١٠٣ - ١٠٦ هـ) السلمي، أبو ضمرة الكوفي . روى عن المغيرة وابن عمر والبراء بن عازب وابي عبد الرحمن السلمي ، وكان ختنه على ابنته . وعنه : الاعمش ومنصور وابن عتيبة وعلقمة بن مرثد : تهذيب ٤٧٨/٣ .

(٧) أبو عبد الرحمن السلمي (- ٧٢ هـ) عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت . روى عن أبيه وبعض الصحابة . وعنه طاوس واياس وابن جبير وعطاء وسعد بن عبيدة . وثقه العلماء : ابن سعد ١١٩/٦ .

(٨) عثمان بن عفان (٦ ق. هـ - ٣٥ هـ) أمير المؤمنين ، الشهيد : الاصابة ٢٢٤/٤ .

عنه ، عن النبيِّ ﷺ قال : خيرُكم مَنْ تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ ، قال أبو عبد الرحمن : فذاك الذي أَقْعدني مقعَدي هذا .

قال : وحدَّثني أبو بكر بن أَبي شيبة[1] قال : حدَّثنا عبدةُ ابنُ سُلَيمان[2] ، عن الأَعْمَشِ[3] قال ، قال عبدُ الله : مَنْ قرأَ القرآنَ فهو غِنًى .

قال : وحدَّثنا أَبو النضر قال : حدَّثنا الهيثمُ بنُ جَمَّاز[4] ، عن يحيى بن أَبي كثير[5] ، عن أَبي سلمةَ بن عبد الرحمن[6] قال :

---

(١) ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث .

(٢) عبدة بن سليمان (–١٧٨هـ) ابو محمد الكوفي . يقال اسمه عبد الرحمن ابن سليمان بن حاجب بن زرارة . روى عن جماعة من الثقات . وعنه : أحمد واسحاق وابنا أبي شيبة : تهذيب ٤٥٩/٦ .

(٣) الأعمش (٦٠–١٤٨ هـ) سليمان بن مهران الاسدي الكوفي . روى عن ابن أبي أوفى وأبي وائل والكبار، وكان محدث الكوفة وعالمها . قال يحيى القطان : هو علامة الأسلام . عرف بالتدليس ، مع الثقة والضبط والورع العظيم : ابن سعد ٣٣٨/٦ ، تاريخ ابن خياط ٦٥٥/٢ ، مشاهير علماء الامصار ١١١ ، الميزان ٢٢٤/٢ ، العبر ٢٠٩/١ ، تاريخ الاسلام ٣١/٦ ، البداية والنهاية ١٠٥/١٠ ، تهذيب التهذيب ٢٢٢/٥ .

(٤) الهيثم بن جماز : الحنفي البكاء . بصري معروف . روى عن يحيى بن أبي كثير . قال قال ابن معين : كان قاضياً بالبصرة . ضعيف، متروك الحديث: ميزان الاعتدال ٣١٩/٤ .

(٥) يحيى بن أبي كثير (–١٢٩هـ) اليمامي . أحد الاعلام الاثبات الا أنه كان يدلس : الميزان ٤٠٢/٤

(٦) أبو سلمة بن عبد الرحمن (–١٠٤هـ) احد فقهاء المدينة السبعة . وهو ابن عبدالرحمن بن عوف . كان من افاضل قريش وعبادهم وزهادهم . يقال ان اسمه كنيته وقدقيل اسمه عبدالله : مشاهير علماء الامصار ٦٤

قال رسول الله ﷺ : أعبدُ الناس أَكثرُهم تلاوةً للقرآن ، وإنَّ أفضل العبادةِ الدعاءُ .

قال أبو النضر عن شعبةَ ، عن سليمان التيمي[1] ، قال سمعْتُ أَبا عُمرَ[2] ، قال ، قال سليمانُ : لو أَنَّ رَجُلاً بات يَتْلُو كتابَ الله ، وباتَ آخرُ يُحْمَلُ على القِباب البيض ، لرأَيتُ الذي باتَ يَتْلُو أَعلاهما أَجْراً .

قال وحدَّثنا أَبو النضر قال ، حدَّثنا صالح الناجي[3] ، عن قَتادةَ ، عن زُرارة[4] بنِ أَوفى ، قال ، قام رَجلٌ إلى النبيِّ ﷺ ، قال : يا رسول الله ، أَيُّ العمل أَحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ ؟ قال : الحالُّ المرتَحِل[5] .... قال : صاحبُ القرآن أَن يضربَ من أَولِهِ إلى آخِرِهِ ، ومن آخِرِهِ إلى أَوَّلِهِ كُلَّما حلَّ ارتَحَلَ .

قال : ثُمَّ أَكَّد الحُجَّةَ على مَنْ تلا كتابَهُ وحَفِظَهُ ، وأَلزمهُمْ

---

(١) سليمان التيمي (ـ ١٤٣هـ) ابن طرخان . من عباد اهل البصرة وصالحيهم ثقة واتقانا وحفظاً : مشاهير علماء الامصار ٩٣ .

(٢) ابو عمر : حماد بن واقد العيشي الصفار . كثير الوهم والخطأ : الميزان ١/ ٦٠٠

(٣) صالح المري (ـ ١٧٢هـ) الملقب بالناجي ، كان من عباد اهل البصرة .. وعرف بالضعف : تهذيب ٤/ ٣٨٢

(٤) زرارة بن أوفي النخعي : له صحبة . مات في زمن عثمان . الإصابة ٣/ ٧

(٥) هنا جملة ساقطة ربما كانت : ومن هو الحال المرتحل يا رسول الله ؟

من الفروضِ ما لم يلزم غَيْرَهُم ، فقال : (ما كان لِبَشَرٍ أن يؤْتِيَهُ اللهُ الكتابَ والحُكْمَ والنبوةَ ثم يقول للناسِ كونوا عِباداً لي مِنْ دونِ الله ولكن كونوا ربَّانِيِّينَ بما كنتم تُعَلِّمونَ الكتابَ وبما كُنتم تَدْرُسُونَ)[1] .

فأخبر جَلَّ وعزَّ ، أَنَّ كُلَّ مَنْ أَتاهُ اللهُ الكتابَ والحكمةَ من النَّبيِّين ، أَنه أَمره ان يبلِّغَ قولَهُ ، أَنَّ الله جــلَّ وعزَّ ، أَمرهم أَن يكونوا حُكماءَ علماءَ فُقهاءَ بما عُلِّموا من الكتاب وبما كانوا يدرسون.

وقال عزَّ من قائل (إِنَّا أَنزلنا التورية « التوراة » فيهــا هُدًى ونور يحكمُ بها النبيونَ الذين أَسلموا[2] للذين هــادوا و الربانيون والأَحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداءَ) فأَوجب عليهم الحكمَ بما استُحفظوا من كتابِ الله وشهدوا انــه الحق ، ثم أَوجَبَ عليهم أَن لا يَخْشَوْا عبادَهُ في القيامِ به فيهم ، فقال : (فلا تخشوا الناس واخشون)[3] ثم قال : (إِن كنتم مؤْمنين)[4] قد صَدَّقْتُم بي وبكتابي .

---

(١) آل عمران ٧٩

(٢) المائدة ٤٤

(٣) المائدة ٤٤ .

(٤) المائدة ٤٤ .

القسم الثاني

في فقه القرآن

قلت : قد علمت أَنَّ في فهمه النجاةَ ، وفي الإغفال عنه الهلكة. فلو ذابَ أَهْلُ السمواتِ ، وأَهْلُ الأَرضِ حين يسمعون كلامَ الله عزَّ وجلَّ ، أَو ماتوا خُموداً (أَجمعون؟) لكان ذلك حقٌّ لهم ، ولما كان ذلك كثيراً إِذ تكلم الله عزَّ وجلَّ به تكلما من نَفْسِهِ من فوق عَرْشِهِ ، من فوق سبع سمواته . فإذا عَظُمَ في صدرك تعظيمُ المتكلِّم به ، لم يكن عندك شيءٌ أَرفعُ ولا أَشرفُ ، ولا أَنفعُ ، ولا أَلَذَّ ولا أَحلى من استماع كلام الله جلَّ وعزَّ ، وفهم معاني قوله ، تعظيماً وحباً له وإِجلالاً . إذ كان تعالى قائلُه ، فحُبُّ القول على قَـــدْرِ حُبِّ قائله .

وكذلك نَجِدُهُ في فِطرِنَا فيما بيننا وبين الخَلْق .

نُحِبُّ قولَ الأَخِ والقرابَةِ والعالِمِ والشريفِ على قَدْرِ محبتنا له ، ونُجِلُّ قولَهُ ونُعَظِّمُ ونُرَدِّدُ ذِكْرَهُ ونتفهَّمُ معانِيَهُ ، على قَدْرِ حُبِّنا له وإِجلالنا له .

فكلامُ العالِمِ عندنا أَحلى وأَلذُّ وأَرفعُ وأَجَلُّ من كلامِ الجاهِلِ . وكلامُ الشريفِ من كلامِ الوضيعِ . وكلامُ مَنْ أَحسن إلينا (لا) كمن لا إحسان له إلينا . وكلامُ الناصحِ المتحنِّنِ (أَحسن) من كلام مَنْ لا ينصحُنا ولا يتحنَّنُ علينا ، حتى إنَّ كلامَ الوالدةِ نَجِدُ له من اللَّذَّةِ والحلاوَةِ ما لا نَجِدُ من كلامِ غيرِها ، لمعرفتِنا برحمتِها ، ونُصْحِها ، وتحننِها علينا .

فلا أَحدَ أَعظمُ من اللهِ عزَّ وجلَّ عندنا قدراً ولا أَشرف ، بل لا شَرَفَ ولا قَدْرَ لمنْ لم يجعل اللهُ عَزَّ وجلَّ له الشَّرَفَ والقَدْرَ . ولا أَحدَ أَعلمُ من اللهِ جَلَّ وعَزَّ (٩١) ، ولا أَحدَ (أَقرب) لنا ولا أَرحم ولا أَعظم تحنناً من اللهِ تعالى . بل لَمْ يَرْحَمْنا راحِمٌ ولم ينصحْنا ناصِحٌ ولم يتحنَّنْ ، علينا مُتحَنِّنٌ ، إلَّا بما استودعَ لنا في قلبه ، وسخَّرَهُ لنا بالرحمةِ والنُّصْحِ .

أَلم تسمع قولَ عبدِ الله : مَن أَرادَ أَن يعلَمَ أَنه يُحِبُّ اللهَ عَزَّ وجلَّ فلينظر هل يُحبُّ القرآن ؟

وحدَّثنا يزيدُ بنُ هارونَ قال : حدَّثنا شعبةُ عن إبي إسحقَ ،

عن عبد الرحمن بن يزيد [1] عن عبد الله قال : مَنْ سرَّهُ أَن يعلَم أَنه يحبُّ الله ورسولَهُ فلينظرْ فإنْ كان يُحِبُّ القرآنَ فإنه يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ .

حدَّثنا حُجَيْنُ بنُ المُثَنَّى قال : حدَّثنا إسرائيل عن أَبي إسحق عن عبد الله بنِ يزيد : لا يسأَلْ عبدٌ عن نفسِهِ إِلَّا القرآن ، فمَنْ كان يُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ ، فمن كان كذلك محباً له يحبُّهُ الله .

والله أحبُّ إليه من نفسه ، ومن كلِّ شيءٍ كان .

تلاوةُ القرآنِ وتفهُّمُهُ أَلَذُّ الأَشياءِ عنده ، وأَنفعُها لقلبه ، ولم يمل مِن تلاوتِهِ ، ولم يقنعْ بتلاوتِهِ دون أَن يطلبَ الفهمَ لمعاني ما أَرادَ اللهُ عزَّ وجَلَّ ، من تعظيمِهِ وتبجيلِهِ ومحبَّتِهِ ، وأَمْرِهِ ، ونَهْيِهِ ، وإرشادِهِ ، وآدابِهِ ، ووعْدِهِ ، ووعيدِهِ ، ويعلمُ أَنه لا ينالُ منافعَ آخِرَتِهِ ، ولا الفَوزَ فيها ، والنجاةَ من هلكتِها ، إِلَّا بالعلمِ الدَّالِّ على كل نجاةٍ ، والمُنجي له من كُلِّ هلكةٍ ، ولا نجاةَ له في آخِرتِهِ ، ولا اعتصامَ له في انتهائِهِ عمَّا يستوجبُ به عذابَ ربِّه ، إِلَّا بالعلم الدَّالِّ على ذلك .

---

(١) عبد الرحمن بن يزيد (— ٨٣ هـ) بن قيس النخعي ، أبو بكر الكوفي . روى عن عثمان وعبدالله بن مسعود ، وعنه ابنه محمد ، وابراهيم النخعي وأبو اسحاق السبيعي وجماعة . وثقة ابن سعد والعجلي والدارقطني : تهذيب التهذيب ٦/٢٩٩ .

فإذا عَلِمَ ذلك، رغِبَ في العلم ليحركَهُ لطلبِ الفوز من عذاب الله تعالى ، ومن سبيلِ كُلِّ هلكة ، ويدلَّ على سبيلِ مَحَجَّةِ النجاةِ ، عن بيانٍ ، وبصيرةٍ ، ويُجانِبُ[1] طُرُقَ الردى ، بعد إيضاحٍ واستبانةٍ لها .

فإذا رَغِبَ في ذلك ، نَظَرَ بعقلٍ صحيح ان العلمَ أَرفعُ للمقدار ، وأَنفعُ للقلوب ، وأَفتحُهُ لأَبصارِها .

فعلِمَ أَنَّ العلمَ على قَدْرِ العالِمِ . فأَيُّ العلماءِ أَعْلَمُ ، كان طلبُ علمِهِ أَحبَّ إليه من طلب علمِ مَنْ هو دونه في العلمِ .

أَلا ترى انَّ الاستماعَ من الرُّسُلِ عليهم السلامُ والتفهُّمَ عنهم ، أَولى وأَرفعُ عند الناس لعظيمِ قدرِهم ، لأَنهم عن الله عزَّ وجلَّ أَخذوا علمَهُم ، وأَنهم معصومون من الخطإِ من الله جَلَّ وعَزَّ في دينِهِ ، فقد لَزِمَ قلوبَ المؤْمنين الأَمانُ من الخطإِ فيما أَخذوا عنهم من العلم ، وكذلك اتِّباعُ الرُّسُلِ أَرفعُ في العلم ممن دونهم من التابعين .

فاعرف ذلك ، ثم اعرفِ القرآنَ كلامَ مَنْ هُوَ . وهل أَحدٌ

---

(١) في الاصل : وتجانب .

أَعلمُ من قائِلِه والمتكلِّم به ؟ ولا يصيب أَحدٌ علماً إلَّا من قائِلِه وهو الله ربُّ العالمين جَلَّ ثناؤُهُ ، وتقدَّسَتْ أَسماؤُهُ .

فإذا كان الله جَلَّ ثناؤُه عندك أَعلَمَ العلماءِ بل لا عِلْمَ لأَحدٍ إلَّا من علمِهِ . أَلم تسمعه تعـــالى يقول : « وفوقَ كُلِّ ذي عِلْمٍ عليم »[1] . حتى ينتهيَ العلمُ إلى الله جَلَّ وعَزَّ .

وقد قال عبدُ الله : مَنْ أَحبَّ العلمَ فليقرأ[2] القرآن ، فإنَّ فيه علمَ الأَولين والآخرين .

فإذا كان ذلك عندك لم تُؤْثِرْ على كلامِ الربِّ سبحانه علماً من العلومِ ، ولم تجد له حلاوةً ولا شاهِداً لتلاوته ، وفهمِهِ ، فيكونُ فهمُهُ عندك أَلذَّ الأَشياءِ وأَحلاها ، حُبّاً لقائِلِه ، وتعظياً وإجلالاً للمتكلِّمِ به ، لأَنه كلامُ القديمِ الأَوَّل ، والعظيمِ الأَجلِّ ، والكريم الأَعلى . أَنزلَهُ على عِبادِهِ ليعرِّفَهم به نَفْسَهُ ، ويذكِّرَهُمْ به أَياديَهُ ، وينبِّهَهُم به من رقداتِ الغـافلين ، ويُحْيِيَ[3] قلوبَهُمْ ، ويُنوِّرَ به أَبصارهم ، ويشفيَ به الصدور ، ويزيلَ جهلها ، ويَنْفيَ شكوكَها ،

---

(١) يوسف ٧٦ .
(٢) في الاصل : فليثور .
(٣) في الاصل : في

ويغسلَ به دَنَسَها ، وزيفَها ، ويوضِّحَ به سبيلَ الهدى ، ويكشفَ به العمى والشُّبُهاتِ ، ويُزيلَ نوازِعَ الشيطانِ ، ووساوسَ الصدور ، ويُغْنِيَ به مَن فَهِمَهُ ، ويُقَرِّبَهُ من عقلِهِ ، ويَنْعَمَ به مَن كَرَّرَ تلاوَتَه ، ويَرْضى به عمَّن اتَّبَعَهُ .

هو طريقُ اللهِ المستقيمُ الذي مَنْ سلك ما دلَّهُ عليه أَوقَفَهُ على الرغائِبِ ، وسلمه من جميعِ المهالِكِ ، وأَوردَهُ رياضَ جِوارِ الربِّ جلَّ وعزَّ ، وخفَّف عنه أهوالَ يومِ العرضِ والنُّشورِ ، و (علا) في درجاتِ جِوارِ الربِّ جَلَّ ذِكْرُهُ منزلهُ ، وقرَّبَهُ من القَبولِ يوم الزُّلفَةِ لديه (٩٢) .

هو حَبْلُ اللهِ المتينُ الذي لا انقطاعَ له . مَنْ تمسَّكَ به نجا ، ومن لَها عنه عَطِبَ ، ومَن ابتغى في غيره ضَلَّ ، ومَنْ فَهِمَهُ نطقَ بالحُكم ، وجرى لسانُهُ بِحُسْنِ الموعِظَةِ ، وكان من العلماءِ باللهِ جَلَّ وعَزَّ .

ومَنْ عقل عن اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ما قال ، فقد استغنى به عن كُلِّ شيءٍ ، وعزَّ به من كُلِّ ذُلٍّ ، لا تتغيَّرُ حلاوتُهُ ، ولا تَخْلِقُ جِدَّتُهُ في قلوب المؤمنين به ، على كثرةِ التَّرْدادِ ، والتَّكْرارِ لِتِلاوته ، لأَنَّ قائِلَهُ دائمٌ لا يتغيَّرُ ولا ينقُصُ ولا يحدُثُ به الحوادث .

وكذلكَ كلامُهُ لا يتغيّرُ في قُلوبِ المؤْمنينَ التالِـيْنَ ، على كَثْرةِ التَّرْدادِ والتكرارِ لتِلَاوتِهِ .

وكُلُّ كلامٍ من نبيٍّ أو صديقٍ أو خطيبٍ بليغٍ أو قائلِ شِعْرٍ ، فالقلبُ يملُّ من كثرةِ (تِلاوَةٍ)[1] له . وذلك موجودٌ في الفِطْرَةِ ، لا يختلفُ فيه (أولوا) الألباب .

ولو كان الله جَلَّ ذِكْرُهُ وعَزَّ أَنْزَلَهُ بلسان لا نَفْهَمُهُ ولا نعرف معانيه إذا تُلِيَ ، إلَّا أَنَّا نعلمُ أنه كلامُ الإله جَـلَّ وعزَّ ، الذي ليس كمثلِهِ شيءٌ ، ثم ذُبْنا وذابَ أَهـلُ السماءِ والأَرضِ ، لحقَّ لنا ولهم ذلك .

بل لو ذَكَرَ الخلايقُ أَنَّ لله جَلَّ وعزَّ كلاماً تكلَّمَ بـه ولم يسمعوه ، ثم صُعِقوا (أجمعون) هيبةً وتعظيماً له ، لِعظيمِ قَدْرِ المتكلِّم به ، لكان ذلك حقيقاً ، ولما كان كثيراً .

وكذلك إذا تلى التالي بالعربيةِ ، ونحن نسمعُ الصوتَ ، ولا نفهمُ معانيَ ما يَتلُوهُ إلَّا أَنَّا نعلمُ انه يتلو كلامَ ربِّنا جَـلَّ ربُّنا وتعالى ، لما كان عجيباً لو مِتْنا (أجمعون) إجلالاً وتعظيماً له ،

---

(١) في الاصل : من كثرة له .

لِعِظَمِ قَدْرِ المتكلِّمِ به سبحانه الذي لا يَعْدِلُ قَدْرَهُ شيءٌ ، وذلك موجودٌ عندنا في فِطَرِنا أَنَّا نَسمعُ الكلامَ ممَّن نُحِبُّ من الخَلْقِ ، ومَنْ نُعَظِّمُ قَدْرَهُ فنسمَعُ صوتَهُ ولا نفهمُ ما يقولُ ، فترتاحُ لذلك قُلُوبُنا ، ويَعْظُمُ ويَجِلُّ في صدورنا ، فكيف بكلامِ ربِّنا جلَّ ثناؤُهُ وتعالى ؟

الأَوَّلُ بغير بَدءٍ ولا مسبوقٍ . وكيف ، وقد تكلَّمَ به بنفسِهِ من فوقِ عرشه ، وأَنزلَهُ مع الأَمينِ من ملايكته إلى أَمينِ أَهْــلِ الأَرض ، لئلا يرتابَ أَن يكونَ زيدَ فيه ما لم يَقُلْ ، أَو نَقَصَ منه حرفٌ واحدٌ .

يُتْلَى علينا بلسانٍ عربيٍّ مُبينٍ يَصِفُ لنا به نَفْسَهُ ، فلو كان ما أَنزلَ من كلامِهِ لم يَصِفْ لنا به نَفْسَه ، ولا ذَكَرَ لنا بــه نِعَمَهُ ، ولا أَمرَنا فيه بأَمْرِهِ ، ولا نهانا فيه عما يكرهُهُ ، ولا أَدَّبنا فيــه بأَدبِهِ ، ولا توَّعدنا فيه بعذابٍ ، ولا وعَدَنا فيه ثواباً ، إلَّا حديثاً على ما يُحَدِّثُ الرَّجُلُ أَخاهُ به ، وصَغَى بأذن المستمع له ، ليس فيه عهدٌ ولا عقدٌ ولا سَعةٌ في دينٍ ولا دنيا ، إلَّا انه يحدِّثُهُ بما عَلِمَ ، ويخبِرُهُ بما رأَى وسمع ، فإذا كان للذي يُحدِّثُكَ عندكَ قَــدْرٌ ، أَصْغَيْتَ إلى حديثه ، باستماع ما يقولُ وتفهُّم معاني ما يَصِفُ ، ولو

كان يحكيه لك عنه (حاكي) ، لفعلْتَ ذلك حبّاً منك لقـائِلِه ، وتعظيماً للمتكلِّمِ به ، ولو أَطْلعَهُ اللهُ عزَّ وجلَّ على قَلْبِكَ ، وأَنت مُتَشَاغِلٌ عنه لا تفهمُ عنه قولَهُ ، لَمقَتَكَ وعَلِمَ أَنك تَسْهو عن حديثه، ولم تعبأْ بفَهْمِ قولِهِ لقلةِ قَدْرِهِ ، وقَدْرِ حديثِهِ عندكَ .

ولو كان له عندكَ قَدْرٌ ، لاستمعْتَ لحديثِهِ ولم تَلْهُ عن تَفَهُّمِهِ، وإنما لهوْتَ عن حديثِ مَنْ حَدَّثَكَ من الخَلْقِ ، أَنه غاب عنهم عِلْمُ ضميرِكَ . ولو كان لهم بادياً ما فيه ، لأَحضرْتَ عقلَكَ إِليهم ، وإِلى حديثِهِمْ ولم تَرْضَ لهم بالاستماع لحديثِهم دون الفهم له ، ولا بالفهمِ له دون تحبُّبِهِمْ على قَدْرِ حديثهمْ ، لِتُعْلِمَهُمْ أَنك قد فَهِمْتَ عنهم ، ولم تَرْضَ لهم بالجوابِ دون أَن تُوافِقَهُمْ ، فتعظِّمَ مـا عظَّموا ، وتستحسِنَ ما استحسنوا ، وتستقبحَ ما استقبحوا . هذا ، وأَكثرُ حديثِهِمْ لَغْوٌ ولَهْوٌ ، وليس فيه منفعةٌ ولا دنيـا ، ولا حقَّ لهم (يؤَكدوه) عليكَ بِقَوْلِهِمْ ، ولا يَرْضَوْنَ عنك بفَهْمِهِ ، ولا تُحبُّ لهم أَن يسخطوا عليك إِن لم تكن تفهمُهُ ، (وتقوم) به .

فكيف بالربِّ الكريمِ الذي سَهَّلَ لك مناجاتَـهُ ، وأَقبلَ عليك ولم يتكلَّمْ به لَغْواً ولا قالَهُ لَهْواً ولا عَبَثاً ، ولا خاطَبَ

به سَهْواً ، ولا تفكُّهاً ، ولا استراحةً إليك . تعالى اللهُ جَلَّ وعزَّ عن ذلك عُلوّاً كبيراً .

وإنما تكلَّمَ (٩٣) به مخاطِبُهُ قَصْداً وإرادةً ، وتوكيداً للحُجَّةِ عليك ، وعلى خَلْقِهِ ، إعذاراً إليهم وإنذاراً .

فكيف يَرْضى عنك دون أن تسمَعَه ، وتُحْضِرَ عقلَكَ ، وتفهمَ معانيَ قولِهِ ، وأن لا تتشاغَلَ بشيءٍ من الأَشياءِ دون أَن تستقصيَ منهم معانِيَهُ .

وكيف يرضى بذلك وإنمـا كَلَّمَنا بعزائِمِ العُهودِ ، وأَوكَدِ المواثيقِ، وحقائقِ الأَمْرِ والنَّهْي، ولا يرضى منهم باستماعِهِمْ (مواعِظَهُ) دون فهمِها ، ولا بفهمِها دون العَزْمِ على القيام بحقوقِهِ فيها ، ولا بالعَزْمِ على القيام بحقِّهِ فيها دون الصَّبْرِ على القيام بحقوقِهِ في أَوقات وجوبِها ، بغير تسويفٍ ولا تأْخيرٍ ، لأَنه كلامٌ أَقبلَ علينا بـه بجلالِهِ وكِبْرِيَائِهِ ، مُخاطِباً لنا به ، فعرَّفَنا بـه أَنه لا إِله غيرُهُ . ويأْمُرُنا بما يرضى به ويقرِّبُنا منه ، ويُوجِبُ لنا جِوارَهُ والقُرْبَ منه ، والنَّظَرَ إليه ، ويُوجِبُ لنا به إنْ ركِبْنا ما يُسْخِطُهُ ، عذابَهُ الأَليمَ ، في خلودِ الأَبَدِ الذي لا انقطاعَ له، ولا زَوالَ ولا راحةَ .

وندبنا فيه إلى الأخلاقِ الكريمةِ ، والمنازِلِ الشريفةِ ، وأخذ علينا الميثاقَ المؤكَّدَ ، فكيف يرضى بتلاوتِهِ ، والقلبُ مشغولٌ بالدنيا ، وقد طَبعَنا طَبْعاً ، لا نعرفُ ما نَتلو دون أن نُصْغِيَ إليه بأسْماعِنا ، ولا نفهمُهُ وإن أَصغينا إليه ، حتى نحضرَ له عقولَنا إلَّا بقطعِها عن النَّظَرِ في كُلِّ شيءٍ سواه ، ولا نفهمُ قولَهُ دون أن نُعَظِّمَ ما قال في قلوبِنا ، ونعظِّمَ قَدْرَ رضاهُ وسخطِهِ . ولا يعظُمُ ذلك عندنا مع طُولِ مُوالاتِنا بالدنيا ، والاشتغالِ بذكْرِها ، وذكْرِ أَهلِها ، إلَّا بتِكْرارِ التَّلاقِ ، والدوامِ على تَقصِّي العَقْل . تَقَصِّي ذلك والتيقُّظُ له ، حتَّى نفهَمَ مـا قال ، فينتبهَ العقلُ من غفلتِهِ ، ويشاهـدَ علمَ الغيوب ببصرِهِ ، ويتوهَّم عظيمَ الجزاءِ ـــ الثوابِ والعقابِ ـــ برؤْيةِ بصره .

فعند ذلك يَعْقِلُ التالي عن ربِّه عزَّ وجلَّ فيقول : ما قال عنك كرائي عينه ، وما أَقبل عبدٌ على اللهِ جَلَّ وعزَّ إلَّا أَقبلَ اللهُ عليه ، وأَسرع إليه الإِجابةَ . فكذلك إذا أَقبلَ على الله تعـالى ، وذكَرَهُ بطلبِ الفهم ، أَسرعَ إليه بالإِفهامِ له . وكذلك ضَمِنَ للمُقْبِلينَ إليه بعقولهم لفهم كلامِهِ عنه ، فقال عَزَّ وجلَّ « إنَّ في ذلـك لذكرى

لِمَنْ كان له قَلْبٌ أَو أَلقى السَّمْعَ وهو شَهيد »[1] .

وقال مجاهد : شهيدٌ ، شاهدُ القلبِ ليس بغايب . فعندها شاهد قلبُهُ الغيبَ ، كرائي العين .

وفَهْمُ كتابِ الله يورثُهُ النفسُ الثابتُ في القلب . فإذ ثَبتَ فكأَنه يُعاينُ ربَّهُ جلَّ وعزَّ ، ووعدَهُ ووعيدَهُ ، ومما يُبيِّنُ ذلك ما رُوي عن أُبيّ بن كعب حين سمع رجلاً يَقرأُ ، فأَتى به النبي ﷺ فاستقرأَهُ ، فقال أَحسنْتَ ، قال : وضرب صدري . وقال : اللهم أَذْهِبْ عنه الشَّكَّ . فارفضضْتُ عرَقاً ، وامتلأَ جوفي خوفاً .

فإذا ثبتَ للنفسِ كان كالعَيان .

كان العبدُ في الدنيا ببدنِهِ ، وقلبُهُ معلَّقٌ باللهِ جَلَّ وعَزَّ ، وبغَيْبِ مَعادِهِ .

فاتَّقِ اللهَ ، ولا تجعَلْ كلامَه منك بظهرٍ ، وقلةِ اكتراثٍ منك بفَهْمِ ما قال ، وذلك عليه فإنه يُجِلُّ مَنْ أَجلَّ كلامَهُ ، ويهونُ عنده مَنْ لم يُعظِّمْ كلامَهُ .

فمَنْ أَجلَّ كلامه آثَرَهُ على كُلِّ كلامٍ ومخاطبةٍ ، وعلى كُلِّ

---

(١) ق : ٣٧ .

علمٍ ، ليفهمَهُ عنه ، ويقومَ بحقِّهِ بمعرفةٍ وفَهْمٍ .

ولو عَقَلَ عن الله جَلَّ وعَزَّ فَهْمَ آيةٍ واحدةٍ (كما) كَفَتْهُ أيامُ الحياةِ في القيامِ بحقِّ اللهِ فيها ، فكيف بما قال في كتابه من الدلائِلِ والشَّواهِدِ والأَمْثالِ والوصفِ له ، ولِما في المَعـــادِ من الثوابِ والعِقابِ . ويُبيِّنُ لك ذلك ما حدَّثناهُ يزيدُ بنُ هارون قال : اخبرنا جريرُ بنُ حازم قال : أخبرنا الحسنُ عن صعصعةَ بن معـــاويةَ عمِّ الفرزدق أنه أتى النبيَّ ﷺ وقرأ عليه « فَمَنْ يعملْ مثقـــال ذرةٍ خيراً يره ، ومَنْ يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ شراً يره »[1] . فقال : حَسْبي لا أُبالي ألَّا أَسمَعَ غيرها . فهذا رجلٌ لم يُهاجِرْ ، ولم يلزمِ النبيَّ ﷺ ؛

أَعرابيٌّ لم يَبْتَنِ في الإِسلام ، ولم يقرأ القرآنَ قبل ذلـــك ، أَقرأَهُ النبيُّ ﷺ آيةً فاكْتفى بها ، (٩٤) وورَّثَتْهُ الحيـاءَ من الله جَلَّ وعَزَّ ، فكيف بِمَنْ وُلِدَ في الاسلام ، وعلَّمَـهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ كتابَهُ ، وسمِعَ تفسيرَهُ ، وكَتَبَ الآثارَ عن نبيِّه ﷺ وأَوليائِـــهِ الصَّالِحِينَ ، لا يفهمُ كتابَ الله جلَّ وعزَّ ؛ يتلوهُ من أَولِهِ إلى آخرِهِ وذاكَ لأَنه تلاهُ دارساً ، والقلبُ مشغولٌ بغـــير فهمِهِ ولا طَلَبِ معانيه ، وذلك لقلَّةِ تعظيمِهِ لقائِلِهِ ، وإغفالِهِ الرحمةَ لنفسِهِ ، وقد

---

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

ضَمِنَ مَنْ لا يَخفَى ضمانُهُ ، ووَعَــدَ من لا يُخْلِفُ وعْدَهُ ــ جَلَّ ربُّنا ــ أَنَّ ما أنزلَ من كلامِهِ شفاءٌ لمــا في الصدورِ ، وهُدًى ورحمةٌ للمؤمنين ، فما أَحقَّ مَنْ أَغْفَلَ عن فَهمِ كتابِهِ ، أَن يستحي من رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ ، ويأْسفَ على مــا مضى من عُمُرِهِ ، ومرضِ قَلْبِهِ ، وهو لا يزدادُ إلَّا سقماً ومَرَضاً ، وذلك لِقِلَّةِ مُبالاتِهِ بدائِهِ، تَرَكَ طلبَ شِفائِهِ بما قال مولاهُ ، وتدبُّرِ ما تكلَّمَ به خالِقُهُ وقــد رآهُ مولاهُ وهو يُعْنَى بفهمِ كتابِ مخلوقٍ وحديثِهِ ، وليس في كتابِهِ وحديثِهِ إِياه خلودُ الأَبدِ في النعيمِ ولا النجاةُ من عذابٍ لا يَنْقَطِعُ بل لعلَّ ما فيه ما الاشتغال به ضررٌ[1] عليه، ومسخطةٌ لربِّهِ عزَّ وجلَّ، ولعلَّ فيه ما الاستغناءُ بغيره أَولى ، أَو لعلَّ فيه حاجةً لا قَدْرَ لها أَو خَبَر ، بحيث أَن يُعْلِمَهُ من أَخبارِ الناس ، أَو حاجةٍ بكُلْفَةٍ لا يأْمُلُ لها مكافأَةً ، ولا يحُثُّهُ على القيام بها إلَّا خوف عَذْله ولائمته .

وكيف يكونُ المَوْلى تباركَ وتعالى وقــد علم منّا أَنَّا قليلٌ تعظيمنا له ، ونحن لا نعبأُ بفهْم كلامِهِ ، وتدبُّرِ قَوْلِهِ فيما خاطَبَ به ، كما نعبأُ بفَهْمِ كُتُبِ عَبيده وحديثِهِمْ ؛ الذين لا يملكونَ لنا ضَرّاً ولا نَفْعاً ، ولا موتاً ولا حيــاةً ولا نُشوراً . تبارَكَ مَنْ

---

(١) في الأصل : ضرراً .

يَملِكُ ذلك كلَّهُ ، وذلك أَنه قد رآنا يأْتي أَحدَنا كتابٌ من القرابة أَو الأَخِ أو العامِلِ أَو الجارِ فلا يتمالكُ أَن يقرأَهُ ، ويقروُهُ مِراراً مِنْ حُبِّهِ لصاحِبِهِ ، ولا يرضى بقراءةِ حروفِهِ دون الفهمِ بما كتب به إِليه بإِحضارِ عقلٍ ، وفقهٍ للحُرُوفِ ، ليفهمَ ما أَراد ، وما الذي به أَمر ونهى ، وما أَوصى . فإِنْ أَشكَلَ عليه استخراجُ بعضِ حروفِهِ استعان بغيرِهِ على قراءتِهِ ليستخرجَ له ما لم يستخرجْهُ ، ليعرفَ بذلك ما معنى الذي كَتَبَ به، وما الذي أراد، وما الذي يُكِنُّ ، خوفاً ان يفوتَهُ فيه معنى منفعةٍ ، أَو عِلْمَ مَضَرَّةٍ ليَحْذَرَها.

وربما كَتَبَ إِليه من لا يأْمُلُ ذلك منه ، يكتُبُ بحاجةٍ يطلُبُها ، أَو شيءٍ أَرادَ أن يَعْلَمَهُ فما يترُكُ أَن يستقصيَ فَهْمَ كتابِهِ ، ليفقهَ الحُروفَ مع فَهْمِ القلبِ معنى الذي أَرادَ ، وكَتَبَ يبعثُنا على تأَمُّلِ كتابِهِ محبةً منا إِليه لِخَبَرٍ ، ورجاءً منا لخبرِهِ أَو جزعاً منا لخوفِ فَوْتِ منفعةٍ ننالها منه آجلاً ، أَو قربَ جواره أَو تفهُّماً لسؤَالنا حاجةً ، أَو أَمَلَ مكافأَتِهِ أَوجَبَتْ محمدَتَهُ ، أَو خوفاً أَن يفوتَنا ما يُريدُهُ فيلومَنا في تقصيرِنا ، أَو حياءً منه أَن نَقْدُمَ عليه . فيسأَلَنا عن بعضِ ما كَتَبَهُ فلا تَقْوى قُلوبُنا ونسْتَحْيي أَنْ نُجيبَهُ بأَنَّا لم نقرأْ كتابَهُ . أَوِ أَنَّا قرأْناهُ ولم نفهَمْ ما كُتِبَ به . لأَنه

يرى أن ذلك تهاونٌ[1] منا به ، وقلةُ عنايةٍ منا بالمرة . فغداً نقدُمُ على الله جلَّ وعزَّ فنلقاهُ . ويُسائِلُنا عن كتابِهِ الذي أَنزَلَ إلينا مخاطِباً لنا به . وكيف فهِمْنا عنه وكيف عَمِلْنا به . وهل أَجللناهُ ورهبْناهُ وهل قُمْنا بحقِّهِ الذي أمرَنا به . وجانَبْنا ما نهانا عنه . مع ما يفوتُنا من جِوارِهِ وما نَستَوْجِبُ من عِقابِهِ .

أَلَمْ تسمع مسائِلَهُ الجِنُّ والإنسُ جميعاً يومَ القيامة بما أَقامَ عليهِمْ به الحُجَّةَ في الدنيا من تِلاوةِ آياتِهِ عليهِمْ من رُسُلِهِ ، وأنه قطع بذلك عذرَهُمْ وأَدْحضَ به حجَّتَهُمْ . فقال يوم العرض : « يا مَعْشَرَ الجِنِّ والإنس أَلم يَأْتِكمْ رُسُلٌ منكم يَقُصُّونَ عليكم آياتي ويُنْذِرُونَكمْ لقاءَ يَوْمِكمْ هذا »[2] .

وقال عَزَّ وجَلَّ : « أَلَمْ تَكُنْ آياتي تُتْلى عليكم »[3] .

وقال تعالى « ولقدْ جئناهُم بكتابٍ فَصَّلْناهُ على عِلْمٍ هُدًى ورحمةً لقومٍ يُؤْمنونَ ، هل يَنْظُرونَ إلَّا تأْويلَهُ (٩٥) يوم يأْتي تَأْويلُهُ يقول الذين نسوه » إلى قوله : « أو نرد فنعملَ غير الذي كنَّا نعمل »[4] . (الآية) .

---

(١) في الاصل : تهارناً .

(٢) الانعام : ١٣٠ .

(٣) المؤمنون : ١٠٥ .

(٤) الاعراف : ٥٢ ، ٥٣ .

فلمَّا جاءَهُمْ تأْويلُ ما قال عزَّ وجلَّ من الذي توَّعَـد به نادَوْا بالندامة على نِسْيانِهِمْ ما جاءَتْهُمْ به رُسُلُهُمْ مِن كلامِ رَبِّهِمْ عزَّ وجلَّ وتَرْكِهِمْ فَهْمَه ، ونادَوْا بالشفاعة أَو بردِّهم إلى الدنيا فيعقلوا عنه كلامَهُ ، ويقوموا بحقهِ .

قلت : فهل أَستعينُ على فَهْمِ معاني ما أَتْلو أَو يُتْلَى عَلَيَّ ؟

قال : بإِحْضارِ عَقْلِكَ . فبذلك تفهم وتـذكر ، أَلم تسمعْهُ عَزَّ وجَلَّ يقول : « إنَّ في ذلك لذكرى لمن كان لَهُ قَلْبٌ أَو أَلقى السَّمْعَ وهو شَهِيد »[1] .

قال مُجاهد : أَو أَلقى السمعَ لا يُحدِّثُ نَفْسَهُ بغير ما يسمع . وهو شهيدٌ . قال : شاهِدُ القلب[2] .

قلت فكيف أُحضِرُ عقلي حتى يكونَ شاهـداً لا يغيبُ عن فهمِ كلامِ ربِّي جلَّ وتعالى ؟

قال : بأَن تجمع فهمَكَ حتى لا يكونَ فهمُك متفرِّقـاً في شيءٍ غير طلبِ الفهمِ لكلامِ مولاكَ .

---

(١) ق : ٣٧ .

(٢) الرعاية لحقوق الله ٢٠ : قال الله تبارك وتعالى : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . فقيل في التفسير : له عقل . أو ألقى السمع وهو شهيد. قال مجاهد: لا يحدث نفسه بشيء ، وليس بغائب القلب .

قلت : وكيف أَجمعُ هَمِّي حتى لا يتفرَّقَ في شيءٍ سوى ذلك ؟

قال : تمنعُ عقلَكَ من النَّظَرِ في شيءٍ سوى طلبِ فهمِ كتابِ ربِّكَ جلَّ وتعالى .

قلت : وكيف أَجمعُ عقلي ؟

قال : بأَن لا تشغَلَ جوارِحَكَ بما لا يشتغِلُ به عقلُكَ ، وأَن تستعملَ كُلَّ جارِحَةٍ بما يُعينُكَ على الفَهْمِ ، كنَظَرِكَ في مُصْحَفٍ واسْتماعِكَ إلى تلاوتِكَ أَو تلاوةِ غيرِك ، وتمنع عقلَكَ من كُلِّ فكرٍ وذِكْرٍ ، يقوى طَلَبُ فهمِ كلامِ مولاكَ . لأَنَّكَ إذا لم تشغَلْ جوارِحَكَ بشيءٍ غيرِ ذلك ، ومُنِعَ عَقْلُكَ عن النَّظَرِ والفِكْرِ في غيرِ ذلك ، اجتمعَ هَمُّكَ وحَضَر ، وإذا حَضَر عقْلُكَ زكا ذِهْنُكَ ، وإذا زكا ذهنُك قَوِيْتَ على طَلَبِ الفَهْمِ ، واسْتبانَ فيه اليقينُ ، وصَفَا فيه الذِّكْرُ ، وقَوِيَ فيه الفِكْرُ ، وبذلك مَدَح المستمعينَ لتلاوةِ كتابِه بالفهم فقال عزَّ وجلَّ : « فلمَّا حَضَرُوهُ قالوا انصِتُوا »[1] أَي[2] قالوا : صه أَفلا نسمعُ اللهَ عزَّ وجلَّ ؟ مدَحهُم بأَنْ سَكَتُوا عن الكلامِ لئلَّا يشتغِلوا عن

---

(١) الاحقاف : ٢٩ .

(٢) في الاصل : إلى .

فَهْمِ ما يتلوَ نبيُّه عليه السلامُ عليهم ، وهذا ولم يعلَموا ما فيه وما هو ، فلمَّا قضى وفهموا عن الله عز وجلَّ مـــا تلا عليهم نبيُّه عليه السلام ولُّوا إلى قومهم منذرين (تحدثوا)؛ [(١)] ، وفهموا من الله عزَّ وجلَّ ما سمعوا ، فقالوا : « يا قومَنا إنَّا سمعنا كتاباً أُنزِل من بعدِ موسى مصدِّقاً لمـــا بين يديهِ يهدي إلى الحقِّ وإلى طريقٍ مستقيمٍ ، يا قومَنا أَجيبوا داعيَ الله ، وآمِنوا به يغفر لكم من ذنوبِكم [(٢)] ، وينجيكم من عذابٍ أَليم ، ومن لا يُجِبْ داعيَ الله فليس بمعْجِزٍ في الأَرضِ وليس له من دونه أَوليـاء » وقالوا : « إنَّا سمعنـا قرآناً عجباً يهدي إلى الرشد فآمنّا به » (الآيات) .

لقد نطقوا بالحُكم عن فهمٍ بيِّنٍ ، وعن عقولٍ ذكيةٍ في استماعِ آياتٍ في مقام واحد ، فدعوا إلى إجـابة الله عزَّ وجـلَّ ، وأَمَّلوا المغفرةَ والنجاةَ من العذابِ الأَليم ، وأَخبروا أَنه مَنْ أَعرض عما تلا نبيُّهُ ﷺ من كلامِ ربِّه عَزَّ وجـــلَّ لا يَعْرِفُ اللهَ ، وأَنَّ مَصيرَهُ إليه .

هذا الأَدبُ والفهمُ من استماعِ آياتٍ في مَقامٍ واحـــدٍ في أَقلِّ مِنْ ساعةٍ ، فكيف بمَنْ وعى القرآنَ كُلَّه من صِغَرِه، ويكرِّرُ

---

(١) في الاصل : يحدد .

(٢) الاحقاف : ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ .

تِلاوتَهُ من صِباهُ إلى كِبَرِهِ ، وعُمِّرَ السنين الكثيرةَ ، ويكرِّرُ تلاوتَهُ ، لم يعقِلْ عن ربِّهِ ، ولم يفهم كلامَ مولاهُ فيقومَ بحقِّهِ ، وكان أَوَّلَ ما تداعَوا الأَدبَ لاستماعِ ما (تلى) نبيه عليه السلام ، بتناهِيهِم عن الاشتغالِ بالمحادثةِ عن كلامِ ربِهم ، ولقد ذمّ مولانا عز وجل المتشاغلينَ - عند استماعِهم - بالمحادثةِ فقال تعالى : «نحن أَعلَمُ بما يستمعونَ به إِذ يستمعونَ إِليك واذ هم نجوى »[1]

فاحرص أَن لا يكونَ فيك خُلُقٌ ، ذمّ الله عز وجل به كافراً ، وإن كنتَ مؤمناً ، فإنَّ من كمالِ الإيمان (مُخالفة)[2] أَهْلِ الكُفْرِ بالقَوْلِ والفِعْلِ فيما نهى اللهُ عَزَّ وجلَّ عنه . ولقد وَعَدَ ربُّنا عَزَّ وجَلَّ الرحمة ، وأَمَرَنا أَنْ نطلُبَها منه بالاستماعِ ، والإنْصاتِ لِفَهْمِ كلامِهِ فقال : « وإذا قُرِىءَ القرآنُ فاستمِعوا لَه وأَنْصِتُوا لعلكم تُرْحَمون »[3] يعني لكي تُرحَمُوا، فجعلَ الاستماعَ بتَرْكِ الكَلاَمِ لِتَفَهُّمِ كلامِهِ ، يُوجِبُ (٩٦) الرحمةَ ، قبلَ العَمَلِ بما يَسْمَعُ . وقال عَزَّ وجَلَّ «فبشِّر عبادِ ، الذين يستمعونَ القول فيتَّبعون

---

(١) الاسراء ٤٧ . (٢) في الأصل : مزايغة . (٣) الاعراف ٢٠٤ .

أَحسنَهُ. أَولئك الذين هداهُمُ الله وأَولئك هم أُولوا الأَلباب»[1].

فمدحَهُمْ بالهُدَى ، ووصفَهَمْ باللُّبِّ ، وأَثْنى عليهم في آيٍ من القرآنِ ، فإذا أَحْضرْتَ عَقْلَكَ بِجَمْعِ همِّكَ ، بنيةٍ صادقةٍ مع أَمَلٍ ورجاءٍ أَن تنالَ مَا قالَ ، وتُسارِعَ إلى مَحَابِّهِ ، وتجتنبَ مَسَاخِطَهُ ، وتريده وحدَهُ ولا تُريدُ أَن تفْهَم مِنْهُ ما تَتَصَنَّعُ بِهِ عنْدَ العِبَاد ؛ فإِذا نَظَرَ الله عزَّ وجلّ اليكَ وانتَ كذَلك ، وعَلِمَ ذَلك مِنْ ضميرِكَ ، أَقبَلَ بِلُطْفِهِ ، ووليَ تقويمَ عَقْلِكَ بِفَهْمِ كَلامِهِ ، وما فيه من عِلْمِ الغُيوبِ ،ومكنونِ الوعيدِ ، فحينئذ تكونُ للقرآنِ مُفْهِماً ، فتستنطقَ منه عِلْمَ ما عَميتْ عليكَ فيه الحُجَّةُ فيوضحُ اللهُ لَكَ به البرهانَ ، ويَمُدُّكَ بالفوائِدِ ، ويُجَلِّي عنكَ ظُلَمَ الشُبَهِ ، ويدلُّكَ على مَحَجّةِ المُهْتَدِيْن ، ويذيقُكَ الحَلاوةَ التي أَذاقَها أَهْلَ التقوى ؛ لأَنَ كلامَهُ ربيعُ قلوب الأَبْرار ، ويثقُلُ فَهْمُهُ على مَنْ تعطَّلَ قَلْبُهُ ، وهو الذي هتك حُجُبَ قلوبِ الفَهمين ، فأَهاجَ منهم الفؤادَ والزفراتِ أَسفاً على ما فات من أَعمارِهم ، وما أَحصى

---

(١) الزمر ١٧ ، ١٨ .

اللهُ عليهم من ذنوبِهم ، وأَشخص أَبْصار قلوبِهم إلى مَلَكُوتِ جِوارِه ، فطالَ حنينُهُم واشتياقُهُم إلى الخُلود في دار الأَملِ في جوارِ ربِّ العالمين ، مع خوفِ الحرمانِ لِما سلف من جرائمِهم .

فإنْ طلبْتَ الفهمَ بالصدقِ أَقبلَ عليك بالمعونةِ ؛ تصديقُ ذلك في كتابِ اللهِ عزْ وجل « إنَّ اللهَ مع الذين اتَّقَوا والذين هُم مُحْسِنُون » [١] لا يَثْقُلُ فهمُ كلامِهِ إلاَّ على مَنْ تعطَّلَ قلبُهُ أَلاَّ يسمعَ ، وربُّنا جل وعز يقول : « ولو عَلِمَ اللهُ فيهم خيراً لأَسمَعَهُمْ ولو أَسمعَهُمْ لتولوا وهم مُعْرِضُون »[٢] .

فأَخبر انه لو عَلِمَ فيهم خيراً لأَفْهمهُمْ لأَنهم لم يَكُونُوا « صُمّاً » [٣] ، وكانوا يسمعون قراءَةَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، ولكن ضيَّعوا الفهمَ ! أَلا تسمعُهُ يقول « لهم قلوبٌ لا يفقهونَ بها ولهم أَعْيُنٌ لا يُبْصِرون بها ، ولهم آذانٌ لا يسمعونَ بها أَولئك كالأَنْعَامِ بل هم أَضَلُّ أُولئكَ هم الغافلون » [٤] .

---

(١) النحل ١٢٨ . (٢) الانفال ٢٣ . (٣) في الأصل : صم . (٤) الأعراف ١٧٩ .

أَلا تسمعُه يقول : « ما كانوا يستطيعونَ السَمْعَ وما كانوا يُبْصِرون » [1] لا يعني أَنهم كانوا صُمّاً ولكِن لا يفقهونَ ما يسمعونَ بآذانِهم . الا تسمعُه يقول « وَتَرَاهم ينظُرون إليك » [2] فأَثبت النَظَرَ منهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال « وهم لا يبصرون » [3] .

يقول : لا يعقلونَ دلائلَ اللهِ عزَّ وجلْ في نبوتِهِ عليه السلام ، فإنْ عَلِمَ مِنَ التالي لكتابِه صِدْقَ ضميرٍ ، وعناية حتى يجمعَ همّه للفهمِ ، أَفْهَمَهُ . أَلا تسمعُه يقول : « إنْ يعلمِ اللهُ في قلوبِكم خيراً يؤتِكم خيراً مما أُخِذ منكم ويغفرْ لكم » [4] .

فإذا أَقبلْتَ على اللهِ تعالىَ بِصِدْقِ نيةٍ ورغبةٍ لفهم كتابِهِ باجتماعِ هَمٍّ متوكِّلاً عليه أَنَّه هو الذي يفتحُ لك الفهمَ ، لا على نفسِكَ فيما تطلُبُ وَلا بما لَزِمَ قلبَكَ من الذِكْرِ ، لم يخيِّبْكَ من الفَهْمِ والعَقْلِ عنه إنْ شاءَ اللهُ .

---

(١) هود ٢٠ . (٢) الأعراف ١٩٨ . (٣) الاعراف ١٩٨ . (٤) الأنفال ٧٠ .

القسم الثالث

في المحكم والمتشابه

قلت : ما الذي ينبغي لي أَن أَعرِفَهُ قبل طلبِ الفهمِ لكتابِ الله عز وجلِ ، لأَن لا أَغْلَطَ فأَعتقدَ ما لا يُرضي اللهَ جَلَّ ثناؤُهُ من المعاني ، أَو أَنفيَ ما يُرضيه من المعاني فاخطرَ عليه فأَبتدعَ بدعةً ، أَو أُوجبَ فرضاً قد أُسقط بالنَسْخِ بعد وُجوبه ، أَو يشتبه عليّ تلاوتُهُ فيجدُ العدوُّ موضعَ تزيُّنٍ للشكِّ فيما اشتبه علَيَّ ، وأُقدِّم ما أَخَّرَه أَو أُؤخِّر ما قدَّمه ، أَو أَعُمّ خَبَراً أَو فرضاً أَو وعيداً خاصاً فأَظُنُّهُ عامّاً ، أَو أَخُصّ خبراً أَو وعيداً أَو أَمْراً عاماً فاجعلُهُ خاصاً ، أَو أُبدِّل محكماً متشابهاً أَو متشابهاً مُحْكَماً .

قال : أَن تعلَمَ أَنَّ القرآنَ منه ناسخٌ ومنسوخٌ ، ومُحْكَمٌ ومُتشابهٌ ، وله وجوهٌ :

فمنه مُتَشَابِهٌ في التلاوةِ من غيرِ أَن يَنْسِخَ بعضُهُ بعضاً . ومنه متشابهٌ لاختلاف أَوقاتِهِ في الواجِبِ وفي

الكائن مما أَخبَرَ الله انه كائن . ومنهُ مُتَشَابِهٌ والمعاني مختلفةٌ . ومنه مقَدَّمٌ ومؤَخَّرٌ . ومنه خاصٌّ وعامٌّ . ومنه (٩٧) موصولٌ ومفصول ، ومنه غريبُ اللغة . ومنه ما لا يُعْرَفُ معناهُ إلاَّ بالسنةِ أَو بالإِجماع . ومنه ما لا يُعرفُ معناه إلاَّ بعد تلاوةِ ما يأْتي في سورته ... وأَمثال ... وغير ذلك .

حَدَّثَنَا القاسم بن سلام [١] قال : حدثنا عبد الله بن صالح [٢] عن معاوية بن صالح [٣] عن علي بن (أَبي) طلحة القرشي [٤] عن ابن عباس في قوله جل وعز : « هو الذي أَنزلَ عليكَ الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ » قال : المحكماتُ ناسخةٌ ، وحلالُهُ وحرامُهُ وفرائضُهُ ، وما يؤْمَنُ به ويُعمَلُ به ولا يُعْمَلُ به .

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث ، ص ١٥ .

(٢) عبد الله بن صالح البصري الجهني : أبو صالح . كاتب الليث بن سعد على أمواله. قال أحمد : كان أول أمره متماسكاً ثم فسد بأخرة : الميزان ٢/٤٤٠ .

(٣) معاوية بن صالح (- ١٥٨ هـ) الحضري، الحمصي ، قاضي الأندلس . روى عن مكحول، وعنه ابن مهدي وابن وهب وأبو صالح : الميزان ٤/١٣٤ .

(٤) علي بن أبي طلحة القرشي : مولى بني هاشم . واسم أبي طلحة سالم . كنيته أبو الحسن ، لم يلق أحداً من الصحابة . وهو الذي يروي عن ابن عباس الناسخ والمنسوخ ولم يره : مشاهير علماء الأمصار ١٨٢ . الأصل « علي بن طلحة » .

حَدَّثَنَا أَبو عبيد قال حدثنا عبد الرحمن بن مهدي [1] قال حدثنا سفيان [2] قال حدثنا يحيى بن سعيد [3] عن أَبي حصين [4] عن أَبي عبد الرحمن السلمي ، أَنَّ عليّ بنَ أَبي طالب رضي الله عنه مرَّ بقاصٍ يَقُصُّ فقال : هل تعلم الناسخَ من المنسوخ ؟ قال : لا . قال : هلكتَ وأَهلكتَ .

وحدثنا القاسم ابن سلام قال : حدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن علي بن أَبي طلحة القرشي عن ابن عباس في قوله جل وعز : « ومن يؤتَ الحكمةَ فقد أُوتيَ خيراً كثيراً » [5] فقال : المعرفةُ بالقرآنِ ناسخِهِ ، ومنسوخِهِ ، ومحكمِهِ ومتشابِهِهِ ، ومقدَّمه ومؤخَّرِهِ ، وحلالِهِ

---

(١) عبد الرحمن بن مهدي (١٢٥ – ١٩٨ ﻫ) الإمام الكبير ، أمير المؤمنين في الحديث . الثقة ، الثبت ، الحجة : تهذيب ٢٧٩/٦ .

(٢) سفيان (٩٧ – ١٦١ ﻫ) ابن سعيد بن مسروق الثوري : أمير المؤمنين في الحديث . كان ثقة ، ثبتاً ، مأموناً ، كثير الحديث ، حجة . ومن أعاظم علماء الاسلام في كل العصور : ابن سعد ٢٥٧/٦ ، تاريخ ابن خياط ٦٨٦/٢ ، مشاهير علماء الأمصار ١٦٩ ، تهذيب التهذيب ١١١/٤ .

(٣) يحي بن سعيد (– ١٤٣ ﻫ) الأنصاري ، المدني ، قاضي الحيرة ، الثقة ، الثبت ، روى عن أنس وجماعة من أقرانه . وروى عنه خلائق بينهم السفيانان : تهذيب ٢٢١/١١ .

(٤) أبو حصين (–١٢٨ ﻫ) عثمان بن عاصم بن حصين الأسدي ، الكوفي ، روى عن جماعة من الصحابة . وكان ثقة ثبتاً : تهذيب ١٢٦/٧ .

(٥) البقرة ٢٦٩ .

وحرامِهِ ، وأَمْثالِهِ . فأَمَّا قولُهُ « وما يعلم تَأْويلَهُ إلاَّ الله »[1] يعني يومَ القيامة لاَ يعلمُها إلاَّ الله .

قال أَبو عبد الله[2] ورُوي عن أَبي الأَحوص عن عبد الله قال : لِكُلِّ آيةٍ مِنْ كِتابِ الله ظَهْرٌ وبَطْنٌ ، وحَدٌّ ومَطْلَعٌ .

قال أَبو عبدالله : أَمَّا ظاهِرُها فَتِلاوتُها ، وأَمَّا باطِنُها فتأْويلُها ، وأَمَّا حَدُّها فَمنْتَهَى فَهْمِها .

وعند هذه الخُلَّةِ فَرَّقَ اللهُ بين الصادِقِينَ والكاذِبِيْنَ ممّن تَلاَها أَو مَنْ عَرَفَ تفسيرَها ولم يبلُغْ منتهى فَهْمِها ، او صادقٍ بلَغَ مُنْتَهَى فَهْمِها ، لأَنَّ اقلَّ الصدقِ منِ المؤمن المُريد بعد الإِيمانِ بالآيةِ أَن يفهمَهَا عن ربِّه وأَن يَعْمَلَ بها .

وانما قصّرَ بالناس[3] عن فَهْمِها قلةُ تعظيمِهِمْ لقائِلِها . وأَمَّا مَطْلَعُهَا فمُجاوزةُ حَدِّها بالْغُلُوِّ والتعمّق والفُجُور والمَعاصي. من ذلك قولُ الله جَلَّ وعَزَّ « تلك حُدُودُ الله فلا تعتدُوها »[4] .

---

(١) آل عمران ٧ .

(٢) أبو عبد الله : الحارث المحاسبي .

(٣) في الأصل : الناس .

(٤) البقرة ٢٢٩ .

وقال غيره[1] ـ ورُوي عن ابن عباس ـ قال: أُنزل القرآنُ على أَربعة أَوْجُهٍ : حلالٌ وحرامٌ ولا يسعُ جَهْلُهُ ، وتفسيرٌ يعلَمُهُ العُلماءُ ، وعربيةٌ تعرفُها العرب ، وتأَويلٌ لا يعلمُهُ إلاَّ الله يقول الراسخونَ في العلم آمنَّا به كُلٌّ من عند ربنا .

وكان ابنُ عباس يقرأُ « وما يعلمُ تأَويلَهُ إلاَّ الله والراسخون في العلم يَقُولُونَ آمنَّا به »[2] .

وقال عَبيدةُ السَلْماني[3] : من أَين يعلمونَ تأَويله ؟ وانما انتهى علمُ الراسخين إلى أَنْ قالوا « آمنَّا به كُلٌّ مِنْ عِنْدِ ربِّنا » .

وقال قَتادةُ : المُحْكَمُ ما يُعْمَلُ به ، والمتشابِهُ المنسوخُ الذي لا يُعْمَلُ به .

قال الكلبي: هو أَلم وأَلمر وأَلمص وأَشباهُ ذلك .

---

(١) يعني غير عبدالله بن مسعود ، الذي ذكر المحاسبي رأيه في الصفحة السابقة .

(٢) آل عمران ٧ .

(٣) عبيدة السلماني (ـ ٧٢ هـ) قال ابن سعد : ابن قيس السلماني من مراد . وقال ابن حبان: ابن عمرو السلماني الهمداني أبو مسلم . أسلم قبل وفاة النبي بسنتين لكنه لم يلقه . أثبت الناس في علي وابن مسعود . وأحد خمسة هم أبرز تلامذة ابن مسعود : عبيدة وعلقمة ومسروق والهمداني وشريح : ابن سعد ٦٢/٦ ، مشاهير علماء الأمصار ٩٩ .

وقال ابن عباس : هو التقديمُ والتأخيرُ ، والمقطوعُ والموصولُ ، والخاصُّ والعامُّ .

وقال مجاهد : « هُنَّ أُمُّ الكتابِ »[1] يعني ما فيه من الحلالِ والحَرَامِ ، وما سوى ذلك منه المُتَشَابِهِ .

وسئل مالكُ بنُ أُنس [2] عن قوله تعالى : « وما يعلم تأويله إلا الله»[3] (الآية) أَيعلمُ تأويْلَهُ الراسخونُ في العلم؟ قال: لا ، وانما معنى ذلك أَنْ قال: وما يعلمُ تأَويلَهُ إلاَّ الله ، ثم أَخبر فقال : « والراسخونَ في العلم يقولون آمنَّا به كُلٌّ من عند ربِّنا » وليس يعلمونَ تأَويلَهُ ، والآيةُ التي بعدها ، أَشدُّ عندي ، قوله : « ربَّنا لا تُزِغْ قلوبَنا بعد إِذْ هديتَنَا » هنا قال مالك : الراسخون في العلم هم العامِلون عَلَّموا المتَّبِعِيْنَ له .

---

(١) آل عمران ٧ .

(٢) مالك بن أنس (٩٣ - ١٧٩ هـ) أبو عبد الله ، من سادات أتباع التابعين ، الإمام ، العلم ، الثقة ، الثبت ، أحد أركان هذا الدين . مؤلف الموطأ . وإمام دار الهجرة . قال الشافعي : إذا ذكر العلماء فمالك النجم : تاريخ ابن خياط ٧١٩/٢ ، طبقات ابن خياط ٦٨٨/٢ ، مشاهير علماء الأمصار ١٤٠ ، العبر ٢٧٢/١ ، البداية والنهاية ١٧٤/١٠ ، تهذيب التهذيب ٥/١٠ . الانتقاء لابن عبد البر ، وترتيب المدارك .

(٣) آل عمران ٨ .

قال أبو عبيدة [1] وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ: يُشْبِهُ بَعْضُهُ بَعْضاً [2].

وذُكِرَ عن مجاهد أَنه قال: يعلمونه، ويقولون «آمنَّا به».

وقال بعضُ أَهل اللغة وانما معناه كأَنه قال: والراسخون في العلم قائلون آمنَّا به.

---

(١) أبو عبيدة (١١٠ - ٢٠٨ هـ) معمر بن المثنى التيمي البصري. استقدمه إسحاق بن ابراهيم إلى بغداد. كان علامة في اللغة وأيام العرب وأخبارهم. وأسند الحديث عن هشام بن عروة. وعنه أبو عبيد والمازني وأبو حاتم السجستاني وابن شبة في آخرين. وكان خارجياً، شعوبياً، يكره العرب، ينقل عنه المحاسبي كثيراً في «فهم القرآن»: تاريخ بغداد ١٣/٢٥٢.

(٢) مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ٨٦: وأخر متشابهات: يشبه بعضها بعضاً.

القسم الرابع

باب ما لا يجوز فيه النسخ وما يجوز ذلك فيه

صفات الله وأسماؤه :

اعلمْ أَنَّ النسخَ لا يجوزُ في معنَيَيْن ومَنْ دان بأَنه يجوزُ فيهما النسخُ فقد كفر . لا يَحلُّ لأَحَدٍ أَن يعتقدَ أَنَّ مَدْحَ اللهِ ، جَلَّ ثَناؤُهُ ، ولا صفاتِهِ ، ولا أَسماءَهُ ، يجوزُ أَنْ يُنْسَخَ . جَلَّ وعَزّ ؛ وَصَفَ نَفْسَهُ بصفاتِهِ الكاملةِ ، وامتدح (نَفْسَهُ) بِمِدَحِهِ الطاهرةِ ، (٩٨)وبأَسمائِهِ الحسنى ، فَمَنْ أَجاز النسخَ فيها ، أَجاز أَن يُبَدِّلَ أَسماءَهُ الحسنى فيبدِّلَها قبيحةً سوآى ، وصفاتِهِ الكاملةَ العليةَ فتكونَ دنيةً ناقصةً سُفْلى ، وَمِدَحَهُ الطاهرةَ فتكونَ مذمومةً دنيَّةً ، جَلَّ وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً .

أخباره تعالى عما كان ويكون :

ولا يجوزُ النسخُ في أَخبارِهِ تعالى عمّا كان ويكون ، فيكون بذلك مُنْصَرِفاً مِن الصِدْقِ إلى الكَذِبِ ، ومن الحَقِّ إلى الهَزْلِ واللَّعِبِ ، وإنما يَنْسَخُ أَخبارَهُ الكَذّابُ او

المُخْبِرُ بالظَّنِّ ، فيرجع عن قَوْلِهِ إلى أَن يكذب نفسَهُ ، ويبطل قوله ، وذلك كقولِ القائل : رأَيتُ كذا وسمعتُ كذا . ثم يقول بعد : لم يكن ما أَخبرتُ أَني رأَيتُهُ وسمعتُهُ .

وَنَجِدُ أَن شيئاً قد كَانَ ثم يُخْبِرُ أَنه لا يكونُ ، فيكذب نفسَهُ فيما أَخْبَرَ ، ويدُلُّ أَنه أَخبر بمَا لا يعلمُهُ أَو يكذب نفسه ، فيخبر أَنَّ ما أَخْبَرَ به انه سيكون ، انما قال متعمِّداً للكَذِبِ أَو قاله بالظَّنِّ ،وأَنه كان جاهلاً به ، ثم رَجَعَ عن ظَنِّهِ ، وبذلك صِفَةُ الكَذَّابِ .

وقد جوَّز فريق من الروافض في أَخبارِ اللهِ جَلَّ ثناؤُهُ التَّناسُخَ ؛ وهذا الكُفْرُ [1] . لا يَجُوزُ أَن يَنْسخَ اللهُ خَبَرَهُ أَنَّهُ خَلَقَ آدمَ وأَسكَنَهُ الجنةَ وأَمَرَ الملائكةَ أَن يسجُدُوا

---

(١) الأشعري : مقالات الإسلاميين ١٥٣/٢ : وغلت الروافض في ذلك حتى زعمت أن الله سبحانه يخبر بالشيء ثم يبدو له فيه – تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، المقالات ٢٥٣/٢ : وأنكره أكثر الناس ، وقالوا : لا يجوز النسخ في أخبار الله عز وجل ومديحه وأسمائه والثناء عليه .

وفرق الآمدي في إحكام الأحكام ١٣١/٣ بين نسخ الخبر نفسه ، ونسخ التكليف بالإخبار به ، فمنع الأول وأجاز الثاني . والمحاسبي يتفق في النسخ مع المعتزلة ، كما يبدو من قول الأشعري ٢٥٦/١ : واتفقت المعتزلة على أن البارىء سبحانه ليس بذي علم محدث ... ولا يجوز على أخباره النسخ لأن النسخ لو جاز على الأخبار لكان إذا أخبرنا أن شيئاً يكون ، ثم نسخ ذلك بأن أخبر أنه لا يكون ، لكان لا بد من أن يكون أحد الخبرين كذباً ، قالوا : وإنما الناسخ والمنسوخ في الأمر والنهي ، وقد ذكر المحاسبي اتفاقه مع المعتزلة في النسخ فيما بعد .

له ، فَسَجَدَتِ الملائكةُ كُلُّها إلاَّ إبليسَ ، ولا أَخبارَهُ عمَّا مضى من الرُسُلِ ، وعمّا كان في الدهورِ الخاليةِ مما أَخبر أنه كان ، فنجدُ أَنَّ ذلكَ لم يَكُنْ . وكذلك ما أَخبر عز وجَلَّ انه سيُقِيمُ القيامةَ وأَنه يبعثُ مَنْ في القُبور ، وأَنهُ يُصَيِّرُ فريقاً في الجَنَّةِ وفريقاً في السَعير . ولا ما يَقُولُ أَهْلُ الجَنَّة وأَهْلُ النَّارِ ، وأَنه يخلِّدُ أَهْلَ الجنةِ فيها ، ويخلِّدُ المشركينَ في العَذَابِ الأَلِيم ، فَيُخبر خلافَ ذلك كُله ، لأَنَّ ذلك يُوجِبُ بالخَبَرِ الثاني لُزومَ الكَذِبِ في الأَوّلِ ، ولُزومَ البَراءَةِ ، وأَنه أَرادَ أَن يفعلَ ، فاستبدلَ فأَراد أَن لا يفعلَ ، رُجوعَاً عن قوله ، والرجوعُ عن القولِ؛ الكذبُ . والبَدَاءُ من الجَهْلِ بالعواقب.

ومن ذلك حُدوثُ الإِراداتِ في ذاتِهِ بالذوات ، وذو البداوات جاهلٌ بِما يكَونُ فيما يُستقْبَلُ [1] .

ولا جائزَ أَن يُخْبَرَ بأَمْرٍ كان ثم يخبر أَنه لم يَكُنْ، او يخبر بأَمْرٍ لا يكونُ ثُمَّ يخبر أَنَّه سيكونُ ، او يخبر

(١) مقالات الاسلاميين ١٠٩/١ : وافترقت الرافضة : هل الباري يجوز أن يبدو له إذا أراد شيئاً أم لا ؟ على ثلاث مقالات : =

أَنه لا يفعلُ ثم يُخْبر أَنه سيفعلُ ، أَو يخبر عن شَيءٍ انه لا يفعلُهُ ثم يخبر أَنه يفعلُهُ. كما قال (عن) النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم (انه) خاتمُ النبيِّيْنَ ، فأَخبر انه آخِرُ من يَبْعَثُ ثم يُخْبِرُ انه يبْعَث بعده نبياً ، او يبعثُ نبياً بعدما أَخبر انه آخِرُ مَنْ يبْعَثُ من النبيين .

وكما قال للأَعراب : « قل : لن تَخْرُجُوا معي أَبَداً » [1] فلما قالوا بعد خبره هذا : « ذرونا نَتّبِعْكُمْ » [2] . قال الله جل وعز : « يريدون أَن يُبَدِّلوا كلامَ الله . قُلِ لن تَتَّبِعُونا كذلِكُمْ قال الله من قَبلُ » [3] وقال : « لا مُبَدِّلَ لكلماته » [4] جَلَّ عن الجَهْلِ والبَدَاواتِ .

وكذلك لا يَجُوزُ إِذا أَخبر أَنَّ صفاتِهِ حسنةٌ عليا ، أَنْ يُخْبِرَ بعد ذَلك أَنها دَنِيَّةٌ سُفْلَى ، او يصفَ نَفْسَهُ بأَنَّه جاهِلٌ بِبَعْضِ الغَيْبِ ، بعدما أَخبر انه عَالِمُ الغَيْبِ ،

= ١ – فالفرقة الأولى منهم يقولون : إن الله تبدو له البداوات ، وانه يريد أن يفعل الشيء في وقت من الأوقات ثم لا يحدثه لما يحدث له من البدو ...

٢ – والفرقة الثانية منهم يزعمون أنه جائز على الله البداء ....

٣ – والفرقة الثالثة منهم يزعمون أنه لا يجوز على الله عز وجل البداء ، وينفون ذلك عنه تعالى .

(١) التوبة ٨٣ . (٢) الفتح ١٥ .

(٣) الفتح ١٥ . (٤) الكهف ٢٧ .

وأَنه لا يُبْصِرُ ما قد كان، ولا يسمَعُ الأَصْوَاتَ ، وأنه لا قُوَّةَ له ولا قُدرةَ على الأَشياءِ ، ولم يتكلَّمْ بشيءٍ ولا الكلامُ كان منه ولا له الخَلْقُ والأَمْرُ ، وأَنه تَحْتَ الأَرض لا على العَرْش جَلَّ عن ذلك وتعالى عُلُوّاً كَبيراً .

فاذا عرفْتَ ذلك واستيقَنْتَهُ فتَلوْتَ آيةً في ظاهِرِ تلاوتها ، تَحْسَبُ انها ناسخةٌ لبعض أَخباره ، كقولِهِ في فرعون « حتى إِذا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ »[1] وقال « فاليوم نُنَجِّيك بِبَدَنِكَ »[2] . وكقوله : « يَقْدُمُ قومَهُ يوم القيامةِ فأَورَدهُمُ النَّار »[3] أَنه لم يُرِدْ به نجاةً من الغَرَقِ في الدنيا ، ولا من العذابِ في الآخِرة . وقد تأَوَّلَ قومٌ أَنَّ الله جَلَّ ذكرُهُ عنى أَن ينجِّيَهُ ببدنِهِ من النار ، إِذ آمَنَ عند الغَرَقِ ، وقالوا إِنما ذكر أَنَّ قومَ فِرْعونَ يدخُلُون النارَ ولم يَذْكُرْ أَنَّه يدخل فرعون النار ، وانما قال : « يقدُمُ قومه يوم القيامة فأَوردهم النار » ولم يقل فَيَرِدَها

---

(١) يونس ٩٠ . في الأصل : فلما أدركه الغرق .

(٢) يونس ٩٢ .

(٣) هود : ٩٨ .

فِرعونُ وقال « وحاق بآلِ فرعونَ سوءُ العذاب » [1] .... [2] « فأخذَهُ اللهُ نكالَ الآخرة والأولى » [3] .

وانما معنى قوله « ننجيك ببدنك » أَنَّ اللهُ جلَّ وعز لما غرّق فرعونَ وقومَهُ لم توقِنْ بنو إسرائيلَ بذلك ، وقالوا : ما غَرِقَ فرعونُ وإننا نخافُ أَن يلحَقَنَا فيُقَتِّلَنا . فأَمَر اللهُ جَلَّ شَأْنُهُ البحر (٩٩) فأَلْقَى بدنَهُ بغيرِ رُوحٍ على ضفةِ البَحْرَ ، ليستبينَ بنو إسرائيلَ بِغَرَقِهِ ، فَلَمَّا أَلْقَاهُ البَحْرُ ، نَظَرَتْ اليه بنو إسرائيلَ فجعلوا يُمَثِّلُونَ به[4] .

وكذلك اذا تلوتَ قوله « فليعلَمنَّ اللهُ الذين صَدَقُوا » [5] (الآية) وقوله « ولمَّا يَعْلَمِ اللهُ الذين جاهدوا منكم » [6] (الآية) .. فَظَاهِرُ التِلاوةِ ، على استئنافِ العِلْمِ مِنَ اللهِ ، بِجِهادِ المُجَاهِدِيْنَ ، وَصِدْقِ الصادِقِيْنَ ، وكَذِبِ

---

(١) غافر : ٤٥ .

(٢) ها هنا سقط يرد به المحاسبي على أصحاب هذا الرأي بقوله تعالى : فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، ثم يذكر الرأي الذي يتبناه .

(٣) النازعات : ٢٥ .

(٤) ابن كثير ٤٣١/٢ : قال ابن عباس وغيره : إن بعض بني إسرائيل شكوا في موت فرعون ، فأمر الله تعالى البحر أن يلقيه بجسده سوياً بلا روح ، وعليه درعه المعروفة على نجوة من الأرض – وهو المكان المرتفع – ليتحققوا موته وهلاكه .

(٥) العنكبوت : ٣ . (٦) آل عمران : ١٤٢ .

الكَاذِبِيْنَ ، وجَلَّ اللهُ أَن يستأنفَ عِلْماً بشيءٍ . وكيفَ؟! وكُلُّ شيءٍ يكون فهو يُكَوِّنُهُ ؟ فلم يأْتِ إلاَّ وقد تَقَدَّمَ العِلْمُ منه به ، وكيف يأتي وكيف يكون ، ولو لم يكن يعلمُ كيف يكونُ ما أَحسنَ أَن يكوِّنَهُ أَبداً ، لأَنه مَنْ ليس له عِلْمٌ بما يُريدُ أَن يَصْنَعَهُ ، كيف يكونُ يُحْسِنُ أَن يَصْنَعَهُ ؟ ومَنْ لم يُحْسِنْ كيف يصنعهُ ، لم يَقْدِرْ أَن يصنَعَه .

وهذا نَجدُهُ ضَرورةً في فِطَرِنا فلو لم نَرَ كِتاباً قطُّ ، ولم نُحْسِنْ أَن نَكْتُبَ ، لم يَجُزْ لَنَا أَن نَكْتُبَ كتاباً مؤلَّفاً بمعاني مفهومةٍ بالتَخْمِين أَبداً ، وكذلك جميع الصناعات مَنْ لم يَرَهَا فيعلمَهَا أَو تُوصَف له فيعلَمَها لم يُحْسِنْ أَن يأْتِيَ بِها أَبداً . فاللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَوْلَى بعلمِ ما يُكَوِّنُهُ قبل أَنْ يكَوِّنَهُ .

أَلم تسمعْهُ يقول « أَلا يعلَمُ مَنْ خَلَقَ وهو اللطيفُ الخبير »[1] وقد يستدل على ذلك من عقولنا ، أَنَّ من فعل شيئاً بحكمةٍ ، فلم يفعلْهُ حتى كان عالِماً قبل أَن

(١) الملك ١٤ .

يفعله، فأتى به كما أراد أن يكون. وقد علم كيف يجيءُ.

وقد امتَدَحَ اللهُ جَلَّ وَعَزَّ بعلم ما قد كان وما سيكونُ وما لا يكونُ ، أو كان كيف كان يكون . فمدح نفسه بعلمِ جميعِ الغيوبِ ، فقال جل من قائل : « وربُّكَ أَعلمُ بمَنْ في السموات والأَرض » [1] وقال : « وهو اللهُ في السمواتِ وفي الأَرْضِ يعلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » [2] وقال : « عالِمُ الغَيْبِ والشَّهادةِ » [3] . وقال « عَلِمَ الله أَنَّكُم ستذكرونهنَّ» [4] وقال «علم أَنْ سيكونُ منكم مرضى » [5] (الآية).

وأَخبر بما لا يكون أَو كان كيف كان يكون . فقال عز وجل : « ولو رُدُّوا لعادوا لما نُهُوا عنه » وقال : « لئن أُخرجوا لا يَخْرُجُون معهم ولئن قُوتلوا لا يَنْصُرُونهم » [6] فأَخبر أَنه قد علم انَّهم لو نَصَرُوهم لَوَلَّوا الأَدبَار وإنما قوله « حتى يعلم » و « لما يعلم » و « ليعلمن » انما يريد حتى يراه ، فيكونَ معلوماً موجوداً ، لأَنه لا جائِزَ أَن يكونَ يعلمُ الشيءَ معدوماً قبل أَن يكون ، ويعلمهُ موجوداً

---

(١) الاسراء ٥٥ . (٢) الانعام ٣ . (٣) الانعام ٧٣ .
(٤) البقرة ٢٣٥ . (٥) المزمل : ٢٠ (٦) الحشر : ١٢ .

كائناً ، فيعلم في وقت واحد انه معدومٌ موجودٌ ؛ أنه قد كان وانه لم يكن بعد ، وهذا المُحال .

وانما لم يَجُزْ أن يُقالَ : يعلمُ اللهُ أنَّ الشيءَ قد كان ، لأنَّ الشيءَ لم يَكُنْ بَعْدُ ، (فإنّ) اللهَ جَلَّ وعُزَّ لا يَجُوزُ أن يكونَ جاهِلاً به انه سيكون ، وذلك موجودٌ فينا ونحن جُهّالٌ ، وعِلْمُنَــا مُحْدَثٌ. قد علمنا أنَّ كُلَّ إنسانٍ مَيِّتٌ ، فكلما ماتَ إنسانٌ قلنا: قد علمنا انه قد مات من غير أن نكونَ قبلَ موته جاهِلِيْنَ انَّه سيموت ، الاَّ أنَّا قد يحدُثُ لنا العلْمُ ، من الرويّةِ وحَركَةِ القلبِ اذا نظرْنا إليه مَيْتاً ، بأنه ميْتٌ .

والله جَلَّ ذِكْرُهُ لا تَحْدُثُ فيه الحَوادِثُ ، لأنا لم نَجْهَلْ موتَ مَنْ مات أنه سيكونُ ، وكذلك علمنا ان النهار سيكون صَبيحةَ ليلتِنا ، ثم يكون ، فنعلم انه قد كان من غيرِ جهلٍ منا تقدَّمَ أنه سيكونُ .

فكيف بالقديمِ الأَزَلِيِّ الذي لا يكونُ موتٌ ولا نهارٌ ولا شيءٌ من الأَشياءِ إلاَّ وهو يَخْلُقُهُ ، ونحن لا نَخْلُقُ شيئاً ؟!

وكذلك قولُه جَلَّ وعَزَّ «لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنينَ» وقولُه «وإذا أَرَدْنا أَنْ نُهلِكَ قريةً أَمرْنا مُتْرَفِيها»[1] وقولُه «انما أَمرنا لشيءٍ إذا أَردناه أَن نقول له كن فيكون»[2].

ليس ذلك ببدءٍ منه لِحُدُوثِ إرادةٍ حَدَثَتْ له، ولا أَنْ يستأنفَ مشيئةً لم تَكُنْ له، وذلك فِعْلُ الجَاهِلِ بالعواقِبِ الذي يُريدُ الشيءَ وهو لا يَعْلَمُ العَوَاقِبَ.

البداوات وحدوث الارادات:

فلم يَزَلْ تعالى يُريدُ ما يعلمُ أَنهُ يكونُ، لم يَسْتَحْدِثْ إرادةً لم تَكُنْ، لأَنَّ الإِراداتِ إِنَّمَا تَحْدُثُ على قَدْرِ ما لم يَعْلَمِ المُريدُ، فأَمَّا مَنْ لم يَزَلْ يعلمُ ما يكونُ وما لاَ يَكُونُ من خَيْرٍ وشَرٍ، فقد أَراد على عِلْمٍ لا يَحْدُثُ له بَداءٌ، اذ كان لا يحدُثُ فيه عِلْمٌ به.

وقد تَأَوَّلَ بعضُ مَنْ يَدّعي السُّنَّةَ وبعضُ أَهْلِ البِدَع ذلك على الحدوث!!

---

(١) الاسراء: ١٦.

(٢) النحل: ٤٠.

فأَمَّا من ادّعى السُّنَّةَ (١٠٠) فأَراد إِثباتَ القَدَرِ فقال : إرادةُ الله جَلَّ وعَزَّ أَحْدَثُ من تقديره ؛ تقديرُهُ سابِقُ الإِرادةَ .

وأَما بعضُ أَهْلِ البِدَعِ [١] فزعموا أَنَّ الإِرادةَ انما هي خَلْقٌ حَادِثٍ وليست بمخلوقة ، ولكنَّ الله جل وعز بها كوَّن المخلوقَ ، فزعَمَتْ أَنَّ الخَلْقَ غَيْرُ المخلوق ، وأَنَّ الخَلْقَ هو الإِرادةُ ، وأَنها ليست بصفةِ الله من نفسه . وجَلَّ الله أَن يكونَ شيءٌ حَدَثَ لِغيرِ إِرادةٍ منه [٢] . وجَلَّ عن البداءَاتِ وتقلُّب الإِراداتِ [٣] .

فأَمَّا قولُهُ « لتدخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرامَ إن شاءَ اللهُ » [٤] فإِنَّه وَعَدَهُم الدُخولَ على عِلْمٍ أَنهم يدخُلُون.

وأَمَّا قولُهُ « اذا أَرَدْناه أَن نقول له كُنْ فيكون » [٥] .

وقولُهُ « وإذا أَرَدْنا أَن نُهْلِكَ قريةً أَمَرْنا مُتْرَفِيها » [٦]

---

(١) يقصد المحاسبي ببعض أهل البدع هنا المعتزلة ، وعلى الأخص معاصره المتكلم المعتزلي الكبير أبو الهذيل العلاف ، الذي كان يقول كما في مقالات الاسلاميين ٤٨/٢ : خلق الشيء ، الذي هو تكوينه بعد ان لم يكن هو غيره ، وهو إرادته له ، وقوله له كن .

(٢) هذه الفقرة رد على المعتزلة .

(٣) وهذه الفقرة رد على الرافضة .

(٤) الفتح : ٢٧ .

(٥) النحل : ٤٠ .

(٦) الاسراء : ١٦ .

فإِنَّه لم يَزَلْ يُرِيدُ ، قبل أَن يُحْدِثَ الشيءَ ، أَن يُحْدِثَهُ في وقت إِحداثِهِ . فلم يَزَلْ يُرِيدُ إِحداثَهُ في الوَقْتِ المؤَخَّر ، فإِذا جاءَ الوقتُ فهو أَيضاً يُرِيدُ أَنْ يُحدِثَه فيه ، فبإِرادته أَحدثَهُ في ذلك الوقتِ الذي فيه أَحدثه .

فإِرادةُ اللهِ جَلَّ وَعَزَّ دائِمةٌ لأَنَّه مُرِيدٌ قبل الوقتِ الذي يُحْدِثُ فيه المخلوقاتِ ، وفي الوقت الذي أَحْدَثَهُ فيه . فأَرادَ بِقَوْلِهِ جَلَّ وعَزَّ « اذا أَردناه » ؛ إِذا جاءَ الوَقْتُ الذي فيه ، وهو له قبل الوَقْتِ مُريد ، فَأَوقع (إِذا) على الإِرادة ، وإِنما أَرادَ الوَقْتَ وهو مُرِيدٌ له أَيضاً في الوقت . والعَرَبُ تَفْعَلُ هذا في مُخَاطَباتِها . يقول الرجل لآخَرَ : متى تُرِيدُ أَنْ آتِيَكَ ؟ فيقول : غداً . فيسأَلُهُ في ظاهِرِ المسأَلَةِ عن وقتِ إِرادتِهِ ، وانما يُرِيدُ الوقتَ الذي فيه المجيءُ ، ويجيبهُ بالوقت الذي يَجِيءُ فيه . ولو أَجابَهُ على ظَاهِرِ مَسْأَلَتِهِ إِذا قَال : متى تُرِيدُ أَجيئُك ؟ لقال : الساعةَ أُرِيدُ أَن تجِيئَني غداً ، فأَجابه عن وقت المجيءِ ، وانما سأَله في الظاهر عن وقت الإِرادة ، وهو يُرِيدُ وقتَ المجيءِ ، فأَجابه عن معنى السؤال ولم يُجِبْهُ عن ظاهِرِ المسأَلَةِ .

وكذلك اذا أَرادَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ وقت كَوْنِ الشيءِ ، وأَنزلَ ظاهِرَ القَولِ على الإرادةِ ، فقال جَلَّ مِنْ قائل : « وإذا أَردْنا أَن نُهلِكَ قريَةً » يعني الوقت الذي أَردْنا من قبلُ إذا جاءَ الوقْتُ أَهلكْناها فيه . فإنما أَراد بقوله : « اذا أَردنا » اذا كان الوقتُ الذي أَردْنا أَن نُهلِكَهُمْ فيه ، لا على البَدْءِ منه بإرادةٍ أُخْرى ، وأَرادَ تَكْوينَ الشيءِ إلى وَقْتٍ معلومٍ لم يزل يُريدُ أَن يُكَوِّنَهُ فيه ، فلم يَزَلْ مُريداً الهلاكَ للقُرَى في الأَوقاتِ التي يُهْلِكُها فيها ، فإذا أَهلَكَها فبإرادةٍ متقدِّمةٍ منه بِهَلاَكِها في تلك الأَوْقاتِ التي أَخَّرَ هَلاَكَها إليها ، وبإرادةٍ لم تَزَلْ أَخّرَ هلاَكَ القُرى إلى الوقت الذي لم يَزَلْ يُريدُ أَن يُهْلِكَهَا فيه .

السمع والبصر :

وكذلك قولُهُ عَزَّ وجَلَّ « إنَّا معكم مستمعون »[1] ليس معناه إحداث سَمْعٍ ، ولا تكلُّفٌ لسَمْعٍ ما يكونُ من المتكلِّم في وَقْتِ كلامِهِ ، وإنَّما معنى « إنَّا معكم مستمعون » « وسيرى الله عملكم »[2] أَي المسموعُ والمُبْصَرُ لن يخفى

---

(١) الشعراء ١٥ . (٢) التوبة ٩٤ .

على سَمْعي ولا على بَصَري أَنْ أُدرِكَهُ سمعاً وبَصَراً ، لا بالحَوَادِثِ في الله ، جَلَّ وعَزَّ وتعالى عن ذلك . وكذلك قولُهُ « اعملوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورسولُهُ »[1] لا يستحدث رد ٍ اً ولا لَحْظاً مُحْدَثاً في ذاته ، تعالى عن ذلك ! !

وقد ذهب قومٌ أَنَّ لله جَلَّ وعَزَّ استماعاً حادثاً في ذاتِهِ[2] ، فذهب إلى ما يُعْقَلُ من الخَلْق أَنه يَحْدُثُ فيهم عِلَّةً لِسَمْع ما يكونُ من قَوْلٍ عند سَمْعِهِ للقَوْل ، لأَنَّ المَخْلُوقَ إذا سَمِعَ الشيءَ حَدَثَ له عنه فَهْمٌ عما أَدركَتْهُ أُذُنُهُ من الصَوْت ، وكذلك ذَهَبَ إلى أَنَّ رؤيةً تَحْدُثُ له .

قال أبو عبد الله : وهذا خطأ . وانما معنى « سيرى » و « انا معكم مستمعون » أَنَّ المسموعَ والمُبْصَرَ لم يَخْفَ على عيني ولا على سمعي أَنْ أُدْرِكَهُ سَمْعاً وَبَصَراً ، لا بالحَوَادث في الله جَلَّ وعَزَّ . ومَنَ ذهبَ إلى انه يحدُثُ له استِماعٌ مع حُدُوث المسموعِ ، وإبصارٌ مع حدوثِ المُبْصَر ، فقد ادّعى على الله عز وجَلَّ ما لم يَقُلْ . وانما على العبادِ التسليمُ كما قال ، وأَنه عالمٌ سميعٌ بصيرٌ ولا

---

(١) التوبة ١٠٥ .

(٢) الذين قالوا بحدوث الصفات في ذات الله فريقان : الرافضه ، والمشبهة : مقالات الاسلاميين ٢/١٦٠ .

يريدُ ما لَم يَكُنْ . وانما معنى « حتى يعلم » حتى يكونَ المعلومُ ، وكذلك حتى يكون المُبْصَرُ والمَسموعُ . ولا يَخْفَى على اللهِ عز وجل أَنْ يعلَمَهُ موجوداً ويراهُ موجوداً ويسمعَهُ موجوداً بغير (١٠١) حُدوثِ عِلْمٍ في اللهِ جَلَّ وَعَزَّ ولا سَمْعٍ ولا بَصَرٍ ، ولا يعني حدوثاً في ذاتِ اللهِ ، جلَّ اللهُ عن الحوادِثِ في نفسه ، وتعالى عن البداوات في عِلْمِهِ وإرادته عُلُوّاً كَبيراً .

العـــلو :

وكذلك قولُهُ جَلَّ وعَزَّ « وهو القاهِرُ فوقَ عبادِه » [1] وقوله « الرحمنُ على العَرْشِ استوى » [2] وقال « أَأَمِنْتُم مَنْ في السماءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرض » [3] وقال « إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَيِّبُ » [4] وقال « يُدَبِّرُ الأَمْرَ من السَمَاءِ إلى الأَرْض ثم يعرج اليه في يومٍ كان مِقْدَارُهُ » [5] (الآية) وقال « تَعْرُجُ الملائكةُ والروحُ » [6] (الآية) وقال لعيسى

---

(١) الانعام : ١٨ .　　(٢) طه : ٥ .　　(٣) الملك : ١٦ .

(٤) فاطر : ١٠ .　　(٥) السجدة : ٥ .　　(٦) المعارج : ٤ .

عليه السلام « إني مُتَوَفِّيكَ ورَافعُك إليَّ » [1] وقال « بل رَفَعَهُ اللهُ إليه » [2] وقال « فالذين عندَ رَبِّكَ يُسَبِّحونَ له » [3]

وذكر آلهةً لو كانوا لابتَغَوا إلى طلبه سبيلاً ـ حـ ث هو ،
فقال « قل لو كان معه آلهةٌ ـ كما يقولون ـ إذاً لابتَغَوا إلى ذي العرش سبيلاً » [4] وقال « سَبِّحِ اسمَ رَبِّكَ الأَعْلى » [5] فلن يَنْسخَ ذلك أبداً ، فإذا تلوتَ ما يكونُ كأَنَّه نُسِخَ أَو خِلاف الظَاهر ، فاعلم أَنَّ ذلكَ ليس بِنَسْخٍ ولا بِمُضَادٍّ لهذا ، وذلك كقوله « وهو الذي في السماءِ إلهٌ وفي الأَرْض إلهٌ » [6] وقوله « ونَحْنُ أَقْربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَريد » [7] وقوله « وهو اللهُ في السموات وفي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وجهرَكُمْ » [8] (الآية) وقوله : « ما يكونُ من نجوى ثلاثة إلاَّ هو رابِعُهُم » [9] (الآيـــة) فليس بناسِخٍ ولا ذلك ناسخٌ لهذا ولا هذا ضد ذلك ، ولكنَّ معنى ذلك غيرُ معنى هذا .

هذه الآية معناها أَنَّ الله جَلَّ وعَزَّ لم يُرِدِ الكَوْنَ بذاتِهِ

---

(١) آل عمران : ٥٥ . (٢) النساء : ١٥٨ . (٣) فصلت : ٣٨ .
(٤) الاسراء : ٤٢ . (٥) الاعلى : ١ . (٦) الزخرف : ٨٤ .
(٧) ق : ١٦ . (٨) الانعام : ٣ . (٩) المجادلة : ٧ .

فِي أَسفلِ الأَشْياءِ، وينتقلُ فيها لانتقالِها، وينهضُ فيها على أَقْدارِها، ويزولُ عنها عند فنائِها جَلَّ مولانا وتعالى عن ذلك عُلُوّاً كبيراً.

وقد ادعى بعض أهل الضلال: فَزَعموا أَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ في كُلِّ مَكَانٍ بِنَفْسِهِ، كائناً كما هو على العَرْش، لا فَرْقَ بين ذَلِكَ عندهم [1]. ثُمَّ أَجابوا في النَفْيِ بعد تَثْبيتِ ما يجُوز عليهم في قولهم ما نَفَوا، لأَنَّ كُلَّ مَنْ أَثْبَتَ شيئاً في المعنى ثم نفاهُ بالقول لم يُغْنِ عنه نَفْيُهُ بِلِسانِهِ، وقد تَدَيَّنَ - لما يَلْزَمُهُ في المعنى - بما نفى، كالنصارى زعمت انَهم يعبُدُونَ ثلاثةً وأَنَّ ذلك ليس بشِرْك، وأَنَّ معنى الثلاثةِ معنى واحد، فلم يُغْنِ عنهم نَفْيُهُمُ الشِرْكَ بقولهم وقد دَانُوا به في المعنى. وكذلك جميعُ أَهْلِ الضَلاَلِ يَنْفُون الكُفْرَ ويتبرؤُونَ منه وهم كافرون.

كذلك جميعُ أَهْلِ البِدَع يَنْفُونَ البِدَعَ بقولِهِم ويتبرؤُون

---

(١) يشير بهذه الفقرة إلى الجهمية، أتباع جهم بن صفوان (- ١٣٠ هـ) الذي كان يقول بتنزيه الله عن الصفات كلها، ويرى أن الله ليس على العرش بل في كل مكان: تاريخ الإسلام ٥/٦٥، وقد اختلط الأمر في القرن الرابع الهجري، فقال بهذا القول متأخرة الأشاعرة، والمعتزلة، والصوفية، على خلاف بينهم في تحديد ذلك.

منها ، وقد خَالَفُوا ما دانُوا اللهَ تَبارَكَ وتَعَالى بِها . وَكذلكَ هؤلاءِ في نَفْيِهِمْ بعد تثبيتِهِمْ معنى ما نَفَوا فاحتجُّوا بهذه الآيةِ[1] أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ في كُلِّ شيءٍ بِنَفْسِهِ كائناً ، ثم نفوا معنى ما ثَبَّتُوا فقالوا : لا كالشيءِ في الشيءِ فأَحَالُوا ، لأَنَّ مَا كان في الأَشياءِ فهو كالشيءِ وإنْ نَفَوْهُ بأَلْسِنَتِهِمْ .

قلت : فبيِّنْ لي معنى ذلك كُلَّهُ . قال : أَمَّا معنى قولِهِ تعالى : « يعلم .. وسيرى الله ... وإنا معكم مستمعون » ... فإِنَّما مَعْنَاهُ حتى يكونَ الموجودُ فنعلمهُ موجوداً ، ونسمعهُ مسموعاً ، ونُبْصِرُهُ مُبْصَراً ، لا على استحداثِ عِلْمٍ ولا سَمْعٍ ولا بَصَرٍ . وأَما قولُهُ « إِذا أَرَدْناه » فمعناه اذا جاءَ وقت كون المراد فيه .

وأَما قولُهُ « على العرش استوى »[2] ... « وهو القاهر فوق عباده »[3] .. وأَأَمنتم من في السماءِ[4] .... وإِذاً لابتغوا إِلى ذي العرش[5] ... » فهذه وغيرُها مِثْلُ قولِهِ « إِليه يَصْعَدُ الكَلِمُ » وقوله « ثم يعرج اليه في يوم »[6] فهذا

---

(١) قوله تعالى في سورة المجادلة « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم » .

(٢) طه : ٥ (٣) الانعام : ١٨ (٤) الملك : ١٦

(٥) فاطر : ١٠ (٦) السجدة : ٥

مَقْطَعٌ يُوجِبُ أَنَّهُ فوقَ العرش ، فوقَ الأَشياءِ ، مُنَزَّه عن الدُّخُولِ في خَلْقِهِ ، لا يَخْفَى عليه منهم خَافِيَةٌ لأَنه أَبانَ في هذِهِ الآياتِ أَنَّ ذاتَهُ بنفسه فوقَ عباده لأَنه قال : « أَأَمنتم من في السماءِ أَنْ يَخْسِفَ بكم الأَرض » [1] يعني فوق العرش ، والعرش على السماءِ ، لأَنَّ مَنْ كان فوق شيءٍ على السماءِ فهو في السماءِ ، وقد قال مثل ذلك « فَسِيحُوا في الأَرْض » [2] يعني على الأَرض لا يريد الدخول (١٠٢) في جَوْفها ، وكذلك قولُهُ « لأُصلِّبنَّكُمْ في جُذُوعِ النَخْل [3] » يعني فوقَها . وقال : « أَأَمِنْتُم مَنْ في السماءِ » [4] ثم فَصَّل فقال : « أَن يخسِفَ بكُمُ الأَرْض » [5] ولم يَصِلْهُ بمعنىً فَيَشْتبه ذَلِكَ ، فلم يَكُنْ لذلك معنىً إِذ فَصَّلَ بقوله : « في السماءِ » — ثم استأْنَفَ التخْويفَ بالخَسْف — إِلاَّ أَنَّه على العَرْشِ فوقَ السماءِ ، وقال : « يدبِّرُ الأَمْرَ من السماءِ إلى الأَرض ثم يعرج إِليه في يوم » [6] (الآية) وقال « تعرج الملائكة والروحُ اليه » [7]

---

(١) الملك : ١٦ (٢) الاسراء : ٤٢ (٣) طه : ٧١
(٤) الملك : ١٦ (٥) الملك ١٦ . (٦) السجدة : ٥
(٧) المعارج : ٤

فبيَّنَ عُروجَ الأَمْرِ، وعُروجَ الملائكةِ، ثمَّ وصفَ صُعودَها بالارتفاعِ صاعدةً إليه، فقال «إليه يَصْعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ»[1].

وقال: «ثم يعرج اليه»[2] ثم قال: «في يومٍ كان مِقْدَارُهُ.»[3] مقدار صُعُودِها، وفصله من قوله اليه كقولِ القائلِ: صعدتُ إلى فلانٍ في يومٍ أَو في ليلةٍ، وإنَّ صُعودَكَ إليه في يوم، فاذا صَعدوا إلى العرش فقد صَعَدوا إلى اللهِ جَلَّ وعَزَّ، وإن كانوا لم يَرَوْهُ، ولم يُساوُوهُ في الارتفاع في عُلُوِّه، فإنهم قد صَعَدُوا من الأَرْضِ، وعَرَجُوا بالأَمْرِ إلى العُلُوِّ الذي للهِ عزَّ وجَلَّ فَوقَهُ.

وقال: «إليه يصعَدُ الكَلِمُ الطَّيِّبُ»[4].

وكلامُ الملائكةِ أَكثرُ وأَطْيَبُ من كَلامِ الآدميِّيْنَ، فلم يَقُلْ يَنْزِلُ إليه الكَلِمُ الطَّيِّبُ.

وقال (عن عيسى) «بل رَفَعَهُ اللهُ إليه» ولم يَقُلْ عنده.
وقال عن فرعون «لعلِّي أَبلُغُ الأَسبابَ، أَسبابَ السمواتِ

(١) فاطر: ١٠ (٢) السجدة: ٥ (٣) السجدة: ٥ (٤) فاطر ١٠

فأَطَّلِعَ إلى إِلَهِ موسى»[١]. ثمّ استأنَفَ فقال «واني لأَظُنُّهُ كاذباً» فيما قال لي إنَّه في السماءِ ، فَطَلَبَهُ حيثُ قال له موسى مع الظَّنِّ منه بموسى عليه السلام انه كاذبٌ ، ولو أَنَّ موسى عليه السلام ، أَخبره أَنه في كُلِّ مكانٍ بذاته ، لطَلَبَهُ في الأَرْضِ أَو في بيته وَبَدَنهِ ولم يتعزَّ بِبُنْيَانِ الصَرْح .

وأَمَّا الآياتُ الأُخَرُ التي نَزَعُوا بها فقد أَبَانَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ في تِلاوتِها أَنه لا يُريدُ أَنهُ كائنٌ في الأَشْياءِ بِنَفْسِهِ ، إذ وَصَلَها ولم يَقْطَعْها كما قطع الكلامَ الذي أَرادَ به كونَهُ فَوقَ عَرْشِهِ فقال عَزَّ وَجَلَّ : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما في السَمَواتِ وما في الأَرْض » [٢] فبدأَ بالعِلْمِ وأَخبر أَنَّه مع كُلِّ مُنَاجٍ حيث وُجِدَ ، وختم الآيةَ بِالعلمِ وقال : « إِن اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عليم » [٣] فَبَدَأَ بالعلم وخَتَم بالعِلْمِ . فَبَيَّنَ أَنه أَرَاد أَنه يَعْلَمُهُمْ حيث ما كانوا لا يَخفونَ عليه ولا يَخْفَى عليه مُناجاتُهم ؛ تَفَرّدُوا او اجتمعُوا .

ولو اجتمعَ قومٌ في السُّفْل ، وناظِرٌ إليهم في العُلو ويسمُع كَلامَهُمْ فقال إني لم أَزَلْ مَعَكُمْ ؛ أَراكُمْ ، وأَعلم

---

(١) غافر ٣٦ ، ٣٧ . (٢) المجادلة : ٧ (٣) المجادلة : ٧ .

مُنَاجَاتَكُمْ كانَ صادقاً ، ولله المَثَلُ الأَعْلى عن شَبَهِ الخَلْق .

وقد روى ابنُ مسعود ما يَدُلُّ على ذلك فقال : اجتمَعَ ثلاثةُ نَفَرٍ عند الكعبةِ فقال أَحدُهُم : أَتَرَونَ أَنَّ اللهَ يسمعُ ما نقولُ ؟ فقال بعضُهم : إنْ كان يسمَعُ اذا جَهَرْنَا فإنه يَسمعُ إذا أَخْفَيْنا ، فأنزل الله عز وجل « وما كُنتم تَستَتِرونَ أَنْ يَشْهَدَ عليكمْ سَمْعُكُمْ ولا أَبصارُكُمْ ولا جُلُودُكُم »[١] (الآية)[٢] فإن أَبَوا إلاَّ ظاهِرَ التلاوةِ وقالوا : هذا دَعْوى ، خرجُوا من قولِهِمْ في ظاهِرِ التلاوة ، لأَنَّ موضعَ الاثنينِ والثلاثةِ والأَربعةِ وأَكثر من ذلكَ وأَقلّ من ذلك الواحد فهُو مَعَهُمْ لا فيهم ، وما كان مع الشيءِ فقد خَلاَ جِسْمُهُ منه ، وبانَ كُلُّ واحد منهما بنفْسِهِ عن الآخَرِ ، وهذا خُروجٌ عن قَوْلِهِمْ ، لأَنَّ عندَهُمْ لا يَخْلُو من اللهِ سبحانَهُ شيءٌ أَنْ يكونَ فيه بنفْسِهِ ، فقد تَرَكُوا قولَهُمْ على ظاهِرِ التِلاوةِ لأَنَّ اللهَ تعالى قال « معهم » ولم يَقُلْ « فيهم » .

---

(١) فصلت : ٢٢

(٢) ابن كثير ٤/٩٦–٩٧ : ... عن عبد الله رضي الله عنه قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة ، فجاء ثلاثة نفر : قرشي وختناه ثقفيان ، كثير شحم بطونهم ، قليل فهم قلوبهم ، فتكلموا بكلام لم أسمعه ، فقال أحدهم : أترون أن الله يسمع كلامنا هذا ؟ فقال الآخر : إنا إذا رفعنا أصواتنا سمعه ، وإذا لم نرفعه لم يسمعه . فقال الآخر : إن سمع منه شيئاً سمعه كله .

وكذلكَ قولُهُ عَزَّ وجَلَّ : « ونحنُ أَقْربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَرِيْد » . فقد بَيَّنَ ما أَرَاد بذلك فقال : « ولقدْ خلقْنا الإنسانَ ونعلمُ ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُهُ» ثُمَّ قال « ونحنُ أَقْربُ إليه مِنْ حَبْلِ الوَريد »[1] . أَي بِعِلْمِهِ فتكونُ الإحاطةُ بالعِلْمِ أَقرب من عِرْقِ قَلْبِهِ المتَّصِلِ بِقَلْبِهِ . فإِن أَبوا إلاَّ ظاهِرَ التلاوةِ فإِنَّ ما قَرُبَ من الشيءِ ليس هو في الشيءِ ، وأَقربُ مَا يكُونُ منه أَن يُلازِمَهُ . ولم يقل عَزَّ وجَلَّ : إني فيكُم ، ولا إنِّي في حبل الوريد ، ولا اني أَقرُب فيكم من حبل الوريد ، لأَنه لو كانَ في حَبْلِ الوَريد ، صار حَبْلُ الوريد أَقْرَبَ إلينا ، لأَنَّ ما كانَ فيه شَيْءٌ فقد (١٠٣) حَواهُ ، وآخَر حواهُ وهو دُونَهُ ، كالرَجُلِ يكونُ في بيتٍ في دارٍ ، فَجِدَارُ البيتِ أَقْربُ إلى الدارِ مِمَّن هو في البيت ، ولو كان ذلك كذلك لكان آخِرُ حبلِ الوريدِ أَقربَ إلى قلوبِنا منه ، ومُحالٌ أَن يكونَ ما في الوريدِ أَقربَ إلى الجسمِ مِنْ حَبْلِ الوريد ، وإنما يكونُ أَقربَ إلى الجسم مِنْ حَبْلِ الوريد اذا لم يكن في حبلِ الوريد ، وكان خَارجاً

---

(١) ق : ١٦ .

منه أَو كان بَعْضُه في حبلِ الوريدِ ، وبعضُه خارجاً منه إلى الجسم ، فذلك التبعيضُ ، ففي ظاهِر التلاوة ، على دعواهم ، مايَدُلُّ أَنه ليس في حَبْلِ الوَرِيدِ كُلِّهِ ، وانما يَدُلُّ على أَنه إِمَّا خارجٌ منه أَو بَعْضُه خارجٌ منه ، وكذلك قولُه « في السماءِ إِله وفي الأَرض إِله » فلم يَدُلْ في السماءِ ثم قطع كما قال « أَأَمنتم من في السماءِ أَن يخسف بكم الأَرض»[1] فقال «في السماءِ إِله ...» ؛ فأَخبر أَنه إِله أَهْلِ السماءِ وإِلهُ أَهْلِ الأَرْض .

وذلك موجودٌ في اللُّغَةِ إِذ يقولُ القائلُ : مَنْ بخُراسانَ ؟ فيقال : ابن طاهر[2] . وانما هو في موضع . فجايزٌ أَن يُقالَ : ابنُ طاهر أَميرٌ في خُراسانَ ، فيكونُ أَميراً في بَلْخ وَسَمَرْقَنْد وكلِّ مُدُنِها . هذا وإِنما هو في مَوْضِعٍ واحِدٍ ، يَخْفَى عليه ما وراءَ بيتِه ، ولو كان على ظاهِرِ اللفظ وفي مَعْنى الكون ، ما جاز أَنْ يقالَ أَميرٌ في البَلَدِ

---

(١) الملك : ١٦ .

(٢) ابن طاهر (١٨٢ – ٢٣٠ هـ) عبد الله بن طاهر بن الحسين ، أمير المشرق . ولي خراسان سنة ٢١٤ هـ ، ومصر سنة ٢٢١ هـ . ثم عاد والياً على خراسان . كان جواداً ، شجاعاً ، شاعراً : وفيات الأعيان ٢٧١/٢ ، العبر ٤٠٦/١ ، البداية والنهاية ٣٠٢/١٠ .

الذي هو فيه لأَنه في موضعٍ واحدٍ من بيته ، أَو حيثُ كان ، إنما هو في موضِعِ جُلُوسِهِ ، وليس هو في داره أَميرٌ ولا في بيتِهِ كُلِّه ، وانما هو في موضِعٍ منه ، لو كان معنى هذا معنى الكون ، فكيف العالي فوق كلِّ شيءٍ؟! لاَ يَخْفَى عليه شيءٌ من الأَشْياءِ يُدَبِّرُهُ ، فهو إلهُ أَهْلِ السماءِ ، وإلهُ أَهلِ الأَرضِ لا إله فيهِما سِواهُ ، فهو فيهما إلهٌ اذ كان مُدَبِّراً لَهُما وما فيهِما وهو على عَرْشِهِ فوقَ كُلِّ شيءٍ بَاقٍ .

الحشوية والنسخ في الأخبار :

وأَمّا الأَخْبارُ فقد قال بعضُ الروافضِ ، إنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ ينسخُ أَخبارَه . وقال قَومٌ من أَهْلِ السُّنَّةِ بَنْسْخِ الأَخْبار ، لا على التَعَمُّدِ منهم ولكن عن الإِغْفَالِ والسَهْوِ عن الفَحْص عن معنى ذلك ؛

فقال الكلبي[1] إنه لمّا نَزَلَتْ « إنكم وما تعبُدُون من

(١) الكلبي (–١٤٦هـ) محمد بن السائب ، أبو النضر . كان عالماً بالتفسير وأنساب العرب وأحاديثهم ، ويقال انه كان من الشيعة الغالية ، أصحاب عبد الله بن سبأ . وهو شديد الضعف في رواياته والمحاسبي يعتبره هنا من أهل السنة . روى عنه الثوري وابن إسحاق ، ثم تركاه . وأكثر من الرواية عنه ابنه هشام طبقات ابن سعد ٦/٢٤٩ ، وفيات الأعيان ٣/ ٤٣٦ ، نور القبس ٢٥٦ ، الميزان ٣/٥٥٦ .

دونِ اللهِ حَصَبُ جهنَّم » [1] نسخها بقوله : « إِنَّ الذين سَبَقَتْ لهم منَّا الحُسْنَى » [2] ومعنَى ذلك لو كان نسخَها ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قال : « إِنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم » أَنَّه أَرادَ به أَنْ يُعَذِّبَ عُزيراً والملائكةَ والمسيحَ ، فأَوجبَ عليهم العذابَ ثمَّ نَسَخَ ذلك بعدما أَوجَبَهُ ، كما أَوجب قِيامَ الليلِ ثم نَسَخَهُ ، وكما أَوجب تقديمَ الصَدَقةِ قبل نَجْوى النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثم نَسَخَهَا ، وكما أَوجبَ الصلاةَ إلى بيتِ المقْدسِ ثم نسخَهُ ، ومعاذَ اللهِ أَنْ يكونَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَرادَ وأَحَبَّ تَعذيبَ أَوليائِهِ من الملائكةِ ، ولا المسيح ولا عُزير ، وقد تقدّمَتْ فيهم أَخبارٌ من الله جلَّ وعز بالوِلايةِ قبل أَنْ يُنَزِّلَ آيةَ العذابِ في الآلِهة فلما أَنزل آيةَ العذاب لم يُرِدْ بها مَنْ تَقَدَّم منه القولُ بِولايتِهِمْ ، وإِنما أَراد مَنْ عَبَدوا سوى أَوليائِهِ ، وكان خَبَراً خاصّاً لا عامّاً كما قال اللهُ جَلَّ وعَزَّ « إِنَّ ربَّكَ لَذُو مَغْفِرةٍ للناسِ على ظُلْمِهِمْ » [3] ولم يُرِدِ الكافِرِينَ إِذ لم يتوبوا ، لأَنه قد تقدَّمَ فيهم أَخبارٌ أَنه لا يُغْفَرُ لهم إِنْ لم يَتُوبوا .

---

(١) الأنبياء : ٩٨ . (٢) الأنبياء : ١٠١ . (٣) الرعد : ٦ .

وقال الكلبيُّ ومتَّبِعُوهُ أيضاً قوله : « والملائكةُ يسبِّحون بِحَمْدِ ربِّهم ويستغْفرونَ لِمَنْ في الأَرْضِ » [1] نَسَخَ ذلك بقوله : « فاغفِرْ للذين تابوا واتَّبعوا سبيلَكَ » [2] .

ولو كانَ كما زعَمَ لكان قولُهُ « ويستغفرون لمن في الأَرض » خبراً منه أَنهم يستغفرون لأَهْلِ الأَرْضِ كُلِّهِمْ مَنْ تاب منهم ومَنْ لم يَتُبْ ، ثم رَجَعَ فقال : انما استغْفَروا للذين تابُوا؛ وليس كَذَلِكَ ، ولكنَّه أَخبر أَولاً بخبرٍ كان ظاهِرُهُ على العُموم وهو خُصوصٌ ، ولم يُرِدْ أَوَّلاً في خبره أَنهم استغفروا لأَهْلِ الأَرض كُلِّهِمْ ، ثُمَّ رجَع فأَخبر أَنَّهم إِنما استغفروا للتائِبِيْنَ دون غيرِهِمْ هم لم يستغفروا قطُّ إلاَّ للتائبين ، ولم يرد بخبرِهِ عنهم إلاَّ التَّائبينِ. ولكنَّه أَخبر أَوَّلاً وكان ظاهِرُ خَبَرِهِ على العُموم .

وإِنما أَرادَ بقولِهِ «لِمَنْ في الأَرض» من التائبين ، ثم بَيّن في الخَبَرِ الثاني مَنْ أَرادَ ، لأَنَّ الله عز وجل لا جائز أَنْ ينسخَ الاستغفارَ للكافِرِيْن ، وقد أَخبر أَنه قال لا يَغْفِرُ لهم أَبداً ، فيكون قد أَمرهم أَنْ يَستغفِروا للكافرين ثم

---

(1) الشورى : ٥ . (2) غافر : ٧ .

نسخَهُ بنهْيِهِ لهم ، فَيَدَعُوا الاستغفارَ لِجميعِ النَّاسِ (دونأَن) يستغفِروا للمؤمنين بعد ذلك ، لأَنَّه عز وجل يقول « ولا يشفعُونَ إلاَّ لمن ارتضى »[1] ولا يُقَدِّمُون بين يدي الله ما لم يُؤْمَرُوا به فَيُخَالِفوا مَحَبَّةَ مولاهُم فيسأَلوه أَنْ يَغْفِرَ للكافرين مع المؤمنين وقد أَوجب أَلاَّ يَغْفِرَ لهم أَبداً وهو يُخْبِرُ بأَنهم لا يَشْفَعُونَ إلاَّ لمن رَضِيَ شفاعتَهُم له ، ويمدحُهم بذلك .

فإن احتَجَّ مُحْتَجٌّ بأَنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ قد استغْفَر لأَبيه ، ومحمداً صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم لِعَمِّهِ حَتَّى نُهِيَ ، فذلك انما كان ابتلاءً مِن محمَّد صلى الله عليه وسلم حتى نَهاهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ، لا أَنَّ الله تبارَكَ وتَعالى أَمره أَنْ يَسْتَغفِرَ للمُشْرِكيْنَ ثُمَّ نَسَخَهُ . والملائكةُ لا جائزَ أَن تَبتدىءَ بما لم تُؤْمَرْ به ، لأَنَّه عَزَّ مِنْ قائل يقول : « وَلَا يشفعون إلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى »[2] .

فالناسخ والمنسوخ لا يجوزُ أَن يكونا إلا في الأَحكام في الأَمْرِ والنَهْيِ والحُدُودِ ، والعُقوباتِ في أَحكامِ الدنيا ،

---

(١) الأنبياء : ٢٨ .

(٢) الأنبياء : ٢٨ .

ولا يكونُ ذلك بَدَاواتٍ مِنَ اللهِ عَزَّ وجل ، ولا استفادةَ عِلْمٍ ولا رجوعاً عن صِدْقٍ ، بنسْخِ خَبَرٍ ، ولا ابتداءً بِكَذِبِ ثم رجوعاً إلى صِدْقٍ ؛ جَلَّ وتعالى عن ذلك .

ولكنَّه أَمَرَ بأَمْرٍ وحَكَمَ بِحُكْمٍ ، وهو يُريدُ أَن يُوَجِّهَ إلى وقتٍ ، ويُريدُ أَن يأْمُرَ بِتَرْكِهِ بعد ذلك الوقْتِ ؛ لم يَزَلْ مُريداً للفِعْلِ الأَوَّلِ إلى الوقت الذي أَراد نَسْخَهُ ، وإيجادَ بَدَلِهِ ، إلاَّ من المأمورِ به والحكمِ به ، وكلاهُما لم يَزَلْ يُريدُهُما ولم يُبَدِّلْهُ في الثاني بِبُدوٍّ ولا بِنَسْخِ أَمْرِهِ ، ولكنه ينسخُ المامُورَ به بمأمورٍ به آخَرَ ، وكلاهُما وَقَعَ التبديلُ على المأمور به بمأمورٍ به آخَرَ ، وكلاهما كلامُهُ لا رُجُوعاً عن قوله الاول أَنه لم يكن حَقّاً وصدقاً منه وحكمةً ، وصلاحاً لِعِبادِهِ يستخْرِجُ مِنْهُمَا التسليمَ لأَمْرِهِ في وقت يكونُ ذلك مِنهما ، ويكونُ من إبراهيمَ القَصْدُ منه ، لِحديدةٍ يذبحُ بها ابنَهُ ، وإضجاعَهُ ووَضْعَ السكين على حَلْقِهِ ، بالصَبْرِ والتَسْليمِ لأَمْرِهِ ، ويكونُ من إسحقَ بالطَوْعِ لأَبيه ابتغاءَ مرضاةِ اللهِ ربِّهِ ، بالتسليمِ لأَمْرِهِ ، ويكونُ من الكبْشِ بدلَهُ ، وكلاهما مُرادٌ له لم يزل في

وقتَيْنِ مختلِفَيْنِ ، فأَراد أَنْ يُضْجِعَهُ ، ويقصدَ بحديدةٍ لِذَبْحِهِ ، ويكونُ التسليمُ منهما ، ويأْمُرُهُ بالكَبْش فيذبَحَهُ ، ولو أَرادَ اللّهُ ذَبْحَ ابنِهِ لَذَبَحَهُ لا محالةَ لأَنَّه تعالى لا يُريدُ شيئاً إلاَّ تَمَّ ، ولو أَرادَ ذَبْحَ ابنِهِ لَذَبَحَهُ ، لا محالةَ ، ولأَخبره انه ذابِحُهُ لا محالةَ ، لأَنه لا يُخْبِرُ بشيءٍ أَنه كائنٌ ثم لا يكونُ ، ولا يجوز أَن يخبر انه يكونُ إلاَّ كان .

كما أَمَرَ اللهُ تعالى مُحَمَّداً صلى الله عليه وسلم والمؤمنين أَن يَصْفَحُوا عن المشركين ، ولا يقاتِلُوهُمْ ، ويَصْبِرُوا على أَذاهُمُ ، وهو يُريدُ أَن يصفحوا عنهم ، إلى أَنْ يَقْوى الإسلامُ ، ويُهاجرُوا إلى المدينةِ ، وهو يُريدُ إذا هاجروا ، وقويَ المسلمون أَنْ يأْمُرَهُمْ بالقتال ، وكلاهُما لم يزالا مُراداً له .

أَرادَ أَنْ يُوجِبُ هذا إلى وقْت ، ثم يوجِبَ الآخَرَ بَدَلاً منه ، ويأْمُرَ بِتَرْكِ الأَوَّلِ كما أَمَرَهُم بالصلاةِ إلى بيتِ المقدِسِ ، ثم أَمَرَهُم أَن يتحوَّلُوا إلى الكعبةِ ، وذلك كثيرٌ في أَحكامِهِ ، أَبْدَلَ أَحَدَهُما بَدَلاً من الآخَرِ في وقْتَيْنِ مختلِفَيْنِ ، وكلاهُما كان مُريداً له .

هذا يُريدُ أَن يأْمُرَ به إلى وقتٍ ، وهذا يُريد أَن يأَمر به بدلاً منه بعد تَقَضِّي الوقت ، ويأَمر بِتَرْكِ الأَوّل من غيرِ بدءٍ ولا جَهْلٍ .

وكذلك كُلُّ حُكْمٍ نَسَخَهُ حُكْمٌ آخَرُ ، فإنما جُعِلَ الثاني بدلاً من الأَول ، وذلك موجودٌ بين العباد ، على تقدُّمِ الإِرادةِ منهم فيما أَمروا به أَولاً ، ثم نَهَوا عنه ، وأَمروا بغيره من غير بَدْءٍ ولا جَهْلٍ ، وذلكَ كأَن يَأْمُرَ الرجُلُ غُلامَهُ ليعمَلَ في أَرضِهِ وهو يُريدُ أَن يعملَ فيها وقْتَ الزراعة ، ثم يصرفَهُ بعد ذلك إلى خِدْمَتِهِ في مَنْزِلِهِ ، وكِلاَهُما قد تَقَدَّمَتْ به الإِرادةُ منه ، ويأَمُرُهُ أَن يَخْرُجَ معه إلى قريتِهِ ، وهو يُريدُ إِذَا بَلَغَ القَرية أَن يأَمُرَهُ بالرجوعِ إلى أَهله ؛ يقوم بحوائجِهِمْ ، ويكتفي هو بخدمةِ نَفْسِهِ في قريتِهِ ، أَو يُريدُ أَن يَرُدَّهُ إلى قريتِهِ ، أَو مدينتِهِ ، إلى عَمَلٍ يَعْمَلُهُ له من بناءٍ أَو عملٍ يَكْسبُ به ، أَو غير ذلك حتى لربَّما قالَ له : إعملْ كذا وكذا ، إلى الظُهر أَو إلى رأَس الشهر واذا انسلخ (١٠٥) الشَهْرُ ، فَدَعِ العَمَل ، واعمل كذا وكذا لعملٍ آخَرَ فتقَدَّمَ منه الأَمْرُ

بالعَمَلَيْنِ جميعاً في وقتَيْنِ مختلِفَيْنِ . أَو يأمُرُه بأَحَدِ العَمَلَيْنِ في وقتٍ وهو كذلك يُريدُ أَن يأمُرَه بالعملِ الآخَرِ بعد انقِضاءِ الثاني ، فيكونُ الآخرُ بدَلاً من الأَوّلِ ، يبدأُ بأَحدِهِما إلى الوقتِ ، وقد أَمرهُ أَنْ يَدَعَهُ إذا جاءَ الوقتُ ، ويعمل الآخَرَ بدلاً من الأَوّلِ من غير بَدْءٍ منه ، ولا كَذِبٍ ، ولا جَهْلٍ ، فكيفَ بالإِلهِ الواحدِ القَهّارِ ، الذي يَعْلَمُ عواقِبَ الأُمورِ كُلِّهـــا ، ولا تَبْدُو له البَدَاواتُ ، ولاَ تَحِلُّ به الحَوَادِثُ . ولاتعتقِبُهُ الزيادةُ والنُقْصان .

القول بخلق القرآن :

ولقد جامَعَنا [١] قَوْمٌ من أَهْلِ الضَلاَلِ على ذَلِكَ ، لئلاَّ يَقَعَ النَسْخُ من الله عز وجل في أَخباره ، ومِدَحِهِ ، وانما يقعُ النسخُ في أَحكامه ، ثم جَهِلُوا ، إذ أَرادوا ان يقوّوا قولَهُمْ بأَنّ كلامَ الله مخلوقٌ ، فزعموا أَنّ اللهَ عزَّ وجلّ قد ينسخ كلامَهُ بِكلامِهِ فيما أَمَرَ به ، ونهى

(١) لسان العرب ٤٠٨/٩ : جامعه على الأمر : مالأه عليه ، واجتمع معه .

عنه ، وكان مما استدلُّوا به ، أَنه كلامٌ مخلوقٌ انه يُنْسَخُ بعضُه ببعضٍ .

قالوا : ولو لم يَكُنْ مخلوقاً ، ما جاز عليه النسخُ ولا التبديلُ .

وقد جهلوا المعنى ، وجاروا عن الحَقِّ ، لأَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ لم ينسخ كلامَهُ بكلامِهِ ، وإنما ينسخُ مأَموراً به بمأَمور به ، فأَبْدَلَ أَحَدَهُما مكانَ الآخَر وكلاهُما كلامُهُ . وانما ينسخ كلامَهُ الأَوّلَ بكلامٍ منه (ثانٍ) الكاذبُ الراجعُ عَمَّا قال ، فأَما إذا كانا جميعاً منه فَهُمَا حَقٌّ وصِدْقٌ ، فانما أَمَرَهم بمأَمورٍ أَوجبه ، ثم رَفَعه ، وبدَّله بمأَمورٍ آخَرَ أَلزمهُمُ القِيامَ به ، وكلاَهُما كلامُهُ أَوْجَبَهُما في وَقْتَيْنِ مختَلِفَيْنِ . فالله جَلَّ وعَزَّ لم يأْمُرِ العِبادَ أَنْ يفعلوا كلامَهُ ، ثم يأْمُرُهم أَن يفعلوا كلاماً له ثانياً بَدَلاً من الأَوّلِ . وانما أَمرهم بعملٍ يعملونَهُ ، ثم بَدّلَ لهم عَمَلاً آخَرَ أَلزَمَهُمْ إياهُ ، ونسخَ الأَوّلَ ، وجعلَ الثانيَ مبدولاً به ، أَلم تسمع اللهَ عَزَّ وجَلَّ يقولُ : « لا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ » (١)

---

(١) الانعام : ١١٥ ، الكهف : ٢٧ .

وقال « يُريدون أَن يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللهِ »[1] لأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال لهم : « لن تَخْرُجُوا معي أَبداً » ولم يقل : إِنَّ الله حَرّمَ عليكُمُ الخُروجَ معي ، ولم يَقُلْ « أَبداً » فيكونوا اذا أَرادوا الخُروجَ مع النبي صلى الله عليه وسلم أَرادوا أَن يَعْصُوا الله ، ولا يكونوا مُبَدِّلِيْن كلامَ الله ، ولكنَّ الله جل وعز أَمَر نبيَّهُ أَن يُخْبِرَهُمْ انهم لا يخرُجُون معه أَبداً ، ولا جائز أَن يخرجوا معه أَبداً ، لأَنَّ هذا القول من الله عز وجل خبر منه انه لا يدعُهُم يخرجُون مع نبيِّه عليه السَلاَمُ أَبَداً ، ولا يأْذنُ لهم في ذلك ، فلو خَرَجُوا ، كان ذلك تكذيباً لِخَبَرِ الله جَلَّ وعَزَّ ، ولو أَذنَ لهم اللهُ لكان هذا تبديلاً لكلامِهِ الأَوَّل ، وكان هذا كَذِبَاً ، وجُلَّ ربُّنَا وتعالى عن ذلك . فلمَّا سأَلوا النبيَّ عليه السلام ، ان يخرجوا معه ، وكان في خروجِهِم تكذيبُ خبرِ الله ، وتبديلٌ لكَلامِهِ ، قال الله جل ثناؤُه لنبيه عليه السلام لمَّا سأَلوا أَن يخرجوا معه : « يُريدونَ ان يُبَدِّلُوا كَلاَمَ اللهِ »[2] فدَلَّ اللهُ عز وجل بذلك أَنَّ في

---

(١) الفتح : ١٥ .　　(٢) الفتح : ١٥ .

تبديلِ كلامِ اللهِ إيجابَ الكَذِبِ ، واللهُ جَلَّ وعَزَّ لا يُبَدِّلُ كَلامَهُ ولا ينسخُ قَوْلَهُ ، وإنما ينسخُ فَرْضَهُ ، ويبدله بفرضٍ غيرِه ، وكلاهُما كَلامُهُ .

أَلا ترى ان كلَّ ما يُنْسَخ ، ويُبَدَّل ، فلا يَجوزُ فِعْلُه ، كالصلاةِ إلى بيتِ المقدس ، وبعضُه لا يجوزُ فِعْلُهُ على الإيجاب له ، كَقِيامِ اللَّيْلِ وغيره ، وكذلك الوصيةُ للوالِدَيْنِ ، ولمَنْ يَرِثُ لا يجوزُ أَن يُنَفِذَ الوصيَّةَ لهم .

والكلامُ الذي نهاهُمْ به أَوّلاً ، كَلامٌ له ، واجبٌ على العبادِ أَنْ يؤمنوا به أَنَّه حَقٌّ ، وأَنه من القرآن ، مَنْ كَفَرَ به فهو كافِرٌ ، وَمَنْ آمَنَ به فهو مُؤْمِنٌ ، وأَنَّ عليهم أَلاَّ يَخْرُجُوا جميعاً من حِفْظِهِ ، حتى يكونَ بعضُهم يحفظُهُ ، ولا يجوزُ له أَن يُسْقَطَ من القرآن ، فلا يُقرأُ ولا يُتْلى ، وأَنما سقط فَرْضُ الآية ، وثبَتَ نصُّها ، والنص حَقٌّ وصِدْقٌ ، وانما بَطَلَ الفَرْضُ ، ولم يَبْطُلِ النَصُّ ، وانما سقطت الوصيةُ أَن يَنْفُذَ ، فتجوز ، فسقطَ وُجُوبُ الفرضِ من الآية ـ وثَبَتَ نصُّها ـ : أَن تَجِبَ الوصيةُ للوالِدَيْنِ ونحْوِهَا ، ولم يسقط كلامُهُ بذلك أَنه حقٌّ

وصِدْقٌ ، وانه ليس بين الآية الناسخةِ للمأمورِ به ، وبين الآية التي نسخ منها المأمور به ، فَرقان في الايمان بهما ، والكفر بهما ، وانهما جميعاً حقٌّ وصدقٌ وانما افترقَ الحُكْمَانِ بهما .

فمن زعم أَنَّ الحُكْمَ (١٠٦) المنسوخَ واجب بعد علم ، فقد كفر . وان الثاني المُبدل به ليس بواجبٍ فقد كفرَ ، فجائزٌ أَن يُقَال قد أَبطلَ اللّٰهُ الصلاةَ إلى بيتِ المقدس ، ولا يقال قد أَبطل اللّٰهُ قولَهُ ، فيكونُ كلامُ الله باطلاً .

فالكلامُ الذي نُسخَ به حَقٌّ ، والكلامُ المنسوخُ الحُكْمُ منه حَقٌّ ، فيقال قد أَبطل الله جل وعز وجوبَ الوصيةِ ، وأَبطل اللّٰهُ الصلاةَ إلى بيت المقدس ، أَن يكون واجباً الآن ، وأَبطل قِيامَ الليلِ أَنْ يكونَ واجباً .

ولا يقولُ مؤمِنٌ : قد أَبطل عز وجل الآياتِ التي كانت هذه الأَحكامُ كلُّها فيها واجباتٌ ، فيكونُ كلاماً باطلا . فالكلامُ الذي نُسِخَ منه الحُكْمُ ، والكلامُ الذي ثبت به الحكمُ الثاني ؛ كلامُ الله حقٌّ وصدقٌ ، لا باطِلَ ولا كَذِبَ ، وأَحَدُ الحُكْمَيْنِ سَاقطٌ ، ومَنْ دَانَ به بعد علم

فقد دانَ بالضَلالِ والبَاطِلِ ؛ أَن يكون واجِباً على عِبَادِ الله .

وكان مما احتجُّوا علينا به في ذلك ، قولُ الله جَلَّ مِنْ قائل : « ما نَنْسخُ من آيةٍ او نُنْسِها نأْتِ بخيرٍ منها أَو مِثْلَها »[1] .

فقالوا : ما جازَ أَن يكونَ بعضُهُ خَيْراً من بعضٍ ، فهو مَخْلُوقٌ ، لأَنه اذا كان شيءٌ هو خَيْرٌ من شيءٍ ، فقد فَضَلَهُ ، والآخَرُ منقوصَ ، وقال : « او مثلها » قالوا وما كان له مِثْلٌ ، فهو مَخْلُوقٌ ، لأَنَّ المثل يشتبهُ بمثله ، وما جاز أَن يأْتي به الله جل وعز فيحدثُهُ فهو مخلوقٌ ، وكُلُّ مخلوقٍ فَمِثْلُهُ مخلوقٌ ، لأَنَّ حُكْمَ المِثْلِ حُكْمُ مِثْلِهِ .

وجهلوا التأْويلَ ! ! انما قولُهُ جل وعز « نأْتِ بخيرٍ منها » بخيرٍ بمأْمورٍ به[2] ، هو أَوسعُ لكم وأَخفُّ عليكم ، او مثلُهُ في الخِفةِ والسَعَةِ . وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ : « مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فله خيرٌ منها »[3] لا يعني خيراً من التَوْحِيدِ ،

---

(١) البقرة : ١٠٦ .

(٢) مجاز القرآن ١ / ٥٠ : أي نأتيك منها بخير .

(٣) القصص : ٨٤ ، النحل ٨٩ .

وانما يعني له منها خيرٌ ، كما يقال : الدراهم خَيْرٌ من المالِ ، لا يُريدُ أَفضَلَ من المال ، وانما يُريدُ: الدراهم من المالِ خَيْرٌ ، فإن قالوا بِظَاهِرِ التِلاوَةِ ، فقد جامعونا انَّ اللهَ جلَّ وعَزَّ (عندما)أَمر بالوصيةِ للوالدين؛ أَمرَ بمأمورٍ به أَوسع من الأَول ، وجامعونا أَنَّ اللهَ جَلَّ وعَزَّ ، لمَّا أَمر بالمالِ لورثةٍ معلومِينَ ، فالمأَمورُ به الآخرُ أَوسعُ ، وما نَسَخَ اللهُ جل وعز من تَقْدِمَةِ النَجْوى بين يدي كلامهم لرسولِهِ عليه السلام ، وما نسخ من قيام الليل ، ونحو ذلك...

ومما يَدُلُّ على بُطْلانِ قولِهِمْ أَنَّ قائلا لو قال : تَرْكُ قيامِ الليل أَن يكونَ علينا واجباً ، هو أَرْفَقُ بنا ، وأَوسعُ لنا من قِبَلِ اتساعِهِ لنا ، كان صادقا . ولو قال إِنَّ قوله « فاقرؤوا ما تيسر منه »[1] خيرٌ من قوله « يا أَيها المُزَّمِّلُ؛ قُمِ اللَيْلَ إِلاَّ قَلِيلا »[2]. فأَرَاد أَنَّ الكلامَ الآخَرَ من اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ، خَيْرٌ وأَفْضَلُ ، والكلامُ الأَوّلُ انقصُ وأَدْنى ، كان كافراً باللهِ عَزَّ وجَلَّ ، إِذ ازدرى كَلاَمَ اللهِ ، وزعم أَنه منقوصٌ دَنِيٌّ .

---

(١) المزمل : ٢٠ .　　(٢) المزمل : ١ .

القسم الخامس

مع المعتزلة : دفاع والزامات

دفاع عن أهل السنة

دعوى المعتزلة

وقد ادّعى علينا بعضُ أَهْلِ البِدَعِ من المعتزلةِ ، أَنَّا نَزْعُمُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجلَّ ينسخُ أَخْبارَهُ ، وصفاتِهِ ، فقالوا : إِنَّ الله عَزَّ وجَلَّ ، أَخبرَ أَنه يعذِّبُ القَاتِلَ ، والزانيَ ، وشارِبَ الخَمْرِ ، وآكِلَ مالِ اليتيمِ ظُلماً ولم يَستَثْنِ منهم أَحداً ، فزعمتُم أَنه جائزٌ أَن يغفرَ اللهُ لبعضِ أَهلِ الكبائِرِ ، وأَنه لا يغفرُ لبعضِهم .

وقال بعضُهم إِنه يَغْفرُ لهم كُلهُمْ .

وأَخبر أَنَّ الفُجَّارَ لاَ يَغيبونَ عن النارِ ، فزعمْتُم أَنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ يُخْرِجُ قوماً من الفُجَّارِ المقِرِّيْنَ ، بعدما احتَرقُوا ، ويُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ .

وزعم بعضُكُمْ ، أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُخْرِجُ كُلَّ فاجِرٍ مُقِرٍّ قاتِلٍ كان ، او زانٍ ، أَو سارقٍ ، أَو مَنْ أَتى بأَعْظَمِ الذُنوبِ ، إِلاَّ بالكُفْرِ باللهِ جَلَّ ثناوُهُ .

وزعمتم أَنَّ اللّهَ جَلَّ وَعزَّ نَسَخَ خَبَرَهُ ، وأَخْلَفَ وعيدَهُ . وأَكذَبَ قولَهُ ، في بعضِ ما أَخبر أَنه معذِّبُهُ ، وبعضِ مَنْ أَخبر أَنَّه مُخَلَّدٌ في النار ، وهذا تكذيبٌ وخُلْفٌ من القول .

وكذلكَ قالوا في الصِفاتِ؛ قالوا: زعمتم أَنَّ اللّهَ جلَّ وعَزَّ امتَدَحَ بأَنَّ الأَبْصار لا تُدرِكُهُ. ثم زعمتُم أَنَّ هذه المِدحةَ تُبَدَّلُ في الاخرةِ ، فتراهُ العُيون ، وهذا نَسْخُ المَدْح ، لأَنه امتَدَحَ بأَنَّ الأَبْصارَ لا تُدْركه ، ولم يَستثنِ في الدنيا ، فزعمتم أَنها تُدركُهُ في الآخِرة نظراً .

قالوا : ولو جازَ أَن يَغفِرَ اللهُ لأَهْلِ الكبائرِ بعد ما قال ، إنِّي معذِّبُهُمْ ، وان جزاءَهم النارُ لَجاز أَن يَغفِرَ لأَهْلِ الكُفْر ، لأَنَّه كذلك قال إِني أُعذِّبُهُم ، وإِنَّ جَزَاءَهُمُ النارُ . ولو جَازَ أَن تَرَاهُ الأَبْصارُ بعدما نفى الرؤيةَ لَجازَ في قولِه « وهو يُطْعِمْ ولا يُطْعَمُ » [1] أَن يطعِمَ في الآخِرة ولا يطعِمَ (١٠٧) في الدنيا ،

وكذلك قولُهُ : « لا تأَخُذُهُ سَنِةٌ ولا نَوْمٌ » [2] لجاز أَن

---

(١) الانعام ١٤ . (٢) البقرة ٢٥٥ .

تأْخُذُه السِنَةُ والنومُ في الآخِرةِ ، وقولُه « لا يخفى عليه شيءٌ » ، أَنَّه يخفى عليه في الآخِرةِ لا فُرْقَان بينَ ذَلِكَ ـ زعموا !!

في الوعد والوعيد :

وقال أبو عبدالله رحمه الله : وقد أَبْعَدُوا القِيَاسَ ، وادَّعَوْا علينا ما لم نَقُلْهُ مَعاذَ الله أَن نقول : إِنَّ أَخبارَ اللهَ وَمِدَحَهُ تُنْسَخُ ؛ وهو الصَادِقُ في كُلِّ حالٍ ، والكامِلُ لم يَزَلْ ، ولا يزولُ ، ولكنَّا نقولُ : إِنَّ للهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَخباراً عامَّةً ، وإِن اتَّفقَ ظاهِرُ تلاوتِها في العُمومِ ، فهو مختلِفٌ في معاني الخُصوصِ ، والعُموم .

فأَمّا ما ادَّعَوْا علينا في الوعيد ، فهذه دعوى باطل .

ولكنَّ الله جَلَّ وعَزَّ أَوجَبَ لآكِلِ مالِ اليتيمِ ، والزاني ، والسارقِ ، وشاربِ الخَمْرِ ، والقاتِلِ ، وهو يُريدُ أَنَّ ذلك عليهم أَجمعين واجِبٌ ، وأَنَّهم له مستحقُّون ، ولم يُرِدْ أَنْ يعذِّبَهُمْ أَجْمعِين ، ولو أَرادَ أَن يعذِّبَهُمْ أَجمعين ، فإِنْ أَرادَ أَن يعذِّبَ بعضَ مَن استوجَبَ ، فيعذِّبهُ بعدلِهِ ،

ويغفو عن بعضِ مَنْ وَجَبَ عليه ، فيعفو عنه بِفَضْلِ رحمتهِ لِزَلَّاتِهِ ، يقول : « إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دون ذلك لِمَنْ يَشاءُ »[1] .

فأَخبر أَنه لا مشيئةَ له في مَغْفرةِ أَحَدٍ من المُشْرِكِينَ ، وله المشيئةُ فيما دونَ الشِرْكِ بالمَغْفِرَةِ عمن يشاءُ منهم ، فأَخبر انه لم يُرِدْ أَن يعذِّبَهُمْ كُلَّهُمْ ، وأَن يغفر لبعضِ مَنْ يشاءُ منهم .

وأَخبر أَنهم جميعاً مستحِقون للعذابِ ، وأَنَّ له مشيئةً في بعضِ من استحَقَّ منهم العذابَ ، الذي وجب عليهم في حُكْمِهِ ، ولم يُعلِمْنَا مَنْ يُغْفَرُ له ، فقطعنا بما قَطَعَ ، وأَيِسْنا مِنْ عَفْوِهِ عمنْ آيَسَنَا منهم من المغفرةِ للمُشْركين ، وأَوقفْنا ما أَوقفَ من عذابِ المستحقِّين من المؤمنين ، إِلاَّ أَنَّا نعلَمُ أَنه سيعذِّبُ بَعْضَهُم ، ولا يَكْذِبُ قولهُ ، لأَنَّه أَخبر أَنه يعذِّبُ ، وأَنَّ له مشيئةً فيهم ، فيمن يَشاءُ منهم أَن يغفِرَ له .

فكان ما أَخبر اللهُ جَلَّ وعزَّ به من عذابِ الموحِّدين

(١) النساء : ٤٨ .

خصوصاً ، لا عُموماً ، اذ أَخبر انه يَغْفِرُ لمن يشاءُ منهم ، وأَنَّ خَبَرَهُ أَنهم مستوجِبون عمومٌ .

وإذا أَخْبَرَ أَنَّه له مشيئةٌ فيمكن مشيئتُهُ فيمن استوجَبَ العذابَ منهم .

وأما ما ادعوا به علينا ، فزعموا أَنه يَلْزَمُنَا أَن نَشُكَّ في عذابِ الكُفَّار ، فلا ندري يَغْفِرُ لبعضِهم ؟ لأَنَّه قال لليهودِ والنصاري « بل أَنتم بَشَرٌ ممَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويعذِّبُ مَنْ يشاءُ »[1] .

فقالوا : قد استَثْنَى في هاتينِ الآيتينِ كما استَثْنى فيما دَونَ الشِرْكِ فإنه يُقالُ لهم : أَبعدْتُمْ في القياسِ والتمْييز . إنَّ الله جلَّ وعز لم يَقُلْ لليهودِ والنصارى « بل أَنتم بَشَرٌ ممن خلق يَغْفِرُ لمن يشاءُ » منكم ، فيكُون قد استَثْنى بعضَهُمْ فيلزمُنا ذلك فلو قالَ ذلك ، كان يلزمُنا كما قلتم ، وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ « يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ » عمومٌ ، لم يَخُصّ قوماً بأَعيانِهِمْ فقد عرفْنا مَنْ يشاءُ مغفِرَتَهُ بعد عمومِ هذا الخَبَر ، بأَخبار خاصةً ؛ ولولا الأَخبارُ الخاصَّة

(١) المائدة : ١٨ .

بعد ذلِكَ لكان علينا أَن نَقِفَ حتَّى نعلَمَ مَنْ يَشاءُ عذابَهُ ، فلمَّا أَخبَرَنَا انه لا يَغْفِرُ لِمَنْ أَشْرِكَ ؛ قطعْنا بذلك.

وأَخبَرَنا أَنه يغفِرُ لِمَنْ يشاءُ (ممن) تَابَ ؛ قال تعالى : « وإِني لغفَّارٌ لمن تابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى »[1] وقال تعالى « ولله ما في السموات وما في الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يشاءُ ويعذِّبُ مَنْ يشاءُ »[2] فقطَعْنا بذلك ، وعلِمْنا أَنه قد شَاءَ عَذَابَ الكَافِرِيْنَ ، وشاءَ مَغْفِرَةَ التائِبِيْنَ ، ولمّا أَرْخَى (كذا) مغفرتَهُ مَنْ يَشَاءُ من المُصِرِّيْنَ من الموحِّدِين ، وقفْنا ، ولم نَقْطَعْ ، وعلِمْنا أَنه يشاءُ أَن يَغْفِرَ لبعضِهِمْ ، وأَنه يعذِّبُ بعضَهُمْ ، إِذ أَخبر انه سيعذِّبُهُم إِلاَّ مَنْ يشاءُ مغفرتَهُ منهم ، فجعل مشيئتَهُ في مغفرةِ بعضِهِم خصوصاً ، والآخرونَ معذَّبونَ بقولِهِ : أُعذِّبُ وأَغفِرُ ، لِمَنْ شئتُ منهم . فعلِمْنا أَنَّ من يَشَاءُ اللهُ مِنْ خَلْقِهِ بعد قولِه « يغفر لمن يشاءُ ويعذب من يشاءُ »[3] أَن يعذِّبَهُمْ ، وأَن يغفِرَ لَهم . ولم نَعْلَمْ مَنْ يغفرُ له مِنَ المُصِرِيْنَ من الموحِّدِين ،

---

(١) طه : ٨٢ .

(٢) آل عمران : ١٢٩ .

(٣) آل عمران ١٢٩ .

ولا مَنْ يعذِّبُ مِنْهمْ إلاَّ أنَّه سَيُعَذِّبُ بعضَهُمْ ، ويغفِرُ لمن يَشاءُ منهم .

وأما قولهم لا يخلو من ثلاث خلال :

إمَّا أَن يكونَ قال أُعذِّبهُم ، وهو يعلمُ انه سيعذِّبهُم .

أَو كان لا يَعْلَمُ من يعذِّبهُ منهم .

أَو كان يعلَمُ أَنه يعذِّبهُمْ .

فالشَّكُّ في عِلْمِ عذابِهِم كُفْرٌ .

وقولُهُ أُعَذِّبهُمْ وهو يَعْلَمُ (١٠٨) أَنه لا يعذِّبهُمْ كَذِبٌ .

فقد جامَعْنَاهُمْ على ذلك إلاَّ الفَصْلَ الأَوَّلَ ، وهو قولُهُم إنَّه قال ذلك ، وهو يعلَمُ أَنه يعذِّبهُم .

فجوابنا أَنه قال ذلك وهو يَعْلَمُ أَنه سيعذِّبُ بَعْضَهُمْ ، ويعفُو عمن شاءَ أَن يعفُوَ عنه . وكذلك استَثْنى لِما عَلِمَ ، ولا يلحَقُهُ في ذلك شَكٌّ ، ولا كَذِبٌ ، ولا خُلْفٌ ، والآيةُ في الاستثناءِ مَنْ شاءَ أَن يغفِرَ له من الموحِّدين ، لا يخلُو من أَنْ تكونَ الآيةُ من أَوَّلِها إلى آخرِها في المُصِّرينَ أَو في التَّائِبينَ ، أَو هِي مخصَّصةٌ . أَوَّلُها وآخرُها في التَّائبينَ ،

فهذا لا يقولُهُ أَحَدٌ ؛ انه (من) تابَ من الشِرْكِ (لم) يَغْفِرْ له ، ومن تَابَ من الذنوبِ غَفَرَ لمن شاءَ مِنْهُم ، وان كانت في المُصِرِّيْنَ فهذا عندنا هو الحَقُّ لأَنَّ اللهَ جلّ ذِكْرُهُ لا يَغْفِرُ لِمَنْ مات مصرّاً على الشِّرك ، ويغفرُ لمن يشاءُ من مات مصراً على الذُنوبِ مع التوحيدِ . وان كان أَوَّلُها في بَعض دونَ بعضٍ ، فهذا على مَعَانِي شَتَّى ، وآخِرُها في التائبينِ ، فهذا التحَكُّمُ في الدَّعْوى ، لأَنهم جَامَعُونا على أَنَّ أَوَّلَها في المصِرِّيْنَ . وقولُهُم إِنَّ أَوّلَهَا في المصرين على ما ابْتَدَأَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ أَو يأْتوا بِبُرْهانٍ على قولِهِمْ ؛

وقولُهُم إِنَّ آخِرَهَا في التائِبيْنَ ، فلو كان كذلك لم يَكُنِ التائِبونَ مَغْفوراً لهم أَجمعِين ، إِنَّما الغُفْران (ان) يَغْفِرَ لبعضِهم ؛ لِمَنْ شاءَ منهم ، لأَنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ استَثْنى خصوصاً ، ولم يَعُمَّ ، وقد عَمَّتْهَا الأَخبار عنه أَنه يَغْفِرُ للتَّائِبِيْنَ جميعاً ، ولم يَخُصّ أَحداً منهم بالمغفرةِ دون أَحدٍ ، كما خَصَّ فيما دون الشِرْكِ انه يَغْفِرُ ما دونَ ذلك لمن يشاءُ .

فإِنْ أَبوا في آياتِ الوعَيدِ إِلاَّ ظاهِرَ التِّلاوةِ ؛ أَنَّ اللهَ عزّ وجَلَّ أَخبر انه معذِّبٌ جميعَ مَنْ فَعَلَ ذلك ، وكُلُّ مَن

فعله منهم ، فهو في ظاهرِ التِّلاوة معذَّبٌ ، وأَنه إنما استَثْنى في آيةِ الاستثناءِ مَنْ يأْتي دون غيرهم (كذا) وأَنه مَنْ أَخبر أَنه معذِّبُهُ من الموحدين فالخَبَرُ فيه عَامٌّ ، ولم يُرِدْ بعضاً دون بعضٍ ، فعليهم في الظاهِرِ مثلُ ذلك إِنْ كان أَراد أَن يعذِّبَ من قال : إِنِّي أُعذِّبُهُ على العُمُوم ،ولم يُرْد بعضاً دون بَعْضٍ ،فقد قال الله جَلَّ وعَزَّ : « وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسولَهُ فإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّم»[1] وقال : « واللهُ لا يُحِبُّ الظالمين[2] » وقال : « إِنَّ الظالِمْينَ في عذابٍ مُقيم »[3] وقال : « وَمَنْ جاءَ بالسَّيِّئةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ في النَّارِ »[4] .

فكُلُّ مَنْ جاء بسيئةٍ ، أَو ظَلَم نفسَهُ بذنْبٍ صغيرٍ ، وماتَ مُصِرّاً عليه ، أَو عَصَى بذنبٍ كبيرٍ ، وتابَ منه ، فَهُوَ في النار ، لأَنه لم يَسْتَثْنِ في هذه الآي تائباً من مُصِرٍّ ، لا من كبيرة ، ولا من صغيرةٍ .

فان قالوا : إِنه لا يُريدُ التائِبينَ ، ولا المُجْتَنِبينَ للكبائِرِ ، ولا النبيِّينَ ، قيل لهم : تركْتُمْ ظاهِرَ التِّلاوةِ .

---

(١) الجن : ٢٣ .
(٢) آل عمران : ٥٧ ، ١٤٠ .
(٣) الشورى : ٤٥ .
(٤) النحل : ٩٠ .

وكذلك قلنا : نحن لم نُردْ مَنْ شاءَ أَن يغفِرَ له من أَهْلِ الكبائر والصغائرِ المُصِرِّيْنَ .

وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ « كُلَّما أُلْقِيَ فيها فوجٌ سأَلهم خزنتُهَا» [1] إلى قوله « فكذَّبْنَا وقُلنا ما نَزَّل اللهُ مِنْ شيءٍ [2] ».

وكُلُّ مَنْ دَخَلَ النَارَ ، فقد كَذَّبَ بما أَنزلَ اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ .

وقالوا : مَا أَنزلَ اللهُ على بَشَرٍ من شَيْءٍ ، فلن يَدْخُلَ النارَ أَبداً (كذا) على قول مَنْ حَمَلَ الآيةَ على ظاهِرها ، إلاَّ مَنْ قال : ما أَنزل اللهُ على بَشَرٍ مِنْ شيءٍ ، وكَذَّبَ النُذُرَ ، وأَنه لا يدخلُها أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الكبائرِ المُقِرِّيْنَ باللهِ ورسولِهِ ، فإِنْ قالوا ذلك ، ضادُّوا قولَهُمْ ، وكَذَّبوا اللهَ تعالى فِيما سِوى ذلك من الأَخْبار .

وإِنْ قالوا إِنَّما أَراد المكذِّبين خاصّةً ، قُلنا لهم : هذا أَبْيَنُ في العُموم من الآياتِ الموجِبَاتِ للموحِّدين على الذنوبِ النارَ لأَنه قال : « كلما أُلْقِيَ فيها فوجٌ » [3] فَعَمَّ كُلَّ فَوْجٍ ، يُلْقَى فيها ، وكذلك قولُهُ « لا يصلاها

---

(١) الملك : ٨ . (٢) الملك : ٩ (٣) الملك : ٨ .

إلاَّ الأَشْقَى الذي كَذَّبَ وتولَّ »[1] وقد نفى أَنْ يَصْلاها إلاَّ مَنْ كَذَّبَ وتَوَلَّ . وأَوجَبَ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ لا يدخُلُها وإِنْ أَتى بِكُلِّ ذَنْبٍ ، لأَنَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ نفى أَنْ يَصْلاَها إلاَّ من كَذَّب وتولى .

فإِنْ قالوا : إِنَّما عنى به باباً من أَبْوابِها دون غيرِهِ من الأَبْواب .

قيل لهم : فهذا على غَيْر ظاهِرِه ، كما قُلْتُم في الآياتِ الموجِبات لمن أَذْنَبَ من أَهلِ التوحيد ، وقد قال جَلَّ وعَزَّ : « مَنْ جاءَ بالحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ منها ، وهم مِنْ فَزَعٍ يومئذٍ آمِنُون »[2] وقال جَلَّ مِنْ قائل : « واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنِين »[3] وقال : (١٠٩) « إِنَّا لا نُضيعُ أَجْرَ مَنْ أَحسنَ عَمَلاً »[4] ؛

وأحسنُ الأعمالِ التوحيدُ

فإِنْ قالوا : أَراد مَن اجتَنَبَ الكبائِرَ من الموحِّدِيْنَ .

---

(١) الليل ١٥ ، ١٦ .
(٢) النمل : ٨٩ .
(٣) آل عمران ١٣٤ ، ١٤٨ ، المائدة : ٩٣ .
(٤) الكهف ٣٠ .

قيل لهم : هذا غيرُ ظاهِرِ التلاوةِ[1]... فإنَّ اللهَ تعالى يقولُ « انما يتقبَّلُ اللهُ من المتَّقين »[2].

قيل لهم : فَهَذا عليكم ، لأَنَّ كُلَّ مَن اتَّقى الشِرْكَ فقد وَقَعَ عليه اسمُ المُتَّقِيْنَ ، كما مَنْ فَجَرَ فَجْرةً فقد وَقَعَ عليه اسمُ الفاجِرِيْنَ ، فقد لَزِمَكُمُ القَولُ بأَنَّ اللهَ تعالى ، يَنْسَخُ أَخبارَهُ ، لأَنَّا نقولُ : زعمتم في دعواكم علينا أَنَّ أَخبارَ اللهِ جل وعز تَتَنَاسَخُ لأَنه يقول : « إِنَّ الظالِمِيْنَ لهم عذابٌ مُقيمٌ »[3] « إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظالِمِيْنَ »[4] فَكُلُّ مَنْ عَصَى اللهَ من النبيِّينَ ، والصِّدِّيْقِيْنَ ، وأَصحابِ الأَنبياءِ ، فقد ظَلَمَ نَفْسَهُ .

وقال موسى عليه السلام : « ربِّ إِني ظلمْتُ نفسي »[5] وقال يونُسُ عليه السلام : « إِني كُنْتُ من الظالمين »[6] . وقال آدمُ عليه السلام : « ربَّنا ظلمْنا أَنْفُسَنَا »[7] . وقال اللهُ جل وعز « مَنْ يعمَلْ سُوءاً يُجْزَ به ولاَ يجِد لَهُ مِنْ دونِ

---

(١) هنا سقط ، ربما كان : فان قالوا إن الله تعالى يقول ...

(٢) المائدة : ٢٧ . (٣) آل عمران : ١٤٠ ، ٢٥٧ . (٤) الشورى : ٤٠

(٥) النمل : ٤٤ . (٦) الأنبياء : ٨٧ . (٧) الأعراف : ٢٣ .

اللهِ وَلِيّاً ولا نَصِيرا »[1] ومَنْ عَصَى اللهَ ، فقد عمِلَ سوءاً ، لأَنَّ المعصيةَ سوءٌ كائنةً ما كانت ، فإِنْ قالوا : لم يُرِدِ النبيين ، ولا التائبينَ ، ولا من اجتنَبَ الكبائِرَ ؛

قيل لهم : فلو عَارَضَكُمْ مُعَارِضٌ فقال : إِنَّما أَرادَ بقولِهِ إِلاَّ مَنْ تاب مِنْ أَصحابِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمُ ، دون غَيْرِهِمْ ، لأَنَّ الآيَةَ عليهم أُنزلت فهي لهم خاصَةً ما كُنتم تردُّون عليه ؟ فإِنْ قالوا : أَراد كُلَّ تائبٍ . قيل لهم : يقولُ لكم كذلك أَراد كُلَّ مَنْ أَذْنَبَ ذنباً دون الشْرك ، مُصرّاً كان أَو غَيْرهُ ، **ويقال لهم** : أَرأَيتم لو قال لكم قائل : إِنَّ قولَهُ « إِن تَجْتَنِبوا كَبَائِرَ ما تُنْهَوْنَ عنه »[2] ؟ إِنما أَرادَ به مَن اجْتَنَبَهَا ، فلم يَعْمَلْها قَطُّ ؛ يُريدُ مَنْ لَمِ يَكُنْ له صَبْوَةٌ ، واحْتَجّ بِظَاهِرِ التِّلاوة عَلى الذي يَحْتَجُّونَ عليه .

فإِن قالوا : قد استَثْنى مَنْ تاب . قِيل لهم : وكذلك قد استَثْنى ما دون الشِرْكِ مِنَ الذُّنوبِ ، فقد ذهبْتُم إِلى ما خصّ دون مَا عَمَّ .

---

(١) النساء : ١٢٣ . (٢) النساء : ٣١ .

ولو قال لكم قائل : بل إنما أرادَ به مَنْ لم يرتكِبْ كَبيرةً قَطُّ ، فإن كانت منه كبيرةٌ ، ثُمَّ تاب ، ثم لَقِيَهُ بالصَغَائِرِ مُصِرّاً عليها ، غَفَرَ له ما تابَ منه من الكبائرِ ، كما قال تعالى : « وإني لغفَّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صالحاً »[1] ، وأَخَذَهُ بالصَّغائِرِ ، لأَنه إنما أراد أَن يغفِرَ الصغائِرَ اذا لم يَتُبْ منها ، ممن اجتنبَ الكَبائِرَ ، فلم يأْتِها قطُّ ، (فمن) قال بِظَاهِرِ الآيَتَيْنِ أَوجَبَ المَغْفِرَةَ لمن لَقِيَهُ مُصِرّاً عليها ، وهذا ظَاهِرُ الآيَتَيْنِ. فإنْ قالوا : أَراد منَ اجتنَبَ الكبائِرَ بالتَوْبةِ ، ومن لم يكن له صغيرةٌ ، قيل : إنَّ ظَاهِرَ الآيةِ إنما هو على الاجْتِنابِ ، وهو أَلاَّ يكونَ أَتاها قَطُّ ، فقد تركْتُمْ ظاهِرَ التِّلاوةِ ، والعُمومِ ، فإنْ كان مَنْ رجَا لمن استثنى الله جَلَّ ذِكْرُهُ مشيئةَ مغفرتِهِ ، قال بتَنَاسُخِ الأَخْبار فقد قلتم بتَنَاسُخِ الأَخبار ، وأَنتم عِبْتُم تَرْكَ ظاهِرِ التلاوة في الآياتِ الموجِبات على الكبائِرِ لأَهل التوحيد (النار) ، وتركتم ظاهِرَ الآيةِ في استثناءِ كُلِّ ما دونَ الشرْكِ من الذُنُوبِ ، فزعَمْتُمْ أَنه أَرادَ التائبينَ ممَنْ أَخطأَ مِمَنْ قال بمثلِ ما عابَ على غَيْرِهِ ، فقال :

---

(١) طه : ٨٢ .

يَغْفِرُ لبعضِهم ، فقلتم : يَغْفِر لِكُلِّهِمْ ، هو ظاهِرُ الاستِثْناءِ لِمَنْ شاءَ ، فَخَصَّ ولم يَعُمَّ فاحكُمُوا على أَنْفُسِكُمْ أنكم تقولون بتناسُخِ الأَخبار .

وقد قال بعضُ الامّةِ بغير قولِنا ، وقولِكُمْ ، قالوا : إنما أَرَادَ بالوَعيدِ على الكَبَائِرِ (المشركين) ولم يُرِدِ المؤمنين ، لأَنَّ المؤمنينَ مَغْفورٌ لهم ، لأَنه يقُول : « ومن يؤمِنْ بربِّهِ فلا يخافَ بَخْساً ولا رَهَقاً » [1] وقال عز وجل : « وبشِّرِ المؤمنينَ بأَنَّ لهم مِنَ اللهِ فَضْلاً كبيراً » [2] وقال عَزَّ وجَلَّ : « والذينِ آمنوا باللهِ ورُسُله أَولئكَ هم الصِّدِّيْقونَ والشُّهَداءُ عند رَبِّهِمْ » [3] .

فكل من أقر فقد آمن .

وقولُكُم إذا أَتَى كَبيرةً فليس بمؤمِنٍ دَعْوى منكم ، لا بُرْهَانَ لَكُمْ عليها . وقد قَالَتِ الخَوَارِجْ إنَّه إنما أَرادَ به مَنْ أَتَى كَبيرةً فهو كَافِرٌ ، فما دعواكم إلاَّ كَدَعْوَاهُمْ ، أَو تَرجعونَ جَميعاً إلى قولِ أَهْلِ الحَقِّ فتَقْطَعُونَ بما قَطَعَ اللهُ جَلَّ وعَزَّ من عذابٍ للجاحِدِين ، ومغفرةٍ للتائبين ،

(١) الجن : ١٣ . (٢) الأحزاب : ٤٧ . (٣) الحديد : ١٩ .

والوُقُوف عندَ مَنِ استَثْنَى من الموحِّدِين ، فيما دون الشِّرْكِ ، وإلاَّ كُنْتُم مُدَّعِينَ مُبْطِلِيْنَ ، ونحن نسأَلُكُم عن معنى قولكم حتى نُقَرِّرَكُمْ بأَنَّ قولَكُم خلافُ الكتابِ والسنةِ ، وإجْماع الامة ، وإجماعكم معهم .

امتناع الخوف والرجاء :

فنقولُ لكم : أَرأَيتُم يخلُو العِبادُ أَجمعونَ من أَنْ يكونَ لا ينفكُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَن يكونَ صاحِبَ كبيرةٍ ، أَو صَاحِبَ صغيرةٍ مُجْتَنِباً للكبائر ؟ فإنْ (١١٠) قالوا لا ، قلنا : فَمَنْ كان منهم صاحبَ كبيرةٍ هل يَجِبُ عليه واجبٌ أَن يعلَمَ أَنَّه إنْ ماتَ عليها ، ولم يَتُبْ ، أَنَّه في النارِ لا مَحَالَةَ؟. (فإن) قالوا كذلك يَجِبُ عليه. قيل لَهُمْ: هل يَجِبُ عليه أَن يَخَافَ اللّهَ عز وجل إنْ مات عليها أَن يعذِّبَهُ بعدَ موتِهِ ؟ (فإن) قالوا نعم. قلنا: إنما الخَوفُ على الشَّكِّ ، فأَمّا مَنْ عَلِمَ أَنه معذَّبٌ لا مَحالَةَ ، فلا مَعْنَى لخوفِهِ لأَنَّهُ مُستيقِنٌ بالعذاب لا شَكَّ فيه ، فكيف يكونُ خائفاً أَن يعذَّبَ وهو مُستيقِنٌ بالعَذَابِ إنْ مات على ذَلِكَ ؟

ولو جَازَ له ذَلِكَ لَجازَ أَنْ يقولوا : إِنَّا نَخَافُ أَن يعذِّبَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِرْعونَ وهامانَ . قالوا لا يجوزُ ذلك لأَنَّا مُستيقِنونَ بعذابِ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ .

وقيل : يجوزُ أَن يقولوا : إِنْ ماتَ الكافِرُ مُصِرّاً ، خِفْنا عليه العَذَابَ ، فإن قالوا : لا يَجُوزُ لأَنَّا مُستيقِنونَ ذلك ، قيل لهم : فَكَذَلِكَ صَاحِبُ الكبيرةِ ، لا يَجُوزُ أَن يَخَافَ اللهَ عزّ وجلّ أَن يعذِّبَهُ عليها ، فيكونُ شاكّاً في وَعيدِ اللهِ عليها فَيَكْفُر .

ويُقالُ لهم : هل يَجُوز أَن يرجُوَ أَنْ يَعْفُوَ اللهُ عنه ، وهو مُصِرٌّ عليها ولم يَتُبْ بَعْدُ ؟ فإن قالوا لا ، لأَنَّ رجاءَهُ أَن يعفُوَ اللهُ عنه ولم يَتُبْ ؛ شَكٌّ في وعيدِ الله ، وصِدْقِهِ ، وَرَجَا أَن يُخْلِفَ وعْدَهُ ، ويَكْذِبَ قولَهُ . قيل لهم : فالخَوْفُ والرجاءُ من صاحِبِ الكَبيرةِ ضَلالٌ إذن .

ويُقالُ لهم : أَرأَيتُم إِنْ كان مُجْتنِباً الكبائِرَ هل يَجُوز أَن يخافَهُ ؟ قالوا : نعم عليه أَن يخافَ الله . قيل لهم : يخافُ اللهَ أَن يعذِّبَهُ وهو وَعَدَهُ المغفرِةَ والرِضَى والمَدْخَلَ الكَريمَ (و) هو الجَنَّةُ ؟

فإن قالوا : لا يَخَافُ أَن يعذِّبَهُ اللهُ إذا لَقيهُ بالصَّغائِرِ مجتنِباً للكَبائِرِ .

قلنا فلو جَوّزْتُمْ له الخَوْفَ أَنْ يعذِّبَهُ اللهُ وقد لَقِيَهُ مُجْتنِباً للكبائِرِ لكان خوفُهُ ضَلالاً ، لأَنَّ ذلك يُوجِبُ عليه الشَّكَّ في وَعْدِ اللهِ تعالى ، ولا يأَمَنُ أَنْ يُخْلِفَ وَعْدَهُ ، ويكذب قوله . جلّ وعزّ عما يقولُ الظالمون عُلوّاً كبيراً .

ويقالُ لهم : يَجُوزُ أَنْ يرجُوَ أَنْ يُكَفِّرَ اللهُ عنه سَيئاتِهِ ، ويُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وهو مُجْتَنِبٌ للكَبائِرِ والصَّغائِرِ ، ولو اجتنب الكبائِرَ والصَغَائِرَ لكان مَغْفُوراً له فنسأَلُكُمْ (كذا) عنه ، ولو اجتنبَ الكبائِرَ ، وأَتى الصَغَائِرَ أَو كان مُجْتنِباً للذنوب كُلِّها ، هل يَجُوزُ له أَن يرجُوَ العَفْوَ والمَغْفِرَةَ من الله جَلَّ وَعَز ؟

فإنْ قالوا لا يَجِبُ ذَلِكَ عليه ، فقد زعموا أَنَّهُ لا يَنْبغي لأَحَدٍ أَن يَرْجُوَ المغفرةَ من الله ، لأَنَّ صاحِبَ الكبائِرِ عندهم مُؤْيِسٌ من رحمةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ ، وصاحِبُ الصغائر ، وَمَنْ لم يأَتِ شيئاً من الذُنُوبِ مُوقِنٌ بمغفرةٍ ، فلا ينبغي لأَحدٍ أَن يخافَ الله ، ولا يَرْجُوهُ بزعْمِهِمْ ، فإنْ قَالُوا :

لا ينبغي له أَن ييأَس من اللهِ ، قيل : إِنَّ الرجاءَ عندكم لا يكونُ إِلاَّ على الشَّكِّ ، لا على اليَقِيْنِ ، فكيف يَجُوزُ أَن يَرْجُوَ أَن يَغْفِرَ اللهُ له ، ويُدْخِلَهُ الجَنَّةَ ، وقد وَعَدَهُ ذلك ؟ لئن جازَ له ذلك ليجوزَنَّ لك أَن تَرْجُوَ اللهَ أَن يُدْخِلَ رُسُلَهُ الجَنَّةَ وأَن يُؤَاخِذَهُم بِذُنوبِ غيرِهِمْ ، ويَرْجُوَ أَن لا يعذِّبَهُمْ بِكُفْرِ غيرِهم من الكُفَّارِ ، ويَرْجُو أَن لا يعذِّبَكُمْ على الكُفْرِ به وأَنتم به مُؤْمِنونَ . ولو جاز ذلك لَجَازَ أَن يَرْجُوَ أَن يكونوا رجالاً ، وأَن يكونوا نِساءً ، وهذا كُلُّهُ غيرُ جَائِزٍ عندهم ، لأَنَّ الرجاءَ والخوفَ عندهم ، لا يكونُ إِلاَّ على الشَّكِّ ، ولا يكونُ على اليَقين ، فإِنْ قالوا : لا يجوزُ ذلك لأَنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ أَخْبَرَ أَنه مُدْخِلُ رُسُلَهُ الجَنَّةَ ، وأَنه لا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى ، وأَنه لا يُجْزَى العِبادُ إِلاَّ بما كَسَبُوا ، ولا يُعَذِّبُهُمْ بما لم يُذْنِبُوا .

قيل لهم : وكذلك المُجْتَنِبُ للكَبَائِرِ لا يَجُوزُ له أَنْ يَرْجُوَ اللهَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ له وقد وَعَدَهُ ذلك ، بل يَسْتَيْقِنُ ذلك ، والموحِّدُون لا يَخْلو أَحدٌ منهم من أَن يكونَ مُجْتَنِباً

للكبائِرِ ، أَو مُصِرّاً على بَعْضِ الكَبَائِرِ ، أَو دونَ ذلك ، أَوْ كِلاهُما ، فحرامٌ عليهم على قولِكُمُ الرجاءُ ، والخوف ، فحرامٌ على العِباد كُلِّهِمْ بزعْمِكُمْ الرجَاءُ والخوفُ لأَنَّهُ لا يَخْلُو أَحدٌ منهم من أَن يكونَ من إِحدي المنزِلَتَيْنِ . وهذا الخُروجُ من الكِتَابِ والسُّنَّةِ وإِجْماعِ الأَوّلين والآخرين !!

امتناع العفو :

وَكَذَلِكَ العَفْوُ في الآخِرَةِ لا يَجُوزُ أَنْ يكونَ مِنَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ على مَذْهَبِكُمْ لأَنه لا يَلْقَى اللهَ إلاَّ صَاحِبُ كبيرةٍ ، قد أَوجَبَ في الدنيا أَلاَّ يَعْفُوَ عنه ، وذلك عندكم كُفرٌ إن اعتقَدَهُ لأَنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ ، قد آيَسَهُ من ذلك ؛

أَو صاحِبُ صغيرة غَيْرُ مُصِرٍّ (١١١) على كَبيرةٍ ، يُعَدُّ مُجْتنِباً للكبائر كُلِّها فقد عفى (عفا) اللهُ عنه في الدُّنْيا ، وقد مات يومَ ماتَ ، وهو مَغْفُورٌ له من أَهْلِ الجنة ، فلا يحتاجُ إلى العَفْو والصَفْحِ عنه في القِيامةِ ، وقد فُعِلَ ذلك به في الدُّنْيا . وهو في الدنيا يوم مات ،

لأَنه قد لَقِيَ اللهَ عز وجل ولا ذَنْبَ له تَجِبُ عليه به العُقوبةُ في الآخرة . وإنما العَفْوُ والصَفْحُ في الآخِرَةِ عمن لَقِيَهُ ، وهو مستحِقٌّ للعُقُوبَةِ ، فَصَفَحَ عنه تفضُّلاً عليه ، وذلك عندكم كَذِبٌ منه لو فَعَلَه. فأَمَّا مَنْ لَقِيَهُ ولا ذَنْبَ له يستوجِبُ به العُقوبةَ ، فلا يَحْتاجُ إلى العَفْو ، والله عزَّ وجَلَّ لا يَلْقَاهُ في القيامةِ كافِرٌ ، ولا موحِّدٌ ، إلاَّ صاحِب كَبيرةٍ ، او مُجْتَنِبٌ لها ، والعَفْوُ في القِيامةِ عن هَذَيْنِ ساقِطٌ ، فلا عَفْوَ للهِ جَلَّ ذِكْرُهُ في الآخِرَةِ على مَذْهَبِكُمْ عن أَحَدٍ .

وهذا الخُرُوجُ من الكتابِ والسنةِ ، وإجْماعِ القرونِ من الأَوّلِيْن والآخِرين .

امتناع شفاعة النبي :

وكذلك شفاعةُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم ، لا تَجُوزُ على قولِكُمْ في الآخِرَةِ ، لأَنَّ صاحِبَ الكبيرةِ؛ اللهُ معذِّبُهُ لا مَحَالَةَ ، ولا يَسْتَحِلُّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أَن يَشْفَع فيه ، فيكونُ يطلُبُ إلى اللهِ عَزَّ وجَلَّ ان يُخْلِفَ قَوْلَهُ ، وَيكْذِبَ وَعِيدَهُ على دَعْوَاكُمْ ؛

وكذلك المجتنبُ للكبائِرِ ، يَلْقَى اللهَ وقد استوجَبَ الإجارةَ من العَذَابِ ، وقد غَفَرَ اللهُ له ، وأَخبَرَهُ أَنه مُدْخِلُهُ الجَنَّةَ وعداً عليه مؤكَّداً ، فلا يَحْتَاجُ إلى الشَّفاعَةِ ، وإنما يَحْتَاجُ إلى الشَفَاعةِ المستوجبُ للعذاب ، فمَنْ ضَمِنَ اللهُ له المَغْفِرَةَ ، وأَخبره أَنه من أَوليائِهِ ، وأَنه مُدْخِلُهُ الجَنَّةَ ، وأَنه لا يُعَذِّبُهُ ، فلا يَحْتَاجُ إلى الشفاعةِ ولو جاز أَن يَشْفَعَ في هذا ، لَجَازَ أَنْ يَشْفَعَ في إبراهيمَ عليه السَّلامُ أَلاَّ يُعَذَّبَ ، وفي موسى ويَحْيى وجميعِ رُسُلِهِ . واختصَّ محمَّداً بأَفْضَلِ الصَّلاةِ والتَّسْلِيمِ ، لأَنَّ الوَعْدَ مِنَ اللهِ عَزَّ وجَلَّ للمُجْتَنِبِ للكَبَائِرِ ، وَلِرُسُلِهِ أَكْبَر دَرَجَاتٍ في الجَنَّةِ ، وأَعظم مَنْزِلةٍ عندَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ ، قد وَعَدَهُمْ جميعاً أَلاَّ يعذِّبَهُمْ ، ويُدْخِلَهُمُ الجَنَّةَ ، وقد تَولاَّهُمْ أَجمعين ، فلا شفاعة للنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلم في القِيامةِ على قَوْلِكُمْ . وهذا رَدٌّ للآثار المستفيضةِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم . والأُمَّةِ كُلِّها جاهِلِها وعالِمِها ، كُلُّهم يَرْجُونَ شفاعةَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ولا يَجُوزُ في قَولِكُمْ ، لأَحدٍ في الدنيا (أَن) يَرْجُو شفاعةَ النبيِّ عليه السَلاَمُ ، ولا أَن يسأَلَها ، لأَنَّه إنْ كانَ صاحِبَ كبيرةٍ ،

فعليه أَن يَعْلَمَ أَنَّ النبيَّ عليه السَلاَمُ ، لا يَشْفَعُ إِلى اللهِ عز وجل فيه ، لأَن (في) ذلك طلباً ان يكْذِبَ قَوْلَهُ ، ويرجعَ عن وعيده .

وإنْ كان مُجْتَنباً للكبائرِ ، لم يَجُزْ له ذلك لأَنَّ عليه أَنْ يعْلَم أَنَّ شفاعةَ النبيِّ صَلَّى الله عليه وسَلَّم في القِيامةِ لا تَجوزُ بزعمِكُمْ ، وحرامٌ على أَحدٍ من العِبادِ ، أَن يَرْجُوَهَا ، أَو يَطْلُبَهَا إِلى الله عَزَّ وجَلَّ في قولِكُمْ .

فإِنَّما أَنتُمْ قومٌ غَلِطْتُم فجعلتُمُ الخَاصّ عاماً ، والعَامَّ خَاصّاً ، وادَّعَيْتُم على مَنْ خَالَفَكُمْ ، أَنه قد وَصَفَ الله جَلَّ وعَزَّ أَنَّ أَخباره تَتَنَاسَخُ ، وقد دخلْتُمْ في مثل ما عِبْتُم ، وَجَوَّزْتُمْ تَعْذيبَ الرُسُلِ عليهمُ السَلاَمُ والتائبينَ ، لأَنه وَعَدَ مَنْ عَصَاهُ النَّـارَ ، ولم يُسْتَثْن أَحَدٌ ، إِلاَّ أَنْ يَقولُوا إِنَّه أَخبر في آياتٍ أُخَرَ أَنَّه لا يعذِّبُ الرُسُلَ عليهم السلامُ ، ولا التَّائبين من المُذْنبِيْنَ . فيُقالُ لَكُمْ : وكذلِكَ قد أَخبر أَنه يَغْفِرُ ما دون الشِرْك لِمَنْ يَشَاءُ من المذنبين ، وقد قُلْتُمْ فيمن أَوْجَبَ الله لهم العذابَ على الظُلْمِ ، انَّه لم يُرِدِ الرُسُلَ عليهم السلامُ ، ولا التَّائِبِيْنَ

ولا أَهْلَ الصَّغَائِرِ ، وان كانت الآيةُ في ظاهِرِ تِلاوتِها عامَّةً ، فلم يَعُمَّهُمْ ، إذ أَخبر في آيات أُخَرَ أَنه لا يُعَذِّبُهُمْ .

وكذلك قولُه : « ما على المُحْسِنين مِنْ سَبيل »[1] وقولُه : « إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً »[2] فَلَزِمَكُمْ أنَّ مَنْ أَحْسَنَ مِنْ جميعِ الخَلْقِ ، ولو مثقالَ ذَرَّةٍ ، أَنَّ اللهَ يُدْخِلُهُ الجَنَّةَ ، فقلتم : إنَّ اللهَ قد أَخبر أَنه إنما يتقبَّلُ اللهُ من المُتَّقِينَ ، فقيل لكم : فَمَنِ اتَّقاهُ بِأَقَلِّ التَقْوى ، فقد دَخَلَ في العُمُوم بالقول . (فإنْ) قُلْتُم : إنَّما أَرادَ التائبينَ. قيل لكم : وكذلك إنما أَراد أَن يعذِّبَ على الكبائر مَنْ يَشاءُ ، أَو يَغْفِرُ له ، لأَنه قد أَخبر بَعْدَ خَبَرِه عن عذابِهِمْ أَنَّه يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ أَنْ يَغْفِرَ له منهم ، ولم يُعْلِمْنَا بهم ، فَمَن استَثْنَاهُ فهو لا مَحالَةَ مَغْفورٌ (١١٢) له ، وإن كان الاستِثْنَاءُ لم يَقَعْ على أَحدٍ بعينِهِ ، إلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّ بَعْضَهُمْ يُغْفَرُ لهم كما قال، فعلينا أَنْ نَقْطَعَ بما بيَّنَهُ، ونوقِفَ ما أَوقَفَهُ ، وهو عالِمٌ بِمَنْ يَشَاءُ مغفرتَهُ ، ومَنْ يَشَاءُ عَذَابَهُ .

---

(١) التوبة : ٩١ . (٢) الكهف : ٣٠ .

القسم السادس

ذكر الناسخ والمنسوخ في الاحكام

فأَوَّلُ ذلِكَ معرفةُ السُّورَ المَكِّيَّةِ والمَدَنيَّةِ ، لِيُعْرَفَ أَنَّ ما فيها مِنَ الأَمْرِ ، والأَحْكَامِ نَزَل بمكَّةَ (أَو بالمدينة [1]) فإِذا اخْتَلَفَ ، كان الذي نَزَلَ بالمدينةِ هو النَاسِخُ ، لأَنَّه الآخرُ في النُزُول .

حَدّثَنَا شُريحُ بنُ يونس [2] قال : حَدّثنا أَبو مُعاوية [3] ، عن هشامِ بنِ عُروةَ [4] ، عن أَبيه [5] قال :مَا كَانَ من حدٍّ أَو فريضةٍ أَنْزَلهَا اللهُ عَزّ وجَلَّ بالمَدِينةِ ، وما كان مِنْ ذِكْرِ الأُمَمِ والقُرُونِ أُنزِلَ بمكَّةَ .

---

(١) في الأصل : بعدما نزل بمكة .

(٢) شريح : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث ، ص ١٦.

(٣) أبو معاوية (١١٣ — ١٩٥ هـ) محمد بن خازم التميمي السعدي ، مولاهم : أبو معاوية الضرير الكوفي . روى عن خلق منهم هشام بن عروة . وكان ثقة ثبتاً ، وإن شكا المحدثون من إرجائه : تهذيب التهذيب ١٣٧/٩ .

(٤) هشام بن عروة بن الزبير (٦٠ — ١٤٥ هـ) أبو بكر. جالس ابن الزبير ، ورأى جابراً وابن عمر. من حفاظ أهل المدينة ومتقنيهم ، ومن الفقهاء السبعة ، وأهل الورع والدين : مشاهير علماء الأمصار ٨٠.

(٥) عروة بن الزبير (٢٨ — ٩٤ هـ) ابن العوام ابن خويلد . أمه أسماء بنت أبي بكر ، رضي الله عنهم . كان فقيه المدينة ، وعالمها ، ومن أفاضل التابعين ، وعباد قريش . كان يقرأ كل يوم ربع القرآن في المصحف نظراً بالتدبر والتفكر فيذهب فيه عامة يومه : مشاهير علماء الأمصار ٦٤ ، طبقات ابن خياط ٦٠٣/٢ .

قال : وحدّثَنَا شُرَيح ، قال : حدّثنا سُفيانُ عن مَعْمَرٍ ، عن قَتَادَةَ قَال : السُّوَرُ المدنيَّةُ : البَقَرَةُ ، وآلُ عِمْرَانَ ، والنِساءُ ، والمائِدةُ ، والأَنْفَالُ ، والتَوْبَةُ ، والرَعْدُ ، والحِجْرُ ، والنَحْلُ ، والنُورُ ، والأَحزَابُ ، وسورةُ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، والفَتْحُ ، والحُجُراتُ ، والحَديدُ ، والمُجَادَلةُ ، والممتحنةُ ، والصَّفُّ ، والجُمُعَةُ ، والمُنَافِقونَ ، والتَّغَابُنُ ، والنِّساءُ القُصْرَى . ويا أَيُّها النَّبيُّ لِمَ تُحِرِّمُ ، [1] ولم يَكُن [2] ، وإذا جاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْحُ ، [3] وقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، [4] وهو يَشُكُّ في أَرأَيْتَ [5] .

حَدّثَنَا عبدُ اللهِ بنُ بكر قال : حَدَّثَنَا سعيدٌ عن قَتَادَةَ قال : إنَّ الذي أُنزِلَ بالمدينةِ : البقرةُ ، وآلُ عِمْرانَ ، والنِساءُ ، والمائدةُ ، وآيةٌ مِنَ الأَعْراف « واسأَلْهُمْ عن القَرْيَةِ التي كانت حاضِرَةَ البحر » [6] والأَنْفَالُ ، وبراءَةٌ ، والرَعْدُ ، غير آيةٍ منها مكِّية « ولو أَنَّ قرآناً سُيِّرَتْ به الجِبالُ » [7] إلى آخرِ الآية . ومن إبراهيم إلى قوله :

---

(١) سورة التحريم . (٢) سورة البينة . (٣) سورة النصر .
(٤) سورة الاخلاص . (٥) سورة الماعون . والشاك قتادة .
(٦) الاعراف : ١٦٣ . (٧) الرعد : ٣١ .

« أَلَمْ تَرَ إلى الذين بَدّلوا نِعْمَةَ اللهِ كُفْراً » [1] إلى آخر الآيةِ ، والحجُّ [2] ، غير أَربعِ آياتٍ منها مكّيّة أَوّلهن « وما أَرْسَلْنَا من قَبْلِكَ من رسولٍ ولا نبيٍّ إلاَّ اذا تَمَنَّى أَلْقَى الشَيْطانُ في أُمْنِيَّتِهِ » [3] إلى عذابِ يومٍ عقيم ، والنورُ ، وعشرُ آياتٍ من العَنْكَبُوتَ ، والأَحْزابُ ، وسُورةُ مُحمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّمَ ، والفَتْحُ ، والحُجُراتُ ، والرحمنُ ، والمُجَادَلَةُ ، والحَشْرُ ، والممتحنةُ ، والصَّفُّ ، والجُمُعَةُ ، والمُنَافِقُون ، « ويا أَيُّها النَّبيُّ إذا طَلَّقْتُمُ النِساءَ » [4] ويا أَيُّها النبيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ، [5] ولم يَكُنْ الذين كَفَرُوا من أَهْلِ الكِتَابِ [6] ، وإذا زُلْزِلَت ، [7] وإذا جَاءَ نَصْرُ اللهِ ، [8] ، وبقيةُ السُّوَرِ مَكِّيٌّ [9] .

قال وحَدَّثَنَا عبد الله [10] قال : حَدّثَنَا أُسامةُ [11] عن

---

(١) ابراهيم : ٢٨ .
(٢) أي سورة الحج .
(٣) الحج : ٥٢ .
(٤) الطلاق : ١
(٥) التحريم : ١
(٦) سورة البينة
(٧) سورة الزلزلة
(٨) سورة النصر
(٩) الإتقان ١١/١ : نزلت بالمدنية سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والحديد والرحمن والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبي لم تحرم إلى رأس العشر ، وإذا زلزلت واذا جاء نصر الله ، وسائر القرآن نزل بمكة .
(١٠) هو عبد الله بن بكر .
(١١) أسامة بن زيد الليثي (٧٩ - ١٥٣ هـ) أبو زيد المدني. روى عن جماعة من التابعين. وروى عنه الائمة ، الا أنه حفظه تغير في آخر عمره . قال ابن حبان : يخطىء ، وهو مستقيم الأمر ، صحيح الكتاب : تهذيب التهذيب ٢٠٨/١ .

الأَعْمَش عن المُسَيِّبِ [1] ، عنِ عَلْقَمَةَ قال : ما كان في القرآنِ « يا أَيُّها الناسُ » فهو مكِّيٌّ ، وما كان « يا أَيُّها الذين آمنوا » ، فهو مَدَنيٌّ .

قال : ذَكَرَ سُفيانُ ، عن الأَعْمشِ ، عن ابراهيمَ ، عن عَلْقَمَةَ ، بِنَحْوه .

قال : حدثنا شُريح قال : حدَّثنا مروانُ بنُ معاوية [2] عن سلمةَ بن نبيط [3] عن الضّحَّاكِ [4] ، قال : كُلُّ آيةٍ أُنزِلَتْ : « يا أَيُّها الذين آمنوا » بالمدينة ، و « يا أَيُّها الناسُ » بِمَكَّةَ [5] .

* * *

---

(1) المسيب بن شريك : أبو سعيد التميمي الشقري الكوفي . عن الأعمش. تركه يحيى وأحمد والبخاري ومسلم والدارقطني . روى بعض المناكير : ميزان الاعتدال ٣/١١٤ .

(2) مروان بن معاوية (– ١٩٣ هـ) ابن الحارث بن أسماء بن خارجة الفزاري الكوفي ، نزيل دمشق . وثقه أكثر الأئمة : تذكرة الحفاظ ١/٢٩٥ .

(3) سلمة بن نبيط : بن شريط الأشجعي ، عن أبيه . قال البخاري : يقال اختلط بأخرة . وقال وكيع وجماعة : ثقة . وقد لحقه أبو نعيم وكان يفتخر بلقيه . روى عن جماعة بينهم الضحاك بن مزاحم : ميزان الاعتدال ٢/١٩٣ .

(4) الضحاك بن مزاحم (– ١٠٥ هـ) مختلف في سماعه عن الصحابة . وثقة الأئمة . واشتهر بالتفسير . وروى عنه البخاري في تفسير قوله تعالى : ثلاثة أيام إلا رمزاً ، وكان معلم صبيان . ابن سعد ٧/١٠١ ، مشاهير علماء الأمصار ١٩٤ ، تهذيب ٤/٤٥٣ ، المحبر ٤٧٥ .

(5) الإتقان ١/١٧ : قال ابن الحصار : اعتنى المتشاغلون بالنسخ بهذا الحديث ، واعتمدوه على ضعفه ، وقد اتفق الناس على أن النساء مدنية ، وأولها يا أيها الناس ، وعلى ان الحج مكية وفيها =

فأما الناسخ والمنسوخ في الأحكام فهُو على وُجوهٍ شَتَّى ، منها خُصوصٌ ، ومنها عُمومٌ ، حدّثنا سعيد قال : حدّثنا أَبو سُفيان ، عن مَعْمر ، عن قَتَادَةَ في قولِهِ عَزّ وجَلَّ : « نأْتِ بخيرٍ مِنْها أَو مِثْلَهَا »[1] يقول : فيها تَخْفيفٌ ، وفيها رُخْصةٌ ، وفيها أَمْرٌ ، وفيها نَهْيٌ .

قال : وحدَّثَنَا حَجّاج عن ابن جُرَيْج ، عن مُجَاهِد في قولِهِ تعالى : « ما نَنْسخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا »[2] نُثْبِتُ خَطَّها ، ونُبدِّلُ حُكْمَهَا .

فالباب الأول : ما رُفِعَ رسمُهُ من الكِتاب ، ولم يُرفَعْ حفظُهُ من القُلُوب ، فأَثْبتَ حُكْمَهُ بِسُنَّةِ نَبيِّهِ عليه السلام ، مِنْ ذلكَ آيةُ الرَجْم . قال عُمَرُ رَضِيَ اللهُ عنه : إنَّا كُنَّا نَقْرأُ : « الشيخُ والشَيْخةُ إِذا زَنَيَا فارجُمُوهُما أَلبَتَّة » .

= يا أيها الذين آمنوا ... وقال الجعبري : لمعرفة المكي والمدني طريقان سماعي وقياسي. فالسماعي : ما وصل الينا نزوله بأحدهما . والقياسي : كل سورة فيها يا أيها الناس فقط ، أوكلا ، أو أولها حرف تهج سوى الزدراوين والرعد ، وفيها قصة آدم وإبليس ؛ سوى البقرة ، فهي مكية ، وكل سورة فيها قصص الأنبياء والأمم الخالية مكية . وكل سورة فيها فريضة أوحد مدنية .

(١) سورة البقرة : ١٠٦ .

(٢) سورة البقرة : ١٠٦ .

قال : وحَدَّثَنَا مُعاوية [1] ، عن أَبي إِسحاق [2] :
عن الأَوزاعي [3] عن إِسحاق بنِ عبدِ اللّٰهِ بن أَبي طلحة [4] :
قال : سَمِعْتُ أَنَسَ بنَ مالِكٍ [5] يقول : كُنَّا نَقولُ فيما
نُسِخَ « أَنْ بَلِّغُوا إِخْوانَنَا أَنَّا قد لَقِينَا رَبَّنا فَرَضِيَ عَنَّا :
ورضِينا عنه . »

وقولُهُ : « إِنَّا أَنْزَلْنَا هذا المَالَ لإِقامِ الصَّلاَةِ ، وإِيتاءِ
الزَّكاةِ . »

---

(١) معاوية (١٢٨ – ٢١٤ هـ) ابن عمرو بن المهلب الأزدي الكوفي ، أبو عمرو البغدادي . روى عن جملة من الثقات . وعنه : البخاري وكثيرون منهم الحارث المحاسبي. وأخطأ ابن حجر فقال : الحارث بن أبي أسامة : تهذيب التهذيب ٢١٥/١٠ .

(٢) أبو إسحاق الفزاري (– ١٨٨ هـ) ابراهيم بن محمد بن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري ، أبو إسحاق الكوفي . كان مولده بواسط . سكن الشام ، ورابط في المصيصة . روى عن مالك وشعبة والثوري والأوزاعي ... والأوزاعي تبادل معه الأخذ والعطاء ، كان ثقة، ثبتاً ، حجة : مشاهير علماء الأمصار ١٨٢ ، تهذيب التهذيب ١٥١/١ .

(٣) الأوزاعي (٨٨ – ١٥٧ هـ) عبد الرحمن بن عمرو . والأوزاع : بطن من همدان ، وهو من أنفسهم . كان ثقة مأموناً صدوقاً فاضلا خيراً، كثير الحديث والعلم والفقه ، حجة . سمع من خلق من الثقات . وكان شديدا في دينه . رابط في بيروت . وتوفي فيها . وقبره مشهور يزار : طبقات ابن سعد ١٨٥/٧ ، طبقات ابن خياط ٨٠٨/٢ ، تاريخ ابن خياط ٦٦٦/٢ ، مشاهير علماء الأمصار ١٨٠ ، حلية الأولياء ١٣٥/٦ ، ميزان الاعتدال ٥٨٠/٣ ، تاريخ الإسلام ٢٢٥/٦ ، تذكرة الحفاظ ١٧٨/١ ، العلو للعلي الغفار ١٠٢، العبر ٢٢٧/١ ، البداية والنهاية ١١٥/١٠ ، تهذيب التهذيب ٢٣٨/٦ ، حسن المساعي في مناقب الأوزاعي لابن زيد الحنبلي ، الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف .

(٤) اسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة (– ١٣٢ هـ) الأنصاري . من حفاظ أهل المدينة ، ومات بها . روى عنه خلق منهم الأوزاعي : مشاهير علماء الأمصار ٦٧ .

(٥) أنس بن مالك (٨ ق . هـ – ٩٣ هـ) خادم رسول الله (ص) وأحد المكثرين في الرواية عنه : الإصابة ٧١/١ .

وفي مُصْحَفِ عائِشَةَ قَبْلَ أَن يُغَيِّرَ عُثمانُ رَضيَ الله عنهُما المَصَاحِفَ ، إلى مُصْحَف واحِدٍ « إِنَّ اللّهَ وملائكَتَه يُصَلُّون على الصَّفِّ ، (١١٣) الأَوَّل » بعد قوله « وسَلِّموا تَسْليماً » (١) .

وقال كُنَّا نَقْرأُ « لا تَرْغَبُوا عن آبائِكُمْ ؛ فإِنَّه كُفْرٌ بِكُمْ أَن تَرْغَبُوا عن آبائِكُم » . ومن ذلك ما رُوِي : « النَّبيُّ أَولى بالمؤمنينَ من أَنفُسِهِم – وهو أَبٌ لهم – وأَزواجُهُ امَّهاتُهم » وكانت فيما أُسقِط ، وفي حرف أُبَيٍّ : وهو أَبٌ لَهُمْ ، فليس ذَلِكَ في الرَّغْبةِ ، وإنما ذلك في الوِلايةِ ، ولا يكونُ في الرغبةِ إلاَّ ما كان مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ .

وقال النبيُّ عليه السلامُ « مَنْ تَرَكَ مالاً فِلوَرَثَتِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ كَلاًّ فَعَلَيَّ » .

وقوله : اللَّهُمَّ إِنَّا نستعينُكَ ، ونستهديْكَ ونَسْتَغْفِرُكَ : إلى قولِهِ « الجِدّ » (٢) ، ولو أَن لابن آدَمَ وادِيَيْنِ مِنْ مالٍ

---

(١) الاحزاب : ٥٦ .

(٢) فتح القدير ١/٣٠٦ : اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونؤمن بك ونخضع لك ونخلع ونترك من يكفرك . اللهم إياك نعبد ، ولك نصلي ونسجد ، وإليك نسعى ونحفد؛ نرجو رحمتك، ونخاف عذابك . إن عذا بك الجد ، بالكفر ملحق .

(لابْتَغَا) إليهما ثالِثاً . وكان بعد ذلِكَ هذا الكلامُ مُثْبَتاً في مُصْحَفِ أُبَيٍّ . وقوله : « حافِظُوا على الصَّلَوَاتِ والصَّلاَةِ الوُسْطى » ، صلاةِ العصر .

وفي مصحف عائشةَ رضيَ اللهُ عنها : « وجاهِدُوا في الله حَقّ جِهادِهِ » ، كما جاهَدْتُم أَوَّلَ مَرَّة . فَنُسخ ذلك كُلُّهُ وأُبْدَلَ أَحكامُهُ بالسُّنَّة .

ثَبَت الرَجْمُ بالسُّنَّة . وأَوجَبَ النبيُّ عليه السلامُ على أُمَّتِهِ ، أَلاَّ ينتفيَ أَحدٌ من والدِهِ ، فقال « من انْتَفَى من أَبيه أَو ادّعى إلى غير مواليه فعليه لَعْنَةُ الله » .

ونهى عليه السلامُ عن الحِرْص الذي يُخْرِجُ إلى طَلَبِ ما لا يَحِلُّ . وقوله « انَّا نستعينُكَ ونستغفِرُك » يقْنُتُ بها المُسْلِمونَ في صَلاَتِهِمْ . وكذلك «وجاهِدُوا في الله حَقّ جِهادِه » وأَوجَبَ على العِبَادِ أَن يَفْعَلُوهُ ، وأَن يقوموا بذلك لله جَلَّ ذِكْرُهُ ، وقد جاءَتْ بذلك أَحاديثُ عن رسولِ الله صلَّى الله عليه وَسَلَّمَ أَنَّهم شَهِدوا أَنَّ هذِهِ الآياتِ ، كانت مما أَنْزَلَهَا اللهُ عَزَّ وجَلَّ .

قال وحدَّثَنَا شُريحُ ، قال : حَدَّثَنَا يَحْيى بن أَبي

بُكير ، عن فُضَيلِ بنِ مرزوق[1] ، عن شَقيقِ بن عُقْبة[2] ، عن البراءِ بن عازِبٍ[3] قال : أُنزلَتْ هذه الآيةُ « حافظوا على الصَلَواتِ وصلاة العصر » وقرأْنَاهَا على عهدِ رسولِ اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ما شاءَ اللّهُ أَنْ نقرأَ ثم نَسَخَها ، فأَنزل اللّه : « حافِظُوا على الصلَواتِ والصلاةِ الوُسْطَى »[4] فحفظَتْهَا الأُمّةُ . فَمِنْهُم مَنْ قال : نَزَلَتْ ، ثم رُفِعَتْ ، وهي ثابِتَةٌ في السُّنَّةِ أَنها صلاةُ العَصْرِ ، ومنهم مَنْ يَقولُ : بل رُفِعَتْ ، وصلاة الوسطى غيرُها ، ثُمَّ اختلفوا أَيَّ صلاةٍ هي : إلاَّ أَنه قد رُوِيَ عن عليٍّ ، وعبدِ اللّه ، عن النبيِّ صَلَّى اللّه عليه وسَلَّم ، أَنَّها صَلاَةُ العَصْر .

وقال « وجاهِدُوا في اللّهِ حَقَّ جِهادِهِ» كما جاهدْتُم أَوَّلَ مَرَّة . فالجهادُ ثَابِتٌ ، والحُكْمُ به ثابتٌ ، والرَسْمُ من الكِتابِ مَرْفوعٌ .

---

(١) فضيل بن مرزوق : الأغر الرقاشي . الكوفي ، مولي بني عنزة . روى عن السبيعي وعطية العوفي وشقيق بن عقبة . وعنه خلق . أخرج له مسلم ، ووثقه أكثر الأئمة : تهذيب التهذيب ٢٩٨/٨ . في الأصل : ابن مروان .

(٢) شقيق بن عقبة العبدي الكوفي : روى عن البراء وقرة بن شريك. وعنه الأسود بن قيس وفضيل بن مرزوق ومسعر . له في مسلم هذا الحديث الذي رواه الحارث . وثقه أبو داود وابن حبان : تهذيب التهذيب ٣٦٣/٤ .

(٣) البراء بن عازب (١١ ق . د – ٧٢ هـ) شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) باستثناء بدر الصغرى : الإصابة ١٤٧/١ .

(٤) البقرة : ٢٣٨ .

قالَ وحَدَّثَنَا ابنُ أَبي مَرْيم [1] ، عن نافِعِ بن عُمَر [2] ، عن ابن أَبي مُلَيْكَة [3] ، عن المِسْوَرِ بنِ مَخْرَمَة [4] ، أَنَّ عمر [5] قال لعبد الرحمنِ بنِ عَوف [6] : أَلم تَجِدْ فيما أَنزلَ اللهُ أَنْ « جاهِدُوا كما جاهدْتُم أَوّلَ مرة » ؟ قال بلى ، ولكن أُسقط من القرآن.

والباب الثاني : أَن يُرْفَعَ حُكْمُهُ من الآيةِ بآيةٍ أُخرى ، ويَبْقَى رَسْمُهُ فيما أُسْقِطَ ثابتاً في كتابِ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، من ذلك قولُهُ عَزَّ وجَلَّ : « وصيةً لأَزواجِهِمْ مَتاعاً إِلى الحول غيرَ إِخْرَاج » [7] . ومنه « إِنْ يَكُنْ منكم عِشرونَ صَابِرُون » [8]

---

(1) ابن أبي مريم : نوح بن جعونة المروزي ، أبو عصمة القاضي ، المعروف بنوح الجامع ، أخذ عن أبي حنيفة ، وولي القضاء في حياته . قال الخليلي : أجمعوا على ضعفه ، وكذبه ابن معين : تهذيب التهذيب ١٠/٤٨٩ .

(2) نافع بن عمر الجمحي : الحافظ المكي . روى عن جماعة بينهم ابن أبي مليكة . وعنه يزيد بن هارون وابن المبارك والقطان. وكان إماماً ،ثبتاً ، حجة : تهذيب التهذيب ١٠/٤٠٩ .

(3) ابن أبي مليكة (– ١١٧ هـ) عبد الله بن عبيد الله ابن أبي مليكة التيمي المكي . كان قاضيا لابن الزبير ومؤذناً له. روى عن العبادلة الأربعة . وأدرك أربعين من الصحابة . وأخذ عنه خلق بينهم نافع بن عمر الجمحي ، وثقه الأئمة : تهذيب التهذيب ٥/٣٠٦ .

(4) مسور بن مخرمة (٢ – ٧٤ هـ) حج مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وحفظ جوامع أحكام الحج ، واستوطن المدينة ، وتوفي فيها : مشاهير علماء الأمصار ٢١ .

(5) عمر بن الخطاب (٤١ ق . هـ – ٢٢ هـ) أمير المؤمنين ، منشىء الدولة الإسلامية ، أحد العشرة المبشرين بالجنة : مشاهير علماء الأمصار ٥ .

(6) عبد الرحمن بن عوف (٤٧ ق . هـ – ٣٨ هـ) الصحابي الجليل . أحد العشرة : مشاهير علماء الأمصار ٨ .

(7) البقرة : ٢٤٠ . (8) الانفال: ٦٥ .

(الآية) . وقوله « فأَمسِكُوهُنَّ في البُيُوتِ » [١] . وقولُهُ : « ثَلاثَة قُرُوء» [٢] ، « وأَولاتُ الأَحمالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يضعْنَ حَمْلَهنَّ » [٣] . وقولُهُ : « إِنْ تَرَكَ خيراً الوصيّة للوالِدَيْنِ والأَقْرَبِينَ » [٤] .

وَكَذَلِكَ قوله : « فَذَرْهُم » و « اصفَحْ عنهم » و « أَعْرِضْ عنهُم » و « ما أَرسلْنَاكَ عليهم وَكِيلا » [٥] و « ما أَرسلْناك عليهِم حَفِيظاً »[٦] و « لستَ عليهم بِمُسَيطِر[٧] » ، وقولُهُ عزَّ وجَلَّ : « فإِن اعتَزَلُوكُمْ فلم يُقاتِلُوكُمْ ، وأَلقوا إِليكم السَلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكُم عليهم سبيلاً »[٨] فَنَسَخَ ذلك قَوْلَهُ تبارك وتعالى « واقتلُوهم حيث وجدْتُموهُمْ »[٩] ، « وقاتِلوا الذين لا يؤمِنون باللهِ ولا باليوم الآخر[١٠] » ، « أُذِنَ للذين يُقَاتلُون بأَنَّهُم ظُلِمُوا » [١١] .

والباب الثالث : أَن يُرْفَعَ رَسْمُهُ من الكِتابِ ، ويُرفَعَ حِفْظُهُ مِنَ القُلُوبِ وَحُكْمُهُ ، فمن ذَلِكَ ما حدّثنا اسمعيلُ

---

(١) النساء : ١٥ .
(٢) البقرة : ٢٢٨ .
(٣) الطلاق : ٤ .
(٤) البقرة : ٨٠ .
(٥) الاسراء : ٥٤ .
(٦) النساء : ٨٠ ، الشورى ٤٨ .
(٧) الغاشية : ٢٢ .
(٨) النساء : ٩٠ .
(٩) النساء : ٨٩ .
(١٠) التوبة : ٢٩.
(١١) الحج : ٣٩ .

بنُ سليمانَ بنِ داود الهاشمي [١] قال : حدّثنا ابنُ جعفر ، عن المُبَارَك [٢] ، عن عاصِم عن زرٍّ[٣] عن أَبَيٍّ قال : قال لي أُبَيٌّ : يا زرّ إنْ كانت سُورَة الأَحزابِ لَتَعْدِلُ سُورَةَ البَقَرةِ .

قال : وحدَّثَنَا حَجّاجُ بنُ حَمَّادِ بن سَلَمَةَ ، عن عليّ بن زيدٍ [٤] ، عن أَبي حَرْبٍ [٥] ، عن أَبي الأَسْوَدِ [٦] ، عن أَبي مُوسى الأَشعريِّ [٧] ، قال : أُنزِلَتْ سُورةٌ نَحْوَ بَرَاءَةَ ، ثُمَّ رُفِعَتْ ، وحُفِظَ منها : إنَّ اللهَ سيؤيِّدُ هذا الدِّينَ بقومٍ لا خَلاَقَ لَهُمْ .

---

(١) لا يعرف .

(٢) المبارك (– ١٦٤ هـ) بن فضالة القرشي ، مولى عمر بن الخطاب . من صالحي أهل البصرة وقرائهم ، وكان رديء الحفظ : مشاهير علماء الأمصار ١٥٨ .

(٣) زر بن حبيش (٣٧ ق . هـ – ٨٣ هـ) مخضرم ، لقي عمر وعلياً وابن عوف وأبياً . وكان ثقة ، كثير الحديث : ابن سعد ٧١/٧ ، تذكرة الحفاظ ٥٧/١ .

(٤) علي بن زيد بن جدعان (– ١٣١ هـ) أبو الحسن القرشي التيمي البصري . أحد علماء التابعين . روى عن أنس وأبي عثمان النهدي وسعيد بن المسيب . وعن شعبة وعبد الوارث وخلق . ضعف في آخر عمره : الميزان ١٢٧/٣ .

(٥) أبو حرب (– ١٠٨ هـ) ابن أبي الأسود الدؤلي البصري . روى عن أبيه وجماعة . وعنه قتادة والقطان وابن جريج . قال ابن عبد البر : هو بصري ثقة : تهذيب التهذيب ٦٩/١٢ .

(٦) أبو الأسود (– ٦٩ هـ) الدؤلي . ظالم بن عمرو بن سفيان . روى عن الصحابة كعمر وعلي وابن عباس وأبي موسى. هو الشيخ الأول لرجال النحو المسلمين . وثقه الأئمة : مشاهير علماء الأمصار ٩٤ .

(٧) أبو موسى الأشعري (٢١ ق . هـ – ٤٤ هـ) الصحابي الجليل ، ولي البصرة والكوفة زماناً : مشاهير علماء الأمصار ٣٧ .

حَدَّثَنَا القَاسِمُ بن سَلاَّم قال : حدّثنا عبدُ الله بنُ صالح ، (١١٤) عن ليث [١] ، عن عُقيل [٢] ، عن ابنِ شهاب [٣] ، عن أَبي أُمـامة [٤] ، أَنَّ رجُلاً كانتْ معه سورةٌ فقام يقرأُ من الليلِ فلم يَقْدِرْ عليها ، وقام آخر يقروُّها فلم يقدِرْ عليها ، فقال النبيُّ عليه السلامُ : إِنها نُسِخَتِ البَارِحَةَ .

وحدَّثَنَا شُريح [٥] قال : حدَّثنا بكَّارُ بنُ عبدِ الله

---

(١) الليث (٩٤ — ١٧٥ هـ) بن سعد الفهمي ، المصري . كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وورعاً وفضلا وعلماً ونجدة وشجاعة وسخاء . روى عن خلق منهم عقيل وهو من أقرانه : مشاهير علماء الأمصار ١٩١ .

(٢) عقيل (— ١٤٢ هـ) بن خالد الايلي القرشي الأموي : مولي آل عثمان بن عفان . من متقني أصحاب الزهري وصالحي الايليين : مشاهير علماء الأمصار ١٨٣ .

(٣) ابن شهاب (٥١ — ١٢٤ هـ) أبو بكر محمد بن مسلم بن عبد الله المدني الزهري . سمع من سعد وأنس بن مالك وخلق . كان من أحفظ أهل زمانه للسنن ، وأحسنهم لها سياقاً ، وكان فقيهاً فاضلا : طبقات ابن خياط ٦٥٢/٢ ، تاريخ ابن خياط ٥٣٢/٢ ؛ مشاهير علماء الأمصار ٦٦ ، العبر ١٥٨/١ ، تاريخ الإسلام ١٣٦/٥ ، البداية والنهاية ٢٤٠/٩ ، تهذيب التهذيب ٤٤٥/٩ .

(٤) أبو أمامة (٢٠ ق . هـ — ٨٦ هـ) صدي بن عجلان الباهلي ، الصحابي المعروف . العبر ١٠١/١

(٥) شريح (٢٩ ق . هـ — ٧٩ هـ) القاضي ابن الحارث بن قيس الكندي . ولي قضاء الكوفة من أيام عمر ، إلى أيام الحجاج . كان علماً ، ثقة ، ثبتاً ، شديدا في أمر الله ، حلو الروح : طبقات ابن سعد ٩٠/٦ — ١٠٠ .

الرَّبَذي [1] ، عن موسى بن عبيدة [2] قال : سَمِعْتُ محمَّد بن كَعْب [3] يقولُ في هذه الآيةِ : « يَمْحُو اللهُ ما يشاءُ » قال : ما أُنْسِيَ النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم والمُسْلِمُونَ بعدما قَرَؤُوهُ .

والباب الرابع : أَن يُرفَعَ رسمُهُ من الكِتاب ، ويبقى حِفْظُهُ في القُلُوب ، ويُرْفَع حُكْمُهُ ، من ذلك ما رَوَتْ عائِشَةُ أَنه كان فيما أَنزلَ اللهُ أَلاَّ يُحَرِّمَ إلاَّ عَشْر رَضَعَاتٍ ، والأُمَّةُ مُجْمِعَةٌ أَنَّ حُكْمَ العَشْرِ رضعاتٍ غيرُ لازمٍ في الكتابِ ، ولا في السُّنَّةِ ، وإنما اختلَفَ العُلماءُ في رَضْعة أَو خمسِ رضعاتٍ ، ولم يَقُلْ أَحدٌ ما فوقَ الخمسة .

قال : وحدَّثَنَا عبدُ الغفار بن داود [4] ، عن ابنِ

---

(١) بكار بن عبد الله الزبدي : عن عمه موسى بن عبيدة . لا بأس ببكار ، لكنه ضعف من أجل عمه موسى بن عبيدة : الميزان ٣٤١/١ . وفي الأصل : الزيدي .

(٢) موسى بن عبيدة (- ١٥٣ هـ) الربذي : عن نافع ومحمد بن كعب القرظي . وعنه شعبة ، وروح بن عبادة وعبيد الله وجماعة . قال يعقوب بن شيبة : صدوق. ضعيف الحديث جداً : ميزان الاعتدال ٢١٣/٣ .

(٣) محمد بن كعب (- ١٠٨ هـ) بن سليم القرظي ، من عباد أهل المدينة ، وعلمائهم بالقرآن : مشاهير علماء الأمصار ٦٥ .

(٤) عبد الغفار بن داود (١٤٠ - ٢٢٤ هـ) البكري ، أبو صالح الحراني . ولد بإفريقية ، ونشأ وتعلم بالبصرة . روى عنه ابن لهيعة والليث وحماد بن سلمة وابن عيينة وجماعته . وعنه : البخاري وأبو داود والنسائي وابن ماجه : تهذيب التهذيب ٣٦٥/٦ .

لهيعة [1] ، عن عَمْرو بنِ دينارٍ [2] « النبيُّ أَولى بالمؤمنين من أَنْفُسِهِم . وهو أَبٌ لهم » ثم قال : وكانت فيما أُسْقِط .

قال : وحدَّثَنَا سُنيد [3] قال حَدّثنا أَبو سُفيان عن مَعْمَر عن الزُّهريِّ قولُهُ تعالَى : « النَّبيُّ أَولى بالمؤمِنينَ من أَنْفُسِهِمْ ـ وهو أَبٌ لهم ـ وأَزواجُهُ أُمَّهاتُهُم »

قال وحدَّثَنَا حَجَّاجٌ عن ابن جُريج عن مُجَاهد : « النبيُّ أَولى بالمؤمنينَ من أَنفُسِهِم ـ وهو أَبٌ لهم » . فالأُمّةُ اليومَ مُجْمِعةٌ أَنَّ النبيَّ عليه السلامُ ليس بأَبٍ للمؤمنين . وقد قال اللهُ عز وجل : « ما كان محمدٌ أَبَا أَحدٍ من رجالِكم » [4] (الآية) .

والباب الخامس : أَن يُرفعَ الرسمُ ، ويُرفَعَ الحُكْمُ ،

---

(1) ابن لهيعة (٧٠ – ١٧٤ هـ) عبد الله بن لهيعة الحضرمي . أبو عبد الرحمن المصري . روى عن خلق ، وروى عنه كثيرون . ضعفه أكثر الأئمة ، لخطئه ونسيانه لا لكذبه : تهذيب التهذيب ٥/٣٧٣ .

(2) عمرو بن دينار (٤٦ – ١٢٦ هـ) الأثرم ، كنيته أبو محمد ، من متقني التابعين ، وأهل الفضل في الدين : مشاهير علماء الأمصار ٨٤ .

(3) سنيد بن داود : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث ، ص ١٦ .

(4) الأحزاب : ٤٠ .

إذا كان الحُكْمُ لِعِلَّةٍ ، فانْقَضَتْ تلك العِلَّةُ . وذلك كقولِهِ عَزَّ وجَلَّ : « وإن فاتكم شَيْءٌ مِن أَزواجِكُمْ إلى الكُفَّار فعاقَبْتُم »[1] (الآية) . فكان إذا جاءَتِ امرأَةٌ من الكُفَّار إلى المؤمنين أَعطى النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم زوجَها صَدَاقَهَا ، من الغَنَائِمِ ، وذلك قولُهُ تعالى : « وإن فاتَكُم شَيْءٌ من أَزواجِكُمْ إلى الكُفَّار فَعَاقَبْتُمْ فآتُوا الذين ذهبَتْ أَزواجُهُم مثل ما أَنفقوا »[2] فإنْ عاقَبْتُمْ يعني إنْ غنمتم ، فأَعطوا زَوْجَها مثل ما ساق إليها من الصَّدَاقِ ، وذلكم الصُّلْحُ الذي كان بين رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وكُفَّارِ مَكَّةَ .

وقال جَلَّ مِنْ قائل « اذا جاءَكم المؤمنات مُهاجِراتٍ فامتحِنُوهنَّ »[3] إلى قوله « ذلكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بينَكُمْ »[4] وهذا في الصُّلْح بين رسولِ الله صلى الله عليه وسلم وكُفَّارِ أَهْلِ مكَّةَ ، فَنُسِخَ ذلك إذ زالَ الصُلْحُ ، وفُتِحَتْ مكةُ ، فأَيَّما امرأَةٍ جاءَتْ من المُشْرِكين لم يَجِبْ أَن يُعْطُوا زَوَجَهَا شيئاً ، وكذلك الكُفَّارُ ليس واجباً في الحُكْم أَن يعطُوا

---

(١) الممتحنة : ١١ . (٢) الممتحنة : ١١ . (٣) الممتحنة : ١ . (٤) الممتحنة : ١٠ .

أَزواجَ مَنْ هرب إِليهم من المسلمين .

ومنه تَوْقيتُ اللهِ عَزَّ وجَلَّ للنبيِّ عليه السَّلامُ استغفارَهُ لبعض مَنْ كان أَظْهَرَ له الإِيمانَ ، وأَسَرَّ النِفاقَ ، ثم نَسَخَهَا اللهُ فنهاهُ عن الاستِغْفارِ لَهُمْ .

ومن ذلك أَنَّ النبيَّ عليه السلامُ حَضَّ على الصَدَقَةِ فجاءَ عبدُ الرحمن بمالٍ عَظيمٍ ، وجاءَ عَاصِمُ بنُ عديٍّ [1] بِصاعَيْنِ فاستهزأَ مُعتِّبٌ بنُ قُشَيْر ، وحَكَمُ بنُ يزيد [2] ، فقالا : أَمّا عبدُ الرحمن فما أَعطى إِلاَّ رياءً وسُمْعَةً ، واللهُ عزّ وجَلَّ عن صَاعَيْ عاصمٍ غَنِيٌّ ، فأَنزَل اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ « استغفِرْ لهم ، أَو لا تستغفِرْ لهم ، إِنْ تستغفِرْ لهم ، سَبْعينَ مَرَّةً ، فَلَنْ يغفِرَ اللهُ لَهُمْ » [3] فقال عَمُّ النَّبيِّ عليه

---

(١) عاصم بن عدي (٧٥ ق . هـ — ٤٥ هـ) العلوي العجلاني . كان سيد بني عجلان . شهد المشاهد كلها مع رسول الله (ص) عدا بدرا ، اذ ولاه النبي بعض نواحي المدينة ، وضرب له بسهمه وأجره : الإصابة ٤/٥ .

(٢) المنمق ٤٦٧ : أسماء المنافقين ... منهم : ثعلبة بن حاطب ، ومعتب بن قشير ، وهما اللذان عاهدا الله « لئن أتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين » ومعتب القائل يوم الأحزاب : يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يأمن أن يذهب لحاجته ، وهو الذي اتجه إلى كاهن عندما دعاه المسلمون للاحتكام إلى رسول الله في نزاع معه .

ولم نجد من المنافقين من أسمه الحكم بن يزيد ، بل هناك رافع بن زيد ، ويزيد بن جارية ، وبشير بن زياد . راجع ابن هشام ٢/٥٣٠ .

(٣) التوبة : ٨٠ .

السلامُ : لا تستغفِرْ قَدْ نهاكَ اللهُ ، فقال النبيُّ عليه السلامُ : يا عم أَوَلاَ أَستغفرُ إحدى وسبعينَ مرةً ؟ وكان ظاهِرُهُم ظاهِرَ الإِسلام فاطَّلع اللهُ على نِفَاقِهِمْ ، وليس احَدٌ يعلمُ ذلك بعد النبيِّ عليه السلام لأَنه وَحْيٌ من اللهِ جَلَّ ثَناؤُهُ فهكذا كَانَ ، ثُمَّ انْقَضَى حُكْمُهُ فَنُسِخَ التَخْييرُ للنَّبيِّ في أَكثر من السَبْعينَ ، إذ حُرِّمَ عليه أَنْ يستَغْفِر لهم سبعينَ مَرَّةً ، ولم يَنْهَهُ عن أَكْثَر من ذلك ثُمَّ نَهَاهُ اللهُ عزّ وجلّ بعد ذلك عن الاستِغْفار أَلبتَّة بقوله : « سَواءٌ عليهم أَستغفَرْتَ لهم ، أَمْ لم تستغفِرْ لهم لن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ » (١) وهذا لا يَجُوزُ أَن يكونَ لأَحَدٍ بعد النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم .

ومنه ما اختلفوا في الآيةِ الثانيةِ (هل هي) زيادةُ حُكْمٍ (١١٥) أَمْ ناسِخةٌ لأُولى من ذلك ما أَنزل من الهجرةِ ثم أَنزل بأَمْرِه بالقِتال عليها. فقال قومٌ نُسِخَتْ بعد الهِجْرَةِ بغَيْرِ قِتَالٍ عَرَضَ للمُهَاجِرِ ولا رُخْصَةَ له في الرُجْوع ، وكانَتْ له رُخْصَةٌ أَوّلاً .

---

(١) المنافقون : ٦ .

حدَّثنا يوسف ، عن شَيبان ، عن قَتَادَةَ . وحدَّثَنَا شُريح قال : حَدّثنا أَبو سفيان ، عن معمر ، عن النبيِّ عليه السلام قال : لما نزلت آيةُ الهِجْرة ، كتب بها المُسْلِمون من المَدِينَةِ إلى إخْوَانِهِمْ بِمكَّةَ فَخَرَجُوا ، حَتَّى إذا كانوا بِبَعْضِ الطَرِيْقِ أَدركَهُمُ المُشْرِكُونَ فردُّوْهُم ، فأَنزل اللهُ عزّ وجل « أَلم أَحَسِبَ الناسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يقولوا آمنّا وهم لا يُفْتَنُون » (١) عَشْرَ آياتٍ من أَوّلِ السُّورةِ ، فتَعَاهَدُوا فخرجوا ، فتبِعَهُمُ المُشركونَ فاقْتَتَلُوا ، فمنهم مَنْ قُتِلَ ، ومنهم مَنْ نجَا ، فنزلَتْ فيهم : « ثمّ إنَّ رَبَّكَ للذين هَاجَروا من بعدِ ما فُتنوا » (٢) إلى قولِهِ : « لَغَفُورٌ رحيم » . وقال بعضُهُم : بل يَعْني هي زيادةُ حُكْمٍ ثَانٍ لا ناسِخة .

ومنه ما أَوجَبَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ على المؤمنين أَلاَّ يُنَاجُوا الرسولَ حتى يَتَصَدَّقوا بِصَدَقَةٍ ، إذا أَرادوا أَن يُنَاجُوهُ بعدما يتصدَّقُونَ ، ثم رُفِعَ ذلك بقوله عز وجل « أَأَشفقْتُم أَنْ تُقَدِّموا بينَ يَدَي نجواكُم صدقاتٍ ، فإذْ لم تفعلوا

---

(١) العنكبوت : ٢ . (٢) النحل : ١١٠ .

وتابَ اللهُ عليكم فَأَقِيموا الصَلاَة » [1] (الآية) فَنَسَخ هذه الأَحكامَ فلم يُبْقِ لنا منها حُكْماً في كتابِهِ ـ لأَنَّ صُلْحَ النبِّي صلى الله عليه وسلم مع أَهْلِ مَكَّة قد مضى وانتهى ولا يعلمُهُ إلاَّ الله جلَّ ذِكْره [2] .

والنهيُ للاستغفار عمن أَظهرَ الإِسلامَ ، وأَسرَّ النِفاقَ ، ولم يَنْهَ عن ذَلِكَ ، إذ كُنَّا لا نَعْرِفُ ما في قلبِهِ بِوحْيٍ يَنْزِل ، فلنا أَن نستغفِرَ لِكُلِّ مَنْ أَظهر الإِسلامَ ، وَنَكِلَ سَريرتَهُ إلى الله عزّ وجَلَّ ، ولا نبيَّ بعد محمّدٍ عليه السلام ، وقد مضى النبيُّ عليه السلام ، وتابَ اللهُ على المؤمنين فيما كان أَوجَب عليهم مِنَ الصَدَقَةِ ، فَنَاجَوا الرسولَ من غير أَن يُقَدِّموا قبل مناجاتِهِم صَدَقَةً .

والباب السادس : أَنْ يفعلَ النَّبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم فِعْلاً ، أَو يأْمُرَ أُمَّتَهُ بِفِعْلٍ ليس بنصٍّ في كتابِ الله عَزَّ وجَلَّ ، فينسَخه اللهُ بِحُكْمٍ أَنزلَهُ في كتابِهِ ، فَيَثْبُتُ الحُكْمُ في الكتاب بالفَرْض ، وأَبَاحَ ما كان مُحَرَّماً (كذا) ؛

---

(١) المجادلة : ١٣ .

(٢) الفقرة الأخيرة عاد فيها المحاسي ليعلل نسخ الآية السابقة على آيات النجوى ، وهي التي تتحدث عن الهجرة .

مِنْ ذلك صَلاتُهُ إلى بيتِ المَقْدِسِ ، وإنْ كان قد قال بعضُ من مضى ، ان اللهَ افترضَ الصلاةَ أولاً إلى بيتِ المقدس بقوله « فاينما تُولُّوا فَثَمَّ وجْهُ الله »[1] لو لم تُجْمِعِ الأُمَّةُ على هذا القول ، إلاَّ أَنها مجمعةٌ أَنَّ اللهَ أَوجَبَهُ ، بما أَمرهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، وذلك لا يكونُ إلاَّ عن اللهِ عز وجلَّ وإنْ لم نَجِدْ نَصَّهُ في كتابِ الله ، فَنَسَخَ اللهُ عز وجل ذلك بقولِهِ « فولِّ وجْهَكَ شَطْرَ المسجِدِ الحرامِ وحيثُما كنتُم فولُّوا وجوهَكُمْ شَطْرَه »[2] .

ومنه استِغْفارُهُ لِعَمِّهِ فَنَسَخَ ذلك « ما كان للنبيِّ والذين آمنوا أَن يستغفِروا للمشركين »[3] (الآية) .

ومنه كلامُهُ في الصلاةِ المَفْروضةِ فروى زيدُ بن أَرقم[4] أَنَّ اللهَ عز وجل نَسَخَ ذلك بقوله : « وقُوموا لله قانِتِيْن »[5] .
وروى ابنُ مسعود ، عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّ اللهَ أَحدث مِنْ أَمْرِهِ أَلاَّ تَكَلَّموا في الصلاة ، ولم يَبيِّن أَنها بعينِها نَزَلَتْ لذلك .

---

(١) البقرة : ١١٥ . (٢) البقرة : ١٤٤ . (٣) التوبة : ١١٣ .
(٤) زيد بن أرقم (ــ ٦٥ هـ) الصحابي ، الأنصاري ، أبو عمرو : مشاهير علماء الأمصار ٤٧ .
(٥) البقرة : ١٣٨ .

ومن ذلك أَيضاً أَنه كان (محرَّماً) عليهم ، بغير نصٍّ نَجِدُهُ في الكتابِ ، إذا ناموا في ليالي رمضان أَلاَّ يأَكلوا ولا يَشْربوا ولا ينكِحوا إلى دُخولِ الليل من القَابِلَةِ ، ولهم أَن يفعلوا من ذلك ما أَحبُّوا قبل أَنْ يناموا ففعل ذلك غيرُ واحدٍ منهم ، فَرَفَع ذلك عنهم ، رحمةً بهم ، وعرَّفهم ، مع رفعِهِ إياه عنهم ، أَنَّ ما أَوجب من ذلك كان يصنعه بعضُهم . فقال عز من قائل : « أُحِلَّ لكم ليلةَ الصيامِ الرَفَثُ إلى نسائِكم »[1] إلى قوله « حَتَّى يتبيَّنَ لكُمُ الخيطُ الأَبيضُ من الخيطِ الأَسودِ من الفَجْر »[2] فَرَفَعَهُ وَنَسَخَهُ وقرَّرهم بخيانَتِهِم أَنْفُسَهُمْ ، وعفا عنهم خيانَتَهم أَنْفُسَهُمْ ، فيما كان نَهَاهُم عنه فَفَعَلُوهُ .

وكان (١١٦) يُؤْذِنُ بعضُهم بعضاً بالصلاةِ ، فَنَسَخَ ذلك برؤيا عبدِ الله بن زيدٍ الأَنصاريِّ الأَذَانَ . وأَكَّد رُؤياهُ « واذا نادَيْتُم إلى الصَّلاة »[3] .

والباب السابع : أَنْ يختلِفوا في الآيَتَيْنِ أَنَاسخةٌ إحداهُما الأُخري أَم لم تنسخها ؟ وإن أَجْمَعُوا أَن يستعمِلوا التي

(١) البقرة : ١٨٧ .   (٢) النساء : ٢٣ .   (٣) المائدة : ٥٨ .

اختَلَفُوا فيها منسوخةً أَم لا على التَجَوُّز والاحْتِياط ، لا على القَطْعِ . مِنْ ذَلِكَ قولُهُ « وأَن تَجْمَعُوا بين الأُخْتَيْنِ إلاَّ ما قد سَلفَ . إنَّ اللهَ كان غفوراً رَحيماً » (١) . ثم قال جل ثَنَاؤهُ في الآيةِ الأُخْرى : « إلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيمانُكُمْ » (٢) فقالَ عَلِيٌّ: أَحَلَّتْهَا آيةٌ وحَرَّمَتْهَا آية . وقال عُثْمَانُ نحو ذلك .

وكذلك قولُهُ عَزَّ وجَلَّ : « وإذا رأَيتَ الذين يَخُوضُونَ في آياتِنا » (٣) . إلى قوله تعالى « لعلَّهم يتقون » هذه مَكِّيةٌ ثم نزلَتْ بالمدينةِ « وقد نزّل عليكم في الكِتاب أَنْ إذا سمعتُم آياتِ اللهِ يُكْفَرُ بها ويُستهزأُ بها فلا تقعُدُوا معهم حَتَّى يَخُوضُوا في حَدِيثٍ غَيْرِهِ إنكم إذاً مثلُهُم . إنَّ اللهَ جامعُ المنافقينَ والكافِرِين في جهنَّم جميعا » (٤) .

قال وحدثنا شُريح قال : حدّثنا إسحاقُ بنُ يوسف (٥) ،

---

(١) النساء : ٢٤ .   (٢) النساء : ٢٤ .   (٣) الانعام : ٦٨ .   (٤) النساء : ١٤٠ .

(٥) إسحاق بن يوسف (١٢٠ – ١٩٥ هـ) أبو محمد الأزرق ، المخزومي بالولاء . من متقني الواسطيين : تاريخ واسط ١٥٦ .

عن سُفيان ، عن السُّدّي [1] عن سعيدِ بن جُبير [2] ، وأَبي مالك [3] « واذا رأَيتَ الذين يخوضُون في آياتِنا » [4] نسخَتْها الآيةُ في النساءِ « وقد نَزَّلَ عليكم في الكتابِ أَنْ إذا سمعتُم آياتِ الله يُكْفَرُ بها » [5] (الآية)

حَدّثَنا شُريحُ قال : حَدّثنا يَحْيَى بنُ زكريا [6] ، عن الحَجّاجِ ، عن أَصحابِ عبد الله [7] . قال : المُتْعَةُ

---

(١) السدي (— ١٢٧ هـ) اسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي ذؤيب الأعور ، السدي الكبير : كوفي ثقة : مشاهير علماء الأمصار ١١١

(٢) سعيد بن جبير (٤٥–٩٤ هـ) الكوفي المقرىء، الفقيه المفسر ، أحد الأعلام، من أثبت الناس في ابن عباس وابن عمر . خرج مع القراء على الحجاج بن يوسف سنة ٨٠ هـ . وكان يأمر بقتال الأمويين ويقول : قاتلوهم على جورهم في الحكم ، وخروجهم من الدين ، وتجبرهم على عباد الله ، وإماتتهم الصلاة ، واستذلالهم المسلمين : ابن سعد ١٧٨/٦ ، مشاهير علماء الأمصار ٨٢ ، العبر ١١٢/١.

(٣) أبو مالك (— ١٤٠ هـ) الأشجعي ، الكوفي : سعد بن طارق . روي عن أبيه وأنس وابن أبي أوفى . وعنه جماعة بينهم يحيى بن زكريا . رضيه أكثر العلماء : تهذيب التهذيب ٤٧٢/٣ .

(٤) البقرة : ٢٣٧ .

(٥) النساء : ١٤٠ .

(٦) يحيى بن زكريا (١٢١ — ١٨٤ هـ) الهمداني ، أبو سعيد ، من المتقنين : مشاهير علماء الأمصار ١٧٤ .

(٧) هو عبد الله بن مسعود . وأكبر أصحابه من التابعين : علقمة والأسود بن يزيد ، ومسروق، والربيع بن خيثم ، وأبو وائل ، وشريح القاضي ، وعبد الرحمن بن أبي ليلى . ومنهم : الحجاج بن مالك الأسلمي، فربما كان هو الراوي هنا : تهذيب التهذيب ٢٧/٦ .

منسوخةٌ ، نسخَتْها الطلاقُ ، والعِدّةُ ، والميراثُ .

وحدَّثَنا يُونسُ بنُ مُحمد [1] قال : حَدّثَنا شَيبانُ عن قَتادَة عن سعيدِ بنِ المسيِّب [2] ثم نَسَخَ هذا الحرفُ المُتْعَةَ « وان طلقتموهُنَّ من قَبْلِ أَن تمسُّوهُنَّ وقد فرضتم لهنَّ فريضةً فنصف ما فرضْتُم » [3] .

واختلفوا في قولِهِ عزَّ وجل : « وللمطلَّقات مَتَاعٌ بالمَعْروف » [4] قال بعضُهم : نُسِخَتْ بقوله : « فنصف ما فرضْتُم » وقال : إنَّ في النِصْفِ لها لَمَتَاعاً حَسَناً . وقال بعضهم : هي ثابتِةٌ لم تُنْسَخْ ، وليست بِوَاجبة ، لمَن شاءَ مَتَّع ، ومَنْ لم يَشَأْ لم يُمَتِّع ، وقد مَتَّعَ عبدُ الرحمن بنُعوف ، والحَسَنُ [5] ، وعليٌّ ، وغيرُهُمْ ، والواجبةُ التي لم يُسَمِّ لها صَدَاقاً ولم يَدْخُلْ بها .

---

(١) يونس بن محمد (- ٢٠٧ هـ) ابن مسلم البغدادي الحافظ . وثقه الأئمة : تهذيب التهذيب ٤٤٧/١١ .

(٢) سعيد بن المسيب (١٤ - ٩٣ هـ) ابن حزن المخزومي المدني الفقيه ، أحد الأعلام . قال ابن المديني : لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه . أبى أن يبايع الوليد بن عبد الملك ، فضرب بالسياط : الميزان ٥٤/١ ، مشاهير علماء الأمصار ٦٣ ، طبقات ابن خياط ٦١١/٢ تاريخ ابن خياط ٣٧٧/٢ ، ٤٠٧ ، حلية الأولياء ١٦١/٢ ، وفيات الأعيان ١١٧/٢ ، تذكرة الحفاظ ، العبر ١١٠/١ ، ابن كثير ٩٩/٩ ، تهذيب التهذيب ٨٤/٤ ، وفيات ابن الخطيب ٨٨ .

(٣) البقرة : ٢٣٧ . (٤) البقرة : ٢٤١

(٥) الحسن بن علي(٣-٥٠هـ) أميرالمؤمنين ، سبط رسول الله ، وسيد شباب أهل الجنة : العبر ٥٥/١ .

حدَّثَنَا يونُسُ بنْ محمَّدٍ قال : حدَّثنا شَيبانُ ، عن قَتَادَة عن سعيدِ بنِ المسيِّب : أَنَّ المتعةَ نسخَها قولُهُ تعالى « فنصفُ ما فرضْتُم » .

والباب الثامن : أَنْ يختلِفُوا في الآيتينِ أناسِخٌ إحداهما الأُخرى أَم لا ؟ ويُجْمِعُوا على إثْباتِ حُكْمِهما في معنيينِ مختلِفَيْن ، من ذلك قولُهُ جَلَّ وعز : « والمطلَّقاتُ يتربَّصْنَ بأَنْفُسِهنَّ ثلاثةَ قُروء »[1] قال مُجَاهد : نَسَخَ منها عِدَّةَ التي لم يُدْخَلْ بها . قال : « يا أَيها الذين آمَنُوا إذا نكحتم المؤمناتِ ثم طلقْتُموهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فما لَكُمْ عليهِنَّ من عِدَّةٍ تعتدُّونَها »[2] .

وحدَّثنا شُريح قال : حدَّثَنا هُشَيم ، قال : حَدَّثَنَا يُونُس ، عن الحَسَن قال : نَسَخَ من القُرءِ امرأَتَيْنِ « واللَّائي يَئِسْنَ من المَحيضِ من نِسائِكُمْ ... واللَّائي لم يَحِضْن »[3]

قال وحدَّثَنَا شُريح قال : حَدَّثَنَا الحَسَنُ بنُ موسى[4] ،

---

(١) البقرة : ٢٢٨ . (٢) الأحزاب : ٤٩ . (٣) الطلاق : ٤ .

(٤) الحسن بن موسى (- ٢٠٩ هـ) الأشيب ، ويكنى أبا علي . ولي قضاء حمص والموصل للرشيد . كان ثقة ، صدوقاً في الحديث : ابن سعد ٧٩/٧ .

عن وَرْقاء [١] ، عن مُجَاهِد ، ثُمَّ نَسخَ من القُرْءِ عِدَّةَ مَنْ لم يُدْخَلْ بِها .

وقال الحسن : قُرءَ امرأَتينِ ؛ اللَّائي يئسْنَ من المَحيض ، واللائي لَم يَحِضْنَ ، وأَبى ذلك أَكثرُ العلماءُ وقالوا : نحن نردُّ إلى قولِهِ بقوله «ثِلاثةَ قروءُ» اللائي لم يَحِضْنَ وقد دُخِلَ بهنَّ . وقوله « إذا نكحتُم المُؤمناتِ » وقوله : « واللاَّئي يَئِسْنَ من المَحيضِ » حُكْمَيْنِ مخصُوصَيْنِ لم يُدْخِلْهُمُ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ في الأَقْراءِ ، ولكن خَصَّ آيةَ الأَقْراءِ في ذَوَاتِ الحَيْضِ المَدْخول بهنَّ ، وخَصَّ كُلَّ آيَةٍ من الآيَتَيْنِ الآخِرَيَيْنِ كُل واحدةٍ منهما بِحُكْمٍ سِوى الأُخرى . واختَلَفُوا في هاتَيْنِ الآيَتَيْنِ الآخريين ، والامةُ مُجْمِعةٌ أَنَّ عِدَّةَ الآيسةِ من المَحيض والتي لم تحض ثلاثةُ قروءُ .

---

(١) ورقاء بن عمر بن كليب اليشكري : أبو بشر الكوفي، نزيل المدائن . وثقه أكثر العلماء: تهذيب التهذيب ١١/١١٣ .

وعن ابن أَبي ليلى [١] ، عن عطاء [٢] عن أَبي هُريرة [٣] قال : صَلَّيْنَا مع رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم فخافَتَ وجَهَرَ وخافَتْنَا فيما خافَتَ لها « وما كان ربُّك نسيّاً » [٤]

حدّثنا جريرٌ [٥] عن ليثٍ عن مُجاهِد في الدعاءِ .

قال : وقال أَبو همّام [٦] عن هِشام بن عُروةَ عن أَبيه عن عائشةَ في الدُّعاءِ ؛ حدّثَنَا عَبّادُ بنُ العَوَّام ، عن الأَشْعث [٧] عن عِكرِمة [٨] ، (١١٧) عن ابن عَبّاسٍ ، كانوا يقولُون اللَّهُمَّ اغفِرْ وارحَمْ .

---

(١) ابن أبي ليلى (— ١٤٨ هـ) أبو عبد الرحمن محمد بن عبدالرحمن ابن أبي ليلى ، يسار ، الكوفي. فقيه ، قاض . ولي قضاء الكوفة لبني أمية ، وبني العباس ، شغل بالقضاء فساء حفظه ، لذا فلا يحتج به : ميزان الاعتدال ٨٧/٣ ، وفيات الأعيان ٣١٩/٣ .

(٢) لا يمكن أن يكون المقصود بابن أبي ليلى عبد الرحمن (— ٨٣ هـ) لأن عطاء (٢٧ — ١١٧ هـ) هنا هو ابن أبي رباح : الثقة الثبت ، أحد تلامذة أبي هريرة : مشاهير ١٨١ .فلا يمكن أن يكون راوياً عنه لفارق السن الكبير بينهما ، لذلك رجحنا أنه محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى .

(٣) أبو هريرة (— ٥٨ هـ) عبد الرحمن بن صخر الدوسي ، الصحابي الجليل : تهذيب ٢٦٢/١٢ .

(٤) مريم : ٦٤ .

(٥) جرير (١٠٨ — ١٨٨ هـ) الضبي ، عالم أهل الري ، صدوق ، يحتج به في الكتب ، الا أنه تغير في آخر عمره : ميزان الاعتدال ٣٩٤/١ .

(٦) أبو همام : الوليد بن شجاع ، ترجمنا له .

(٧) أشعث بن سعيد البصري : أبو الربيع السمان . قال البخاري : ليس بمتروك وليس بالحافظ عندهم : تهذيب ٣٥١/١ .

(٨) عكرمة (— ١٠٥ هـ) أبو عبد الله عكرمة بن عبد الله المدني ، مولى ابن عباس . من كبار التابعين ، ومن أعلم الناس بالتفسير والمغازي . تكلموا فيه لأنه كان خارجي الرأي : وفيات الأعيان ٤٢٧/٢ ، تهذيب الأسماء ٣٤٠/١ .

حدَّثَنَا هُشيم ، عن أَبي بِشْر [1] عن سعيدِ بن جُبير عن ابنِ عَبّاس في قولِهِ جَلَّ وعَزَّ : « ولا تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ ولا تُخَافِتْ بها » [2] قال : كان النبيُّ صلى اللهُ عليه وسلم متوارياً بمكَّةَ إذا قرأَ القرآنَ رَفَعَ صَوتَهُ ، فإذا سَمِعَهُ المُشْرِكونَ سبوا القرآنَ وَمَنْ جاءَ به ؛ فأَنزل اللهُ عز وجلَّ « ولا تجهر بِصَلاتِكَ ولا تُخافِتْ بها » عن أَصحابِكَ ، فلا يستطيعونَ أَن يأْخُذُوا عليك .

حدثنا هُشيم قال : حَدَّثَنَا منصور [3] ، وعوف [4] ، عن الحسن : « ولا تجهر بصلاتِك ولا تُخَافِتْ بها » قال : لا تُرائِي في العلانيةِ ولا تُسِيءُ بها في السِّرِّ . والأُمَّةُ مُجْمِعةٌ أَنَّ للمصلِّي أَن يرفَعَ صوتَهُ ، وله أَنْ يُخَافِتَهُ ويُسْمِعَ أُذُنيه ، وأَجمعوا أَنه لا يجوزُ أَن يُرائيَ بِصَلاَتِهِ .

وكذلك قولُهُ عز وجل : « وآتيتُم إحداهُنَّ قِنطاراً فلا تأْخُذُوا منه شيئاً » [5] (الآية) فقال بعضُهم نَسَخَتْها

---

(١) أبو بشر : هو ورقاء بن عمر اليشكري ، وقد ترجمنا له . (٢) الاسراء : ١١٠ .

(٣) منصور بن النعمان اليشكري الربعي أبو حفص . من أهل البصرة : سكن مرو مدة ، ثم تحول إلى بخاري وسكنها ، ممن صحب أبا مجلز وعكرمة وسواهما من التابعين : مشاهير علماء الأمصار ١٩٨ .

(٤) عوف (٥٩ – ١٤٦ هـ) ابن أبي جميلة العبدي البصري : ثقة ، كثير الحديث : ابن سعد ٢١/٧

(٥) النساء : ٢٠ .

« إلاَّ أَنْ يخافا أَنْ لا يُقيما حُدُودَ الله » [1] إلى قولِهِ « فلا جُنَاحَ عليهما فيما افتَدَتْ به » [2] .

وقال بعضُهم : كلتَاهُما مُحْكَمتَانِ ليست إحْدَاهُما بِنَاسِخَةٍ للأُخْرى . تحريمُ أَخْذِ القِنْطارِ على الظُّلْمِ بغيرِ الحقِّ ، وأَخْذُه منها تَفْدِي به نَفْسَهَا لِيَخْلَعَهَا ثم تأْخُذ فهذه خُصوصٌ وهذه مخصوص .

والباب التاسع : أَنَّ أَصحابَ محمَّدٍ عليه السلامُ اختلفُوا في آيتَيْنِ هَلْ نَسَخَتْ إحداهُما الأُخرى؟ وحُكْمُهُما جميعاً ثابتَان . ثُمَّ أَجْمَعَتِ العُلماءُ بعد عَصْرِهِمْ من التَّابِعِينَ وَمَنْ بعدَهم عن سُنَّةِ النبيِّ عليه السلام أَنَّ إحدَاهُما نَسَخَتِ الأُخْرَى ، وأَنها مُبَدِّلَةٌ لبعضِ حُكْمِها ، من ذلك قولُ الله عز وجل « والذين يُتَوفُّون منكم وَيَذَرُونَ أَزْواجاً يتربَّصْنَ بأَنْفُسِهِنَّ أَربعةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً » [3] وقولُهُ : « وأُولاتُ الأَحْمالِ أَجلُهُنَّ أَن يضعْنَ حَمْلَهُنَّ » [4] . فاختلَفَ زيدٌ ، وابنُ مسعود ، وابنُ عَبَّاس ؛

(١) البقرة : ٢٢٩ .
(٢) البقرة : ٢٢٩ .
(٣) البقرة : ٢٣٤ .
(٤) الطلاق : ٤ .

فقال ابنُ مسعود : انَّ سُورةَ النِساءِ القُصْرى أُنْزِلَتْ بعدُ .

وقال عُتبة [١] : تربَّصُ آخرَ الأَجَلَيْنِ .

والأُمة مُجْمِعةٌ اليوم أَنَّ الآيةَ في الحامِلِ قد ثَبَتَ حُكْمُها ، وأَنها لا تَرَبَّصُ آخِرَ الأَجَلَيْنِ ، وذلك أَنه ثَبَتَ عن النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنَّهُ أَمر سُبيعةَ أَن تتزَّوجَ بعد وفاةِ زوجِها بأَربعينَ يوماً .

ومنه أَيضاً المملوكةُ ؛ يكونُ لها زَوْجٌ يُريد المولى أَن يَعْزِلَ عنها زوجَها وينكِحَهَا فأَجمعوا أَنَّ ذلك جائزٌ في بعضِ المماليكِ واختلفوا في بعضِهِمْ ؛ فرأَى جابر [٢] ، وأَنسٌ أَنْ بَيْعَهَا طَلاَقها ، فرأَوا أَن يَنْكِحَها المُشْتَري ، ويعزلَ زوجَها عنها ، ولا ينكِحها الأَوَّلُ الذي هو زوجُها .

ورأَى ابنُ مَسْعود أَن ينكِحَها زوجُها ، واحتجَّ بقولِهِ « والمُحْصَنَات من النِساءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْمانُكُمْ » [٣] ، وأَبي ذلك أَكابِرُ أَصحابِ محمَّد صلى الله عليه وسلم ، عمرُ ،

(١) عتبة : ابن مسعود ، أخو عبد الله بن مسعود . مات قبل أخيه عبد الله : مشاهير علماء الأمصار ٤٨
(٢) جابر (١٦ ق . هـ – ٧٨ هـ) ابن عبد الله الانصاري السلمي ، أحد المكثرين عن رسول الله (ص) : الإصابة ١/٢٢٢ .
(٣) النساء : ٢٤ .

وعُثمانُ وعليٌّ ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف ، وسعد [1] ، رَضِيَ اللهُ عنهم .

وقالوا : لا يجوزُ للمَوْلى أن يَنْكِحَ أَمتَهُ إذا كان لها زَوْجٌ ، وإن كانت ذِمِّيَّةً تحت ذِمِّيٍّ ، وأجمعوا جميعاً بعد ذلك أنَّ ذَواتَ الأزواجِ إذا سُبين يَنْكِحُهُنَّ مَنْ مَلَكَهُنَّ ، وأنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ نَسَخَ ذواتَ الأَزْواجِ من النِساءِ بقوله : « والمُحْصَنَات من النساءِ إلاَّ ما مَلَكَتْ أيمانُكُم » [2] .

قال أَبو سَعيدِ الخُدْرِيُّ ، نَزَلَتْ في سَبَايا أَوطاس [3] . والأُمةُ مُجْمِعةٌ اليومَ أَنه لا يَحِلُّ للمَوالي أَنْ ينْكِحُوا الأَزواجَ سوى السبايا ، وأَنَّه قد ثَبَتَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَنَّه خَيَّر بَريرةَ من زوجِها بعدما بِيْعَتْ وأُعْتِقَتْ بعد البَيْع ؛ لم يجعلِ البَيْعَ يُزيلُ نِكاحَ زوجِها ، ولو كان البيعُ مُزيلَ النِكاحِ فكان بيعُها طَلاَقَها لكانت حين

---

(١) سعد بن (– ٥٥ هـ) أبي وقاص : مالك بن أهيب . أسلم قديماً . من كبار الصحابة : الإصابة ١٢/٨

(٢) النساء : ٢٤ .

(٣) معجم ما استعجم ٢١٢/١ : واد في ديار هوازن ، وهناك عسكرت هوازن وثقيف ، إذ أجمعوا على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتقوا بحنين . وانهزم المشركون ، وإلى أوطاس تحيز فلهم بعد أن انهزموا ، ومنهم من تحيز إلى الطائف .

باعَها مولاها من عائشةَ رضي اللهُ عنها واشترتْها منهم وقبضَتْها كان قد زال نِكَاحُها بالبيْع ، وبانَتْ منه.

وقد كان بعضُ مَنْ مضى يرى أَنَّ آيةَ الاستئذان مَنْسوخةٌ ، والعُلَمَاءُ اليوم مُجْمِعَةٌ أَنَّها ثابتَةٌ ، إلاَّ أَنَّ بعضَهُم رأى أَنَّ دَقَّ البابِ يَجْرِي من الاستيذانِ .

وكذلك قولُهُ « لا إِكْراهَ في الدِّيْن » [١] . قال بعضُهم : ليست بِمَنْسُوخَة ، ولكنَّها ثابتةٌ في أَهْلِ الذِّمَّةِ إذا أَدَّوا الجِزْيَةَ لم يُكْرَهُوا . ورُوِيَ أَنَّ عُمَرَ قال لِغُلامٍ روميٍّ : أَسلِمْ ! فأَبى، فقال عُمَرُ « لا إِكراهَ في الدين » . وقال قومٌ : هي منسوخةٌ نسخَتْها آيةُ السيف ؛ قولُهُ عز وجل « أُذِنَ للذين يُقَاتَلون بأَنَّهم ظُلِموا ، وإِنَّ اللهَ على (١١٨) نَصْرِهِمْ لَقَدِير » [٢] وغيرهَا من الآي .

ومن ذلك قولُهُ تعالى « يا أَيُّها الذين آمنوا عليكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إذا اهتَدَيْتُم » [٣] قال بعضُهم : نَزَلَتْ في أَهْلِ الذِّمَّةِ ناسِخةً لِقِتَالِهِمْ مِنْ بين الكُفَّار . وقال بعضُهم: أُريدَ بها آخِرِ الزمان في الأَمْرِ بالمعروفِ ،

---

(١) البقرة : ٢٥٦ . (٢) الحج : ٣٩ . (٣) المائدة : ١٠٥ .

والنَهْيِ عن المنكر لأَهْلِ الاسْلامِ ؛ اذا غَلَبَتِ الأَهْواءُ ، ولم تَقْبَلِ العامةُ الأَمْرَ بالمعروفِ ، والنهيَ عن المُنْكَرِ مِنَ الأَمْر . وقال بعضُهم : لم تُنْسَخْ ، وإِنما معنى قولِهِ تعالى « عليكُمْ أَنْفُسَكُمْ » أَهلَ دينِكم يأْمُرْ بعضُكُم بعضاً ، ثم عَزَّاهم فقال « لا يضركم من ضل »(أَي لا تضركم) ضلالةُ الضَّالِّين فائتمِروا بالمَعْروفِ ، وتَنَاهوا عن المُنْكَر كما أَمرتُكُم . وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ « فتولَّ عنهم فما أَنت بِمَلُوم » [1] .

حدَّثنا شُريح ، قال حدَّثنا إسماعيلُ بنُ إِبراهيم ، عن أَيُّوب السِّخْتياني [2] ، عن مجاهد : قال : خرجَ عليٌّ معتجِراً بِبُرْدٍ مشتمِلاً فقال : لمَّا نَزَلَتْ « فتولّ عنهم فما أَنت بِمَلُوم » [3] أُحْزِنَّا ، وقُلنا أُمِرَ رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم أَن يتولَّى عنَّا حتى نَزَلَتْ « وذَكِّرْ فإِنَّ الذِكْرى تنفعُ المؤمنين » [4] وقال بعضُهُم : لم تُنْسَخْ وإِنما أُمِرَ أَن يتولَّى عن الكافِرِينَ وَيُذَكِّرَ المُؤْمنين .

---

(١) الذاريات ٥٤ .

(٢) أيوب السختياني (٦٨ – ١٣١ هـ) هو أيوب ابن أبي تيمية ، واسم أبي تميمة كيسان . كان من سادات أهل البصرة ، وعباد أتباع التابعين ، وفقهائهم . ممن اشتهر بالفضل والعلم والنسك والصلابة في السنة ، والقمع لأهل البدع : العبر ١٧٢/١ .

(٣) الذاريات : ٥٤ . (٤) الذاريات : ٥٥ .

وكذلك قولُهُ تعالى « ويستَغْفِرون لِمَنْ في الأَرْض »[1] حَدَّثَنَا سنُيد ، قال حَدَّثَنَا أَبو سفيان ، عن معمر ، عن قتادة ، « ويستغفرون لمن في الأَرض » قال : للمؤمنين . وقال أَكثرُ العلماءِ : لم يَأْذَنْ للملائكةِ أَن يستغفِروا للْكُفَّار ، وإِنَّما معناهُ لِمَنْ في الأَرْضِ خُصوصٌ يَعْني المؤمنين ، ثُمَّ بَيَّنَ في المؤمن ما أَبْهَمَهُ في قولِهِ « لِمن في الأَرض » فقال « ويستغفِرون للذين آمَنُوا » .

والباب العاشر : أَن يُجْمِعَ العُلماءُ على نَسْخِ آيةٍ ثم يختلفون في الناسِخةِ ، ماذا أَوجَبَتْ من الحُكْمِ ، فيُجْمِعوا على حُكْمٍ أَنَّها أَوجَبَتْهُ ، ونَسَخَتْ ما قبلَهُ ، ويختلِفُون في غيرِهِ أَثَبَتَ بالناسِخةِ أَم لا ؟ من ذلك قولُهُ عَزَّ وجَلَّ « والذين آمَنُوا ولم يُهاجِرُوا ما لكُم من ولايَتِهِمْ من شَيْءٍ حَتَّى يُهاجِرُوا »[2] ، وكان الأَعرابيُّ لا يَرِثُ قريبَهُ من المُهَاجِرين ، وكانوا يَتَوارَثُون بالهِجْرَةِ ، حَتَّى نَزَلَتْ « وأُولو الأَرحامِ بعضُهم أَوْلَى ببعض »[3] ، فأَجمعوا أَنَّ الآيَةَ الأُولى منسوخةٌ ، وأَنَّ الله جَلَّ ثناؤُهُ أَثبت الميراثَ

---

(1) الشورى : ٥ . (2) الانفال : ٧٢ . (3) الانفال : ٧٥ .

بالقرابةِ للمؤمنين ، لا بالهِجْرةِ ممَّن سَمّى اللهُ له الميْراثَ ، وممن لم يُسَمّ له الميراث كالخالةِ ، والعَمّةِ ، وابنةِ الأَخ ، وما أَشبه ذلك فرأَوا أَلاَّ يُرَدّ على الوارِثِ ما فَضَلَ من المال بعدما يُعْطَى ما سَمَّى الله جَلَّ ذِكْرُه ، وما خلا امرأَةَ والزوجَ إذا لم يكونوا قَرابةً . ورأَوْا إنْ لم يَتْرُكْ قَرابةً ممن سَمّى اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ، وترك قرابةً ممن لم يُسَمّ الله جل ذكره له ميراثٌ ، ورَّثُوهم على مَنَازِلِ قرابتِهِم من المَيتِ ؛

يري ذلك أَهْلُ العراق ، وأَبى ذلك مالِك وأَهلُ المدينة فَقالوا : لا يُرَدُّ على وارث ممن سَمَّى الله عَزَّ وجَلَّ ولا يُوَرَّثُ من لم يُسمِّ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ ؛ يَرِثُ الميِّتَ المسلمون ما فَضَلَ عمن سُمّي له الميراث ، وما ترك مَنْ لم يدع وارثاً له مُعيَّناً ميراثاً ، فبيتُ المال أَحقُّ به ؛ قاله زيدُ بنُ ثابت [1] ، وقالَ القولَ الأَوّلَ عدةٌ من أَصحابِ محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عليه وسلم ؛ عمرُ ، وعليٌّ ، وابنُ مسعود .

وحدَّثَنَا شُريح : قال حَدّثنا أَبُو سفيان ، عن مَعْمَر ، عن قَتَادَةَ : « والذين آمَنُوا ولم يُهاجروا » [2] قال: كان

(١) زيد بن ثابت (١١ ق . هـ - ٤٥ هـ) الصحابي . الأنصاري ، المقرىء : العبر ١/٥٣ .
(٢) الانفال : ٧٢ .

المسلمون يتوارَثون بالهجرة والذين (آخا) النبيُّ صلى الله عليه وسلم بينهم فكانوا يتوارثون بالإسلام والهِجْرَةِ ، فكان الرَجُلُ يُسْلِمُ ولا يُهَاجِرُ فلا يَرِثُ أَخَاهُ فَنَسَخَ ذلك : « وأُولوا الأَرْحام بعضُهم أَولى ببعضٍ في كِتَابِ الله من المؤمنين والمُهَاجِرِين »[1] .

والباب الحادي عشر : أَن يختلِفَ الصدْرُ الأَوّلُ منْ أَصحابِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم في الآيَتَيْنِ ، أَنسخَت إحداهُما الأُخرى أَم لم تَنْسخْها ، ثم يُجْمعُ العُلَمَاءُ بعدُ أَنَّ إحداهُما هي المُحْكَمَةُ ، فمن ذلك قولُهُ « والزانيةُ لا ينكِحُها إلاَّ زان »[2] ـ رُوي ذلك عن عائشةَ رضي الله عنها ـ ثابتةٌ لم تُنْسَخْ ، وأَنه لا يَحِلُّ ان يَنْكِحَ الزنيةَ إلاَّ زان . ورُوي عن ابن مسعود مثلُ ذلك . وقد رُوي عنه خلافُ ذلك ـ أَنَّه سُئل عن ذَلِكَ فقرأَ « وهو الذي يقبلُ التوبةَ عن عبادِهِ ويعفُو عن السيِّئات »[3] .

---

(١) الانفال : ٧٥ .

(٢) النور : ٣ .

(٣) الشورى : ٢٥ .

وحدَّثَنَا سُنَيد ، قال حَدّثنا هُشيم ، قال حَدّثنا أَبو خبَّاب[1] ، عن بكر بن خُنيس[2] ، عن أَبيه قال : أَتيتُ ابنَ مسعود ، فسأَله رجلٌ عن رَجُلٍ زَنَى بامرأَةٍ فَحُدَّا ثم تابا وأَصلحا أَيتزَّوجُها ؟ فتلا هذه الآية **(١١٩)** « وهو الذي يقبلُ التَوبةَ عن عباده ويعفُو عن السيئات ويعلمُ ما تَفْعَلُون »[3] .

وحدَّثَنا هُشيم ، قال حدّثنا مُغيرة[4] ، عن ابراهيم ،[5] عن علقمةَ[6] ، أَنه سُئل عن ذلك فَتَلاَ هذه الآيةَ إلى آخرِها . وقال قومٌ : نسخَتْها « وانكحوا الأَيامي منكم »[7] وهُنَّ من أَيامى المسلمين .

---

(١) أبو خباب : لا يعرف .

(٢) بكر بن خنيس (— ١٧٠ هـ) الكوفي العابد ، نزيل بغداد . قال ابن معين : ليس بشيء : ميزان الاعتدال ١/٣٤٤ . في الأصل : بكير بن الأخس .

(٣) الشورى : ٢٥ .

(٤) مغيرة بن مقسم : إمام ثقة . روى عن إبراهيم النخعي وأبي وائل والشعبي ومجاهد . وعنه شعبة وهشيم وابن فضيل وجرير . اتهم بالتدليس عن إبراهيم : ميزان الاعتدال ٣/١٦٥ .

(٥) إبراهيم النخعي (٤٧ — ٩٦ هـ) ابن يزيد بن الأسود . كان إماماً ، ثقة ، زاهداً . روى عن خلق ، وروى عنه خلق : طبقات ابن سعد ٦/١٨٨ .

(٦) علقمة بن قيس (٣٢ ق . هـ — ٦٢ هـ) النخعي : من أكبر تلامذة ابن مسعود . روى عن علي وسعد وعمر وعثمان وابن مسعود وجماعة . وعنه خلق أشهرهم ابراهيم : ابن سعد ٦/٥٧ .

(٧) النور : ٣٢ .

حدَّثنا سُنيد ، قال حدَّثنا ابنُ جُريج ، وأَخبرني يحيي بنُ سعيد [1] ، عن ابن المُسَيِّب مثله ، قال : إِنهن من أَيامي المسلمين . وقال ابنُ عَبّاس : لم يُردْ بهما تحريمَ التزويج ، إِنما وصفَ الزانياتِ أَنه لا ينكحوهن (كذا) يعني لا يقَع لَهُنَّ إِلاَّ زانٍ مثلُهنَّ ، وإِن كان مسلماً أَو مشرِكاً مستحلاًّ لذلك ؛ فليست بمنسوخةٍ ولكنها خُصوصٌ في الزاني أَلاَّ يتزوّجَ وهو مُحْرِم ، وفي المُشْرِك المستحِلِّ لذلك . وقال قومٌ يتزَّوجُهَا الذي زَنَا بها لأَنَّه هو الذي يُحْصِنُها ولا يتزوَّجُها غيرُهُ . وذهبَ قومٌ إِلى أَنَّها منسوخةٌ للتائبِ لا غيره .

والأُمَّةُ اليومَ مُجْمِعةٌ أَنه لا بأَسَ أَن يتزَّوجَها هو وغيرُهُ ، لأَنَّ أَولَهُ حرامٌ وآخِرَهُ حلالٌ فلا بأَسَ أَن يتزوَّج العفيفُ والزّاني الزانيةَ .

وكذلك قولُهُ « وأَشهِدوا إِذا تبايعْتُم » [2] فكان ابن

---

(١) يحيى بن سعيد (١٢٠ – ١٩٨ هـ) ابن فروخ القطان . مولى بني تميم ، كنيته أبو سعيد . كان من سادات أهل البصرة وقرائهم ، ممن مهد لأهل الحديث طرق الأخبار ، وحثهم على تتبع العلل للآثار ، وعنه تعلم رسم الحديث أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلي ابن المديني واسحاق بن ابراهيم ، وسائر أئمتنا : مشاهير علماء الأمصار ١٦١ .

(٢) البقرة : ٢٨٢ .

عُمَر ، يُشْهِدُ إذا باع وإذا اشترى ويرى أَنها ثابتةٌ لم تُنْسَخْ . وحدَّثنا شُريح ، قال حدّثنا هُشيم ، قال حدَّثنا اسماعيلُ [1] قال قُلتُ للشعبي [2] : أَرأَيتَ الذي يَشْتري من الرَجُلِ شيئاً حَتْماً عليه أَن يُشْهدَ ؟ قال: أَلَـمْ تـ ...لى قولِهِ تعالى « فإِنْ أَمِنَ بعضُكُم بعضاً » فنَسَخَ ما كان قبلَهُ .

حدَّثَنَا شُريح قال حدَّثنا ابنُ أَبي زائدة [3] ، قال حدَّثنا الحكمُ [4] ، قال « فإِنْ أَمِنَ بعضُكُم بَعْضاً » [5] . نَسَخَتْ هذه الشهودَ . والعُلماءُ اليوم مُجْمِعةٌ أَنها منسوخةٌ ، نَسَخَتْها « فإِنْ أَمِنَ بعضُكُمْ بعضاً » .

وثَبَت عند العُلماءِ : أَنَّ النبيَّ علَيه السلامُ بايَعَ رجُلاً فرساً بغير بيِّنةٍ لأَنه سأَلَ الرجلُ البَيِّنَةَ فلم تكُنْ له ،

---

(١) اسماعيل (– ١٤٦ هـ) ابن أبي خالد الأحمسي مولاهم . من تلامذة الشعبي . كان لا يروي إلا عن ثقة : تهذيب التهذيب ١/٢٩١ .

(٢) الشعبي (١٩ – ١٠٤ هـ) عامر بن شراحيل بن عبد ، أبو عمرو الكوفي ، من شعب همدان . روى عن علي وسعد وسعيد بن زيد وزيد بن ثابت وعبادة بن الصامت وأبي موسى الأشعري وأبي هريرة وجرير البجلي والنعمان بن بشير . وعنه خلق كثيرون . قال ابن المديني : ابن عباس في زمانه ، وسفيان الثوري في زمانه ، والشعبي في زمانه : ابن سعد ٦/١٧١ ، العبر ١/١٢٧ ، تذكرة الحفاظ ١/٧٩ تاريخ ابن خياط ٢/٤٧٩ ، تهذيب التهذيب ٥/٦٥ .

(٣) ابن أبي زائدة : يحيى بن زكريا ، الذي ترجمنا له : تهذيب ١٢/٢٩٥ .

(٤) الحكم (– ٢١٣ هـ) ابن محمد، أبو مروان الطبري . نزيل مكة . روى عن ابن أبي زائدة ، وروى هو عنه ، وثقه العلماء : تهذيب ٢/٤٣٨ .

(٥) البقرة : ٢٨٣ .

فجاءَ خُزيمةُ بنُ ثابت [1] يشهدُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ولم يَحْضُرْ مصدِّقاً للنبي عليه السلام . وقال بعضُهم : لم تكن واجبةً أَن يَشْهد ، وإنما هي دلالةٌ مِنَ الله عَزَّ وجَلَّ لهم على أَن يَسْتَوْثِقُوا من أَمْوالِهِم بالكتابِ والسُّنَّةِ لا على الوُجُوب . وكذلك قولُهُ عزّ وجَلَّ « يسأَلونَكَ عن الشَهْرِ الحَرَامِ [2] ، قتالٍ فيه » . فقال عطاء : هي ثابتةٌ لم تُنْسَخْ . وقال جابر : لم يكن النبيُ صلى الله عليه وسلم يغزو في الشهر الحرامِ إلاَّ أَن يُغْزَى . وحدَّثَنا شُريح ، قال حدَّثنا أَبو سُفيان ، عن معمر ، عن قتادة قال : أُمروا أَلاَّ يقاتِلُوا في الشهر الحرام ؛ فنسخَها « فاقْتُلُوا المشركين حيث وجدْتُمُوهُم [3] » ؛ « لا تُحِلُّوا شعائِرَ الله ولا الشَهْرَ الحرامَ ولا الهَدْيَ ولا القلائِدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحَرامَ » [4] ؛ فنسخَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ تحريمَ القِتالِ في الشَهْرِ الحَرامِ ، وقتالَ مَنْ أَحْرَمَ من المشركينَ ، أَو قَلَّد مُحْرِماً وهو مُشْرِكٌ ، فأَباح قِتالَ هؤلاءِ كُلِّهِم إلاَّ أَن يُسْلِمُوا ، أَو يكونوا أَهْلَ كِتابٍ فيُعطُوا الجِزيةَ .

---

(١) خزيمة بن ثابت الأنصاري : الصحابي ، ذو الشهادتين . قتل في موقعة صفين : مشاهير علماء الأمصار ٤٥ .
(٢) البقرة : ٢١٧ . (٣) التوبة : ٥ . (٤) المائدة : ٢ .

وقال سَعِيدُ بنُ المسيِّب وَسُلَيمانُ بن يسار [1] ، وغيرهما : هي منسوخةٌ نَسَخَهَا « فاقتلُوا المشركينَ حيث وجدْتُمُوهُم » [2]

والامّةُ مُجْمِعةٌ أَنَّ الغَزْوَ في الشهرِ الحرام وغيرِه حلالٌ وطاعةٌ . حدَّثنا عليُّ بنُ عاصم ، عن يمان [3] ، عن عامر [4] ، قال : لم يُنْسَخْ من المائدةِ شَيْءٌ قال : لا .

وقد أَجمَعَتِ الأُمّةُ اليومَ أَنَّ قولَهُ « لا تُحِلُّوا شعائِرَ الله ولا الشهرَ الحرام ولا الهدْيَ ولا القلائدَ ولا آمِّينَ البيتَ الحرام » [5] على نَسْخِهَا بقولِهِ : « اقتلُوا المشركين حيث وجدتموهُم » [6] .

وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ « إن تُبْدُوا ما في أَنفُسِكُم أَو تُخْفُوه يُحاسِبْكُم به اللهُ » [7] (الآية) ، فكان ابنُ عمر [8]

---

(١) سليمان بن يسار (٣٤ – ١٠٩ هـ) كان من فقهاء المدينة وعقلائهم وعبادهم . وهو مولى أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث : مشاهير علماء الأمصار ٦٤ . (٢) التوبة : ٥ .

(٣) يمان : ابن أبي اليمان . واسم أبي اليمان عامر بن عبد الله بن لحي الهوزني الحمصي . ذكر ابن حبان أبا اليمان في الثقات . والعلماء على أنه لا يعرف لهما حال : تهذيب التهذيب ٧٥/٥ .

(٤) عامر : والد يمان . (٥) المائدة : ٢ . (٦) التوبة : ٥ . (٧) البقرة : ٢٨٤ .

(٨) ابن عمر (١١ ق . هـ – ٧٣ هـ) عبد الله بن عمر بن الخطاب . لم يشهد بدراً ، وعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه ولم يره بلغ . كان من صالحي الصحابة وقرائهم وزهادهم . اعتزل الفتن وقعد في البيت عن الناس : مشاهير علماء الأمصار ١٧ .

يري أَنها ثابتةٌ بعد النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم (وبكا) من ذلك لَمّا (قرأَها) .

قال وحدَّثنا يزيد [١] ، قال سُفيانُ بن حُسين [٢] ، عن الزُّهْريِّ ، عن سَالِم [٣] ، أَنَّ أَباهُ قرأَ « وإِنْ تُبْدُوا ما في أَنْفُسِكُم أَو تُخْفُوه يُحَاسِبْكُم به اللهُ » فدمَعَتْ عيناهُ فبلغ صُنْعُهُ ابنَ عَبّاس ، فقال : يرحمُ اللهُ أَبا عبدِ الرحمن ، نسخَتْها « لا يكلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا (١٢٠) لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ » [٤] .

وحدّثَنَا سُليمانُ بنُ داود ، قال حَدّثنا إِبراهيمُ ، عن سعد [٥] ، عن ابنِ شهاب ، عمن سَمِعَ سَعيدَ بن مُرجانة [٦] يتحدَّثُ أَنه بينما هو جالِسٌ مع عبدِ الله بنِ عمر إِذ تلا عبدُ الله بنُ عمر هذه الآية « وإِنْ تُبْدُوا ما في أَنفُسِكم أَو

---

(١) يزيد بن هارون : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث ص ١٦ .

(٢) سفيان بن حسين (مات في خلافة الرشيد) أبو محمد الواسطي . روى عن اياس وابن عتيبة ، وابن سيرين وعبد الله بن عمر والزهري وغيرهم . وعنه جماعة منهم يزيد بن هارون . كان ثقة، لكنه يخطىء في الحديث : تهذيب التهذيب ١٠٧/٤ . في الأصل : ابن حصين .

(٣) سالم (– ١٠٦ هـ) ابن عبد الله بن عمر . كان زاهداً يشبه بعمر بن الخطاب : العبر ١٣٠/١ .

(٤) البقرة : ٢٨٤ .

(٥) سعد بن ابراهيم (٥٥ – ١٧٢ هـ) بن عبد الرحمن بن عوف الزهري . كان قاضي المدينة . وراوي الحديث – إبراهيم – هو ابنه . وثقه العلماء : تهذيب ٤٦٣/٣ .

(٦) سعيد بن مرجانة (– ١٢٠ هـ) لا يصح له عن صحابي سماع : مشاهير ١٤٣ .

تُخْفوه » [1] (الآية) ثم قال : والله إن أَخَذَ بهما لتهلكَنَّ ، ثُمَّ بكى حتى سمعَ نشيجَهُ ابنُ مُرجانة - فقُمْتُ حتَّى أَتيتُ ابنَ عَبّاس ، فذكرْتُ ما تلا ابنُ عُمَرَ من هذه الآية . فقال ابنُ عَبّاس : يغفِرُ اللهُ لأَبي عبدِ الرحمن لقد وَجَدَ المسلمون فيها وَجْداً حين نزلَتْ مثلَ ما وَجَدَ عبدُ الله فأَنزل اللهُ بعدها « لا يكلِّفُ الله نفساً إلاَّ وُسْعَهَا ، لها ما كسبتْ وعليها ما اكْتَسبَتْ » قال ابن عباس : فكانت هذه الوسوسةُ ما لا طاقَةَ للمسلمين به .

فصار الأَمْرُ إلى قضاءِ اللهِ عز وجل : أَنَّ النَفْسَ لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ في القَوْلِ والعَمَل .

وأَبى ذلك ابنُ عَبّاس وغيرُهُ ، وقالوا : منسوخة .

وحدَّثنا حَجّاج ، عن ابن جُريج ، عن الزُّهريِّ ، عن ابن عَبّاس : لَمَّا نزلَتْ ضَجَّ المُسلمون منها ضجَّةً . وقالوا يا رسولَ الله نتوبُ عن عملِ اليدِ والرجْلِ واللسانِ ، فكيف نتوبُ من الوسوسةِ ؟ كيف نمتنعُ منها ؟ فجاءَ جبريلُ بهذه الآية « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا » إنكم

---

(١) البقرة : ٢٨٤

لا تستطيعونَ أَن تمتنِعوا من الوَسْوَاسِ – لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ (الآية) .

وقال حدَّثَنا شُريح ، قال حَدّثَنَا هُشيم ، قال حَدّثَنَا شَيبانُ عن الشَّعبيِّ قال : لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ « وإِن تُبْدُوا ما في أَنفُسِكُم أَو تُخْفُوه » نزلت « لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ » (الآية) .

حدَّثنا مَروانُ بنُ شُجاع قال حدَّثنا خُصيف ، عن مُجَاهد ، نحوه .

وقال قومٌ من أَهلِ الآثارِ : إِنَّ هذا لا يجوزُ أَن يُنْسَخَ لأَنها خَبَرٌ والخَبَرُ لا يُنْسَخُ .

وقال سائرُ العُلماءُ : هذا وإِن كانَ خبراً فانه إِيجابُ حُكْمِ مَنْ واخَذَهُ بحديثِ النفس ، ثم رحِمَ اللهُ جَلَّ اسمُهُ خَلْقَهُ ، فرفَعَ عنهم الحُكْمَ بالمواخذةِ لأَنه حُكْمٌ والحُكْمُ يَجُوزُ نَسْخُهُ . وإِنَّما معنى « يحاسِبكم » يواخذكم به اللهُ ، ثم رُفِعَ الحُكْمُ بذلك .

والأُمَّةُ مُجْمِعَةٌ أَنَّها منسوخةٌ .

وسُئل النبيُّ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم عما يَجِدُ العبْدُ من الوسوسةِ مع ما يُظْهِرون من الكراهةِ [1] لِمَا يجدون فقال : ذَلِكَ صَريحُ الإِيمان .

وقال : تَجَاوَزَ اللهُ لأُمتي عَمّا حَدّثَتْ به نُفُوسَها .

وكذلك قولُهُ تعالى « وإِذا حَضَرَ القسمةَ أَولوا القُربى واليتامى والمساكين فارزُقُوهم منه » [2] فرأَى بعضُهُم أَنها ثابتةٌ ؛ فرأَى أَنْ يُعْطَى من الميراثِ الذين لا يَرِثُون .

وحدَّثنَا شُرَيح ، قال حدثنا هُشيم ، عن أَبي بشر ، عن سعيد بن جُبير ، في قوله (وإِذا حضَرَ القسمةَ)هذه الآيةُ (اختلف) [3] الناسُ فيها .

وحدَّثنا هُشيم قال حدَّثنا منصور ، عن قَتادةَ ، عن يَحْيى بنِ يَعْمر [4] ، قال : ثلاثُ آياتٍ مُحْكَماتٍ ضَيَّعهُنَّ كَثيرٌ من الناس ؛ منهن هذه .

---

(١) في الأصل : يظهر من الكرامة .

(٢) النساء : ٨ .

(٣) في الأصل : دون .

(٤) يحيى بن يعمر (قاضي مرو من قبل قتيبة بن مسلم) من أهل البصرة . كان من فصحاء زمانه ، مع العلم والورع : مشاهير ١٢٦ .

حدَّثنا هُشيم ، عن أَبي إِسحاق عن مُجاهد قال : محكمةٌ وليست بمنسوخةٍ .

حدَّثنا شُريح قال : حدَّثنا هشيم ، عن مغيرة [1] ، عن سَيّار [2] عن إبراهيم ، قال نسخَتْها العُشْرُ ونصفُ العُشْر .
حدَّثَنا هُشيم ، قال حدَّثنا جُبير [3] ، عن الضَّحَّاك ، والكلْبيِّ ، عن أَبي صالح [4] ، قال : هي منسوخةٌ .
وروي عن سعيد بن جُبير ، وغيرِه أَنها نَسَخَتْها آيةُ الزَّكاة .

والعلماءُ اليومَ مُجْمِعون أَن المِيراثَ لأَهلِهِ ولا يُجِبُ إِعطاؤهم إلاَّ أَنْ يكونَ الوارثُ بالغاً فيتطوَّع فيتصدَّق على أَقْرِبائِهِ . ورأَىِ بعضُهم أَنها ثابتةٌ لم تُنْسَخْ . وإِنما أُريدَ بها الزكاةُ لا التَّطوُّع .

وحدثنا شُريح ، قال حدثنا هُشيم عن حَجّاج ، عن

---

(١) مغيرة بن مقسم : ثقة مأمون . حديثه في الصحيحين : الميزان ١٦٥/٤ .

(٢) سيار : أبو حمزة الكوفي . ذكره ابن حبان في الثقات : تهذيب ٢٩٣/٤ . وفي الأصل : سيال .

(٣) لم أجد فيمن روى عنهم هشيم أحداً اسمه « جبير » ، وربما كان الاسم محرفاً عن « منصور » بن زاذان (– ١٣١ هـ) وهو أكبر أساتذة هشيم : تذكرة الحفاظ ٢٤٩/١ .

(٤) أبو صالح : مولى طلحة ، ويقال مولي أم سلمة . ذكره ابن حبان في الثقات . وروى عنه الكلبي وغيره : تهذيب ١٣٢/١٢ .

سالم المكي[1] ، عن ابن الحنفيّة[2] ، (يومَ حَصَادِهِ) قال : العُشْر ونصفُ العُشْر .

حدَّثنا شُريح ، عن ابن عُيينة [3] : عن ابن أَبي نَجِيح [4] ، عن مُجَاهِد : وعندَ ذِرايَتِهِ .

وكذلك قولُهُ عَزَّ وَجَلَّ « إنْ تَرَكَ خيراً الوصيّةُ للوالِدَيْن والأَقربِيْنَ » [5] ، فَزَعَمَ قومٌ من الصَدْرِ الأَوَّلِ أَنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ نَسَخَ الآية كُلَّها فَنَهَى عن الوصيةِ لِمَنْ يَرِث ، وأَنَّ الواجِبَ للأَقربِيْنَ الذين لا يَرِثون في الثُلُث ؛ قال ذلك طاوسُ [6] والضَّحَّاكُ .

وقال بعضِهم : هِيَ تَطَوُّعٌ إلاَّ أَنه ليس له أَنْ يُوصيَ إلاَّ في الذين لا يَرِثُون .

---

(١) سالم المكي (– ٩٦) مولى فاطمة بنت عتبة بن ربيعة ، وهو ابن خباب . أبو عبد الرحمن . مات سنة ست وتسعين : مشاهير علماء الأمصار ٧٣ .

(٢) ابن الحنفية (٢ – ٨٢ هـ) محمد بن علي بن أبي طالب : كان عالماً فاضلا . ويرى الكيسانية من الشيعة أنه لم يمت ، بل هو مقيم بجبل رضوى عنده عسل وماء : العبر ١/٩٣ .

(٣) ابن عيينة (١٠٧ – ١٩٨ هـ) سفيان ، الهلالي ، مولاهم . أصله من مكة ، ومولده بالكوفة . سمع الزهري والكبار . قال الشافعي : لولا مالك وابن عيينة لذهب علم الحجاز : العبر ١/٣٢٦ .

(٤) ابن أبي نجيح (– ١٣١ هـ) هو عبد الله بن يسار . سكن المدينة ثم مكة . كان من العلماء بالقرآن : مشاهير علماء الأمصار ١٤٥ .

(٥) البقرة : ١٨٠ .

(٦) طاوس (– ١٠١ هـ) بن كيسان الهمداني الخولاني . أمه من أبناء فارس ، أبوه من النمر بن قاسط . كنيته أبو عبد الرحمن . من فقهاء اليمن وعبادهم وخيار التابعين وزهادهم . مرض بنجد وتوفي بمكة : مشاهير علماء الأمصار ١٢٢ .

وقال قومٌ : له أَن يوصِيَ بثُلُثِهِ في الأَقْربِيْنَ فيمن شَاءَ . وقال جُلُّ الناس : لم تُنْسَخْ ، وإنما أَرادَ بها الوالدَيْنِ والأَقربِينَ الذين لا يَرِثُون مِن الكُفَّار المماليك ، ومَنْ لم يَرِثْ من القَرَابةِ .

والأمَّةُ اليومِ مُجْمِعَةٌ أَنها ليست بواجبةٍ ، وإن أَراد (١٢١) أَن يَتَطوَّعَ فله أَن يوصيَ لِمَنْ أَحبَّ .

وكذلك قَولُهُ « ومن يَقْتُلْ مؤمناً متعمِّداً » [١] فقال ابنُ عَبّاس : مُحْكَمة ، وأَنَّ قولَهُ « متعمِّداً » أُنزلت بعد (التي) في الفُرْقان بِسَنَة [٢] . وقال أَبو هريرةَ : لا يدخُلُ الجَنَّة . وقال الضَّحاك : نزل قولُهُ الأَوّل « مَنْ تاب » قبل قوله « متعمِّداً » بسبعِ سنين . وروى الحَسَنُ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم « نازلتُ ربي في قاتِلِ المؤمنين أَن يجعَلَ له توبةً فأَبى أَن يجعلَ له توبةً » [٣] .

---

(١) النساء : ٩٣ .

(٢) الآية التي في الفرقان قوله تعالى (٦٧ – ٧٠ : والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . الا « من تاب » وآمن وعمل عملا صالحاً . فأولئك يبدل الله سيئاتهم صفات ، وكان الله غفوراً رحيماً) .

(٣) القرطبي ٥/٣٣٢ : وعن الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما نازلت ربي في شيء ما نازلته في قتل المؤمن فلم يجبني .

والعُلماءُ اليوم مُجْمِعةٌ أَنها نَسَخَتْها التَوْبةُ ؛ فَمَنْ تابَ أَجمَعَتْ جميعُ الأُمّةِ موافِقُها ومُخَالِفُها (على قبول توبته) إلاَّ رَجُلٌ واحدٌ فإنه خَرَجَ عن الإجْماع [1] .

والباب الثاني عشر : أَنْ تختلِفَ الأُمّةُ في الآيِ ؛ أَوَّلِها وآخرِها في آيتَيْن هل نَسَخَتْ إحداهما الأُخرى ؟ ثُمَّ لا يُجْمِعُونَ على واحدٍ من القَولَيْنِ . من ذلك قولُه عَزَّ مِنْ قائلٍ في أَهْلِ الذِّمَّةِ « فإنْ جاؤك فاحكم بينهم أَو أَعْرِضْ عنهم » [2] ؛

(فاختلف) في ذلك العُلماءُ .

فقال قَومٌ من أَهْلِ العِراق : الآيةُ محكَمةٌ لم ينسخْها شيءٌ ، ورويَ ذلك عن عليٍّ بن أَبي طالب رضي الله عنه ، أَنه كَتَبَ إلى محمد بن أَبي بكر [3] في نصرانيةٍ زَنَتْ أَن ادفَعْهَا إلى أَهلِ دينِها ، فرأَى أَنَّ آيةَ التخْيير ثابتةٌ ، فلذلك أَمره أَن يَتْرُكَ الحُكْمَ فيها ويدفَعَها إلى أَهْلِ دينِها

---

(١) هو عبد الله بن عباس . ففي القرطبي ٥/٣٣٣ : روى البخاري عن سعيد بن جبير قال : اختلف فيها أهل الكوفة ، فرحت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال : نزلت هذه الآية (ومن يقتل مؤمناً متعمداً ...) وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء .

(٢) المائدة : ٤٢ .

(٣) محمد بن أبي بكر (١٠ - بعد صفين) أمه أسماء بنت عميس الخثعمية ، وكان يكنى أبا القاسم . قتل في ولاية علي بن أبي طالب في مصر . قتله رجال معاوية : مشاهير ١٩ .

وأَبى ذلك كَثيرٌ من العُلَماءِ ، وقالوا : ليس للمَوَالِي إذا ارتفعوا اليه إلاَّ أَنْ يحكُمَ بينَهم . وقالوا : نسخَتْها بعدَها قولُهُ « وأَن احكُمْ بينَهم بما أَنزل اللهُ ولا تتَّبِعْ أَهواءَهم »[1] قال ذلك الشعبيُّ ، ومجاهدٌ ، وعكرمةُ ، وقَتَادةُ ، وغيرهُمُ .

حدَّثَنَا شُريح قال : حدَّثنا هُشيم ، عن منصور[2] ، وغيرِهِ عن الحَكَم ، ومُجاهِد في قوله تعالى « وأَنِ احكُمْ بينهُمْ بما أَنْزَلَ اللهُ » قال : نَسَخَتْ ما كان قبلَهَا « فاحكُمْ بينهم أَو أَعرِضْ عنهم » . حدَّثنا شُريح قال : حدثنا وكيع[3] عن سفيان ، عن الساري[4] ، عن عكرمة « فإِنْ جاوكَ فاحكُمْ بينهم أَو أَعْرِضْ عنهم » نسختها « وأَنِ احكُمْ بينهم بما أَنْزَلَ الله » إليك .

واخْتَلَفوا في قوله « واذا خاطبَهُمُ الجاهلونَ قالوا سلَاما »[5] . فقال أَكثرُ العلماءِ : لم تُنْسَخْ ، وقال أَقَلُّهُمْ :

---

(١) المائدة : ٤٩ .

(٢) منصور (– ١٣١ هـ) ابن زاذان . من الصالحين المتقشفة ، ممن تفرغ للعبادة ، وتلبس جلباب الزهادة ، ورفض الناس وما هم بحذافيره : مشاهير ١٧٦ .

(٣) وكيع (١٢٩ – ١٩٦ هـ) ابن الجراح الرؤاسي ، أبو سفيان . من الحفاظ المتقنين وأهل الفضل في الدين . ممن رحل وكتب وجمع وصنف وحفظ وحدث وذاكر وبث : مشاهير علماء الأمصار ١٧٣ .

(٤) الساري : لم أجد بين شيوخ سفيان أحداً بهذا اللقب .

(٥) الفرقان : ٦٣ .

نَسَخَ منها في الكُفَّارِ قَوْلَهُ « واقتُلُوهُمْ حيثُ وجدْتُمُوهُمْ »[1] .

حَدَّثَنَا شُرَيح ، قال : حدَّثنا هُشَيم ، عن عَبّاد ، عن الحَسَن « وعبادُ الرحمنِ الذين يَمْشُونَ على الأَرْضِ هَوْناً ، وإذا خاطَبَهُمُ الجاهلون قالوا سَلاَماً »[2] .

قال : نُسِخ في براءَةَ ، وأُمِرَ بالقتال .

وأَبى ذلك العلماءُ إلاَّ أَنَّه أَثْنَى على المؤمنين بالحِلْمِ ، ولم يُرِدْ بذلك قتالَ المشركين . والامة اليوم مجمعةٌ (أَنها ليست بمنسوخة) إلاَّ الحسن فيدخل في الباب الذي أَجمعوا ؛ (لا أَنّ) آخِرَ الأُمّةِ غلِطَتْ فيه[3] .

وكذلك قولُهُ تعالى « وعلى الذين يُطيقونَهُ فدْيةٌ طَعَامُ مسكين »[4] . فقال بعضُ العلماءِ : نزلت فيمَن يُطيقُ الصِيامَ ؛ فخيَّرَهُ اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ إنْ شاءَ صَامَ ، وإِن شاءَ أَفطر ، وأَطعم مسكيناً ولم يَصُمْ ، فَنَسَخَ اللهُ جَلَّ

---

(١) النساء : ٨٩ .

(٢) الفرقان : ٦٢ .

(٣) في الأصل : وأنها ليست بمنسوخة . والامة اليوم مجمعة الا الحسن يدخل في الباب الذي أجمعوا ، آخر الأمة غلطت فيه .

(٤) البقرة ١٨٤ .

وعَزّ هذه الآيَةَ بقولِهِ « فَمَنْ شَهِدَ منكُمْ الشَهْرِ فليصُمْهُ » [1].
وقرأَ مَنْ قال ذلك بالتخفيف وهو أَكثَرُ العلماءُ فقرأَ « وعلى الذين يطيقونه » خفيفة.

حَدَّثَنَا شُريح قال : حدَّثنا بكار بنُ عبد الله الرَبَذي [2] عن موسى بن عُبيدة ، عن محمَّد بن كعب [3] « وعلى الذين يُطيقونه فديةٌ طعامُ مسكين » فنسخَتْها « فَمَنْ كان منكم مريضاً أَو على سَفَرٍ فَعدَّةٌ من أَيامٍ أُخَر » [4].

وقالت فرقةٌ : ليست بمنسوخة ، إنما أَنزلَهَا اللهُ في الشَيْخِ الكبير والحَامِلِ والمُرْضِعِ ، ومَنْ به العَطَشُ ، مِمَنْ يكونُ الصومُ عليه شديداً ، فجعل اللهُ له أَن يُطْعِم مسكيناً ؛ إلاَّ أَنهم مُجْمِعُون على اختلافِهِمْ في الشَيْخِ أَنَّ للشيخِ أَن يُفطِر ويُطْعِمَ.

(ومن) ذلك قولُهُ تعالى « خُذِ العفْو وأْمُرْ بالعُرْف» [5]،

---

(١) البقرة ١٨٥ .

(٢) في الأصل : الزيدي . وقد ترجمنا له .

(٣) محمد بن كعب (— ١٠٨ هـ) بن سليم القرظي ، أبو حمزة . من عباد أهل المدنية ، وعلمائهم بالقرآن : مشاهير علماء الأمصار ٦٥ .

(٤) البقرة ١٨٥ .

(٥) الأعراف ١٩٩ .

حدّثنا شُريح ، قال حدّثنا اسماعيلُ بن ابراهيم [1] ، عن ليثٍ عن مُجَاهد « خُذِ العَفْو » قال : خُذْ ماعفا لَكَ من أَخْلاقِهِمْ .

وكذلك قولُهُ تعالى «وفي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ معلومٌ . للسَّائل والمَحْرُوم » [2] واختلفوا فيه ؛ فقال أَكْثَرُهُم : نُسِخَ بالزكاة . وقال الكلبيَّ : كان هذا قبلَ أَن يُؤْمَرَ بالزَّكاة ، ثم نُسِخَتْ بالزكاة .

وكذلك قوله تعالى « فإِما مَنًّا بعدُ وإمّا فِدَاءَ » [3] قال بعضُهُم : نَسَخَتْها « فإمّا تثقفنَهّم في الحربِ فشرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهُمْ » [4] قاله [5] قتادة .

حدَّثَنَا سَعِيد [6] حَدَّثَنَا وكيع ، عن سُفيان ، عن جابِرٍ قال : يُمَنُّ على الأَسير (١٢٢) أَو يُفَادَى . حدثنا أَبو سفيان ، عن معمر ، حدثني رجل من أَهل الشام ممن كان يحرس عمر قال : ما رأَيت عمر قَتل الا أَسيراً

---

(١) اسماعيل بن ابراهيم (– ١٦٩ هـ) ابن عبد الرحمن المخزومي القرشي : مشاهير ١٣٠ .

(٢) المعارج ٢٥ . (٣) محمد : ٤ . (٤) الأنفال : ٥٧ . (٥) أي القول السابق .

(٦) سعيد بن عامر الضبعي (١٢٢ – ٢٠٨ هـ) أبو محمد البصري . روى عن جماعة من الثقات . وعنه خلق بينهم الحارث المحاسبي . وأخطأ ابن حجر فذكر الحارث ابن أبي أسامة . وثقه الأئمة : تهذيب التهذيب ٤/٥٠ .

واحدا . حدثنا مُبَشِّرٌ الحلبيُّ [1] ، عن أَبي بكر بنِ عبدِ الله بن أَبي مريم [2] ، قال : أُتِيَ [3] عُمَرُ بنُ عبد العزيز بِرَجُلٍ من أَهْلِ فارس فبينما هو يُحاوِرُهُ إِذ قال الأَسيرُ : أَمَّا والله لَرُبَّ رَجُلٍ من المسلمين قد قَتَلْتُهُ ، قال : فأَمر به فضُرِبَتْ عنقُهُ ، وقال : لا أَستَبْقيه على ما قال .

حدَّثَنَا مُبَشِّر ، عن صَفْوان بنِ عمرٍو [4] عن الأَزهر بن عبد الله الحرازي [5] ، أَنَّ الأَسيرَ كان معه فلم يقتُلْهُ ، وأَبو سُفيان عن مَعْمَر ، عن الحَسَن ، قال : لا يُقْتَلُ الأَسيرُ إِلاَّ في الحرب .

أَبو سُفْيان عن مَعْمَر عن قتادة « فامّا مَنَّاً بَعْدُ » قال نَسَخَتْها « فإِمّا تَثْقَفَنَّهُمْ في الحَرْبِ فَشَرِّدْ بهم مَنْ خَلْفَهمْ »

---

(١) مبشر الحلبي (– ٢٠٠ هـ) ابن اسماعيل ، أبو اسماعيل الكلبي مولاهم. روى عن جماعة من الشاميين ، وعنه جماعة من البغداديين ، وكان ثقة ، مأموناً : طبقات ابن سعد ١٧٣/٧ .

(٢) أبو بكر بن عبد الله بن أبي مريم : الغساني . كان كثير الحديث ، ضعيفاً ، وقد رويت عنه رواية كثيرة ، وكان عابداً : ابن سعد ١٧٠/٧ .

(٣) في الأصل : أوتي .

(٤) صفوان بن عمرو (– ١٥٥ هـ) بن هرم السكسكي الحضرمي ، أبو عمرو ، من صالحي أهل الشام وخيارهم ومتقني أتباع التابعين وأبرارهم . يقال انه أدرك أبا أمامة الباهلي ، وفي ذلك نظر : مشاهير علماء الأمصار ١٧٩ .

(٥) الأزهر بن عبد الله الحرازي : الحمصي . روى عن بعض الصحابة . وهو ثقة إلا أنه سيء المذهب : تهذيب ٢٠٤/١ . وفي الأصل : الأزهر بن مالك بن عبد الله الختعي ؟

وكَرِهَ قَتْلَه الحَسَن وعطاء وغيرُهُ قال : إنْ شاءَ الإمام مَنَّ ، وإن شاءَ فادى .

وقال ابن عَبّاس : هو مخيَّرٌ إنْ شاءَ قَتَلَ ، وإن شاءَ فادى ، وإن شاءَ مَنَّ .

وكذلك القولُ ؛ لأَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم قد قَتَل ومَنَّ وفادى .

وكذلك قولُهُ تعالى « ولا تجَادِلُوا أَهْلَ الكِتاب إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ »[1] . حدَّثنا شريح ، قال : حَدَّثنا أَبو سُفيان ، عن معمر ، عن قتادة ، « ولا تُجادِلُوا أَهْلَ الكِتابِ إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ » قال نَسَخَتْها « فاقتُلُوا المشركين» ولا مُجَادَلَةَ أَشدّ من السَيْف .

حدَّثنا يحيى بنُ بُكير ، عن سالِم عن سَعيد — أَو مجاهد « ولا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكِتاب إلاَّ بالتي هي أَحْسَنُ إلاَّ الذين ظَلَموا منهم »[2] أَهْل الحربِ ، فجادِلُوهُمْ بالسَيْف[3] .

---

(١) العنكبوت : ٤٦ .   (٢) العنكبوت : ٤٦ .

(٣) الطبري ٢١/٢ — ٣ : ا — حدثني علي بن سهل قال ثنا يزيد عن سفيان عن خصيف عن مجاهد في قوله : ولا تجادلوا ... قال : من قاتل ولم يعط الجزية .

الباب الثالث عشر : الناسخُ والمنسوخُ الذي أَجمَعَتْ عليه الأُمةُ أَنه ناسخٌ فَمنْسوخٌ لا يَخْتَلِفُونَ في ذلك . وهو مُثْبَتٌ (في) الكتابِ ؛ (من) ذلك ما نُسِخَ حكمه كقولِهِ عزَّ وجَلَّ « وأَعرِضْ عن الجاهِلِين »[1] ، «واصفحِ الصَفْحَ الجميل »[2] ، « فاصفَحْ عنهم وقُلْ سَلامٌ »[3] « وامهِلْهُم رُويداً »[4] « وذرِ الذَين اتَّخذوا دينَهُم هُزُواً وَلَعِباً »[5] ، « فَذَرْهُم في غَمْرتِهِمْ حَتَّى حين »[6] « قُلْ للذِين آمَنُوا يَغْفِروا للذين لا يَرْجُون أَيَّامَ الله »[7] « وما أَرْسلْناكَ عليهِم حَفِيظاً »[9] ، « وما أَنتَ عليهِمْ بِوَكيلْ »[8] « فاعرضْ عنهم وانْتظِرْ »[10] وما أَشبهَ ذلك نَسَخَهُ اللهُ بقولِهِ « أُذِنَ للذين يُقَاتَلُون بأَنَّهم ظُلِموا ، وإِنَّ اللهَ على نَصْرِهم لَقَديرٌ »[11] .

ب – حدثنا ابن وكيع قال ثنا يحيى بن آدم عن شريك عن سالم عن سعيد : ولا تجادلوا أهل الكتاب ... قال : أهل الحرب من لا عهد له ، جـادله بالسيف ... وأولى هـذه الأقوال بالصواب قول من قال : عنى بقوله : الا الذين ظلموا منهم . الا الذين امتنعوا عن أداء الجزية ، ونصبوا دونها الحرب .

(١) الأعراف : ١٩٩ . (٢) الحجر : ٨٦ . (٣) الزخرف : ٨٩ .
(٤) الطارق : ١٧ . (٥) المائدة ٥٧ . (٦) المؤمنون : ٥٤ .
(٧) الجاثية ١٤ . (٨) النساء ٨٠ . (٩) الانعام ١٠٧ ، الشورى ٦ ، الزمر ٤١ .
(١٠) السجدة ٣٠ . (١١) الحج ٣٩ .

ومن ذلك قولُهُ « لا ينْهاكُمُ اللهُ عن الذين لم يُقاتِلوكُمْ في الدِّيْنِ » [1] وقولُهُ « فإِن اعتزلُوكُم فلم يُقاتِلُوكُم ، وأَلقوا إِليكم السَلَم فما جَعَلَ اللهُ لَكُمْ عليهِم سَبيلاً » [2] نَسَخَ ذلك قولُهُ تعالى « اقتلُوا المشركين حيثُ وجدتُمُوهُم » [3]

وَأَمّا قولُهُ « ولا تقاتِلُوهم عند المسجِدِ الحرامِ حتّى يُقاتِلُوكم فيه » [4] فإِن اللهَ عَزَّ وجَلَّ نَسَخَها ساعةً من نهار لنبيِّه صَلّى اللهُ عليه وسلَّم ثم أَعاد تحريمَهَا كما كان ، فَلا يَحِلُّ قِتالُها أَبداً ، إلا أَن يبتدىءَ المُشركون فيها بالقِتال ، فيحلّ القتالُ للمُسلم إذا بدؤُوهُ لقولِهِ « ولا تُقاتِلوهم عند المسجدِ الحرامِ حَتّى يُقاتِلُوكُم فيه » [5] (الآية) فنسخَها اللهُ لنبيِّهِ ساعةً من نهارٍ بقولِهِ « فقاتِلوا أَئِمَّةَ الكُفْر إنهم لا أَيمانَ لَهُمْ » [6] إلى قولِهِ « وهم بدؤُوكُم أَوّلَ مَرّة » [7] إلى قولِهِ « وَيَشْفِ صُدورَ قومٍ مؤمنين » [8] يعني خُزَاعَةَ من بني بكر ، حلفاءِ قُريش ،

---

(١) الممتحنة ٨ .
(٢) النساء ٩٠ .
(٣) التوبة ٥ .
(٤) البقرة ١٩١ .
(٥) البقرة ١٩١ .
(٦) التوبة ١٢ .
(٧) التوبة ١٣ .
(٨) التوبة ١٣ .

فقاتَلَتْ بنو بَكْرٍ خُزاعَة ، وكان بين أَهلِ مَكَّةَ وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم صلحٌ [1] ، فأَرسَلَتْ قُريش من أَهْلِ مَكَّةَ إلى بني بكر (فطال ؟) [2] كان ذَلِكَ نَكْثاً لِعَهْدِهِمْ ، فأَذِنَ اللهُ لنبيِّهِ أَنْ يأتيَهُمْ في الحَرَم ، ويبدأَهُم بالقِتال ، فسار إليهم النبيُّ عليه السلامُ فقاتَلَهُمْ في الحَرَم ، فلمّا فَتَحَ لنبيِّه عليه السلام مَكَّةَ وفَرَغَ من قتالِهِم قال « لا قتال بين أَحَدٍ » فنقول لهذا : أَحلَّها لرسولِ الله صَلَّى الله عليه وسَلَّم . وإنَّما أَحلَّها ساعةً من نهارٍ ، ثُمَّ عادَتْ كما كانت لا يَحِلُّ فيها قِتالٌ ولا (يُخْتَلا) خَلاَها ، ولا يُعْقَرُ صيدُها ، ولا يُعْضَدُ شَجَرُها ؛

وقد رُوِيَ عن قتادة انه نَسَخَ قولَهُ « ولا تقاتِلُوهم عند

---

(١) في الأصل : صلحاً .

(٢) ابن سعد ٢/٩٧ : كلمت بنو نفاثة – وهم من بني بكر – أشراف قريش أن يعينوهم على خزاعة بالرجال والسلاح ، فوعدوهم ووافوهم بالوتير متنكرين متنقبين ، فيهم صفوان بن أمية وحويطب .. فبيتوا خزاعة ، فقتلوا منهم عشرين رجلا .

وفي سيرة ابن هشام ٢/٣٩٠ : ورفدت بني بكر قريش بالسلاح ، وقاتل معهم من قاتل من قريش بالليل مستخفيا ، حتى حازوا خزاعة إلى الحرم .

وفي عيون الأثر ٢/١٦٤ : ورفدت قريش بني بكر بالسلاح ، وقاتل معهم من قريش من قاتل بالليل مستخفياً .

المسجد الحرام » [1] بقولِهِ « اقتلُوا المشركين حيثُ وجدتموهُم » [2] فليس كما قال . ما زالَ أَصحابُ محمَّد صلى الله عليه وسلم والتَّابعونَ إلى عَصْرِنا (مُجْمِعِيْن) [3] أَنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أَخبر أنه قد عادَتْ حُرمتها .

حدَّثَنا أَبو إسحاق ، عن عُثمان بن عطاء [4] ، عن أَبيه عن ابنِ عَبّاس قال : قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ « فإن تَوَلَّوا فخُذُوهم واقتُلُوهم حيث وجدتموهُم ولا تَتَّخِذُوا منهم وليّاً ولا نَصِيراً إلاَّ الذين يَصِلُون إلى قومٍ بينكم وبينهم » [5] (١٢٣) إلى قوله « سُلْطاناً مُبيناً » [6] ، قال : « لا ينهاكُم اللهُ عن الذين لم يُقاتِلُوكُم في الدين » [7] إلى قوله « فامتحِنوهُنَّ » ثم نسخَ هؤلاءِ الآياتِ فأَنزل : « براءَةٌ مِن اللهِ ورسولِهِ » [8] إلى قوله « ونفصِّلُ الآياتِ لقومٍ يعلمون » وأَنزل « وقاتِلوا المشركينَ كافَّةً » [9] إلى قوله

---

(١) البقرة ١٩١ . (٢) التوبة ٥ . (٣) في الأصل : مجمعون .

(٤) عثمان بن عطاء (— ١٥٥ هـ) بن أبي مسلم الخراساني . ضعفه أكثر العلماء . يروي عن أبيه وغيره . وعنه ابنه محمد وابن شعيب : الميزان ٣/٤٨ .

(٥) النساء ٨٩ ، ٩٠ . (٦) النساء ٩١ . (٧) الممتحنة : ٨ .

(٨) التوبة : ١ . (٩) التوبة : ٣٦ .

« المُتَّقين » ، « وإن جَنَحُوا للسّلم فاجْنَحْ لها » [1] ثُمَّ نَسَخَ هذه بقولِهِ « قاتِلوا الذين لا يُؤمِنون باللهِ ولا باليومِ الآخِرِ ، ولا يُحَرِّمونَ ما حُرّمَ اللهُ ورسولُهُ » [2] .

وأَمَّا قولُهُ « ويسأَلونَكَ ماذا يُنْفقون » ؛ [3]

فحدّثنا شُريح [4] قال : حَدّثنا (مروانُ بنُ) مُعاوية [5] ، قال : حَدَّثنا ابنُ أَبي ليلى [6] عن الحَكَمَ [7] عن مِقسم [8] عن ابنِ عَبّاس في قولِهِ « ويسأَلونَكَ ماذا يُنْفِقون قُل العَفْوَ » [9] قال : العفْوُ ، الفَضْلُ عن العِيال . ثُمَّ نَسَخَ ذلِكَ بالزَّكاة .

---

(١) الأنفال : ٦١ . (٢) التوبة : ٢٩ . (٣) البقرة : ٢١٩ .

(٤) هو ابن يونس : ترجمنا له عند الحديث عن شيوخ الحارث : وضبطه ابن حجر في التهذيب ٤٥٧/٣ : سريج ، وشيخه مروان بن معاوية .

(٥) مروان بن معاوية (– ١٩٣ هـ) ابن الحارث بن أسماء بن خارجة بن حصن ، أبو عبد الله الكوفي الحافظ . سكن مكة ودمشق . روى عنه ابن معين وابن حنبل وابن راهويه وابن يونس وابن المديني وسعيد بن منصور . ثقة ثبت ما حدث عن المعروفين : تهذيب ٩٧/١٠ وفي الأصل : معاوية .

(٦) عبد الرحمن بن أبي ليلى (١٨ – ٨٣ هـ) من كبار التابعين . ثقة ، ثبت : مشاهير علماء الأمصار ١٠٢ .

(٧) الحكم بن عتيبة (٥٠ – ١١٥ هـ) أبو عمرو الكوفي . كان في أصحابه كالزهري في أصحابه . وكان ثقة ، فقيهاً ، عالماً ، عاليا ، رفيعاً ، كثير الحديث : ابن سعد ٢٣١/٦ .

(٨) مقسم : ابن بجرة ، أبو القاسم ، روى عن ابن عباس وعائشة وعبد الله بن عمرو وأم سلمة وجماعة . وعنه الحكم بن عتيبة وميمون بن مهران وآخرون . لا بأس به ، لكن المحدثين شكوا في سماع الحكم بعض الأحاديث عنه : تهذيب ٢٨٨/١٠ .

(٩) البقرة : ٢١٩ .

وكذلكَ قولُهُ تعالى « واللذان يأتيانِها منكم فآذُوهُما فإنْ تابا وأَصلحا فأعرِضوا عنهما [1] » وقوله « فأَمسِكُوهُنَّ في البيوت حتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ أَو يجعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلا » [2] فأَنزل اللهُ « الزانيةُ والزاني فاجلدوا كلَّ واحدٍ منهما مِائَةَ جلدة » [3] فنسخ الله حَدّ البِكْرَيْنِ من الأَذى والحَبْس والجَلْدِ ، بالتَّبْيينِ بما بيّن النبيُّ عليه السلام عَن اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لأَنَّ اللهِ تبارك وتعالى قال : « حَتَّى يتوفَّاهُنَّ الموتُ أَو يجعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبيلا » [4] فأَمرهم بانْتِظارِ السبيل ، فقال النبيُّ عليه السَّلامُ « خُذُوا عني قد جَعَلَ اللهُ لَهُنَّ سبيلاً ، البكرُ بالبكرُ جَلْدُ ماية ورجْمٌ بالحجارة » وقال عُمَرُ رضي الله عنه : كُنَّا نقرأُ فيما أَنزل اللهُ « الشيخُ والشيخةُ إِذا زَنَيا فارجُموهُما أَلبتَّة » فَنسَخَ حَدّ البِكْرَيْنِ بالجَلْدِ ، ونسخ الثِّيبَيْنِ بما كان نَزَلَ في القرآنِ من الرَجْم ، ثم رُفِعَ رَسْمُهُ من الكتاب وبقيَ وُجوبُهُ .

وقولُهُ « ما أَدْري ما يُفعل بي ولا بِكم » ؛

حدَّثنا شُريح ، قال حدَّثنا أَبو سُفيان عن مَعْمَر قال :

---

(١) النساء : ١٦ . (٢) النساء : ١٥ . (٣) النور : ٢ . (٤) النساء : ١٥ .

قد بَيَّنَ ؛ قد غَفَرَ اللهُ له ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِهِ وما تأَخَّر .

وأَبى أَكْثَرُ العُلماءِ ، وقالوا : إنما أَرَاد ما يُفْعَلُ بي ولا بكم ، ما أَدري ما أُومَرُ به أَنا وأَنتم .

وكذلك « إِني أَخَافُ إِنْ عصيتُ ربِّي عَذابَ يومٍ عظيم » [1] .

حدثنا شُريح قال : حَدَّثنا سُفيان عن مَعْمَر عن قَتَادَة قال : نَزَلَتْ على النبيِّ عليه السلامُ « ليغفِرَ لكَ اللهُ ما تَقَدَّمَ من ذَنْبِكَ وما تَأَخَّرَ » [2] بين مكَّةَ والحُديبية .

وقال بعضُهُم : إنما عَنَى بذلك ما أَدري أَن يحْدث من أَمْرٍ أَو حُكْمٍ فِيّ وفيكم ؛

والعُلَمَاءُ على أَنها منسوخةٌ .

ونَسَخَ قولَهُ : « ويسأَلُونَكَ عن الخَمْرِ والمَيْسِرِ قُلْ فيها إِثْمٌ كَبير » [3] ، وقولَهُ « لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنتم سُكارى حَتَّى تعلموا ما تقولون » [4] ، بقولِهِ عَزّ وجَل

---

(١) يونس : ١٥ . (٢) الفتح : ٢ . (٣) البقرة : ٢١٩ . (٤) النساء : ٤٣ .

« إِنما يُرِيدُ الشَيْطانُ أَن يُوْقِعَ بينكُم العداوةَ والبغضاءَ في الخَمْرِ والمَيْسرِ »[1] إلى قوله « فَهَلْ أَنتم مُنْتَهُون » .

وكذلك قولُهُ « وصيةً لأَزواجِهم مَتَاعاً إِلى الحَوْل »[2] نَسخَ اللهُ ذلك بقولِهِ « وَلَهُنَّ الربعُ مِمّا تركْتُم »[3] فقسّم اللهُ لهنّ الميراثَ ، ونَسَخَ الوصِيَّةَ لَهُنَّ . وقال بعضُ العُلَماءِ : نَسَخَهُ اللهُ بقولِ النبيِّ عليه السلامُ « لا وَصيَّةَ لِوَارِث » ، وَنَسَخَ ما كان عليها من العِدَّةِ إلى الحَوْل بقوله « يتربَّصْن بأَنْفُسِهِنَّ أَربعةَ أَشهُرٍ وعشراً » .

وقال بعضُهم : لم يوجِبِ اللهُ عَزَّ وجَلَّ العِدَّةَ في الحَوْل ، إنما كان أَباحَ لها الوصية اذا كانت من الزوج (على) أَن تَسْكُنَ إلى الحَوْلِ فَنَسَخَها بالمِيراث[4] .

وكذلك قولُهُ عَزّ مِنْ قائل « يا أَيُّها المُزمِّلُ قُم اللَّيلَ إلاَّ قَليلا »[5] فقام النبيُّ عليه السلامُ وأَصحابُهُ حَوْلاً

---

(١) المائدة : ٩١ . (٢) البقرة : ٢٤٠ . (٣) النساء : ١٢ .

(٤) القرطبي ٣/١٧٤ : أكثر العلماء على أن هذه الآية ناسخة لقوله عز وجل « والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى الحول غير إخراج » لأن الناس أقاموا برهة من الاسلام إذا توفي الرجل ، وخلف امرأته حاملا أوصى لها زوجها بنفقة سنة وبالسكنى ما لم تخرج فتتزوج ، ثم نسخ ذلك بأربعة أشهر وعشر وبالميراث .

(٥) المزمل : ١ .

كاملاً حتى تورّمَتْ أَقدامُهُم فنسخها اللهُ جَلَّ ثناؤُهُ بقولِهِ « فاقرؤوا ما تَيَسَّرَ منه »[1] .

وكذلك قوله عز وجل « إذا ناجيتُمُ الرسولَ فقدِّمُوا بينَ يَدَيْ نَجْواكُم صَدَقَة »[2] فنسخَهَا بقوله « فإذْ لم تفعلوا وتابَ اللهُ عليكُم »[3]

وكذلك قوله « إنْ تَرَكَ خيراً الوصيَّةُ للوالِدَيْنِ والأَقْربِين »[4] نسخَها اللهُ فاختَلفُوا ؛

فمنهُمْ منْ قالَ بآياتِ المواريث[5] ، ومنهم مَنْ قال بقول النبيِّ عليه السلامُ « لا وصيَّةَ لوارث »[6] . وقال بعضُ من يتَفقَّهُ : لم تَجبْ قطُّ فَتُنْسَخ ، إنَّما عَنَى اللهُ جَلَّ ذِكرُهُ بقولِهِ « للوالِدَيْنِ والأَقربِيْنَ » العبيدَ والكُفَّار

---

(١) المزمل : ٢٠ .

(٢) المجادلة : ١٢ .

(٣) المجادلة : ١٣ .

(٤) البقرة : ١٨٠ .

(٥) الجصاص : أحكام القرآن ١/١٦٥ : عن ابن عباس في هذه الآية « إن ترك خيراً ... » قال : نسختها هذه الآية « للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ، مما قل منه أو كثر ؛ نصيباً مفروضاً »... وقال آخرون : نسخها ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا وصية لوارث ... وورود هذا الخبر من عدة جهات ، جعله عندنا في حيز التواتر لاستفاضته وشهرته في الأمة ، وتلقي الفقهاء إياه بالقبول ، واستعمالهم له . وجائز عندنا نسخ القرآن بمثله إذ كان في حيز ما يوجب العلم والعمل من الآيات .

(٦) رواه ابو داود والدارمي

من الاخوان [1] (١٢٤) الذين لا يَرِثُونَ ؛ فالوصيَّةُ لهم جائِزَةٌ على حالِها ، لم تُنْسَخْ ؛ ولم يَقُلْ هذا القَوْلَ أَحَدٌ ممن مضى.

وقال بعضُ التَّابِعِيْنَ : نُسِخَ منها كُلُّ مَنْ يَرِثُ ، وبقِيَ منها القرابةُ الذين لا يَرِثون ، فالوصيَّةُ لهم واجبَةٌ إلا أنهم مُجْمِعُون أَنَّ الوصيةَ لا تَجُوز إلاَّ للأَقْرَبِيْنَ الذين لا يَرِثُون ، ولا تَجُوزُ لِمَنْ يَرثُ [2] .

وكذلِكَ الخَمْرُ نَسَخَ قولَهُ « فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ » [3] ولم يُحَرِّمْهَا ، ونَسخَ مِنْ قولِهِ « لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وأَنتم سُكارى » [4] فَنَسَخَ ذلك بقولِهِ « فاجتنِبوهُ لعلَّكُم تُفْلِحُون » [5] .

وكذلك قولُهُ « فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرَامِ » [6]

---

(١) القرطبي ٢/٢٦٢ : قيل : هي محكمة ، ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الوالدين اللذين لا يرثان كالكافرين والعبدين ، وفي القرابة غير الورثة . قاله الضحاك وطاوس والحسن ، واختاره الطبري .

(٢) أحكام القرآن ١/١٦٥ : وقالت طائفة : قد كانت الوصية واجبة للوالدين والأقربين ، فنسخت عمن يرث ، وجعلت للوالدين والأقربين الذين لا يرثون .

(٣) البقرة : ٢١٩ . (٤) النساء : ٤٣ . (٥) المائدة : ٩٠ .

(٦) البقرة : ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

نَسَخَ اللهُ بها صَلاَتَه إلى بيتِ المَقْدِس .

وكذلك قولُهُ « إنْ يكُنْ منكم عِشرونَ صابِرُونَ يَغْلِبُوا مائتَيْنِ » إلى قولِهِ « لا يَفْقَهُونَ »[1] فَكَتَبَ عليهم بهذه الآيةِ ، ألاَّ يَفِرَّ واحِدٌ مِن عَشرةٍ ولا قَوْمٌ من عشرةٍ أَمْثالهم ؛ وَوَعَدَ النَصْرَ أَن يَنْصُرَ الواحِدَ على العَشرةِ ، والقومَ على عشرةِ أَمثالِهِمْ إنْ صَبَرُوا ، فَجَبُنُوا عن ذلِكَ ، وضَعُفُوا عنه فَنَسَخَ اللهُ عَزّ وجَلَّ ذلك ، وخَفَّفَ عنهم ، ورَفَعَ عنهم من ضمانِهِ لِنَصْرِهِمْ على قَدْرِ ما خَفَّف عليهم في الآيةِ الناسِخة ، فأَنزل الله « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكُم ، وعلِمَ أَنَّ فيكم ضَعْفا »[2] إلى قوله « بإِذْنِ الله » فَوجَبَ عليهم أَلاَّ يَفِرّ الرجُلُ من الرجُلَيْنِ ، ولا القومُ من مِثْلِهِمْ ، وَوُعِدوا أَن يُنْصَرَ الواحِدُ على الاثْنَيْن ، والقومُ على مِثْلَيْهِمْ ، إذا صَبَرُوا .

ونَسخَ قولَهُ « وإنْ جَنَحُوا للسَّلْم فاجْنَحْ لَهَا »[3] بقولِهِ عَزّ مِنْ قائِلٍ « قاتِلُوا الذين لا يُؤمِنونَ باللهِ ولا باليَوْمِ الآخِرِ »[4] إلى قولِهِ « صاغِرُون » .

---

(١) الانفال : ٦٥ . (٢) الأنفال : ٦٦ . (٣) الأنفال : ٦١ . (٤) التوبة : ٢٩ .

ونسخ قوله « ولا تَنْكِحُوا المشركاتِ حَتَّى يؤمِنَّ »[1] بقوله « والمُحْصَنَات مِن الذين أُوتوا الكتاب مِنْ قَبْلِكُم »[2] فلم تَزَل الأُمَّةُ مُجْمِعَةً أَنَّ نِكاحَ نساءِ أَهْلِ الكِتاب حلالٌ ، إلاَّ ابن عُمَر فإنه كَرِهَهُ وكَرِهَهُ عُمَرُ وغيرُهُ بِغَيْرِ التحريم ، خوفاً أَن تكونَ الذِّمّيّةُ ليست بِعَفِيفةٍ[3] .

وكذلك قولُهُ تعالى : « لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ولا الشَّهْرَ الحرامَ ولا الهَدْيَ ولا القَلائِدَ ولا آمِّيْنَ البيتَ الحَرامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً من ربِّهِمْ »[4] فَنَسَخُه بقولِهِ : « إِنَّما المُشْرِكُون نَجَسٌ فلا يَقْرَبُوا المَسْجِدَ الحَرَامَ بعد عامِهِمْ هذا »[5] وبقولِهِ : « ما كان للمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَساجِدَ الله »[6]

---

(١) البقرة : ٢٢١ . (٢) المائدة : ٥ .

(٣) كره عمر وابن عمر زواج المسلم من الكتابية، لكنهما اختلفا في تعليل ذلك . أما عمر فحمل قوله تعالى « والمحصنات » على أنهن العفائف : أحكام القرآن ٣٢٤/٢ ، وقال حذيفة : أخاف أن تواقعوا المومسات منهن !!

أما ابن عمر ، فكان يرى أن الكتابيات مشركات ، ويقول : لا أعلم من الشرك شيئاً أعظم من أن تقول : ربها عيسى بن مريم ، وقرأ الآيتين الكريمتين « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ، « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » فلما رأى الآيتين في نظامهما تقتضي إحداهما التحليل والأخرى التحريم ، وقف فيه ولم يقطع بإباحته : القرطبي ٦٨/٣ .

(٤) المائدة : ٢ .

(٥) التوبة : ٢٨ .

(٦) التوبة : ١٧ .

وكذلك قولُهُ : « فَسيحُوا في الأَرض »[1] نَسَخَهُ بقولِهِ : « ما كان للمشركِيْن أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ الله »[2] وكذلك قولُـهُ : « فسيحوا في الأَرضِ » فَأَجَّلَهُمْ أَربعةَ أَشْهُر (يسِيحُونَ)[3] في الأَرْضِ بقيَّةَ عَهْدِهِمْ ، وآذَنَهُمْ بالحربِ بعد انقضاءِ الأَربعةِ أَشْهُر .

وقال ابنُ عَبّاس : وأَجَّلَ الذين ليس لهم عَهْدٌ خَمْسِينَ ليلةً، انسِلاخَ الأَشْهُرِ الحُرُم يَسِيحونَ فيها حيثُ شاؤُا .

وقال عَزَّ وجَلَّ « فإِنْ تابوا وأَقاموا الصَّلاةَ وآتُوا الزكاة فَخَلُّوا سبيلَهُم »[4] قال: فأَمَرَهُم اللهُ إِذا انسلَخَ الأَشْهُرُ الحُرُمُ أَن يَضَعَ السيفَ فيمَنْ عَاهَدَ إِنْ لم يَدْخُلُوا في الإِسْلامِ ، ونَقْضُ ما سَمّى لَهُمْ من العهدِ والميثاقِ أَذْهَبَ الشَرْطَ الأَوّلَ . ثم قال عزّ وجل « إِلاَّ الذين عاهَدْتُم عند المسجدِ الحرامِ »[5] يعني أَهْلَ مكَّة « فما استَقَامُوا لكم فاستقِيموا لهم . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَّقِيْن »[6] فأَرسل النبيُّ عليه السلامُ ،

---

(١) التوبة : ٢ .
(٢) التوبة : ١٧ .
(٣) في الأصل : يسيحوا
(٤) التوبة : ٥ .
(٥) التوبة : ٧ .
(٦) التوبة : ٧ .

أَبا بكر ، وعلياً رَضِيَ اللهُ عنهما فَأَذَّنُوا لأَصحابِ العهدِ أَن يأْمنُوا أَربعةَ أَشْهُرٍ – وهي الأَشْهُرُ الحُرُمُ – ولا عَهْدَ لَهُم .

قال : وهيَ الحُرُمُ من أَجْلِ أَنهم أُمِّنُوا فيها حتَّى يسيحوا فيها ، فأَذَّنَ للناسِ كُلِّهِم إنْ لم يُؤْمِنوا : فَنَسَخَ اللهُ جَلَّ ذِكْرُه بِبَرَاءَةَ في قولِهِ « إلاَّ الذين يَصِلُون إلى قومٍ بينكم وبينهم مِيثاقٌ » [1] إلى قوله : « فما جَعَلَ اللهُ لكم عليهِم سَبِيلاً » [2] ، ونَسَخَتْ قولَهُ : « لاينهاكُمُ اللهُ عن الذين يقاتِلُوكُم في الدِّيْنِ ، ولم يُخْرِجُوكُم من ديارِكُم أَن تَبَرُّوهُم وتُقْسِطُوا إليهم » [3] فَنَسَخَ ذلك كُلَّهُ ببراءَة .

وقال عَزّ وجَلَّ « انفِروا خِفافاً وثِقالاً » [4] فأَوجَبَتْ هذه الآيةُ على الأُمّةِ الجِهادَ . وقال ابنُ عَبّاس : فنسخَها قولَهُ : « وما كان المؤمنونَ لينفِروا كَافَّةً فلولا نَفَرَ من كُلِّ فِرقةٍ منهم طائفةٌ » [5] قال ابن عَبّاس : فتنفِر طائفةٌ ، وتمكُث طائفةٌ مع النبيِّ عليه السلامُ ، والماكِثُون

(١) النساء : ٩٠ . (٢) النساء : ٩٠ . (٣) الممتحنة : ٨ .
(٤) التوبة : ٤١ . (٥) التوبة : ١٢٢ .

يَتَفَقَّهُونَ في الدِّين ، ويُنْذِرُوا قومَهُمْ إِذا رَجَعُوا إِليهم مِنَ الغَزْو ، وبما أَنزل اللهُ وكتابهُ وحُدُودهُ . (١٢٥) ورُوِي عنه أَيضاً ، أَنَّ السرايا هي التي تَرْجِعُ فيتعلَّمونَ من القاعِدِيْنَ مع النبيِّ عليه السلامُ .

وأَمر الأَنفال اذا جُمِعَتِ الغنائمُ بغير مبادرةٍ ولا نَفْلٍ بِشَرْطٍ ، قبل الخروج ، ولكن الغنائمُ التي كانت لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاصّةً ، قال ابنُ عَبّاس : فذلك قولُهُ تعالى : « قل الأَنْفالُ لله والرسول » (١) وكانَتْ لرسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم ليس لأَحَد فيها شيءٌ . ثم أَنزل الله بعد « واعلموا أَنَّما غَنِمْتُم من شَيْءٍ فإِنَّ لله خُمسَهُ » (٢) (الآية) ، فَقَسَّم اللهُ الخُمْسَ الذي كان للنبيِّ عليه السلامُ خَاصَّةً ، يُنَفِّلُ منه على خمسةِ أَخْماسٍ ، وجعلَ الأَربعةَ الأَخماس الباقيةَ لِمَنْ شَهِدَ الوَقْعَة .

وكذلك قولُهُ عَزّ وجَلَّ « والذينَ عقدَتْ أَيمانُكُم فآتُوهم نَصِيبَهُم » (٣) كان الرجُلُ يُحَالِفُ الرَجُلَ بِقَوْل : تَرِثُني وأَرِثُكَ ، ويَرْضَيَانِ بذلك ويتعاقَدَان ، وعلى ذلك

---

(١) الأنفال : ١ . (٢) الأنفال : ٤١ . (٣) النساء : ٣٣ .

ابنُ عَبّاس . وقال ابنُ المسيِّبْ : نزلَتْ في الأَدْعِياءِ ، كانوا رجالاً يَتَبَنَّوْنَ رجالاً يَرِثُونَهُمْ .

وأَجْمعَتِ الأُمَّةُ أَنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ نَسَخَ ميراثَ الحُلَفاءِ والأَدْعِياءِ ، بقولِهِ : « وأُولوا الأَرْحَام بعضُهم أَولى ببَعْضٍ في كِتابِ الله مِنَ المؤمنين والمُهَاجِرِيْنَ ، إلاَّ أَنَّ تَفْعَلوا إلى أَوليائِكُم معروفا »[1] قال ابنُ عَبّاس : إلا أَنْ يَصِلُوا أَولياءَهُمْ الذين عاقَدُوهُم وصِيّةً لَهُمْ .

قال ابنُ المسيِّب : فَجَعَلَ للأَدْعِياءِ الوصيَّةَ ، ونَسَخَ ميراثَ الأَدْعِياءِ .

وحدَّثَنَا شُريح قال : حَدّثنا أَبو سُفيان ، عن مَعْمَر ، عن قَتَادَةَ ، قال : ثُمَّ نَسَخَ ذلك بالمِيراث .

وأَنزل عَزَّ وجَلَّ : « إنَّ الذين يأْكُلُون أَموالَ اليتامى ظُلْماً إنما يأْكُلُون في بطونِهِم ناراً وَسيَصْلَوْنَ سَعِيرا »[2] فتحرَّجَ قومٌ من مُخالَطَةِ اليتامى ، وشَكَوْا ذلك إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وسَلَّم ، فقالوا : إنَّا نَخْلُطُ طَعَامَهُمْ بطعامِنا ؛ فأَنزل اللهُ « ويسأَلونَكَ عن اليَتَامى قُلْ إصلاحٌ لَهُم خير ،

(١) الأنفال : ٧٥ .   (٢) النساء : ١٠ .

وإن تُخَالِطُوهم فإخوانُكُم »[1] فقالتِ العُلماءُ: إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ نَسَخَ التشديدَ عليهم ، بالرُّخْصَةِ في المُخَالَطَةِ على غير تَعَمُّدٍ لِظُلْمٍ كما يَصْنَعُ المسلمونَ في أسْفارِهِمْ ، وقد يُصيبُ بعضُهم من الغِذاءِ أكثرَ مِنْ بعض ، وَرَخَّصَ اللهُ لهم في ذلِكَ على المخالطةِ من غير تعمُّدٍ لِظُلْمٍ شيءٍ مِنْ مالِهِ بِعَيْنِهِ .

الباب الرابع عشر : اختلَفُوا فيه : أَمَنْسوخٌ هو ؟ أَم استِثْنَاءُ خُصوصٍ مِنْ عُمومٍ؟ كقولِهِ : « فاجلدُوهم ثمانينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهم شَهادةً أَبداً »[2] فَأَجْمَعُوا أنه أَسْقَط الفِسْقَ بالتَوْبةِ ، فقال بعضُهم : نَسَخَهُ ، وقال بعضُهم : لم يُرِدْهُ ، وإنما أَرَادَ مَنْ لم يَتُبْ .

فقال بعضُهم : لم يُرِدْ للتَّائِبِ في تَرْكِ قَبولِ الشَّهادةِ ... ثُمَّ اختَلَفُوا في الشَهَادةِ .

وقال بعضُهم : نَسَخَ الشهادةَ والفسْقَ بالتَوْبةِ .

فقال مالِك رَحِمَهُ اللهُ ومُتَّبِعُوه : إذا تابَ قُبِلَتْ شَهَادتُهُ .

وقال أَهْلُ العِرَاق: لا تُقْبَلُ شهادتُهُ أَبداً تابَ أَم لم يَتُب .

(١) البقرة : ٢٢٠ .   (٢) النور : ٤

وكذلك قولُهُ تعالى « إنما يستأذِنُكَ الذين لا يُؤْمِنون باللهِ واليومِ الآخِرِ »[1] فقال قومٌ : نَزَلَتْ فِي المُنَافِقِينَ (وعفور ؟) المؤمنين . وقال ابنُ عبّاس : نَسَخَتْها « وإذا كانوا مَعَهُ على أَمْرٍ جامِعٍ لم يَذْهَبُوا حَتَّى يستأذِنُوهُ »[2] إلى قولِهِ تعالى « فإذا استأذَنُوكَ لبعضِ شأنِهِمْ فأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ منهُم واستغفرْ لهم اللهَ »[3] .

وكذلك قولُهُ « ليس على الأَعْمى حَرَجٌ »[4] إلى قولِهِ تَعَالى : « أَو صَدِيقكم »[5] .

ورُوي عن ابنِ عَبّاس أَنه قال : لمَّا نَزَلَتْ « لا تأكُلُوا أَمْوالَكُم بينَكُم بالباطِلِ »[6] قالوا : لا يَحِلُّ لنا أَنْ نأكُلَ عند أَحَد . فأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَناؤُهُ : « ليس على الأَعْمَى حَرَجٌ »[7] (الآية) . وقال مُجَاهِد نَحْو ذلك .

وقال عبدُ الله بنُ عبيد الله[8] : تَحَرَّجُوا بعد الإِذْنِ وقالوا لم تَحِدّ لَنا[9] .

---

(١) التوبة : ٤٥ . (٢) النور : ٦٢ . (٣) النور : ٦٢ . (٤) النور : ٦١ .

(٥) النور : ٦١ . (٦) النساء : ٢٩ . (٧) النور : ٦١ .

(٨) عبد الله بن عبيد الله (– ١١٨ ﻫ) قاضي ابن الزبير ومؤذنه. ثقة، كثير الحديث . ترجمناله سابقاً . وفي الأصل : عبد الله بن عبد الله .

(٩) القرطبي ١٥٢/٥ : روى أبو داود عن ابن عباس في قوله تعالى « لا تأكلوا أموالكم بينكم

وقال عِكَرَمَةُ نحو ذلك . حَدَّثَ يعقوبُ بنُ إبراهيم بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبَة [1] ، وابنُ المسيِّب أَنه كان رِجالٌ مِنْ أَهْلِ العلم يُحَدِّثون أَنَّما نَزَلَتْ هذه الآية ـ بقول الله عَزّ وجَلَّ « ليس على الأَعمى حَرَجٌ » [2] (الآية) ـ كُلُّها أَنَّ المسلمِين كانوا يَرْغَبُون (١٢٦) في النفيرِ مع رسولِ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمُ ، فَيعطُون مفاتيحَهُم ضُمَنَاءَهُم ويقولون لهم: قَدْ أَحْلَلْنا لكم أَن تأْكُلُوا مِمّا في بيوتِنا ، فيقولُ الذين استودعُوهم : واللهِ ما يَحِلُّ لنا (ما) في بيوتِهِم وانما (هي) أَمانةٌ أَو ثمنٌ ، حَتّى أَنزلَ اللهُ هذه الآيَةَ ، فطابَتْ أَنفُسهُم بما أَحَلَّ الله ، ونَسَخَتْ قولَهُ : « لا تأْكُلُوا أَموالَكُم بينكم بالبَاطِلِ » [3] . وَرُوِيَ عن ابنِ عَبّاس .

وذهَبَ قومٌ أَنْ الله جَلَّ ذِكْرُهُ أَحَلَّ لهم طَعَامَ مَنْ

= بالباطل ... » فكان الرجل يحرج أن يأكل عند أحد من الناس بعدما نزلت هذه الآية ، فنسخ ذلك بالآية الأخرى التي في « النور » فقال « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم » إلى قوله « أشتاتاً » فكان الرجل الغني يدعو الرجل من أهله إلى طعامه فيقول : إني لأجنح أن آكل منه – والتجنح الحرج – ويقول : المسكين أحق به مني اهـ . وفي الأصل : تحرجوا بعد الإذن ما لم تحدوا لنا .

(١) يعقوب بن ابراهيم بن عبد الله بن عقبة : لا يعرف .

(٢) النور ٦١ .   (٣) النساء : ٢٩ .

ذَكَرَ في الآية بغيرِ إِذْنِهِمْ، وقالوا: لو كان من بعد إِذنِهِ لهؤلاءِ، ما كان مَعْنَى خصوص إِذ كان يَحِلُّ الطعامُ لِكُلِّ الخَلْقِ عن إِذنه؛ قاله قتادةُ والحَسَنُ.

حدَّثنا يونُسُ بن بشر [1] عن شَيْبان، عن قَتَادَةَ، في قوله «او صَدِيقِكُم» [2] قال: أَحَلَّ (لغير) مُوَارثيهم أَنْ يَأْكُلُوا مِنْ طعامِهِم.

ورأَى الحَسَنُ مَنْ كان (لا؟) يَرِثُ بِغَيرِ إِذْنِهِ، فقيل له. فقال: يا لُكَع، إِقرأْ «أَو صديقِكم» والصَدِيقُ مَن استَرَاحَ إِليه القَلْبُ.

وقال قومٌ: لم يُرِدِ اللهُ أَن يُحِلَّ لهم أَن يأْكلوا بإِذن ولا بغيرِه، ولكنَّ الأَعرجَ والأَعمى والمريضَ، لا يُمْكِنُهُمْ أَن يَسْأَلُوا من الطعام مسأَلَةَ الصحيحِ، فتحرَّجَ المسلمون لَمَّا نَزَلَتْ هذه الآيةُ «لا تأْكُلُوا أَموالَكُم بينكم بالبَاطِلِ» [3]

---

(١) يونس بن بشر: لم نجد راوية عن شيبان بهذا الاسم، بل ليس بين رواة الحديث رجل اسمه يونس بن بشر، وهناك رجلان: أحدهما اسمه يونس بن ميسرة (– ١٣٢ هـ) ولا يمكن أن يكون تلميذاً لشيبان المتوفي (– ٢٠٦ هـ) والثاني: يونس بن بكير (– ١٩٩ هـ) وتلمذته على شيبان أكثر احتمالا.

(٢) النور: ٦١.

(٣) النساء: ٢٩.

كما تَوَعَّدَ في أَكْلِ مالِ اليتيم فقال « إنَّ الذين يأكُلُون أَمْوَالَ اليَتَامى ظُلْماً »[1] فَسَأَلُوا النبيّ صلَّى اللهُ عليه وسلم ، فأنزل الله « وإن تُخَالِطُوهم فإخوانُكُم[2]» (الآية) . وقال : لُغَةُ العَرَبِ في ذلك جائزَةٌ ، يُريدُ المفعولَ به فَيُسَمي الفاعل ، وأَرادَ جَلَّ ذِكْرُهُ ، الإِذْنَ في مُخَالَطَتِهِمْ في المُوَاكَلَةِ ؛ فَسَمَّى الأَعْرجَ والأَعْمَى والمَرِيضَ وهو يُرِيدُ مَنْ يُخَالِطُهُمْ ، فرخَّصَ لهم كما رَخَّصَ للناسِ في أَسفارِهِمْ إذا سافروا ، وبعضُهم يُصيبُ من الطعام أَكْثَر مِنْ بعض .

وكذلك قولُهُ عز مِنْ قائل: « فاتقُوا اللهَ ما استطعْتُم »[3] نَسَخَتْ قَولَهُ « اتقوا اللهَ حَق تُقاتِهِ » .

حَدثَنَا أَبو سُفيان عن مَعْمَر عن قَتَادَةَ « فاتقوا اللهَ ما استَطَعْتُم » ، نَسَختْ قولَهُ « اتقوا اللهَ حَق تُقاتِهِ »[4]

وقال ابنُ عَبّاس : لم تَنْسَخْها ولكن « حق تُقاته » أَن يُجاهِدُوا في اللهِ حَق جِهادِهِ ، ولا تَأْخُذهم في الله لَومَةُ لائِم ، ثم أُمروا أَن يقوموا بالقِسْطِ ولو على أَنْفُسِهِمْ وآبائِهِم .

---

(١) النساء : ١٠ . (٢) البقرة : ٢٢٠ . (٣) التغابن : ١٦ . (٤) آل عمران : ١٠٢.

وقال ابنُ مسعود . « حقّ تُقاته » أَن يُذْكَرَ فلا يُنْسى ، وأَن يُطاعَ فلا يُعْصَى ، وأَن يُشْكَرَ فَلاَ يُكْفَر .

وكذلك قولُهُ عَز وجَل « وليست التوبةُ للذين يَعْمَلُون السِّيئات »[1] (الآية) .

ورُويَ عن ابن عَبّاس أَنّ اللهَ تَبَارَكَ وتعالى أَنزل بعد ذلِكَ « ان الله لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به ويغفِرُ ما دُونَ ذلك لِمَنْ يَشَاءُ »[2] فَحرّمَ المَغْفِرَةُ على مَنْ تَابَ عِنْدَ الموت وهو كَافِرٌ ، وأَرجأَ التَوْبَةَ لأَهْلِ التَوْحيدِ إلى مشيئتِهِ فلم يُؤْيِسْهُمْ من المَغْفِرة .

وقال بعضُهم : حَرّمَ التوبةَ على الكافِرِ والمُوَحّدِ المُصِرِّ عند الموت أَن يَقْبَلَهَا منهم ، ثُم نَسَخَ من ذلك تَوْبَةَ المُوَحِّد فأَطْلَقَهَا له بقولِهِ « إِنْ اللهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به » .

وقال آخَرُون : لم تُنْسَخْ ، ولم يُرِدِ اللهُ عَز وجَلّ بها إلا وَقْتَ الغَرْغَرةِ ، وهو وقْتُ مُعَايَنَةِ الرُسُل فلا تَوبَةَ مقبولةٌ بإِيجاب المغفِرة ، لأَنهُ قَدْ عَايَنَ ، وآمَنَ الكافِرُ ،

(١) النساء : ١٨ . (٢) النساء : ٤٨ .

وتاب الموحِّدُ المُصِرُّ ضرورةً بما عايَنَ من أَعْلامِ الآخرة ، فارتَفَعَت المِحْنَةُ ، وزالَ البَلْوى والاختِبَارُ ، والتوبةُ مبسوطةٌ لِضَمَانِ المغفِرة لِكُلِّ مُذْنِبٍ كافِرٍ او مُؤمنٍ ما لم يُغَرْغِر .

وقد رُوي عن النبيِّ عليه السلام قال : التَوبةُ مقبولةٌ ما لم يُغَرْغِر . فإذا غَرْغَر لم تُقْبَلْ مَغْفِرة ، وروي : إنْ تَابَ قبل موتِهِ بِفواقِ ناقةٍ . يعني ما بينَ الحلْبَتَينِ .

ورُوي عن إبراهيم : ما لم يؤخذ بِكَظْمِهِ ، فالتوبةُ مقبولةٌ ما لم يُغَرْغِر ، فإذا غَرْغر لم يُغْفَر للكافر ذُنُوبُه إذا تاب في ذلك الوقتِ ، ولم تُقْبَلِ التوبة من المُوحّد ، لِضمانِ المغفرةِ ، وكان كَمَنْ مات من الموحِّدين ولم يتُب ، فأَرجاهُ الله للمغفرةِ إنْ شاءَ رحِمه بِفضْلِهِ ، أَو يعذِّبه بما استحق ، وَوَجَبَ له بِعَدْلِهِ .

وكذلك قولُهُ « وإني لَغَفَّارٌ لِمَنْ تاب » ، [١] فقالَ بعضُهُم : نَسَخَ ذلك في آخرِ الزمان ، إذا طَلَعَتِ الشَمْس من مَغْرِبها فقال « لا يَنْفَعُ (١٢٧) نفساً إيمانُها » [٢] (الآية).

---

(١) طه : ٨٢ .　　(٢) الانعام : ١٥٨ .

وقالَ بعضُهم : إنما أَراد الكافِرِين لا المُؤْمِنِين .

الباب الخامس عشر : ومما اختلفُوا أَنَّه مَنْسُوخٌ ، ولا يجوزُ عند أَهْلِ النَظَرِ أَن يكونَ الكتابُ والسنةُ منسوخاً ، من ذلك ، قولُهُ عَزّ وجَلَّ : «إنكم وما تعبُدُون من دون اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتم لها واردون »[1] .

شُريح عن الكَلْبِيِّ أَنه قال : نَسَخَتْها : « إنَّ الذين سَبَقَتْ لهم منَّا الحُسْنَى أَولئك عنها مُبْعَدُونَ »[2] وهذا لا يَحِلُّ لأَحَدٍ أَن يَظُنَّهُ دون أَن يَقْطَعَ به ؛ أَنَّ اللهَ (جل) ذكرُهُ إنما عَنَىَ في الآيةِ الأُولى عَذابَ الملائكةِ ، وعيسى ، وغيرِه من وليائِه فأَخْبَرَ عِبادَهُ أَن يُعَذِّبَهُمْ ، ثم نَسَخَ من ذلك خِصْلَتَيْنِ :

إِحْداهُما ، أَنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ لم يُرِدْ عَذابَ أَوليائِهِ قَطُّ بِذَلِك لأَنَّه ما زال يُرِيدُ أَن لا يعذِّبَهُم .

والثانيةُ ، أَنه كان تَقَدَّم من اللهِ عَزّ وجلَّ في المسيح ، والملائكةِ ، وفي عزير ، أَخبارٌ أَنهم مِن أَهلِ الجَنَّةِ قبل نُزُولِ هذه الآيةِ ولا جائِزَ أَن يكْذِب اللهُ عَزّ وجلَّ خَبَرَهُ

---

(١) الانبياء : ٩٨ . (٢) الانبياء : ١٠١ .

الأَوّل ، وإنما حاجّ النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم ابنُ الزِّبَعْرى [1] ، لَمَّا عَلِمَ أَنَّ النبيَّ صَلَّى اللهُ عليه وسلم قد أُنْزِلَ عليه قبل ذلك في الملائكةِ والمسيحِ وعُزير أَنهم أَولياؤهُ ، فاراد أَن يكَذِّب النبيَّ عليه السلام ، ولم يَتقدم مِن الله جل ذِكره في المسيحِ والملائِكةِ أَخبارٌ في أَوليائه ، ما كان اللهُ لِيخْبِر بعذابِهِم ، ثم نسخه بقوله « إِنَّ الذين سَبَقَتْ لهم مِنَّا الحُسْنى » [2] .

فَمَن زَعم أَن الله جل ذِكْرُه نَسَخ خَبَرَهُ فقد وَصَف الله سبحانَه بالكذِبِ .

وقوله في الملائكة ، قول الله جلَّ وعَزَّ « ويستغفِرون لِمَنْ في الأَرْض » [3] ثمَّ نَسخَهَا « فاغفِر للذين تَابوا واتَّبَعُوا سبيلَكَ » [4] فزعم أَنَّ الملائكةَ استغفَرَتْ أَولاً للمشركين ، وهذا كَذِبٌ لأَنَّ اللهُ جَلَّ وعَزَّ يقول « ولا يَشْفَعُون إِلاَّ

---

(١) عبد الله بن الزبعري : ابن قيس بن عدي بن سعد السهمي ، القرشي . وهو أحد شعراء قريش المعدودين . وكان يهجو المسلمين ، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره ، ثم أسلم بعد ذلك . فقبل النبي صلى الله عليه وسلم إسلامه ، وأمنه يوم الفتح : الأغاني ١٥/٥٤٨٤ ، المؤتلف والمختلف ١٩٤ ، الاستيعاب ٣/٩٠١ .

(٢) الأنبياء : ١٠١ . (٣) الشورى : ٥ . (٤) غافر : ٧ .

لِمَن ارتَضَى » ، ولم يكن المَلائِكَةُ يَشْفَعُون لِمَنْ في الأَرض ممن قد عَلِموا أَنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ له أَبَداً .

وقولُهُ عَزّ وجل « لا أَسأَلُكُم عليه أَجْراً »[1] (الآية) . و « قُلْ مَا سَأَلْتُكُم من أَجْر »[2] نسخَتْها « قُلْ لا أَسأَلُكُم عليه أَجْراً »[3] (الآية) . قد أَجدُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ استَثْنَى لهم المَوَدَّةَ وأَعوذُ باللهِ أَن يكون اللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ أَرَادَ أَنّ المودَّةَ في القُربى أَجْر له على دُعائِهِ إِليه ، ولكنْ قولُهُ « قل لا أَسأَلُكُم عليه أَجْراً »[4] منقطِعٌ ثم استأْنَفَ[5] . هذا تسميه (العربُ) استثناءَ الخُلْفِ وإنما هو استئنافٌ[6] .

وَمَنْ ذَهَبَ إلى مودَّةِ القَرَابةِ فأَرادَ أَن يذكِّرَهُمْ حَقَّ الرَحِمِ فلا يُؤْذَي[7] .

وَمَنْ ذَهَبَ (إلىالمَوَدَّةِ في الدِّين فأَرادَ) أَنْ يَودُّوا اللهَ بِطَاعَتِهِ ! !

(١) الانعام : ٩٠ . (٢) سبأ : ٤٧ .

(٣) الشورى : ٢٣ ، وبقية الآية « إلا المودة في القربى. ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً ، إن الله غفور شكور » . (٤) الشورى ٢٣ .

(٥) القرطبي ٢١/١٦ : قال الزجاج : « إلا المودة » استثناء ليس من الأول ، أي إلا أن تودوني لقرابتي فتحفظوني .

(٦) كتاب سيبويه ٣١٩/٢ : هذا باب يختار فيه النصب لأن الآخر ليس من نوع الأول .

(٧) صحيح البخاري ١٦٢/٦ : حدثنا محمد بن بشار ، حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة بن عبد الملك بن مسرة ، قال : سمعت طاوساً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه سئل عن قوله « الا المودة في القربى » فقال سعيد بن جبير : قربى آل محمد صلى الله عليه وسلم . فقال ابن عباس : عجلت ، إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ، فقال : إلا أن تصلوا ما بيني وبينكم من القرابة .

القسم السابع

في أساليب القرآن

باب التقديم والتأخير :

وممّا كَلَّم اللهُ جلّ ذِكْرُهُ به عِبَادَهُ مُقَدَّمٌ وَمُؤَخَّرٌ ، لأَنَّ العَرَبَ قد كانَتْ تَفْعَلُ ذلك في تَرَاجُعِها بينها ، وَمُخَاطَبَتِها قَبْلَ أَن يَنْزِلَ الكِتَابُ على نَبيِّهِ عليه السَّلاَمُ ؛

فمن ذَلِكَ قولُهُ عَزَّ وجَلَّ « فَكَيْفَ كان عَذَابِي ونُذُر » فبدأَ بالعَذَابِ قَبْلَ النُذُر ، وكان قبلَ العَذَابِ لأَنَّ اللهَ جَلَّ اسمُهُ يقولُ : « وما أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إلاَّ لها مُنْذِرُون؛ ذِكْرى »[1] .

وقال في عِقابِ الأُمَم « فانظُرْ كيف كان عاقِبة المُنْذَرِين »[2] فأَخبر أَنهم أُنذروا فلمّا كَذَّبوا كان آخِرَ أَمرِهم العَذَابُ . وقال تعالى « فَسَاءَ صَبَاحُ المُنْذَرين »[3] غَيْرَ أَنَّ العذاب صَبَّحَهُمْ بما نَقَمَهُمْ إذ أُنْذِروا فلم يُؤْمِنوا ، وإن كان قد قَدَّمَ في التنزيلِ العذابَ قبل النُذُر ، فإنه بدأَ فأَخبر أَنه أَنذرهم قبل أَن يُعَذِّبَهُمْ ، ثُمَّ قال في عَقِبِ

(١) الشعراء ٢٠٨ . (٢) يونس : ٧٣ . (٣) الصافات : ١٧٧ .

ذلك « فكيف كان عذابي ونُذُر » [1] فقال : « كَذَّبت قومُ لُوطٍ بالنُذُر » [2] ، « كَذَّبَتْ ثمود » ، « كَذَّبَتْ قومُ لوط المرسلين » [3] وقال « ولقد جاءَ آلَ فِرعون النُذُر ، كَذَّبوا بآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْنَاهم أَخْذَ عَزيزٍ مُقْتَدِر » [4] وقال « فكيف كَانَ عذابي وَنُذُر » وقال عزَّ وَجَلَّ « وما كنا معذِّبين حَتَّى نَبْعَثَ رسولاً » [5] .

ومن ذلك قولُهُ تعالى « مِنْ بعد وَصِيّةٍ يُوْصِي بها أَو دَيْن » [6] فبدأَ في التَنْزيلِ بِالوصيّةِ قَبْلَ الدين ، وقَضَى النبيُّ عليه السَّلامُ بالدَّيْنِ قبل الوَصِيّة .

والأُمَّةُ مُجْمِعةٌ أَلاَّ وصية إلاَّ فيما فَضَلَ مِنْ بعدِ قَضَاءِ الدَّيْن . وكذلك رُوي عن عليّ بن ابن طالب رضي الله عنه أَنه قال : إنكم تَقْرُونَ « من بعدِ وصيةٍ يُوصي بها أَو دَين » (١٢٨) وإنَّ النبيّ عليه السلامُ قضى بالدَّين قبل الوصية ، ولولا سُنَّةُ رسولِ اللهِ صَلَّى الله عليه وسلم ،

---

(١) القمر ١٦ ، ١٨ ، ٢١ ، ٣٠ .
(٢) القمر : ٣٣ .
(٣) الشعراء : ١٦٠ .
(٤) القمر : ٤١ .
(٥) الاسراء : ١٥ .
(٦) النساء : ١١ ، ١٢ .

لكان على العبادِ ان يبدُوا بما بدأَ اللهُ به ؛ الوصيةُ قبل الدَّين ، كما قال : « اركعوا واسجُدُوا »[1] .

وقال عَزَّ وجَلَّ « إِنَّ الصَّفَا والمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ »[2] . فقال النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم: نبدأُ بما بدأَ اللهُ به. ثُمَّ قام على الصَّفَا .

وكَذَلك قَولُهُ عَزَّ وجَلَّ « يا أَيُّها النبيُّ حَسْبُكَ اللهُ ومن اتَّبَعَكَ مِن المؤمِنِيْن »[3] فقُرِىءَ في ظاهِرِ التنزيلِ أَنَّ اللهَ حَسْبُهُ والمُؤْمِنِين ، وإِنَّما حَسْبُكَ الله ، وَحَسْبُ مَنِ اتَّبَعَكَ من المؤمنين اللهُ .

وكذلك « واللهُ ورسولُهُ أَحقُّ أَن يُرضُوه »[4] معنى يُرْضُوا رسولَهُ .

وكذلك « إذا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلزالها ، وأَخرجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ، وقال الإِنْسانُ مَالَها »[5] ولم يبِنْ مَا أَرادَ بقولِهِ « مالها » ، ولا أَبَان ما أُصيبَ به ، وإنما هو في ظاهِرِ التِّلاوة . وقال الإِنسانُ يومئذٍ مالَها ، تحدِّثُ

(١) الحج : ٧٧ . (٢) البقرة : ١٥٨ . (٣) الانفال : ٦٤ .
(٤) التوبة : ٦٢ . (٥) الزلزلة : ١ .

أَخبارَها . قيل له إِنَّ ربَّكَ أَوحى لها . وهو كقول القائلِ :
قال فلان : مالَكَ يومئذ ؟ وإِنما يُريدُ قال فلانٌ يومئذٍ
مَالَك . وهو تقديمٌ وتأْخيرٌ وفي بعضه إِضْمارٌ وهو قِيل
« بأَنَّ ربَّكَ أَوحى لها » .

وقولُهُ عزّ وجَلَّ « سمّاعُون للكَذِبِ ، سَمّاعُون لقوم
آخَرين لم يأْتُوكَ » [1] .

ومن ذلك قولُهُ عَزّ وجَلَّ : « ولولا فَضْلُ الله عليكم
ورحمتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَيْطان » [2] وإنما معناه « وإذا جاءَهم
أَمْرٌ من الأَمْنِ أَو الخَوف أَذاعُوا به [3] إلاَّ قَليلاً » إلى
قولِهِ « لَعَلِمَهُ الذين يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ ولولا فَضْلُ الله عليكم
ورحمتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَيْطانَ إلاَّ قليلا [4] . فقاتِلْ في سبيلِ
الله لا تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ » [5] .

وكذلك قولُهُ : « وإِنَّ منكم لَمَنْ لَيُبَطِّئَن فإِنْ أَصابَتْكُمْ
مُصيبةٌ قال قد أَنعم اللهُ عليّ إذ لم أَكُنْ مَعَهُم شهيداً .
ولئن أَصابَكُمْ فَضلٌ من الله ليقولَنَّ – كأَنْ لم يكن بينكم

---

(١) المائدة : ٤١ .
(٢) النساء : ٨٣ .
(٣) النساء : ٨٣ .
(٤) النساء : ٨٣ .
(٥) النساء : ٨٤ .

وبينَه مودّةٌ - يا ليتَني كُنْتُ معهم فأَفوزَ فَوْزاً عَظِيماً »[1]
فهذا مُقَدَّمٌ ومؤخَّرٌ ، وإنما معناه : ولئن أَصابتْكُمْ مُصيبةٌ
ليقولَنَّ قد أَنعم اللهُ عليَّ إذ لم أَكُنْ معهم شهيداً كأَن لم
تَكُنْ بينكم وبينَه مودّةٌ ، حين قال هذا القول . ولئنْ
أَصابكم فَضْلٌ من الله ليقولَن يا ليتَني كُنْتُ معهم فأَفوزَ
فَوزاً عظِيماً .

وكذلك قولُهُ « إنه من سُلَيمان وإنه بسم الله الرحمنِ
الرحيم »[2] قال : هو أَعلمُ باللهِ عَزّ وجَلَّ من أَن يبدأَ باسمِ
سليمانَ قبل اسْمِ الله عز وجل. وإنما معناه: الكتابُ جاءَني
من سُلَيمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم ، فأَخْبَرَتْ مِمَّن
الكتاب ، وأَنَّ أَوَّلَ صَدْرِ الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم
بدأَ باسمِ الله عزَّ وجلَّ قبل اسمِهِ ، وقد كان النبيُّ عليه
السلام أَوّلاً يكتُبُ : باسمك اللَّهُمَّ ، فلما نَزَلَتْ « إنه من
سُلِيمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم »[3] فكتب النبيُّ
عليه السلامُ بعد ذلك فبدأَ باسمِ الله عَزّ وجَلَّ ، فَدَلَّ
بذلك أَنَّه اتَّبع ما أَخْبَرَ (الله) عن سليمان ، فهذا دليلُ قولِهِ

---

(١) النساء : ٧٢ ، ٧٣ . (٢) النمل : ٣٠ . (٣) النمل : ٣٠ .

« إِنه من سليمان » وإنه مقدَّمٌ ومؤخَّرٌ . لأَنَّ اللهَ عَزّ وجلَّ يَقولُ لنبيِّهِ عليه السلامُ : « فَبِهُدَاهُمُ اقتدِه »[1] .

ولم تَزَلْ كُتُبُ الأَئمّةِ العُدُولِ وعلماءِ الأُمّةِ إلى عَصْرِنَا هذا يُبْدَأُ باسمِ اللهِ أَوَّلُ كُتُبِهِمْ .

وكذلك قولُهُ عَزّ وَجَلَّ « لَهُم غُرَفٌ مِنْ فَوقِها غُرَفٌ مبنيَّةٌ »[2] مقدَّمٌ ومؤخَّرٌ ، وإنما مَعْنَاهُ : لَهُمْ غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ مِن فوقِها غُرَفٌ ، وكذلك فَسَّرَها أَهْلُ التَفْسير .

وكذلك قولُهُ عَزّ وجَلّ « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يؤلِّفُ بَيْنَهُ ثم يَجْعَلُهُ رُكاماً »[3] مقدَّما ومؤخَّراً ، إنما هو « أَلمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحاباً ثم يجعلُه رُكاماً ثُمَّ يؤلِّفُ بَيْنَهُ »[4] لأَنَّ الأَركامَ لا تُؤَلَّفُ بالاستواءِ ، إنما يُجْعَلُ بعضُه فوق بعضٍ ثم يَبْسُطُهُ مؤلَّفاً .

وكذلك قولُهُ عزَّ وجَلَّ « قُل هل أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذلك مثوبةً عندَ اللهِ؛ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عليه وَجَعَلَ منهم القِرَدَةَ والخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغوت »[5] (الآية) .

---

(١) الانعام : ٩٠ . (٢) الزمر : ٢٠ . (٣) النور : ٤٣ .
(٤) النور : ٤٣ . (٥) المائدة : ٦٠ .

وكذلك « ورَفَعَ أَبَويهِ على العَرْش وَخَرُّوا له سُجَّداً »[1] إنما معناهُ وخروا له سُجّداً ، وَرَفَعَ أَبَويْهِ على العَرْش. إنما العرشُ سَريرُ يوسُف عليه السلامُ ، فلم يرفعْهُمْ على السرير ثُمَّ سَجَدُوا له ، إنما سجدوا له تَحيةً وإكْراماً لا عِبادةً له ، ثُمَّ رَفَعَهُما على سريرهِ بعدما سَجَدُوا له ، وأَجْلَسَهُم معه على فِرَاشِهِ ؛ كذلك فَسرَّهَا المُفْسِّرون .

وكذلكَ قولُهُ تعالى : « ولقد آتَيْنَاكَ سَبْعاً من المَثَاني والقرآنَ (١٢٩) العظيمَ . لا تَمُدّنَّ عينَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا به أَزْواجاً منهم »[2] (الآية) . إنما معناه : ولقد آتَيْنَاكَ سَبْعاً من المثاني ، والقرآن العظيم ، كما أَنْزَلْنَا على المُقْتَسِمِيْنَ الذين جَعَلُوا القُرآنَ عِضِين ، فوربِّك لنسأَلنَّهم أَجمعين عَمَّا كانوا يَعْمَلُون ، لا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنَا به أَزْواجاً منهم ، ولا تَحْزَنْ عليهم ، واخفِضْ جَنَاحَكَ للمؤمنين ، وقل إني أَنا النذيرُ المُبين ، فاصدَعْ بما تُؤْمَر وأَعْرِضْ عن المُشْرِكِيْنَ .

وكذلك قولُهُ سُبْحَانَهُ « وبَرَزُوا لله الواحِدِ القَهَّار ،

---

(١) يوسف : ١٠ . (٢) الحجر : ٨٧ .

وَتَرَى المُجْرِمِيْنَ يومئذٍ مُقَرَّنِيْنَ في الأَصْفَاد » [1] إِنَّمَا مَعْنَاهُ : وَبَرَزُوا للهِ الواحِدِ القَهَّار ، لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الحِسَاب وتَرَى المُجْرِمِيْنَ يومئذٍ مُقَرَّنِينَ في الأَصْفادِ. سرابيلُهُم مِنْ قَطِرَانٍ[2] (الآية).

وكذلك قولُهُ « سَيُؤْتِيْنا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ورسولُهُ [3] » إنما معناهُ سيؤتينا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ، ويؤتينا رَسولُهُ من فَضْلِه، فالفضْلُ للهِ وَحْدَهُ .

وكقولِهِ « إذا قُمْتُم إلى الصَّلاةِ فاغسِلُوا وُجُوهَكُمْ» [4] إِنَّما مَعْنَاهُ : أَن يَغسِلُوا وُجُوهَهُمْ قبل أَنْ يقومُوا إلى الصَّلاةِ ثُمَّ يقُومُوا إليها . فقال بعضُهُم : يَعْني إذا قُمتُم من النَوْم .

وقال عَزَّ وجَلَّ : « فَاهدُوهُم إلى صراطِ الجحيم » [5] . إنما معناه وقفوهم إنهم مَسئُولُون . ثم اهدُوهُم إلى صِراطِ الجحيم .

وكذلك « فإذا قرأتَ القُرآنَ فاستعِذْ باللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَجِيم » [6] مُقَدَّمٌ ومؤخَّر ، إنما هو فاستعِذْ بالله واقرإِ

---

(١) ابراهيم : ٤٨ ، ٤٩ . (٢) ابراهيم : ٤٨ ، ٤٩ . (٣) التوبة : ٥٩ .
(٤) المائدة : ٦ . (٥) الصافات : ٢٣ . (٦) النحل : ٩٨ .

القرآن ، فكان معناهُ : فإذا استعذْتَ بالله فاقرأ القُرآنَ .
المَعْنى من الله جَلَّ ثَنَاؤُهُ : إذا أَردْتَ أَن تقرأَ فاستعِذْ قبل أَنْ تَقْرأَ ، فقدَّمَ القراءَةَ قبل الاستِعاذَةِ .

وقولُهُ « قُلْ لو أَنتُم تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ ربِّي»[1] مقدَّمٌ ومؤخَّرٌ وإنما هو في المعنى . ولو تَمْلِكُون أَنتُم خَزَائِنَ رَحْمَةِ ربِّي .

وقولُهُ « نأْتِ بخيرٍ منها أَو مِثْلَهَا »[2] مقدمٌ : نأْتِ منها بِخَيْر .

وقولُهُ « فاذهَبْ أَنت وربُّك فَقَاتِلا »[3] معناه : اذهَبْ أَنت فَقَاتِلْ ، ويُعينُك ربُّك ولم يَعْنُوا أَن يَذْهَبَ اللهُ فَيُقَاتِلَ ، ولو كان ذلك معناهُ كَفَرُوا .

وقولُهُ :« مَنْ قَتَلَ نفساً بغيرِ نَفْسٍ او فسادٍ في الأَرْض»[4] معناه بغيرِ فسادٍ .

وقوله « فريقاً كَذّبوا وَفَريقاً يَقْتُلُون »[5] معناهُ :

---

(١) الاسراء : ١٠٠ . (٢) البقرة : ١٠٦ . (٣) المائدة : ٢٤ .
(٤) المائدة : ٣٢ . (٥) المائدة : ٧٠ .

وفَرِيقاً يقتُلُون فريقا . كِلاَ الكلمتَيْنِ مقدمةٌ مؤخرةٌ .

« ثُم الذين كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُون » [1] مَعْنَاهُ : يَعْدِلُون بِرَبِّهِمْ .

« وأَجَلٌ مُسَمى عِنْدَه » [2] مؤخَّرة : وعنده أَجلٌ مُسمى .

وقولُه تعالى « وَعِظْهُم وقُلْ لهم في أَنْفُسِهِم قَوْلاً بَلِيغا » [3] وإنما معناهُ : وعِظْهُمْ في أَنْفُسِهِمْ وَقُلْ لهم قَوْلاً بليغا .

وقولُهُ « خلق الانسان من عجل » [4] معناه خُلِقَ العَجَلُ من الإنسان ، وهي العَجَلَةُ ، لأَنّ آدَمَ عليه السلام أَرادَ أَنْ يقومَ قَبْل أَن تَصِيرَ الرُّوحُ إلى رِجْلَيْهِ [5] ، فقالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ « خُلِقَ الإِنْسانُ من عَجَل » [6] لأَن العجل فِعْلُ الإنسان بَعْدَمَا خُلِقَ ، وكذلك قولُهُ « وكان الإِنْسَانُ عَجُولاً » [7] .

وكذلك قولُهُ تعالى « ما إِنّ مفاتِحَهُ لَتَنُوءُ بالعُصْبَة » [8] . إِنما هو ان العُصْبَة لَتَنُوءُ بِمَفَاتِحِهِ .

---

(١) الأنعام : ١ . (٢) الأنعام : ٢ .
(٣) النساء : ٦٣ . (٤) الأنبياء : ٣٧ .
(٥) تفسير ابن كثير ١٧٨/٣ : قال مجاهد : خلق الله آدم بعد كل شيء من آخر النهار من يوم خلق الخلائق ، فلما أحيا الروح عينيه ولسانه ورأسه ولم يبلغ أسفله ، قال : يا رب استعجل بخلقي قبل غروب الشمس . (٦) الأنبياء : ٣٧. (٧) الإسراء : ١١. (٨) القصص : ٧٦.

وقولُهُ « فما أَصْبَرَهُم على النار » [1] معناه فما الذي صَبّرَهُم على النار [2] ...

وقولُهُ « يَضْرِبُون وجوهَهُمْ وأَدْبارَهُم وذُوقُوا عَذَابَ الحَرِيق » [3] معناهُ : ونقولُ ذُوقوا عَذابَ الحَرِيق .

وكذلِكَ قولُهُ « نَاكِسوا رؤوسِهم عند ربِّهم رَبَّنا أَبصرْنا وسَمِعْنا » [4] معناه : يقولون رَبّنا أَبْصَرْنا وسمِعْنا .

وقال « واسأَلْ مَنْ أَرسَلْنَا » [5] إنما هو : واسأَلْ مَنْ أَرسلنا إليهم مِنْ قَبْلِكَ .

وقولُهُ « إلاَّ مَنْ شاءَ أَن يَتَّخِذَ إلى رَبِّه سَبيلا » [6] مُضْمَرٌ مَعْنَاهُ إلاَّ أَنَّه مَنْ شاءَ أَنْ يَتَّخِذَ .

وقولُهُ « فإِنهم عَدُوٌّ لي إلاَّ رَبَّ العَالَمِيْن » [7] لا عَدُوَّ لي ؟ ! [8] (١٣٠) .

---

(١) البقرة ١٧٥ .

(٢) القرطبي ٢/٢٣٦ : قيل : ما ، استفهام معناه التوبيخ ؛ قاله ابن عباس والسدي وعطاء وأبو عبيدة معمر بن المثنى ، ومعناه : أي أي شيء صبرهم على عمل أهل النار ؟ ! وقيل : هذا على وجه الاستهانة بهم ، والاستخفاف بأمرهم . وفي الأصل : أصرهم . والتصحيح من : مجاز القرآن ١/٦٤ .

(٣) الانفال : ٥٠ . (٤) السجدة : ١٢ . (٥) الزخرف : ٤٥ . (٦) الفرقان : ٥٧ . (٧) الشعراء : ٧٧ .

(٨) القرطبي ١٣/١١٠ : قال الكلبي : إلا عابد رب العالمين ؛ فحذف المضاف ... وقال الجرجاني تقدره : أفرأيتم ما كنتم تعبدون أنتم وآباؤكم الأقدمون إلا رب العالمين ، فإنهم عدو لي . وواضح أن في كلام الأصل نقصاً .

وقولُهُ « ما كان يَنْبغي لَنَا » [1] مقدمٌ ،مؤخرٌ : ما كان لَنَا يَنْبغي .

وقولُهُ « وغَرَابيبُ سُود » [2] مقدمٌ ومؤخرٌ : سودٌ غَرَابيبُ ، لأَنه يُقالُ أَسْوَدُ غِرْبيبٌ .

باب الاضمار :

وقال : أَبو عبدِ الله : ومن كلامِ اللهِ عَزّ وجَلَّ « وأُشربوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ بِكُفْرِهِم » [3] وإنما هو حُبُّ العجل .

وكذلك قولُه « فأَما الذين اسودّتْ وجُوهُهم أَكَفَرْتُم » [4] إنما هو : فيقولُ لهم أَكفرتُم بعد إيمانِكُم .

وقولُهُ « وأَسأَلِ القرية » [5] أَهْلَ القريةِ « واسأَل العِيَر » [6] أَصحَابَ العِيْر « وكَمْ مِنْ قرية » [7] .

---

(١) الفرقان : ١٨ .

(٢) فاطر : ٢٧ .

(٣) البقرة : ٩٣ .

(٤) آل عمران : ١٠٦ .

(٥) يوسف : ٨٢ .

(٦) واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي اقبلنا فيها : يوسف ٨٢ .

(٧) الاعراف : ٤ .

ومِنْ كلامِ اللهِ عَزّ وجَلَّ الشيءُ مُسَمًّى باسمٍ يُشْبِهُهُ لا باسمِهِ ، والعَرَبُ تَفْعَلُ ذَلِكَ كَقَوْلِهِ تعالى « كَمَثَلِ الذي يَنْعَقُ بما لا يَسْمَعُ إلاَّ دُعاءً ونِداءً »[1] فأَرادَ المَنْعُوقَ وهي الغَنَمُ ، فَسَمَّى النَاعِقَ وهو الصّائِحُ بالغَنَم .

الحروف الزوائد :

ومِنَ الحُروفِ زَوَائِدُ فَمِنْ ذَلِكَ « غَيْرِ المغضوبِ عليهم ولا الضَّالِّين »[2] إنما معناهُ غيرُ المَغْضوب عليهم والضَّالِّين .

وكذلك قولُهُ « خَلَقَكُم والذين مِنْ قَبْلِكُم »[3] مِنْ زائدة ، إنما هو والذين قَبْلَكُم .

وكذلك قولُهُ « ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إذ أَمرْتُكَ »[4] معناهُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ ؛ « لا » مِنَ الزَّوائِدِ تأْكيدٌ لانَفْيٌ .

وكذلك « ما نهاكُما ربُّكُما »[5] معناهُ (إلاَّ كراهية) أَنْ[6] . تقولُ العَرَبُ : ما عِنْدَكَ نَفْعٌ ولا دَفْعٌ .

---

(١) البقرة : ١٧١ . (٢) الفاتحة : ٧ . (٣) البقرة : ٢١ .

(٤) الاعراف : ١٢ : أبو عبيدة : مجاز القرآن ٢١١/١ : مجازه : ما منعك أن تسجد ، والعرب تضع (لا) في موضع الايجاب ، وهي من حروف الزوائد .

(٥) الأعراف : ٢٠ ، تكملة الآية « عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .

(٦) في هذا الموضع نقص ، واختلاط في السطور ، والإصلاح من : تفسير القرطبي ٨٧٨/٨ .

وقولُهُ تعالى « إنَّ اللهَ لا يستحيي أَن يضرب مثلاً ما بعوضَةً فما فوقها » [1] ، انما معناه أَن يَضْرِب مثلاً بعوضةً فزاد قولَهُ « ما » توكيداً .

وكذلك قولُهُ « فَبِما نَقْضِهِمْ » [2] « ما » زائدة معناهُ فبنقضِهِم مِيثاقَهُمْ .

وكذلك قولُهُ « له معقِّباتٌ من بين يديهِ ومن خَلْفِهِ يحفظونَهُ من أَمْرِ الله » [3] انما هو يحفظونَهُ بأَمر اللهِ .

وكذلك قولُهُ تعالى « قل للمؤمنين يَغُضُّوا من أَبْصارِهِمْ » إنما هو يَغُضُّوا أَبْصَارَهُمْ . [4]

وكذلك قولُهُ « ما وجَدْنا لأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ » [5] معناه : ما وَجَدْنا لأَكْثَرِهِمْ عَهْداً . « واذ قُلنا للملائكةِ » [6] معناه : وقُلْنَا للملائكةِ .

---

(١) هذا السطر ساقط من الأصل ، والسياق يقتضي إثباته على هذا الوجه ، واستناداً إلى مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/٣٥ .

(٢) النساء : ١٥٥ .　(٣) الرعد : ١١ .　(٤) النور : ٣٠ .

(٥) الاعراف : ١٠٢ .　(٦) البقرة : ٣٤ .

وكذلك قولُهُ « وإذ قال موسىٰ لقومه »[1] معناه: وقال مُوْسى لقومهِ .

وقولُهُ « أَن ينزلَ عليكم من خيرٍ من ربِّكُمْ »[2] معناه خَيْر ربِّكم .

وقولُهُ « واذ أَوْحَيْتُ إلى الحوارِّييْن»[3] (وقوله) « إذ قال اللهُ يا عيسى ابن‌مريم... وإذ عَلَّمْتُكَ ... وإذ أَوحيتُ ».

وقولُهُ « أَأَنت قُلْتَ للناس »[4] تقريرٌ لا استفهامٌ على جَهْلٍ ليعلَمَهُ ، كقولِ الرجُلِ لعبدِه : أَفعلْتَ كذا وكذا ؛ يُريد تَحْذِيرَهُ . وقال جَرير[5] :

أَلَسْتُم خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايــا
وأَنْدَي العَالِمَيْنَ بُطُــونَ رَاح

ولو كان استفهاماً ما أَعْطاهُ عبدُ المَلِك على ذلك مايَة ناقةٍ بِرُعاتِها .

---

(١) البقرة : ٥٤ . (٢) البقرة : ١٠٥ . (٣) المائدة : ١١١ . (٤) المائدة : ١١٦ .

(٥) جرير بن عطية بن الخطفى (— ٩٥ هـ) . قال عمر بن شبة : اتفقت العرب على أن أشعر أهل الإسلام ثلاثة : جرير والفرزدق والأخطل ... وكان جرير أكثر الثلاثة فنون شعر ، وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلهم تكلفاً ، وأرقهم نسيباً . وكان ديناً ، عفيفاً : الأغاني ٢٧٤٩/٧ — ٢٨٣٥ .
والبيت من قصيدة في مدح عبد الملك بن مروان ، مطلعها :
أتصحــو أم فـــؤادك غير صـــاح عشية هــم صحبــك بالرواح
والخبر الذي أشار إليه المحاسبي ورد في الأغاني ٢٨١٤/٧ : فأمر له بمائة لقحة وثمانية من الرعاء.

« إِلَهَيْنِ » اثنين ، إذا أُشْرِك فعلُ الذَكَرِ مع فِعْل الأُنْثى غُلِّبَ فِعْلُ الذكَرِ . وقال جَلَّ ذِكْرُهُ « وامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُم وأَرْجُلَكُم »[1] مجرورٌ بالباءِ وهي مشتركةٌ بالكلامِ الأَوّلِ من المَغْسُول والعربُ تَفْعَلُ ذلك . . . ا بالجِوارِ للمَعْنى على الأَوّل فكان موضعُهُ : واغْسِلُوا أَرْجلَكُم .

وكقولِهِ « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ في رحمتِهِ والظَّالِمِيْن »[2] على موضع المَنْصُوب الذي قَبْلَهُ ، والظالِمِين لا يُدْخِلُهُمْ في رَحْمَتِهِ .

قولُهُ « وإن كُنتُمْ جُنباً فاطَّهَّروا »[3] واللفْظُ الواحِدُ والجميعُ عنه : هو جُنُبٌ وهُمْ جُنُبٌ . وأَمَرَ بالقِسْطِ والمَعْدَلَةِ[4] .

وقولُهُ « ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إذ أَمرْتُكَ »[5] « لا » حَرْفٌ زائِدٌ ، إنَّما معناهُ ما مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ .

« وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاها »[6] ، « وما أَهلَكْنا (من

---

(١) المائدة : ٦ .   (٢) الأنعام : ٣١ .   (٣) المائدة : ٦ .

(٤) يشير إلى قوله تعالى بعد آية الطهارة « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله ، شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنان قوم على ألا تعدلوا . إعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

(٥) الاعراف : ١٢ : سبق للمحاسبي أن أورد هذه الآية وما فيها من حروف زائدة صفحة ٥١٦ .

(٦) الأعراف : ٤ .

قرية) إلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُوم »[1] ، « وإنْ من قريةٍ إلاَّ نحن مُهْلِكُوها »[2] يعني : وإن من قريةٍ نحن مُهْلِكُوها .

المفصل والموصول :

وأَمّا المُفَصَّلُ والمَوْصُولُ فإنَّ الله عَزّ وجَلَّ يقولُ « ولقد وَصَلْنا لَهُمُ القَوْلَ لعلَّهُمْ يَتَذَكَّرُون »[3] .

فَفَصْلُ الكَلِمَةِ من الكلمةِ إذا انفَرَدَتْ كُلُّ واحدةٍ منهما بمعنى هو المعنى الذي في الأُخْرى ، وكان لا يَتِمُّ المعنى الا بِتَوَاصُلِهِما جميعاً ؛

فهو مُوَصَّلٌ ومُفَصَّلٌ من هذه الجِهة ؛

وهو كُلُّه مُفَصَّلٌ مِنْ معنىً آخَرَ ؛ إنَّ الله جَلَّ ذِكْرُهُ ، بَيَّنَهُ كُلَّهُ ، وهو قولُهُ تعالى « وفَصَّلْناهُ تَفْصيلا »[4] .

وقال عَزَّ مِنْ قائل « أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُن حَكيمٍ خَبير »[5] .

وقال « وقد فَصَّلَ لكم ما حَرَّمَ عليكم »[6] « وكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْناه تَفْصيلا »[7] . وقال عَزّ وجَلَّ « وكذلك

(١) الحجر : ٤ . (٢) الإسراء : ٥٨ . (٣) القصص : ٥١ . (٤) الاسراء : ١٢ .
(٥) هود : ١ . (٦) الانعام : ١١٩ . (٧) الإسراء : ١٢ .

نُفَصِّلُ الآياتَ لَعَلَّهم يَتَذَكَّرون »[1] ، « وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لقَومٍ يَعْلَمُون »[2]، « قد فصَّلْنَا الآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُون »[3] ، « وكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآياتِ ولِتَستَبينَ سَبيلُ المُجْرِمين »[4]

فأَنْزَلَ اللهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ كِتَابَهُ بِلِسَانِ العَرَبِ ، لِيَفْهَمُوا معانِيَ ما أَرادَ فيما أَمَرَ بِهِ ، ونَهَى عنه ، ووَصَفَ به نَفْسَهُ ، وَوَعْدَهُ ووعيدَهُ ، وجميعَ ما نَزَّلَهُ ، فقال عَزّ مِنْ قائلٍ « بِلِسان عربيٍّ مُبين »[5] . وكَلامُ العَرَبِ له فُصولٌ ، ووُصولٌ ، ليُبَيِّنَ به المعاني ، ويُفْصِحَ به عن المُراد ، فَيَصِلَ الكلمةَ بالكلمةِ إذا كانت الكلمةُ الأُولى لا تُبِيْنُ عن المعنى وَحْدَها ، (١٣١) حَتَّى تَصِلَ بها الكلمة الأُخرى .

لو قال قائل « مِنْ » لم يَدْرِ سامِعُهُ ما يُريدُ حَتَّى يَصِلَها « مِنْ أَين جِئْتَ ؟ ». ولو قال « قُلْتُ » لم يُدْرَ مَا قَال ، حَتَّى يَقولَ كذا وكذا ؛ ولو قال « أَحمد » لم يَدْرِ مَنْ

(١) الأعراف : ٣٢ . (٢) الأعراف : ٣٢ (٣) الأنعام : ٩٨ .

(٤) الأنعام : ٥٥ . (٥) الشعراء : ١٩٥ .

يُريد ، حتى يقولَ : النبيُّ عليه السّلامُ ، وإني فلان ، ولو قال « سَمِعْتُ » ما دَرَى سامِعُهُ ما سَمِعَ حتَّى يقول كذا وكذا .

ومنه مفصل يَتمّ المعنى بالكلمةِ ، والكلمتَيْنِ ، والثَلاَث ، فصاعداً فيتمُّ المَعْنى ، ثُمَّ يُريدُ المتكلِّمُ أَن يستأْنفَ كلاماً آخَرَ يُبيِّنُ عن مَعْنَى ثَانٍ ، فَيَقْطَع الكلامَ الأَوّلَ عند تَمَامِ المعنى ثُم يَسْتَأْنِفَ كلاماً آخَرَ ثانياً يَتَبَيَّنُ عن مَعْنىً ثانٍ لا على الأَوّل .

لو قال قائلٌ : أَحمدُ كريمٌ ، ثُمَّ أَراد أَن يَذُمَّ إِسحاقَ ولا يُدْخِلَه في المَدْحِ بالكَرَم ؛ فقال : أَحمدُ كريمٌ وإِسْحَاقُ ، لم يَدَعْهُ حَتَّى يَصِلَهُ .

ولو قال : لي على فُلاَنٍ أَلفُ درهم ، ثم أَرادَ أَنْ يخبرَ أَنَّ فلاناً قد أَوفاهُ فقال: لي على فلانٍ أَلف درهم وفُلاَن . فلَوْ سَكَتَ على قولِهِ « وفُلان » كان ادِّعاءً عليهما جميعاً أَلْف درهم ، فإِن قال : وفلانٌ قد أَوفاني كانَ فَصل ما بَيْنَهما ؛

وان ادَّعى على الأَوَّل أَلْفاً ، وفَصَلَ الآخرَ منه بالبَرَاءَةِ

له مما كان له ، وإنَّما يُفْصَلُ الثاني من الأَوَّل بأَنْ فَصَلَ الكَلاَمَ بكلامٍ ثانٍ تبيَّنَ به مَعْنَى الثَّاني من الأَوّل ، كقوله : ذهبْتُ أَنا وفُلانٌ ، فلو سَكَتَ عليه كان قد أَخبر أَنهما ذَهَبَا جميعاً ، فإنْ فَصَلَهُ بِكَلاَمٍ مُسْتَقْبَلٍ أَبَانَ أَنْ قَدْ فَصَلَ الأَوّل .

ذهبْتُ أَنا وفُلانٌ لَمْ يَذْهَبْ معي ، فلم يَقِفْ على فُلان . فيكونُ قد أَخبر أَنه قد ذَهَبَ معه ، ولكي يُبَيِّنَ أَنه عطف اسمَهُ (ليُبَيِّن) ما قَطعه عن الذَّهاب بكلامٍ يُدْخِلُه بقوله : وفُلان ... يُخَبِّرُ أَنه لم يذهب مَعَهُ ، وأَنه هو ذَهَبَ وَحْدَهُ .

وكذلك قولُ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ يُبَيِّنُ المعنى بالواوِ فقال « إنَّ الذين آمَنُوا والذين هَادُوا والنَّصارى »[1] فَفَصلَ بينَهم .

ولو قال قائِلٌ إنَّ الذين آمَنُوا وهادُوا كان قَدْ فَصَلَ بينَهُما .

وكذلك قولُهُ : السماءُ والأَرضُ ، والذَّكَرُ والأُنْثَى ،

---

(١) البقرة : ٦٢ .

ولا يجوزُ السماءُ الأَرضُ ، الذكرُ الأُنْثى ، فيكون مَعْنَاهُما (واحداً) .

وكذلك فَصَّلَ اللهُ فقال « هو اللهُ الذي لا إله إلاَّ هو عالمُ الغيب والشَّهادةِ هو الرّحمَنُ الرحيم ، »[1] وكذلك « بسم الله الرحمنِ الرحيم » ولا جَائِز : بسم ِ الله الرَّحمن الرحيم ، فَيُوهِم أَنهما اثْنَان .

وكذلك قولُهُ « محمَّدٌ رسولُ الله » ولا جائِزَ محمد ، ورسولُ الله فَيَكُونا اثنَيْن .

ولا يجوزُ الفَصْلُ فيما لا يَتِمُّ إلاَّ بالوَصْل ،ولا يجوزُ الوَصْلُ فيما لا يَتمُّ معناهُ ، إلاَّ بالفَصْل ، فيمن لم يَجْهَرْ بذلك ؛

فمِنَ الفَصْلِ والوَصْلِ ما لو وُصِلَ المَفْصُولُ كانَ في ظاهِرِ تِلاوتِه كُفْراً ، وكذلك إن فُصِلَ الموصولُ كان في ظاهِرِ تِلاوتِه من كِتابِ الله عَزَّ وجَلَّ كُفْراً ، فهُو المَوْصولُ الذي لا يَجُوزُ قَطْعُهُ ، ومَنْ قَطَعَهُ كان كافِراً ، كقولِهِ « لا إله » ويقفُ نَفْياً لله تَبَارَكَ وتعالى . ولو لم يَقِفْ

(١) الحشر : ٢٢ .

واستأنَفَ كلاماً ليس بِمُوَصلٍ ، كان كَافِراً أَيضاً ، لو قال: لا إِله ، واستغْفِرْ لِذَنْبِكَ ، كان قد جَحَدَ الله جَلَّ وعَزّ .

وكذلك قولُهُ يأمُرُ « فاعلم أَنَّه لا إِلَه » [١] ولَمْ يَصِلْها « إلاَّ الله » ، فهي كَلمةٌ أَوّلُها نَفْيٌ لِكُلِّ إِله ، فإذا وَصلَها بقوله « إلا الله » ، كان توحيداً لله وَحْدَهُ بِنَفْيِ كُلِّ مَعْبُودٍ دُونَهُ .

وكذلك قولُهُ تَعَالى « قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ في السموات والأَرضِ الغَيْبَ إلاَّ الله » [٢] كان عِلْمُ الغيب منتفياً عن سوى الله ، موصوفاً به وَحْدَهُ .

وكذلك قولُهُ عَزَّ مِنْ قائلٍ « وعندَهُ مَفَاتِحُ الغَيْب لا يَعْلَمُها » [٣] . وكذلك قولُهُ « إِنَّ الله لا يَسْتَحيي » حَتَّى يَصِلَها بقولِهِ : « أَن يَضْرِبَ مَثَلاً ما بَعُوضَةً » [٤] .

وكذلك قولُه « واللهُ لا يَسْتَحيي » [٥] حَتَّى يَصِلَها « مِنَ الحَقِّ » [٦] .

وكذلِك قولُهُ « إِنما قولُنا لِشَيْءٍ إذا أَرَدْناه أَن نقولَ

---

(١) محمد : ١٩ . (٢) النمل : ٦٥ . (٣) الانعام : ٥٩ : لا يعلمها إلا هو.
(٤) البقرة : ٢٦ . (٥) الأحزاب : ٥٣ . (٦) تتمة الآية السابقة .

له » [1] لم يَجُزْ أَيضاً قَطْعُهُ إذا لم يُبيِّنْ ما يقولُ للشيءِ فقال « كن » ثم وَصَلَهَا فقال « فيكون » . ثم استأْنف فقال : « والذين هَاجَرُوا » .

وأَمَّا ما قَطَعَ اللهُ تَبَارَكَ وتعالى المعْنَى بالقَوْلِ فلم يَصِلْهُ بِمَعْنىً ثانٍ ، فيكونُ مَعْنَاهما واحداً مما قَطَعَ الأَوّل (١٣٢) ، وإنَّ وَصَلَه بغيره بتمام مَعْنى الأَوّل ، واستأَنَفَ قولَه ثَانياً وَصَلَهُ بمعنىً ثانٍ مُسْتَقْبَلٍ لِيُفَرِّقَ به بين المَعَنْيَيْنِ فيه ما يكونُ كُفْراً لأَنْ يُذَمَّ به حتى يَقْطَعَهُ ولا يَصِلَهُ ، كقوله تعالى « للذينَ لاَ يُؤمنونَ بالآخرة مَثَل السوءِ » [2] فهذا كلامٌ تامٌّ معناهُ لو وَصَلَه فقال « ولله » ، ثُمَّ قَطَعَ كان كافراً حَتَّى يَصِلَهُ بقوله « ولله المَثَلُ الأَعْلَى » ولكن يتلُوه مستأَنفاً فَيُفْرِدَهُم عن اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ بالمَثَل السُوءِ ، ويُفردَ اللهَ جَلَّ وعَزَّ عنهم بالمَثَل الأَعْلى .

وقولُهُ « إنما يستجيبُ الذين يَسْمَعُون » [3] فقطع

---

(١) النحل : ٤٠ .

(٢) النحل : ٦٠

(٣) الأنعام : ٣٦ .

المستمعِينَ من المَوْتى ، ثُمَّ قال « يبعَثُهم اللّهُ » فوَصَلَ المَعْنى بذكْرِ البَعْث لهم .

وقوله « سيماهُم في وجوهِهِم منْ أثرَ السُّجود ذلك مَثَلُهُم في التوراة » ثم استأنف « ومثلهم في الانجيل كزرع »[1] (الاية) .

وقولُهُ تعالى « فأولى لهم »[2] ثُمَّ استأنَفَ « طاعةٌ وقولٌ معروف (فإذا عَزَمَ الأمرُ فلو صَدَقُوا اللّهَ لكان)خيراً لهم»[3].

وكذلِكَ قولُهُ تعالى « ويجعلُون لله البَنَات سُبْحانَهُ ولهم »[4] فلو وَقَفَ على قولِهِم « لَهُمْ » فوصَلَهُ ولم يَقْطَعْهُ منه بمستأنَفٍ بقولهِ « ما يَشْتَهُون »[5] لكانَ قد أخبر أنَّهم قد جَعَلُوا لله البنات ولهم جَميعاً ما يشتهون ، فأَخْبَرَ أنهم وَصَفُوا اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ بأَنَّ له البناتِ ، ولم يَصِفُوه بما يَشْتَهُون من الذُّكْران ، وَجَلَّ عنهما جميعاً وانما ذَمَّ اللّهُ المشركين حيث يَجْعَلُون له ما يَكْرَهُون لأَنْفُسِهِمْ

---

(١) الفتح : ٢٩ .

(٢) محمد : ١٩ .

(٣) محمد : ٢٠ .

(٤) النحل : ٥٧ .

(٥) النحل : ٥٧ .

من البَنَاتِ ، ويجعلُونَ لأَنفُسِهِم الذُكْرَانَ ، فيجعلُون أَنفُسَهُم فوقَ اللهِ جَلَّ وعز ؛ لتوكيدِ الحُجّةِ عليهم بعد إقرارِهم أَنَّ اللهَ خالِقُهم ، ثم يَجْعَلُون له ما يكْرَهُون لأَنْفُسِهِمْ ، وكذلِك قولُهُ « إنَّ اللهَ يُدْخِلُ الذين آمَنُوا وَعَمِلوا الصّالحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تحتِها الأَنْهار »[1] ثم الكلامُ لِتَمَامِ المَعْنى ، لِثوابِ الذين آمَنُوا ، ثُمَّ استأنَفَ فقال « والذين كَفَرُوا يَتَمَتَّعُون ويأْكُلُون كما تَأْكُلُ الأَنْعامُ والنارُ مَثْوىً لهم »[2] فلو وصلها واصل ، ولم يقطعها باستثناء فقال « والذين كَفَرُوا »[3] لكان قد وَصَفَهُم بِدُخُولِ الجَنَّاتِ مع الذين آمَنُوا .

وكذلك « يا نُوحُ اهبِطْ بِسَلَامٍ منا وبَرَكاتٍ عليكَ وعلى أُمَمٍ مِمّنْ مَعَك »[4] فَتَمَّ الكلامُ بِتَمَامِ المَعْنى ، بإيجاز اللهِ لنوحٍ وَمَنْ معه البركاتِ والسَلَامِ ، ثُمَّ استأْنَفَ الأُمَمَ مِنْ بعده بالمَتَاعِ والعَذَاب ، ولم يَصِلِ الكَلَامَ فيشترك الأُمَمُ بعدَهُ في السلامِ والبركاتِ ، وكذلِك « إن

---

(١) محمد : ١٤ .
(٢) محمد : ١٢ .
(٣) محمد : ١٢ .
(٤) هود : ٤٨ .

مَثَلَ عِيْسى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ » [1] إلى قولِهِ « ثُمَّ قالَ له كُنْ فيَكُون » [2] ثُمَّ قَطَعَ واستأنَفَ فقال « الحَقُّ من ربِّك » [3] مستأنِفاً فوقَعَ الحقُّ مستأنَفاً ، وكذلك « فَريقاً هدَى وفريقاً حَقّ عليهم الضَّلالة » [4] والمبتدأُ في أكثرِ الأَخبار مرفوعٌ ، ولكنَّ هذا الموضعَ نَصَبَ الثانيَ المقطوعَ من الأَوّل ، فجعلَهُما جميعاً في مَعْنى المفعول بهما ، يُخَالِفُ بين مَعْنَاهُما ، ثُمَّ اتبع آخِرَ الفريقَيْنِ بما حَقّ عليهم من الضَّلالَةِ ، بخِلافِ الفِرقةِ الأُولى التي هَدَاها فقال « فريقاً هَدَى » ثُمَّ استأنَفَ فقال « وفريقاً حَقَّ عليهم الضلالةُ » .

وقولُهُ « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مرقَدِنا » [5] فَقَطَعَ ثم استأنف « هذا ما وعَدَ الرحمنُ » [6] ، قالت الملائكةُ هذا ما وَعَدَ الرحْمَنُ .

وقولُهُ « إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قريةً أَفْسدوها ، وجَعَلُوا أَعزَّةَ أَهلها أَذِلَّةً » [7] فَقَطَعَ ثُمَّ قال « وكذلكَ يَفْعَلُون » [8] .

---

(١) آل عمران : ٥٩ .
(٢) آل عمران : ٥٩ .
(٣) آل عمران : ٦٠ .
(٤) الاعراف : ٣٠ .
(٥) يس : ٥٢ .
(٦) يس : ٥٣ .
(٧) النمل : ٣٤ .
(٨) النمل : ٣٤ .

وقولُهُ « قُلْ لا تُقْسموا [1] » ، لا تَحْلفُوا ، ثم ابتدأ فقال « طاعةٌ معروفةٌ » معناه: أو طاعةٌ معروفةٌ .

وقولُهُ « فإنَّه يَحْملُ يومَ القيامة وزراً خالدِين فيه ، وساءَ لَهُم يومَ القِيامةِ حَمْلاً » [2] معناهُ وساءَ ذلك الوزْرُ يَوْمَ القِيامةِ حَمْلاً .

والمفصل الذي ابتدأَهُ باستئناف ما بعدَه بتَمَام الكلامِ ، ولو لَمْ يَصلْهُ بكلام ثانٍ فليس مفصولاً بالأَوَّلَ فالمُفَصَّلُ لا يَخْلُو من أَن يُوْصَلَ بكلامٍ مستأَنَف إلاَّ أَنه لا يُوْصَلُ بالأَول وإنما يُوْصَل بالثالِث . وكذلك قولُهُ : « ما المسيحُ بنُ مريم إلاَّ رسولٌ خَلَتْ من قبلهِ الرُّسُل » [3] .

(هو آخِرُ الكتاب) [4]

---

(1) النور : ٥٣ .

(2) طه : ١٠٠ .

(3) المائدة : ٧٥ .

(4) تتبع هذه العبارة سطور تتضمن تفصيلات نحوية في إعراب فاتحة الكتاب ، تذكر فيها آراء للفارسي والزمخشري وابن جني . ولا شك ان في آخر المخطوطة سقطاً قد يبلغ الصفحة أو يزيد ، يحتوي على بقية حديث المحاسبي عن « المفصل » في القرآن ، ثم خاتمة الكتاب .

توثيق نسبة « فهم القرآن » الى المحاسبي

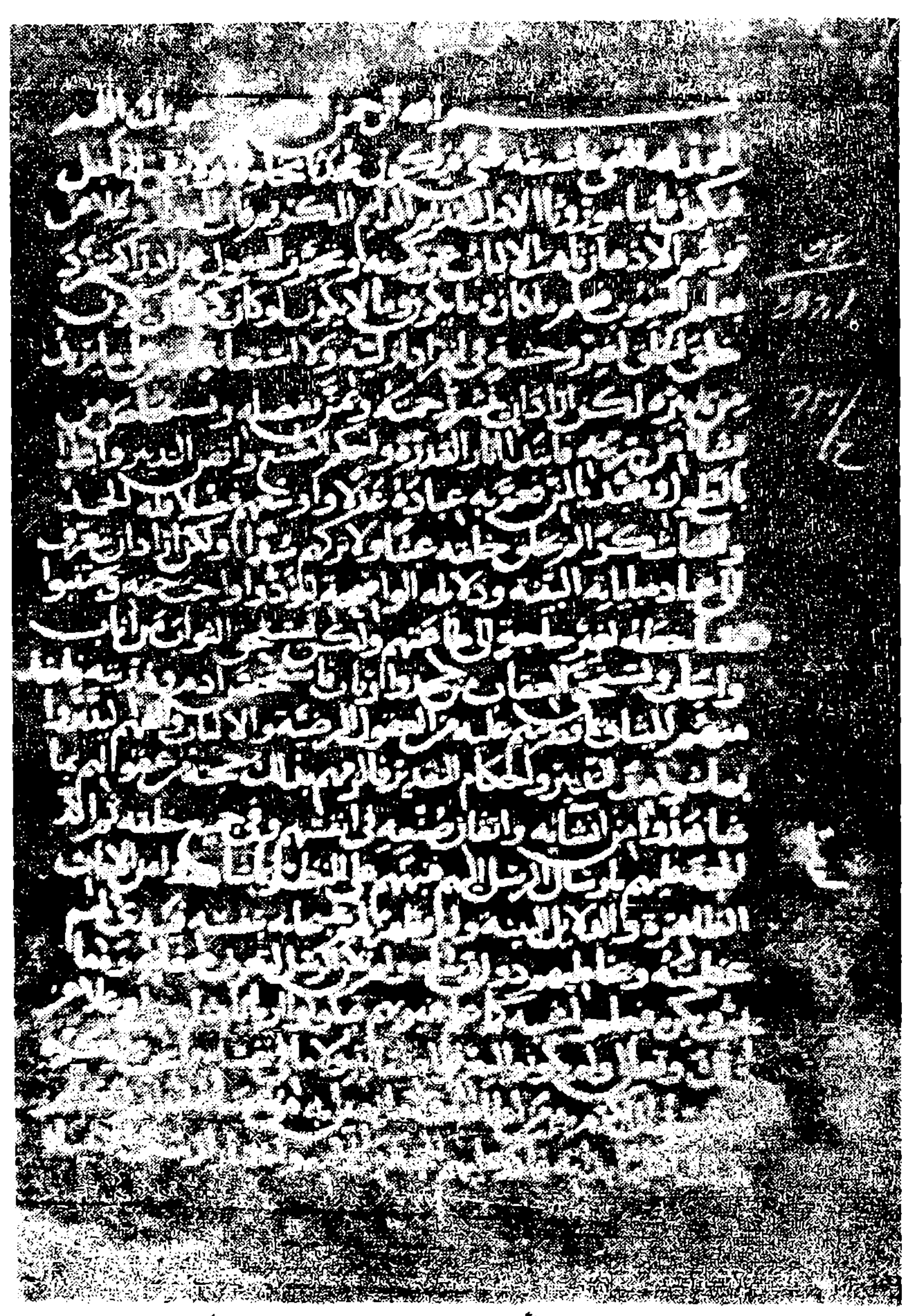
مجموع الفتاوى لابن تيمية

٥/ ٥٥٧ . ط : مطابع الرياض

وكذلك ذكرها (يعني مقالات الفرق ، والرد على الجهمية والمعتزلة) الحارث المحاسبي في كتاب « فهم القرآن » وغيره ؛ بيّن فيه من علو الله واستوائه على عرشه ما بيّن به فساد قول النُفاة ؛ وفرح الكثير من النظار الذين فهموا أَصل قول المتكلمين ، وعلموا ثبوت الصفات لله ؛ وأَنكروا القول بأَن كلامه مخلوق ؛ فرحوا بهذه الطريقة التي سلكها ابن كلاب : كأَبي العباس القلانسي ؛ وأَبي الحسن الأَشعري ، والثقفي ؛ ومن تبعهم : كأَبي عبد الله بن مجاهد ، وأَصحابه ، والقاضي أَبي بكر ، وأَبي إسحاق الاسفرائيني ، وأَبي بكر بن فورك ، وغير هؤلاء .



صورة غلاف مخطوطة فهم القرآن



صورة الصفحة الأولى من مخطوطة فهم القرآن

الفهارس العامة

لكتاب (العقل وفهم القرآن)

فهرس المصادر والمراجع

١ ــ المحاسبي : الحارث بن أسد (١٦٥ ــ ٢٤٣هـ)

أ الرعاية لحقوق الله : تحقيق : د. عبد الحليم محمود . ط : دار الكتب الحديثة بمصر ١٩٦٦م .

ب المسائل في أعمال القلوب والجوارح والمكاسب والعقل : تحقيق عبد القادر أحمد عطا . ط : عالم الكتب بمصر ١٩٦٦م .

ج الوصايا أو النصائح : تحقيق عبد القادر عطا . ط : محمد علي صبيح بمصر ١٩٦٤ .

د رسالة المسترشدين : تحقيق : عبد الفتاح ابو غده . ط : حلب ١٩٦٤م .

هـ التوهم : بغير تحقيق : ط : مصر ، بلا تاريخ ، ونشرة أ.ج. آربري.

و آداب النفوس : (مخطوط) ــ جار الله .

ز الخلوة والتنقل في العبادة ودرجات العابدين ــ مجلة المشرق ١٩٥٥

القشيري : عبد الكريم بن هوازن (٣٧٦ – ٤٦٥هـ)

الرسالة القشيرية : تحقيق د. عبد الحليم ، محمود بن الشريف ، ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٦م .

السلمي : محمد بن الحسين (٣٢٥ – ٤١٢هـ)

طبقات الصوفية : تحقيق نور الدين شريبة . ط : الخانجي بالقاهرة ١٩٦٩م .

السراج الطوسي : ابو نصر عبدالله بن علي (– ٣٧٨هـ) .

اللمع في التصوف : تحقيق : د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور . دار الكتب الحديثة ١٩٦٠م .

الكلاباذي : أبو بكر محمد (– ٣٨٠هـ)

التعرف لمذهب اهل التصوف : تحقيق محمود امين النوادي . ط : مكتبة الكليات الازهرية ١٩٦٩م .

الاصفهاني ابو نعيم : احمد بن عبدالله (– ٤٣٠هـ)

حلية الأولياء : بغير تحقيق . ط : الخانجي والسعادة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢ م .

العطار : فريد الدين .

تذكرة الأولياء . ط : ليدن

ابو طالب المكي : محمد بن علي بن عطية (– ٣٥٨هـ)

قوت القلوب : بغير تحقيق . ط : مكتبة القاهرة ١٩٦٤ .

الغزالي : ابو حامد محمد بن محمد (٤٥٠ – ٥٠٥هـ)

أ إحياء علوم الدين : ط : لجنة نشر الثقافة الاسلامية بمصر ١٣٥٦هـ.

ب المنقذ من الضلال : تحقيق د. صليبا وعياد . ط : مكتب النشر العربي بدمشق ١٩٣٤م .

ج مشكاة الأنوار : تحقيق د. ابو العلا عفيفي . ط : الدار القومية بمصر ١٩٦٤م .

١٠ ــ ابن خلدون : عبد الرحمن (٧٣٢ ــ ٨٠٨هـ)

شفاء السائل بتهذيب المسائل : تحقيق اغناطيوس خليفة . ط : المطبعة الكاثوليكية ببيروت .

١١ ــ الشعراني : عبد الوهاب بن أحمد

الطبقات الكبرى : ط : محمد علي صبيح بالقاهرة ، بغير تاريخ .
(بهامشه كتاب الأنوار القدسية للشعراني)

١٢ ــ المناوي:

الكواكب الدرية . مطبعة الأزهر ١٩٣٨

١٣ ــ اليافعي المكي :

مرآة الجنان ــ تصوير ايران ١٩٦٥م .

١٤ ــ عفيفي : ابو العلا (ــ ١٣٨٥هـ)

التصوف : الثورة الروحية في الاسلام ، ط : دار المعارف ١٩٦٤م.

١٥ ــ محمود (د. عبد الحليم)

أ التفكير الفلسفي في الاسلام ، ط : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٨م.

ب الاسلام والعقل ، ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٦م .

١٦ ــ بدوي : عبد الرحمن :

أ السهروردي المقتول (هنري كوربان ، ضمن مجموعة مترجمة بعنوان: شخصيات قلقة) ط : دار النهضة ١٩٦٤م .

ب بحوث في المعتزلة (لكارلو نللينو ، ضمن مجموعة مترجمة بعنوان : التراث اليوناني) ط : دار النهضة ١٩٥٩م .

١٧ ـ النشار : علي سامي :

نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام (الجزء الاول والثالث) ط : دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٦ ، ١٩٦٩ .

١٨ ـ الخطيب البغدادي : ابو بكر أحمد بن علي (ـ ٤٦٣هـ)

تاريخ بغداد : ط : القاهرة ١٣٥٧هـ / ١٩٣٩م .

١٩ ـ الذهبي : الحافظ ابو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان (٦٧٣ ـ ٧٤٨هـ) .

أ ميزان الاعتدال في نقد الرجال : تحقيق علي محمد البجاوي . ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٣م .

ب العلو للعلي الغفار : ط : مصر ، على نفقة محمد نصيف ، بغير تاريخ .

جـ العبر في خبر من غبر : ط : وزارة الإرشاد بالكويت . ١٩٦ م .

د تذكرة الحفاظ . ط : الهند ١٣٧٧ هـ

هـ : تاريخ الاسلام . ط : القدسي ١٣٤٦هـ .

٢٠ ـ البلقيني : سراج الدين :

حاشية على الام للشافعي : ط : بولاق ١٣٢١هـ .

٢١ ـ السبكي : تاج ابو نصر عبد الوهاب بن علي (٧٢٧ ـ ٧٧١هـ)

طبقات الشافعية الكبرى ، تحقيق : محمود الطناحي ، عبد الفتاح الحلو . ط : دار إحياء الكتب العربية ١٩٦٤م .

٢٢ ـ المسعودي : ابو الحسن علي بن الحسين (ـ ٣٤٦هـ)

مروج الذهب ومعادن الجوهر : ط : المطبعة البهية المصرية سنة ١٣٤٦ هـ

٢٣ ــ العسقلاني : احمد بن علي بن حجر (ــ ٨٥٢هـ)

أ تهذيب التهذيب : ط : حيدر آباد الدكن بالهند **١٣٢٥**هـ ــ ١٣٣٧هـ .

ب لسان الميزان : ط : حيدر آباد الدكن بالهند **١٣٢٩**هـ .

حـ الإصابة في تمييز الصحابة ط : مصر .

٢٤ ــ ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن بن علي (٥١٠ ــ ٥٩٧هـ)

أ تلبيس إبليس : تعليق ونشر محمد منير الدمشقي . ط : الثانية ١٣٦٨هـ .

ب ذم الهوى : تحقيق د. مصطفى عبد الواحد . ط : دار الكتب الحديثة ١٩٦٢م .

جـ مناقب الامام أحمد بن حنبل ط : الخانجي ، القاهرة ، **١٣٤٩**هـ .

٢٥ ــ ابن الأثير : مجد الدين ابو السعادات المبارك بن محمد (٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ)

الكامل في التاريخ : ط : مصر ١٩٥٤م .

٢٦ ــ عمر بن الوردي :

تتمة المختصر ط : القاهرة ١٢٨٥ هـ .

٢٧ ــ ابن النديم : (ــ ٣٧٧هـ)

الفهرست : ط : المكتبة التجارية بالقاهرة ١٣٤٨هـ

٢٨ ــ ابن خلكان : (محمد بن أحمد)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان : تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط : الاولى ، القاهرة ١٣٦٧هـ .

٢٩ ـ ابن العماد : الحنبلي :
شذرات الذهب في أخبار من ذهب . ط : القدسي ، القاهرة ١٣٥٠هـ.

٣٠ ـ الدار قطني : علي بن عمر (ـ ٣٨٥هـ)
أخبار عمرو بن عبيـــد ، تحقيق د. يوسف فان إس ، ط : المطبعة الكاثوليكية ١٩٦٧ .

٣١ ـ البغدادي : عبد القاهر بن طاهر (ـ ٤٢٩ هـ)
أ أصول الدين ، ط : مطبعة الدولة باستانبول ١٩٢٨م .
ب الفرق بين الفرق تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، ط : محمد محمد علي صبيح ، بغير تاريخ .

٣٢ ـ الشهرستاني : الإمام محمد بن عبد الكريم (٤٧٩ ـ ٥٤٨هـ) .
الملل والنحل ، ط : محمد علي صبيح ، بغير تاريخ (على هامش الفصل لابن حزم) .

٣٣ ـ ابن تيمية : تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)
أ منهاج السنة النبوية : تحقيق د. محمد رشاد سالم ، ط : مكتبة خياط ببيروت ١٩٦٢م .
ب الرد على المنطقيين : تحقيق عبد الرحمن الوكيل ، ط : مطبعة السنة المحمدية ١٩٥٩م .
حـ الفرقان بين أولياء الرحمن واولياء الشيطان : تحقيق : ابو الوفاء محمد درويش ، ط : مطابع الرياض ١٩٥٦م .

٣٤ ـ الكندي : أبو يوسف يعقوب بن إسحق (١٨٥ ـ ٢٥٢ هـ)
الرسائل الفلسفية : تحقيق د. محمد عبد الهادي ابو ريده ، ط : دار الفكر العربي ١٩٥٠م .

٣٥ ــ ابن أبي الدنيا (ــ ٢٨١ هـ) .

العقل وفضله ، تحقيق وطبع عزت العطار الحسيني ١٣٦٥هـ ، ١٩٤٦م .

٣٦ ــ الايجي : عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد (ــ ٧٥٦ هـ)

المواقف العضدية (مع الشرح للشريف الجرجاني ــ ٨١٦) هـ ، ط : الساسي ١٣٢٥هـ .

٣٧ ــ النسفي : نجم الدين عمر (ــ ٥٧٣هـ)

العقائد النسفية (مع الشرح للتفتازاني ــ ٧٩١هـ) ط : المطبعة الأزهرية ١٣٣٢ هـ .

٣٨ ــ الإسفرايني : ابو المظفر (ــ ٤٧١ هـ)

التبصير في الدين : تحقيق الشيخ زاهد الكوثري ، ط : القاهرة ١٩٤٠م .

٣٩ ــ ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء (ــ ٧٧٤هـ)

تفسير القرآن العظيم : ط : دار إحياء الكتب العربية ١٣٦٧هـ ، ١٩٤٨م.

٤٠ ــ الرازي : فخر الدين ابو عبدالله محمد بن عمر (٥٤٤ ــ ٦٠٦هـ)

مفاتيح الغيب ، ط : المطبعة البهية بميدان الأزهر ، بغير تاريخ .

٤١ ــ القرطبي : أبو عبدالله محمد بن أحمد (ــ ٦٧١هـ)

الجامع لأحكام القرآن ، ط : دار الكاتب العربي بمصر ١٩٦٧م .

٤٢ ــ حقي : اسماعيل (ــ ١١٣٧هـ)

روح البيان ــ مطبعة الجامعة ــ استانبول ط ١٩٢٦

٤٣ ــ ابن جعفر : قدامة (ــ ٣٣٧هـ)

نقد النثر : تقديم د. طه حسين ، ط : مطبعة الاعتماد ١٩٤٨م.

٤٤ ــ ابن منظور :

لسان العرب : ط : بولاق

٤٥ ــ السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (٨٤٩ ــ ٩١١هـ)

الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة (على هامش الفتاوى الحديثية للهيثمي) ط : المطبعة الميمنية ١٣٠٧هـ .

٤٦ ــ أحمد امين (ــ ١٩٥٤م)

أ ضحى الاسلام ط . النهضة المصرية ١٩٦٢

ب ظهر الاسلام ط. النهضة المصرية ١٩٦٣.

٤٧ ــ شوقي ضيف

الفن ومذاهبه في النثر العربي : ط : النهضة المصرية ١٩٤٦م .

٤٨ ــ رئيف خوري

التعريف في الأدب العربي : الطبعة الاولى ، بيروت .

٤٩ ــ ابن رشد : ابو الوليد محمد بن أحمد (٥٢٠ ــ ٥٩٥ هـ)

مناهج الأدلة في عقائد الملة : تقديم وتحقيق د. محمود قاسم . ط : الانجلو المصرية ١٩٥٥م .

٥٠ ــ ابن حبان (محمد ــ ٣٥٤ هـ)

مشاهير علماء الأمصار . ط : القاهرة ١٣٧٩ هـ .

٥١ ــ الآمدي :

الإحكام . في أصول الأحكام . ط : القاهرة ١٣٨٧ هـ

٥٢ ــ أبو عبيدة معمر بن المثنى (ــ ٢١٠ هـ)
مجاز القرآن . تحقيق فؤاد سزكين . ط : القاهرة .

٥٣ ــ اللكنوي :
الرفع والتكميل . ط : حلب .

٥٤ ــ ابن قيم الجوزية :
المنار المنيف في الصحيح والضعيف : ط : حلب

٥٥ ــ علي القاري :
المصنوع في معرفة الحديث الموضوع .ط : حلب

٥٦ ــ المناوي :
الاتحافات السنية في الأحاديث القدسية : ط : بيروت ١٩٧١

٥٧ ــ ابن عبد البر :
الاستيعاب . ط : مصر ١٩٦٤.

٥٨ ــ ابن سعد (محمد ــ ٢٣٠ هـ)
الطبقات الكبرى ، ط : دار التحرير بمصر ١٩٦٧ ــ ١٩٧٠

٥٩ ــ الطبري (محمد بن جرير ــ ٣١٠ هـ)
تفسير الطبري . ط : دار المعارف بمصر

٦٠ ــ السيوطي (عبد الرحمن ــ ٩١١ هـ)
الإتقان . ط : مصر ١٣٧٥ هـ .

٦١ ــ أبو الفرج الأصفهاني (ــ ٣٥٦ هـ)
الأغاني : ط : دار الشعب ١٩٦٨ م

فهرس الأعلام

(أ)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

لم نذكر اسم المحاسبي لأنه يتكرر في كل صفحات الكتاب تقريباً .

(س)

(ش)

(ص)

(ض)

(ط)

(ع)

(غ)

(ن)

(ﻫ)

(و)

(ي)

فهرس الموضوعات